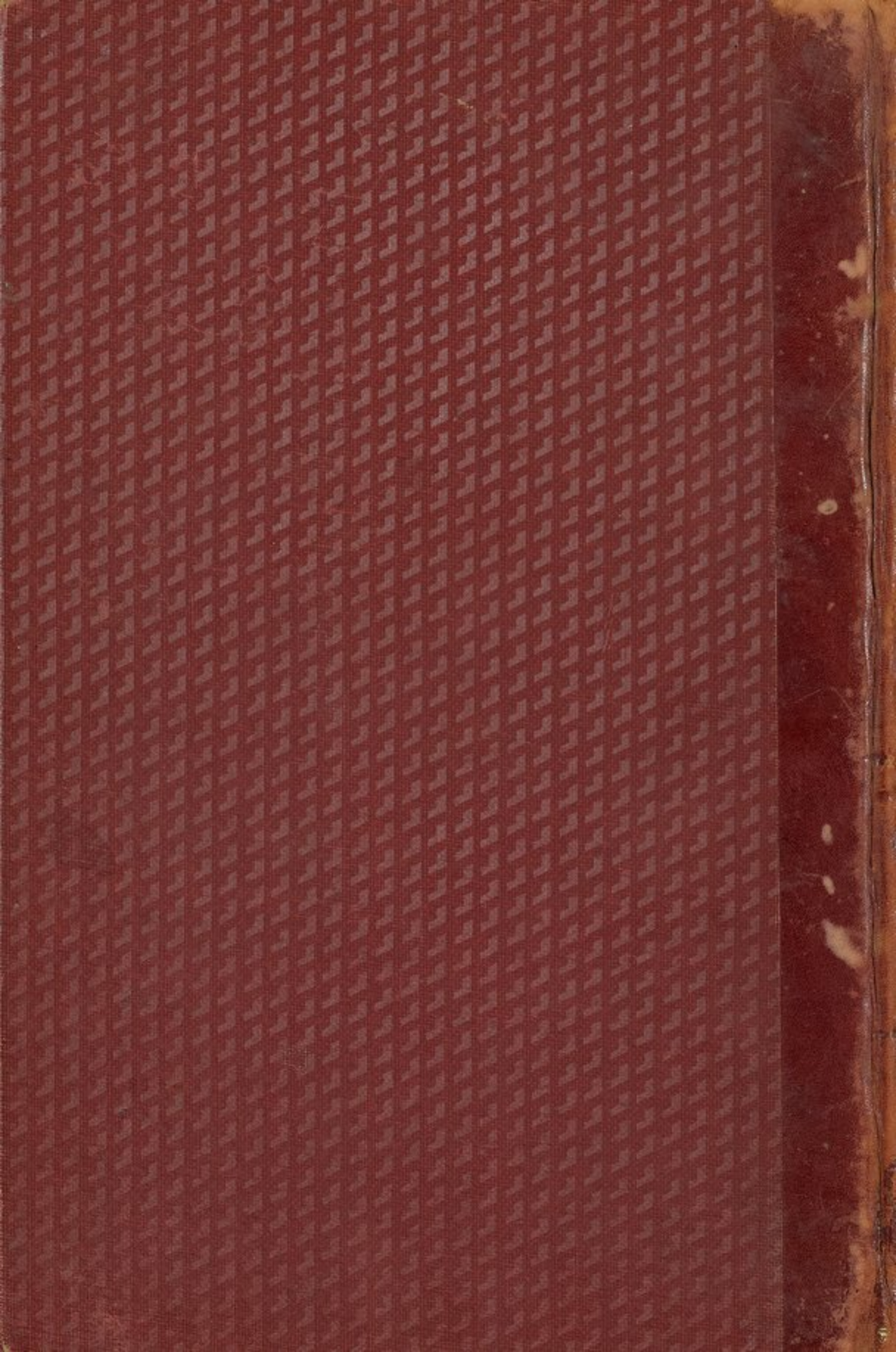
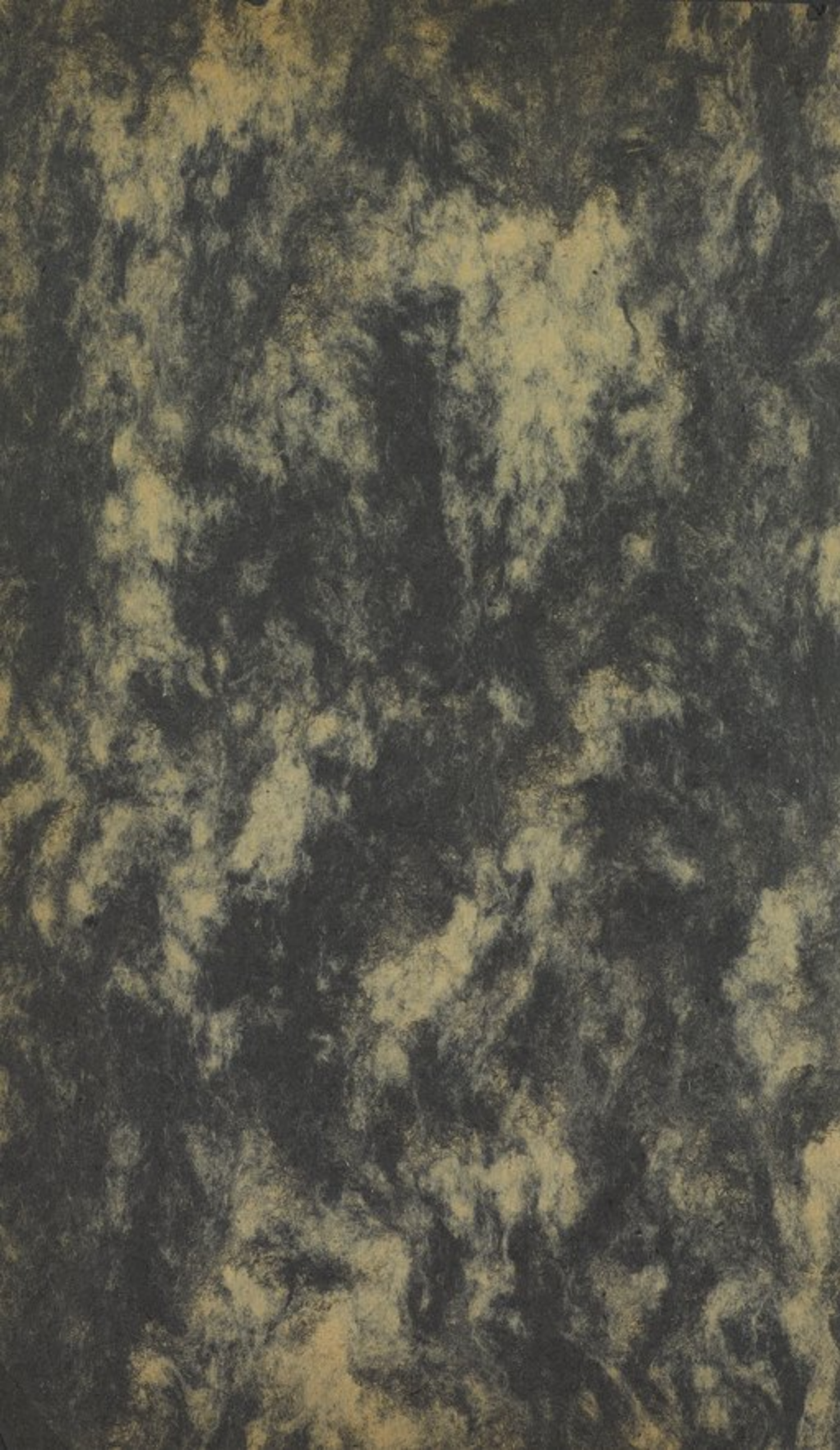




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ غُصْنِ الْأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني

المتوفى في عام ١٠٤١ من الهجرة

حقيقه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محي الدين عبد الحميد

الجزء السابع

893.7M32

03

v.7

الطبعة الأولى

v.7

في عام ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى ، بشارع محمد علي ، بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رُسُلِ الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

الباب الثاني

في نشأته ، وترقيه ووزارته وسعاده ، ومساعدة الدهر له ، ثم قلبه له ظهر العِجَنَّ على عادته في مصافاته ، ومنافاته ، وارتبأكه ، في شباككه ، ومالقي من إْحَنٍ^(١) الحاسد ، ذى المذهب الفاسد ، ومحن السكائد المستأسد وآفاته ، وذكر قصوره وأمواله ، وغير ذلك من أحواله في تقلباته ، عندما قابله الزمان بأهواله ، في بدئه وإعادته إلى وفاته .

أقول : كان مولد الوزير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله كما في الإحاطة في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعائة ، وقال الرئيس الأمير أبو الوليد بن الأحمر رحمه الله : نشأ لسان الدين بن الخطيب على حالة حسنة سالكا سبيل أسلافه ، فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله بن عبد المولى العواد تكتبا ، ثم حفظا ، ثم تجويدا ، ثم قرأ القرآن أيضا على أستاذ الجماعة أبي الحسن الفيحاطي ، وقرأ عليه العربية وهو أول من انتفع به ، وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جُزَى ، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الفخار البيري شيخ النحويين لعده ، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله ابن بكر ، وتآدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب ، ورَوَى عن كثير من الأعيان . وسرد ابن الأحمر المذكور هنا جملة أعلام من مشايخ لسان الدين سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى ، ثم قال : وأخذ الطب والتعليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا يحيى بن هُذَيْل ولازمه ، انتهى

وقال بعضهم في حق لسان الدين : هو الوزير العلامة المتحلى بأجل الشائلك وأفضل المناقب ، المتميز في الأندلس بأرفع المراق^(٢) وأعلى المراتب ، علم الأعلام ،

(١) الإْحَن : جمع إحنة — بكسر الهمزة فيهما — وهى الضغينة .

(٢) المراق : جمع مرقاة ، وأصلها السلم ونحوه مما يرقى به من سفلى إلى علو . وأريد بها درجات السكالك .

ورئيس أرباب السيوف والأقلام ، جامع أشقات الفضائل ، والمُرَبِّي بحسن سياسته وعظيم رياسته على الأواخر والأوائل ، حائز رتبة رياسة السيف والقلم ، والقائم بتدبير الملك على أرسخ قدم ، صاحب القلم الأعلى ، الوارد من البراعة المنهَّل الأُحلى ، صاحب الأحاديث التي لا تمل على كثرة ما تُتَلَّى ، والمحاسن التي صورها على منصة التنويه تجلى ، انتهى .

وقال لسان الدين في «الإحاطة» بعد ذكر سلفه رحمه الله تعالى ، ما مخصصه :
 وخلفني ، يعني أباه عبد الله ، على الدرجة ، شهير الخطه ، مشمولا بالقبول ، مكتنفا بالعناية ، فقلدني السلطان سره ، ولما يستكمل الشباب ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ورسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة إلى الملوك ، واستنابني بدار ملكه ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه ، واثمنني على صِوَانِ حضرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومقل امتناعه ، ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي ، وأعلى مجلسي ، وقصّر المشورة على نصحي ، إلى أن كانت عليه السكائنة ، فافتدى في أخوه المتغلب على الأمر به ، فسجل الاختصاص ، وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحاء من أهل أعوان ثورته على القبض على ، فكان ذلك ، وتقبض على ، ونكث ما أبرم من أمانى ، واعتقلت بحال ترفيه ، وبعد أن كبست المنازل والدور ، واستكثر من الحرس ، وختم على الأغلاق^(١) ، وأبرد إلى ما ناء^(٢) ، واستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربات الأمثال ، في تبحر الغلة ، وفراهة الحيوان ، وغبطة العقار ، ونظافة الآلات ، ورفعة الثياب ، واستجادة العدة ، ووفور الكتب إلى الآنية والفرش والماعون والزجاج والطيب والخيرة والمضارب والأبنية ، واكتسحت السائمة وثيران الحرث وظهْرَ الحِمْلَةِ^(٣) وقوام الفِلاحة والخليل ، فأخذ ذلك البيع ، وتناهبتها الأسواق ، وصاحبها البخس ، ورزأتها الخونة ، وشمل الخاصة

(١) الأغلاق : جمع غلق ، وهو ما يرتج به باب الدار ونحوها .

(٢) أبرد إلى : أراد أوصله ، وناء : أثقل كاهلي وبهظني .

(٣) ظهر الحِمْلَةِ : الدواب التي يحمل عليها .

والأقارب الطلب ، واستخلصت القرى ، وأعملت الحيل ، وطوقت الذنوب ، أمد الله تعالى بالعون ، وأنزل السكينة ، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى ، وتعلقت الآمال به وطبقت نكبة مصحفية^(١) مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت عند إقالة العثرة والخلاص من الهفوة :

تخلصت منها نكبة مصحفية لفقداني المنصور من آل عامر^(١)
ووصلت الشفاعة في مكتبة بخط ملك المغرب ، وجعل خلاصى شرطاً في العقدة ومسألة الدولة ، فانتقلت صحبة سلطانى المسكفور الحق إلى المغرب ، وبالغ ملكه فى برى منزلاً رحباً ، وعيشاً خفصاً ، وإقطاعاً جماً ، وجراية ماوراءها مرمى ، وجعلنى بمجلسه صدراً ، ثم أسعف قصدى فى تهيؤ الخلوة بمدينة سلاً منتهو الصكوك ، مهناً القرار ، متفقداً باللهما والخلع ، مُحَوِّلَ العقار ، موفور الحاشية ، مخلى بينى وبين إصلاح معادى ، إلى أن ردَّ الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبى عبد الله بن أمير المسلمين أبى الحجاج مُلكه ، وصير إليه حقه ، فطالبنى بوعده ضربته ، وعمل فى القُدوم عليه بولده أحكمته ، ولم يُوسعنى عذراً ، ولا فسح فى الترك مجالا ، فقدمت عليه بولده ، وقد ساء بإمساكه رهينة ضده ، ونغص مسرة الفتح بعده ، على كل حال من التقشف والزهد قىما بيده ، وعزف عن الطمع فى ملكه وزهد فى رفته ، حسبما قلت من بعض المقطوعات :

قالوا لخدمته دعاك محمد فأنتها وزهدت فى التتويه

فاجبتهم أنا والمهمين كاره فى خدمة المولى محب فيه

عاهدت الله تعالى على ذلك ، وشرحت صدرى للوفاء به ، وجنحت إلى الانفصال لبيت الله الحرام نشيدة أُملى ، ومَرَمَى نيتى وعلى ، فعلق بى ، وخرج لى عن الضرورة ، وأرانى أن موازرتة أبرُّ القُرب ، وراكنى إلى عهد بخطه فسح لعامين

(١) مصحفية : منسوبة إلى الحاجب جعفر بن محمد المصحفى ، وكان المستنصر قد استوزره ، ثم نكبه المنصور بن أبى عامر ، وقد مر خبره فى القسم الأول مكرراً

أمد الثواء^(١)، واقتدى بشعيب صلوات الله عليه في طلب الزيادة على تلك النسبة^(٢) ،
وأشهد مَنْ حضر من العلية ، ثم رعى إلى بعد ذلك بمقاليد رأيه ، وحكم عقله في
اختيارات عقله ، وغطى من جفائى بحمله ، وحثا في وجوه شهواته تراب زجرى ،
ووقف القبول على وعظى ، وصرف هواى فى التحول ثانيا وقصدى ، واعترف
بقبول نصحى ، فاستعنت الله تعالى ، وعاملت وجهه فيه ، من غير تلبس بجراية ،
ولا تثبت بولاية ، مقتصرًا على الكفاية ، حذرًا من النقد ، خامل المركب ، معتمدا
على النساء ، مستمتعا بخلق النعل ، راضيا بغير النبيه من الثوب ، مشفقا من موافقة
الغرور ، هاجر الزخرف ، صادعا بالحق فى أسواق الباطل ، كافا عن السخال برائن
السباع ، ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة بكر الحسنات بهذه
الخطية ، بل بالجزيرة ، فمأسلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان
وعفاف الحاشية والأمن ورؤم الثغور وتشمير الجباية وإنصاف الحماة والمقاتلة ومقارعة
الملوك المجاورة فى إثبات المصلحة الدينية والصدع فوق المنابر ضمنا من السلطان بترىاق
سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ما الله تعالى المجازى عليه ، والمعوض
من سهر خلعتة على أعطائه ، وخطر اقتحمته من أجله ، لا للثريد الأعفر ، ولا للجرد
تمرح فى الأرسان ، ولا للبدن ثقل للاكتاد ، فهو الذى لا يضيع عمل من عمل
ذكر أو أنى سبحانه وتعالى ، ومع ذلك فلم أعدم الاستهداف للشور ، والاستغراض
للمحذور ، والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون ، شيمة من ابتلاه الله تعالى
بسياسة الدهماء ، ورعاية سخطه أرزاق السماء ، وقتلة الأنبياء ، وعبدية الأهواء ،
من لا يجعل لله تعالى إرادة نافذة ، ولا مشيئة سابقة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يجمل
فى الطلب ، ولا يتلبس مع الله بأدب ، ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ،
والحال إلى هذا العهد - وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعائة - على ما ذكرته ،

(١) الثواء - بفتح التاء المثناة - الإقامة .

(٢) يشير إلى قصة شعيب وموسى عليهما السلام ، وقد زوج شعيب موسى

ابنته على أن يكون أجيره سبع سنين ، وقال له (فإن أتممت عشرا فمن عندك) .

أداله الله بحال السلامة ، وبفياة العافية ، والتمتع بالعبادة ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

وعلى أن أسعى وليس على إدراك النجاح

ولله سبحانه فينا علم غيب نحن صائرون إليه ، ألحفنا الله بلباس التقوى ، وختم لنا بالسعادة ، وجعلنا في الآخرة من الفائزين ، نفثت عن بث ، وتأوّهت عن حمى ، ليظهر بعد المنقلب قصدى ، ويدل مكتتبى على عقدى ، انتهى ، وجُله بلفظه .
وكان - رحمه الله تعالى ! - عارفا بأحوال الملوك ، سريع الجواب ، حاضر الذهن ، حادّ النادرة .

ومن حكاياته في حضور الجواب ما حكاه عن نفسه قال : حضرت يوما بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه لغرض الرسالة ، وجرى ذكر بعض أعدائه ، فقلت ما أعتقد في إطرأ ذلك العدو ، وما عرفته من فضله ، فأنكر على بعض الحاضرين ممن لا يحط إلا في حبل السلطان ، فصرفت وجهي وقلت : أيدكم الله ! تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء ، بل غير ذلك أحق وأولى ، فإن كان السلطان غالب عدوه كان قد غلب غير حقير ، وهو الأولى بفخره ، وجلالة قدره ، وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير^(١) ، فيكون أشدّ للحسرة ، وآكد للفضيحة ، فوافق - رحمه الله تعالى ! - على ذلك واستحسنه ، وشكر عليه ، وخجل المعارض ، انتهى .

وكان - رحمه الله تعالى ! - مبتلى بداء الأرق ، لا ينام من الليل إلا النزر اليسير جدا ، وقد قال في كتابه « الوصول ، لحفظ الصحة في الفصول » : العَجَبُ مني - مع تأليني لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب ، وعلى ذلك - لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي ، أو كما قال ، ولذا يقال له « ذو العُمَريْن » لأن الناس

(١) هذا المعنى كثير الورود في شعر العرب ، وفي كلام امرئ القيس :

فإنك لم يفخر عليك كيفآخر ضعيف ، ولم يغلبك مثل مغلب

ينامون في الليل وهو ساهر فيه ، ومؤلفاته ما كان يصنف غالبها إلا بالليل ، وقد سمعت بالمغرب بعض الرؤساء يقول : لسان الدين ذو الوزارتين ، وذو العمرين ، وذو الميقتين ، وذو القبرين ، انتهى . وسيأتى ما يعلم منه معنى الأخيرين .

السلطان
أبو الحجاج
يوسف بن
إسماعيل

وقد عرّف - رحمه الله تعالى ! - بالسلطان أبي الحجاج في « الإحاطة » فقال ما حاصله : يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، الأنصارى الخزرجى ، أمير المسلمين بالأندلس ، أبو الحجاج ، تولى الملك بعد أخيه بوادى السقائين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء ثالث عشر ذى الحجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعائة ، وسنه خمسة عشر عاما وثمانية أشهر ، أمه أم ولد ، وكان له ثلاثة أولاد كبيرهم محمد أمير المسلمين من بعده ، وتلوه أخوه إسماعيل محجوره ، وثالثهم قيس شقيق إسماعيل ، وذكر لسان الدين أنه وزّره بعد شيخه ابن الجياب ، وتولى كتابة سره مضافة إلى الوزارة في أخريات شوال عام تسعة وأربعين وسبعائة ، انتهى . وقد علم أنه وزر بعده لابنه محمد كما تقدم ويأتى ، وأما إسماعيل بن أبي الحجاج فهو الذى تغلب على الأمر ، وانهز الفرصة فى ملك أخيه محمد كما تقدم ، وفيه وفى أخيه قيس حين قتلا يقول لسان الدين :

* بإسماعيل ثم أخيه قيس * البيتين .

وقد ذكر أيضا - رحمه الله تعالى ! - حكاية وفاة السلطان أبى الحجاج ما يحصله أنه هجم عليه رجل من عداد الممرورين^(١) ، وهو فى الركعة الأخيرة من صلاة عيد الفطر عام خمسة وخمسين وسبعائة ، فطعنه بخنجر ، وقبض عليه ، واستفهم فتكلم بكلام مخلط ، واحتمل إلى منزله على فور ، ولم يستقر به إلا وقد قضى ، وأخرج قاتله إلى الناس فقتل لحينه ، وأحرق بالنار ، ودفن عشية اليوم المذكور

(١) يقال « هذا رجل ممرور » وهو الذى هاجت به المرة ، وهى خلط من أخلاط البدن .

في مقبرة قصره ، ضجيع والده ، وولى أمره ولدُه محمد ، ورثته في غرض ناء عن
الجزالة مختار ولده :

العمر نوم ، والمنى وأحلام	ماذا عسى أن يستمر مقام
وإذا تحققتا لشيء بدأة	فله بما تقضى العقول تمام
والنفس تجمع في مدى آمالها	ركضا ، وتأتى ذلك الأيام
من لم يصب في نفسه فصابه	بحبيبه ، نفذت بذا الأحكام
بعد الشيبه كبرة ، ووراءها	هرم ، ومن بعد الحياة حجام ^(١)
ولحكمة ما أشرفت شهب الدجى	وتعاقب الإصباح والإظلام
دنياك يا هذا محلة نقلة	ومُنَاخُ ركب ما لديه مقام
هذا أمير المسلمين ومن به	وجد السماح وأعدم الإعدام
سر الأمانة والخلافة يوسف	غيث الملوك وليثها الضرغام
قصده عادية الزمان فأقصدت	والعز سام والخميس ^(٢) لهام
فجعت به الدنيا وكدر شربها	وشكا العراق مصابه والشام
أسفاً على الخلق الجليل كأنما	بدر الدجنة قد جلاه تمام
أسفاً على العمر الجديد كأنه	زهو الحديقة زهره بسام
أسفاً على الخلق الرضى كأنه	زهر الرياض ههما عليه غمام
أسفاً على الوجه الذى مهما بدا	طاشت لنور جماله الأفهام
يا ناصر الثغر الغريب وأهله	والأرض ترجف والسماء قتام
يا صاحب الصدقات فى جنح الدجى	والناس فى فرش النعيم نيام
يا حافظ الحرم الذى يظلاله	ستر الأرامل واكتسى الأيتام
مولاي هل لك للقصور زيارة	بعد انتزاح الدار أو إلام

(١) الحمام — بكسر الحاء المهملة — الموت

(٢) الخميس : الجيش ، سمي بذلك لأنهم يقسمونه إلى خمس فرق : المقدمة ،

والمؤخرة ، والجناحان ، والقلب . ولهام — بضم لامه — أى كثير العدد

مولاي هل لك للعبيد تذكر
 يا واحد الآحاد والعلم الذي
 وافاك أمر الله حين تكاملت
 ورحلت عنا الركب خير خليفة
 نعم الطريق سلكت كان رفيقه
 وكسفت يا شمس المحاسن ضحوة
 وسقاك عيدُ الفطر كأسَ شهادة
 وختمت عمرُك بالصلاة فحبذا
 مولاي كم هذا الرقاد؟ إلى متى
 أعد التحية واحسبها قربة
 تبكي عليك مصانع شيدتها
 تبكي عليك مساجد عمرتها
 تبكي عليك خلائق أمنتها
 عاملت وجه الله فيما رُمته
 لو كنت تغدى أو تجار من الردى
 لو كنت تمنع بالصوارم والقنا
 لكنه أمر الإله، ومالنا
 والله قد كتب الفناء على الورى
 نعم في جوار الله مسروراً بما
 واعلم بأن سليل ملكك قد غدا
 ستر تكنف منه من خلفته

حاشاك أن ينسى لديك ذمام
 خَفَقَتْ بعزة نصره الأعلام
 فيك النُّهى والجود والإقدام
 أثنى عليك الله والإسلام
 والزاد فيه تهجد وصيام
 فالיום ليل ، والضياء ظلام
 فيها من الأجلِ الوحي مدام ^(١)
 عمل كريم سعيه وختام ^(٢)
 بين الصفائح والتراب تنام
 إن كان يمكنك الغداة كلام
 بيض كما تبكى الهديل حَمَام
 فالناس فيه ————— أسجد وقيام
 بالسلم وهي كأنهم ————— أنعام
 منها فلم يَبْعُدْ عليك مرام
 بذلت نفوس من لَدُنْكَ كرام
 ما كان ركنك بالغلاب يرام
 إلا رضاءً بالحكم واستسلام
 وقضاؤه جفت به الأفلام
 قدمت يوم تزلزل الأقدام
 في مستقر علاك وهو إمام
 ظل ظليل فهو ليس يضام

(١) الأجل الوحي : أراد به الموت السريع

(٢) أراد « كريم سعيه وختامه » فحذف المضاف إليه من الثانى لدلالة الأول

كنت الحسام وصرت في غمد الثرى ولنصر ملكك سُلَّ منه حسام
 خلفت أمة أحمد محمد فقضت بسعد الأمة الأحكام
 فهو الخليفة للورى في عهده ترى العهود وتوصل الأرحام
 أبقى رسومك كلها محفوظة لم ينتثر منها عليك نظام
 العدل والشيم الكريمة والتقى والدار والألقاب والخدام
 حسبي بأن أغشى ضريحك لائماً وأقول والدمع السفوح سيجام^(١)
 يامدفن التقوى يامثوى الهدى منى عليك تحية وسلام
 أخفيت من حزنى عليك، وفي الحشا نار لها بين الضلوع ضرام
 ولو أننى أدبت حقلك لم يكن لى بعد فقدك فى الوجود مقام
 وإذا القى أدى الذى فى وسعه وأنى يجهد ما عليه ملام

قال لسان الدين : وكتبت فى بعض معاهده

غبت فلا عين ولا مخبر ولا انتظار منك مرقوب
 يا يوسف أنت لنا يوسف وكلنا فى الحزن يعقوب

ورحم الله تعالى الجميع بمنه ! وقد قدمنا ما كتبه لسان الدين على لسان سلطانه
 إلى السلطان أبى عنان فى شأن قتل السلطان أبى الحجاج فى الباب الثامن من
 القسم الأول

وقال لسان الدين فى كتابه « الملحمة البدرية ، فى الدولة النصرية » فى
 ذكر ما يتعلق بخلع سلطانه وقيام أخيه عليه خلال ذلك ، مانصه : كان السلطان
 أبو عبد الله عند تصير الأمر إليه قد ألزم أخاه إسماعيل قصراً من قصور أبيه بجوار
 داره مرفهاً عليه ، متممة وظائفه له ، وأسكن معه أمه وأخواته منها ، وقد استأثرت
 يوم وفاة والده بمال جم من خزائنه السكائنة فى بيتها فوجدت السبيل إلى السعى
 لولدها فجعلت تواصل زيارة ابنتها التى عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبى

(١) السفوح : أراد الكثير الانصباب ، وسجام — بكسر السين — أحد
 مصدرى « سجم الدمع — من باب قعد — سجوماً ، وسجاماً » إذا سال

عبد الله بن الرئيس أبي الوليد بن الرئيس أبي عبد الله المبايع له بأندرش بن الرئيس أبي سعيد جدّهم الذي تجمعهم جرثومته ، وشمر الصهر المذكور عن ساعد عزمه وجده وهو على ما هو [عليه] من الإقدام ، ومداخلة ذؤبان الرجال ، واستعان بمن أسفته الدولة ، وهفت به الأَطَاع^(١) ، فتألف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متسنّمين شفى صعب المرتقى^(٢) ، واتخذوا آلة تدرك ذروته لعمود بنية كانت به عن التمام ، وكبسوا حرسيا بأعلاه بما افتضى صمائه ، فاستووا به ، ونزلوا إلى القلعة سحر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبعائة ، فاستظهروا بالمشاعل والصراخ ، وعالجوا دار الحاجب رضوان ، فمضوا أغلاقها ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده ، وانهبوا ما اشتمات عليه داره ، وأسمرت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الأمير المعتقل إسماعيل ، وأركبته ، وقرعت الطبول ، ونودي بدعوته ، وقد كان أخوه السلطان متحولاً بولده إلى سكنى اللجنة المنسوبة للعرى لصق داره ، وهى المثل المضروب فى الظل الممدود ، والماء المسكوب ، والنسيم البليل ، يفصل بينها وبين معقل الملك السور المنيع والخندق المصنوع ، فما رآه إلا النداء والعجيج وأصوات الطبول ، وهب إلى الدخول إلى القلعة فألقاها قد أخذت دونه شعابها كلها ونقابها ، وقذفته الحراب ، ورشقه السهام ، فرجع أدراجهُ ، وسدده الله تعالى فى محل الحيرة ، ودس له عرق الفحول من قومه ، فامتطى صهوة فرس كان مرتبطاً عنده ، وصار لوجهه فأعيا المتبع ، وصبح مدينة وادى آش ، ولم يشعر حافظ قصبته إلا به ، وقد توج عليها ، فالتفت به أهلها وأعطوه صفقتهم بالذب عنه ، فكان أملك بها ، وتجهزت الحشود إلى منازلته ، وقد جدد أخوه المتغاب على ملكه عقد السلم مع طائفة قشتالة باحتياجه إلى سلم المسلمين لجرأ فتنة بينه وبين البرجلونيين من أمته ، واغبط به أهل المدينة ،

(١) فى ب « وهفت به الأَطَاع » ولكل منهما وجه وجيه

(٢) متسنّمين : مرتفعين ، وشفى — بفتح الشين ، بزنة عصى — هو فى

الأصل حرف كل شىء ، وأراد جداراً أو نحوه

فَذَبُّوا عَنْهُ ، وَرَضُوا بِهَلَاكِ نِعْمَتِهِمْ دُونَهُ ، وَاسْتَمَرَّتِ الْحَالُ إِلَى يَوْمِ عِيدِ الْفَحْرَمِنْ
عَامِ التَّارِيخِ ، وَوَصَلَهُ رَسُولُ صَاحِبِ الْمَغْرِبِ مُسْتَنْزِلًا عَنْهَا وَمُسْتَدْعِيًا إِلَى حَضْرَتِهِ ،
لَمَّا عَجَزَ عَنْ إِمْسَاكِهَا ، وَرَاسَلَ مَلِكَ الرُّومِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ مِنْ مُعَوَّلٍ ، فَانْصَرَفَ ثَانِي
يَوْمَ عِيدِ الْفَحْرَمِنْ الْمَذْكُورِ ، وَتَبِعَهُ الْجَمْعُ الْوَافِرُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ خِيَلًا وَرَجُلًا إِلَى مَرَبَلَةٍ
مِنْ سَاحِلِ إِجَازَتِهِ ، وَكَانَ وَصُولُهُ إِلَى مَدِينَةِ فَاسٍ مَصْحُوبًا مِنَ الْبَرِّ وَالْكَرَامَةِ
بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ فِي السَّادِسِ مِنْ شَهْرِ مُحَرَّمٍ فَاتَّحَ عَامُ أَحَدٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَرَكِبَ
السُّلْطَانُ لِلْقَائِنَةِ ، وَنَزَلَ إِلَيْهِ عِنْدَ مَا سَلِمَ عَلَيْهِ ، وَبَالِغٍ فِي الْخَفَايَةِ بِهِ ، وَكَنْتُ قَدْ اخْلَقْتُ
بِهِ مُفْلَتًا مِنْ شَرِّكَ النِّكْبَةِ الَّتِي اسْتَأْصَلَتْ الْمَالَ ، وَأَوْهَمَتْ سُوءَ الْحَالِ ، بِشَفَاعَةِ
السُّلْطَانِ أَبِي سَالِمٍ قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ ، فَقَمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الْخُفْلِ الْمَشْهُودِ يَوْمِئِذٍ وَأَنْشَدْتُهُ :

سلاهل لديها من مخبرة ذكر	وهل أعشب الوادى ونمَّ به الزهر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوى	عفت آيها إلا التوهم والذكر ^(١)
بلادى التى عاطيت مشموله الهوى	بأ كفافها والعيش قينان مخضر
وجوى الذى رنى جناحى وكره	فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر
نبت بنى لا عن جفوة وملالة	ولا نسخ الوصل الهنى بها هجر
ولكنها الدنيا قليل متاعها	ولذاتها دأبا تزور وتزور
فمن لى بقرب العهد منها ودوننا	مدى طال حتى يومه عندنا شهر
ولله عينا من رآنا وللأسى	ضرام له فى كل جانحة جمر
وقد بددت درم الدموع يد النوى	وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على النهر الشروب عشية	فعاد أجاجا بعدنا ذلك النهر
أقول لأظعانى وقد غالها الشرى	وأنسها الحادى وأوحشها الزجر

(١) الوسمى : المطر أول الربيع ، وعفت : انمحت معالمها ودرست ، والآى :
جمع آية ، وهى العلامة ، وإنما رفع المستثنى وصدر الكلام موجب ، لأن « عفت »
فى معنى لم تبق على حالها ، فهو مما عومل فيه الإثبات معاملة النفى رعاية للمعنى

رويدك بعد العسر يسر أن أبشرى
 والله فينا سر غيب ، وربما
 وإن تخن الأيام لم تخن النهى
 وإن عركت مني الخطوب مجرباً
 فقد عجمت عوداً صليبا على الردى
 إذا أنت بالبيضاء قررت منزلى
 زجرنا بإبراهيم برء همومنا
 بمنتخب من آل يعقوب كلما
 تناقلت الركبان طيب حديثه
 ندى لو حواه البحر لذمذقه
 وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى
 أطاعته حتى العصم فى قنن الربا
 قصدناك ياخير الملوك على النوى
 كففنا بك الأيام عن غلوائها
 وعذنا بذلك المجد فانصرم الردى
 ولما أتينا البحر يرهب موجه
 خلافتك العظمى ومن لم يدن بها
 ووصفك يهدى المدح قصد صوابه
 دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت
 ومدت إلى الله الألف ضراعة
 وألبسها النعمى ببيعتك التى

بإنجاز وعد الله ، قد ذهب العسر
 أنى النفع من حال أريد بها الضر
 وإن يخذل الأفوام لم يخذل الصبر
 نقابا تساوى عنده الحلو والمر
 وعزماً كما تمضى المهنة البئر^(١)
 فلا اللحم حل ما حبيت ولا الظهر
 فلما رأينا وجهه صدق الزجر
 دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر
 فلما رأته صدق الخبر الخبر
 ولم يتعقب مدته أبدا جزر
 وترفل فى أنوابه الفتكة البكر
 وهشت إلى تأميلة الأنجم الزهر
 لتتصفنا مما جنى عبدك الدهر
 وقد رابنا منها التعسف والكبر
 ولذنا بذلك العزم فانهزم الذعر
 ذكرنا نذاك الغمر فاحتقر البحر
 فإيمانه لغو وعرفانه نكر
 إذا ضل فى أوصاف من دونك الشعر
 وقد طاب منها السر لله والجهر
 فقال لمن الله : قد قضى الأمر
 لها الطائر الميمون والمحتد الحر

(١) المهنة : السيوف ، اشتقوا لها من الهند اسمها لأنها كانت تجلب لهم من هناك ،
 والبئر : أراد جمع البائر ، وهو القاطع ، ولكن فعلا إنما يقاس جمعا لأفعل

فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكا
وأمنت بالسلم البلاد وأهلها
وقد كان مولانا أبوك مُصَرَّحا
وكنت حقيقاً بالخلافة بعده
وأوحشت من دار الخلافة هالة
فردَّ عليك الله حقك إذ قضى
وقاد إليك الملك رفقا بخلقه
وزادك بالتمحيص عزاً ورفعة
وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى
وأنت إذا جار الزمان محكم
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه
غريب يرجى منك ما أنت أهله
فقر يا أمير المسلمين ببيعة
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا
وخذ يا إمام الحق بالحق ثاره
وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم
فإن قيل مال مالك الدُّرُّ وافر
يُكفُّ بك العادى، ويحيى بك الهدى
أعده إلى أوطانه عنك راضيا
وعاجل قلوب الناس فيه بجزرها
وهم يرقبون الفعل منك وصفتة

وقد كان مما نابه ليس يَفْتَرُ^(١)
فلاظبة تَعْرِى ولا روعة تعرو
بأنك فى أبنائه الولد البر
على الفور، لكن كل شئ له قدر
أقامت زمانا لا يلوح بها البدر
بأن تشمل النعمى وينسدل الستر
وقد عدمواركن الإمامة واضطروا
وأجرا، ولولا السبك ما عرف التبر^(٢)
وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
لك النقض والإبرام والنهى والأمر
مهيض^(٣)، ومن شريكك يُلْتَمَسُ الجبر^(٤)
فإن كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر
موثقة قد حل عروتها الغدر
بيالمرين جاءه العز والنصر
ففى ضمن ما تأتى به العز والأجر
بحق فما زيد يرجى ولا عمرو
وإن قيل جيش عندك العسكر المجر
ويبني بك الإسلام ما هدم الكفر
وطوفة نماك التى مالها حصر
فقد صدم عنه التغلب والقهر
تحاولها يمتاك ما بعدها خسر

(١) تقول « افتر فلان » إذا بدت أسنانه مما يضحك ، ويكنى بها عن السرور .

(٢) التمهيص : أراد الابتلاء والاختبار (٣) تقول « جناح مهيض » تريد أنه

ضعيف ، وأصله قولهم « هاض فلان العظم » إذا كسره بعد ما انجبر

مَرَامُكَ سَهْلٌ لَا يُؤْذُكَ كَلْفَةٌ سَوَى عَرَضٍ مَا إِنْ لَهْ فِي الْعَلَاخَطُرِ
وما العمر إلا زينة مستعارة تَرُدُّ، وَلَكِنَّ الثَّنَاءَ هُوَ الْعَمَرُ
ومن باع ما يفنى بيبق مخلص فَقَدْ أَنْجَحَ الْمُسْعَى وَقَدْ رَجَحَ التَّجَرُ
ومن دون ما تبغيه يا ملك الهدى جِيَادُ الْمَذَاكِي وَالْحِجَلَةُ الْغَرُ
وَرَادَ وَشُقِرَ وَاضْحَاتِ شِيَاهَا فَأَجْسَامُهَا تَبَرُّ وَأَرْجُلُهَا دَرُ^(١)
وشُهِبَ إِذَا مَا ضُمِّرَتْ يَوْمَ غَارَةٍ مَطْهَمَةٌ غَارَتْ بِهَا الْأَنْجُمُ الزَّهَرُ
وَأَسَدُ رَجَالٍ مِنْ مَرَيْنٍ خَفِيفَةٍ عَمَامُهَا بَيْضٌ وَأَسَاطِلُهَا سَمَرُ
عليها من الماذي كل مُفَاضَةٍ تَدْفَعُ فِي أَعْطَانِهَا لِلْجَبَجِ الْخَضِرُ^(٢)
هم القوم إن هبوا لكشف ملة فَلَا الْمَلْتَقَى صَعْبٌ وَلَا الْمَرْتَقَى وَعَرُ
إِذَا سَأَلُوا أَعْطَوْا وَإِنْ نَوَزُوا سَطَوْا وَإِنْ وَاعَدُوا وَفَوُوا وَإِنْ عَاهَدُوا بَرَوْا
وإن مُدِحُوا اهْتَزُّوا رَتِيحًا كَأَنَّهُمْ نَشَاوَى تَمَشَّتْ فِي مَعَاطِفِهِمْ خَرُ
وإن سَمِعُوا الْعَوْرَاءَ فَرَوْا بِأَنْفُسِ حَرَامٌ عَلَى هَامَاتِهَا فِي الْوَعَى الْفَرُ
وتبسم ما بين الوشيج ثَنُورُهُمْ وَمَا بَيْنَ قُضْبِ الدَّوْحِ يَبْتَسِمُ الزَّهَرُ
أَمْوَالِي غَاضَتْ فِكْرَتِي، وَتَبَلَدَتْ طَبَاعِي، فَلَا طَبِيعَ يَمِينٍ وَلَا فِكْرَ
ولولا حنان منك داركتني به وَأَحْيَيْتَنِي لَمْ تَبْقَ عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ
فَأَوْجَدْتُ مَنِي فَاثِنًا أَيْ فَاثَةً وَأَنْشَرْتُ مَيَّنًا ضَمَّ أَشْلَاهُ قَبْرُ
بَدَأَتْ بِفَضْلِ لَمْ أَكُنْ لِعَظِيمِهِ بِأَهْلٍ، فَجَلَّ اللَّطْفُ وَانْفَرَجَ الصَّدْرُ
وَطَوَّقَتْنِي النِّعْمَى الْمَضَاعِفَةُ الَّتِي يَقْلُ عَلَيْهَا مَنِي الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ
وَأَنْتِ بَتِّيمِ الصَّنَائِعِ كَافِلِ إِلَى أَنْ يَعُودَ الْجَاهُ وَالْعِزُّ وَالْوَفَرُ
جَزَاكَ الَّذِي أَسْنَى مَقَامَكَ عَصَمَةً يُفَكُّ بِهَا عَانٍ وَيَنْعَشُ مَضْطَرُ
إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِمَدْحَةٍ فَهِيَ هَاتِ يَحْصِي الرَّمْلُ أَوْ يَحْصُرُ الْقَطْرُ

(١) الورد - بكسر الواو وفتح الراء - جمع ورد - بفتح فسكون - وهو
الفرس بين الأشقر والأسود ، وشقر : جمع أشقر ، وهو من الخيل الذي لونه الحمرة
(٢) الماذي ، هنا : كل سلاح من الحديد ، وأراد بالمفاضة الدرع .

ولكننا نأتى بما نستطيعه ومن بذل المجهود حق له العذر
فلا تسأل عن امتعاض وإنفاض^(١)، وسداد أنحاء فى التأثير لنا وأغراض ، والله
أغالب على مره .

وفى صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال عام اثنين وستين وسبعائة
كان انصرافه إلى الأندلس وقد ألحَّ صاحب قشتالة فى طلبه ، وترجىح الرأى على
قصده ، فبعد السلطان بقبة العرض من جنة المصارة ، وبرز الناس وقد أسمعهم الريح ،
واستحضرت البنود والطبول والآلة ، وأبس خلعة الملك ، وقيدت له مراكبه ، فاستقل ،
وقد التفَّ عليه كل من جلا عن الأندلس من لدُن الكائنة فى جملة كئيبة ، ورأى
من رقة الناس وإجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان
مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظلله الله برواق الرحمة ، وعطف عليه وشائج
الحبة ، إلى كونه مظلوم العمدة ، منتزع الحق ، فتبعته الخواطر ، وحميت عليه الأنفس ،
وانصرف لوجهته ، وهو الآن بُرُودة مستقل بها وبجهايتها ، ومقتنع برسم سلطنتها ،
وقد قام له برسم الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن على بن يوسف بن كاشة الحضرمى ،
وبكتابته الفقيه أبو عبد الله بن زَمْرَك ، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب
والتيقظ للأمر والمعرفة بوجوه المصالح مالا ينكر ، كان الله لنا وله بفضلُه ! انتهى
كلام لسان الدين بن الخطيب فى « اللوحة البدرية » .

وقد علمت أنه بعد هذا التاريخ عاد سلطانه إلى حضرة غرناطة ، واستبد
بملك الأندلس ، وعاد لسان الدين إليه حسبا أحسن سياق ذلك لسان الدين رحمه
الله تعالى فى كتاب من إنشائه على لسان سلطانه الغنى بالله ، وخاطب به ملك
الحرمين ومصر والشام السلطان المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون ، وقد ذكرنا
منه ما يتعلق بالأندلس فى الباب الثانى من القسم الأول ، وقال بعد ذلك فيما يتعلق
(١) فى ب « وانتعاض » وإنفاض : مصدر « أنقض فلان رأسه » إذا حركه
« كالمتعجب ، وفى القرآن الكريم : « فسينفضون إليك رؤوسهم » . وفى « اللوحة
البدرية » لسان الدين « وانتعاض »

بالخلع المذكور ما نصه : ولما صير الله إلينا تراثهم الهني ، وأمرهم السني ، وبناءهم
 العادي ، وملكهم الجهادي ، أجرانا - وله الطول - على سننهم ، ورفع أعلامنا
 في هضابهم المشرفة وقُفْنِهِمْ ، وحملنا فيهم خير حمل ، ونظم بنا لهم أي شمل ،
 وألبس أيامنا سلما فصح الدارة ، وأحكم الإدارة ، وهنأ الإمارة ، ومكن العماره ،
 وأمن في البحر والبر السيارة والعبارة ، لولا ما طرقهم فينا من تمحيص أجلى عن
 تخصيص ، وتمحّض تبره بعد تخليص ومرّام عويص ، نبشك بثّه ، ونوالى لديكم
 حثه ، ونجمع مُنْبَثّه ، فإن في الحوادث ذكرا ، ومعروف الدهر لا يؤمن أن يعود
 نُكْرًا ، وشر الوجود معاقبٌ بخيره ، والسعيد من اتعظ بغيره ، والحزم أفضل
 ما إليه ينتسب ، وعقل التجربة بالمرانة يكتسب ، وهو أن بعضا ممن ينسب إلينا
 بوشائج الأعراق ، لا بمكارم الأخلاق ، ويمتثل إلينا بالقرابة البعيدة ، لا بالنسبة
 السعيدة ، ممن كفلائه يتّيا ، وصنّاء ذميا شئما ، وبؤأناه مُبَوًّا كريما ، بعد أن
 نشأ حروفنا دميّا ، وملعونا لثيّا ، ونوّهنّاه من خموله بالولاية ، ونسخنا حكم نسجه
 بأية العناية ، داخل إخاء لنا كفا الزمناء الافتصار على قَصْره ، ولم نجعل أداة تدل
 على حَصْره ، وساحنّاه في كثير من أمره ، ولم نرتب بزَيْدِه ولا عَمْرُه ، واغتررنا
 برّماد علا على جَحْره ، فاستدعى له من الصعاليك شيعة ، كل دَرَبٍ بفك الأغلاق ،
 وتسرب أنفاق الففاق ، وخارق للإجماع والإصفاق ، وخبير بمكان الخراب ومذاهب
 المُسَاق ، وتسور بهم القلعة من ثم شرع في سدّه ، بعد هذه ، ولم تكمل الأقدار
 المميزة في ليلة آثرنا مبيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا ، واستندنا من يضطلع
 بأمورنا ، فاستتم الحيلة التي شرعها ، وافتحم القلعة وافتترعها ، وجدّل حَرَس النوبة
 وصرّعها ، وكبس محل النائب عنا وجدّله ، ولم ينشب أن جدّله ^(١) ، واستخرج
 الأخ البأس فنصبه ، وشدبه تاج الولاية وعصّبه ، وابتر أمرنا وغصبه ، وتوهم

(١) « جدله » في الفقرة الأولى فعل ماضٍ مقترن بضمير الغائب ، أي صرعه على
 الجدالة وهي الأرض ، و « جدله » الثانية فعل ماضٍ من الجد ولام الجر وضمير
 الغائب ، أي اجتهد له .

الناس أن الحادثة على ذاتنا قد تمت ، والدائرة بنا قد أملت ولقد همت ، فخذل
 الناصر ، وانقطعت الأواصر ، وأقدم المتقاصر ، واقتحمت الأبهاء والمقاصر ، وتفرقت
 الأجزاء وتمثلت العناصر ، وفقد من عين الأعيان النور الباصر ، فأعطوه طاعة
 معروفة ، وأصبحت الوجوه إليه مصروفة ، وركضنا وسرعان الخيل ثقفوا أثر
 منجائنا والظلام يخفيها ، وتسكني علينا السماء والله يكفيها ، إلى أن خلصنا إلى
 مدينة وادى آش خلوص القمر من السرار ، لا تملك إلا نفسا مُسلَّمة لحكم
 الأقدار ، ملقية لله مقادة الاختيار ، مسلوقة بموجب الاستقرار ، وناصنا أهل تلك
 المدينة فملوا على الحصار ، واستبصروا في الدفاع عنا أتم الاستبصار ، ورضوا البيوتهم
 المضجرة ، وبساتينهم المستبحرة ، بفساد الحديد وغيث النار ، ولم يرضوا لجوارهم
 بالإخفار ، ولا لنفوسهم بالعار ، إلى أن كان الخروج عن الوطن بعد خطوب تسبح
 فيها الأقلام سبحا طويلا ، وتوسعها الشجون شرحا وتأويلا ، وتلقى القصص منها
 على الآذان قولاً ثقيلا ، وجزنا البحر وضلوع موجة إشفاقا علينا تخنق ، وأكف
 رياحه حسرة تصفق ، ونزلنا من جناب سلطان بنى مرين على المنوى الذى رَحِبَ
 بنا ذرعُه ، ودل على كرم الأصول قرعُه ، والكريم الذى وهب فأجزل ، ونزل
 لنا عن الصهوة وتنزل ، وخير وحكم ، ورد على الدهر الذى تهكم ، واستمير وتبسم ،
 وآلى وأقسم ، وبَسَمَلٍ وقَدَم ، واستركب لنا واستخدم ، ولما بدا لمن وراء ناسيات
 ما كسبوا ، وحققوا ما حسبوا ، وطفأ الغناء ورَسَبوا ، ولم ينشب الشقى الخزى أن
 قتل البأس الذى موّه بزيفه ، وطوّقه بسيفه ، ودل ركب الخفاة على خيفه ،
 إذ آمن المضعوف من كيده ، وجعل ضرغامه بازيا لصيده^(١) ، واستقل على أريكته ،
 استقلال الظليم على تريكته ، حاسر الهامة ، متنفقا بالشجاعة والشهامة ، مستظهرا
 بأول الجمالة والجهامة ، وساءت في محاولة عدو الدين سيرته ، ولما حصحص الحق

(١) يشير بهذه الفقرة إلى قول أبى الطيب المتنبي :

ومن جعل الضرغام بازيا لصيده تصيده الضرغام فيمن تصيدا

انكشفت سريرته ، وارتابت لجنبه المستور جبرته ، وفتح عليه طاغية الروم فده ،
فالتقمه ، ومد عليه الصليب ذراعه ، فراعاه ، وشد السكفر عليه يده ، فما عضده الله
ولا أيده ، ونخرمت ثغور الإسلام بعد انتظامها ، وشكت إليه باهتظامها ، وغصت بأشلاء
عباد الله وعظامها ، ظهوراً أوضاعها ، ووكلت السنة والجماعة ، وانقطعت من النجج
الطَّمَاعَة ، واشتدت الجماعة ، وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة ،
وركبنا البحر تكاد جهته تتقارب تيسيرا ، ورياحه لا تعرف في غير وجهتنا مسيرا
وكان ماء ذوب لقي إكسيرا ، ونهضنا يتقدمنا الرعب ويتقدمنا الدعاء ، وتجاوى
بنا الإشارة ويخفرنا الاستدعاء ، وأقصر الطاغية عن البلاد بعد أن ترك ثغورها
مهمومة ، والإخافة عليها محتومة ، وطوابعها مفضوضة وكانت بنا مختومة ، وأخذت
الخائن الصبيحة فاختبل ، وظهر تهوُّره الذي عليه جُبيل ، فجمع أوباشه السَّفلة
وأوشابه ، وبهرَّجه الذي غش به الخض وشابه ، وعمد إلى الذخيرة التي صانتها
الأغلاق الحريزة ، والمعازل العزيزة ، فملأها المناطق ، واستوعب الصامت والناطق
والوشح والقراطق ، واحتمل عُدَدَ الحرب والزينة ، وخرج ليلا عن المدينة ،
واقتضت آراؤه القائلة ، ونعامته الشائلة^(١) ، ودَوَلَّةُ بغيه الزائلة ، أن يقصد طاغية
الروم بَقْصَهُ وقَضِيضَهُ ، وأَوْجِهَ وحضيضه ، وطويله وعريضه ، من غير عهد اقتضى
وثيقته ، ولا أمر عرف حقيقته ، إلا ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة ،
واستئصال الأمة المسلمة ، فلم يكن إلا أن نحصل في قبضته ، ودنا من مضجع
رَبَضَتِهِ ، واستشار نصحاءه في أمره ، وحكم الحيلة في جناية غدره ، وشهره ببلده ،
وتولى قتله بيده ، وألحق به جميع مَنْ أمدّه في غيه ، وظاهره على سوء سعيه ،
وبعث إلينا برؤسهم فنصبت بمسور غدرها ، ولدت لبة تلك البنية بشذرها ، وأصبحت
عبرة للمعتبرين ، وآية للمستبصرين ، وأحق الله الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين

(١) أخذه من قول سعد بن قرظ :

يا ليلى أمانا شالت نعامتها أيما إلى جنة أيما إلى نار

وعدنا إلى أريكة ملكنا كما رجع القمر إلى بيته ، بعد كيته وكيته ، أو العقد إلى جيده ، بعد انتشار فريده ، أو الطير إلى وكّره ، مُقلّتا من غَوْل الشرك ومكره ، ينظر الناس إلينا بعيون لم ترومذ غِبْنَا من مُحَيّا رحمة ، ولا طَشَّتْ عليها بعدنا غمامة رحمة ، ولا باتت للسياسة في ذِمّة ، ولا ركفت لدين ولا همه ، فطوينا بساط العتاب طى الكتاب ، وعاجلنا سطور المؤاخذه بالاضطراب ، وآسنا نفوسَ أولى الاقتراف^(١) بالاقتراب ، وسَهَّلنا الوصول إلينا ، واستغفرنا الله لنفسنا ولمن جنى علينا ، فلا تسألوا عما أثار ذلك من استدراك ندّم ، ورسوخ قدّم ، واستمتاع بوجود بعد عدم ، فسبحان الذى يُمَحِّص^(٢) ليثيب ، ويأمر بالدعاء ليجيب ، وينبه من الغفلة ويهيب ، ويحتجى إليه مَنْ يشاء ويهْدَى إليه من ينيب^(٣) ، ورأينا أن نطالع علومكم الشريفة بهذا الواقع تسبيبا للمفاتيح المعتمدة ، وتمهيدا للعوالة المجدّدة ، فأخبار الأقطار مما تنفقه الملوك على أسمارها ، وترَقُّمُ بديانته هالات أقمارها ، وتستفيد منه حسن السير ، والأمان من الغير ، وتستعين على الدهر بالتجارب ، وتستدل بالشاهد على الغائب ، وبلادكم ينبوعُ الخير وأهله ، ورواق الإسلام الذى يأوى قريبه وبعيده إلى ظله ، ومطلع نور الرسالة ، وأفق الرحمة المنشأة ، منه تقدم علينا الكواكب تضرب آباط أفلاكها ، وتتخلل مداريها المذهبة غدائر أحلاكها ، وتستعلى البدور ، ثم يدعوها إلى المغرب الحدور ، وتطلع الشمس متجردة من كأثم ليلاها ، متهادية فى دركات ميلها ، ثم تسحب إلى الغروب فضّل ذيلها ، ومن تلقائكم ورد العلم والعمل ، وأرعى الحمل ، فنحن نستوهب من مظان الإجابة لديكم دعاء يقوم لنا مقام المدد ، ويعدل منسه الشيء بالمال والعدد ، فى دعاء المؤمن بظَهَر الغيْب ما فيه مما ورد ، وإياه سبجانه نسال أن يدفع عنا وعنكم دواعى الفتن ، وغوائل المعن ، ويحملنا على سَنَنِ السَّنَنِ ،

(١) أولى الاقتراف : المذنبين الذين اقترفوا الذنوب وارتكبوا الجرائم

(٣) أناب إلى الله : رجع

(٢) يمحص : يبتلي ويختبر

ويلبسنا من تقواه أوقى الجُنَن^(١) ، وهو سبحانه يصل لأبوتكم ما تستقل لدى قاضى
القضاة رسومه ، فتكتب حقوقه وتكتب خصوصه ، ولا تكلفه الأيام ولا تسومه ،
بفضل الله وعزته ، وكرمه ومنته ، والسلام الكريم الطيب المبارك بدأ بعد عود ،
وجَوْدًا^(٢) إنرجود ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

وللسان الدين بن الخطيب رحمه الله عن ساطانه المذكور كتاب آخر فى هذه
الكائنة إلى كبير الموحدين أبى محمد عبد الله بن تفر اجين ، ولعلنا نذكره إن شاء
الله تعالى فى الباب الخامس من هذا القسم ، عند تعرضنا لبعض نثر لسان الدين
رحمه الله تعالى !.

وقد ساق هذه القضية قاضى القضاة الشهير الكبير ولى الدين عبد الرحمن
ابن خلدون الحزمى رحمه الله تعالى فى تاريخه الكبير فى ترجمة السلطان الشهير
أبى سالم ابن السلطان أبى الحسن المرينى صاحب المغرب مما نصه : انخبر عن خلع
ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان - لما هلك السلطان
أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبع مائة ونصب ابنه محمد الأمر واستبدَّ عليه
رضوان مولى أبيه ، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من
محبتة ، فلما عدلوا بالأمر عنه حَبَّجَوه ببعض قصورهم ، وكان له صهر من ابن عمه
محمد بن إسماعيل ابن ابن الرئيس أبى سعيد ، فكان يدعوهم سرا إلى القيام بأمره ،
حتى أمكنته فرصة فى الدولة بخروج السلطان إلى بعض منزهاته برياضه ، فصعد
سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين فى أو شاب جمَّعَهم من الطَّعام
لثورته ، واعد إلى دار الحجاب رضوان ، فافتحم عليه الدار وقتله بين حرمه وبناته
وقربوا إلى إسماعيل فرسه وركب ، فأدخلوه القصر وأعلنوا بيعته ، وقرعوا طبولهم
يسور الحمراء ، وفر السلطان من مكانه بمنزله ، فالحق بوادى آش ، وغدا الخاصة

رواية
ابن خلدون
فى خلع ابن
الأحمر

(١) الجنن : جمع جنة - بضم الجيم فى المفرد والجمع - وهى الوقاية

(٢) الجود - بفتح فسكون - المطر الغزير ، وقد يقع « الجود » وصفا فيقال
« أمطرتنا سماء جود » أى تجود بالمطر

والعامة على إسماعيل ، فبايعوه ، واستبد عليه هذا الرئيس ابن عمه فخلعه لأشهر من بيعته ، واستقل بسلطان الأندلس ، ولما لحق السلطان أبو عبد الله محمد بوادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان ، وانصل الخبر بالمولى السلطان أبي سالم ، امتعض لمهلك رضوان وخلع السلطان رعيًا لما سلف له في جوارهم ، وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدمه ، فوصل إلى الأندلس ، وعقد مع أهل الدولة على إجازة الخلويع من وادي آش إلى المغرب ، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله بن الخطيب كانوا اعتقالوه لأول أمرهم لما كان رديفا للحاجب رضوان وركنا لدولة الخلويع ، فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه ، فأطلقوه ، ولحق مع الرسول أبي القاسم الشريف بسلطانه الخلويع بوادي آش للإجازة إلى المغرب ، وأجاز لذي القعدة من سنته ، وأقدم على السلطان بفاس ، وأجلّ قدومه ، وركب للقائه ، ودخل به إلى مجلس ملكه ، وقد احتفل ترتيبه ، وغص بالمشيخة والعالية ، ووقف وزيره ابن الخطيب فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ، ويستحثة لمظاهرة على أمره ، واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ، ثم سرد ابن خلدون القصيدة ، وقد تقدمت .

ثم قال بعد ما صورته : ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى زُله^(١) ، وقد فرشت له القصور ، وقربت الحياض بالراكب الذهبية ، وبعث إليه بالسكسا الفاخرة ، ورتبت الجرايات له ولمواليه من العلوجى وبطانته من الصنائع ، وحفظ عليه رسم سلطانه فى الراكب والراجل ، ولم يقصد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدبا مع السلطان ، واستقر فى جهلته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس ، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين ما نحن نذكره ، انتهى المقصود جلّبه من كلام ابن خلدون فى هذه الواقعة ، وفيه بعض مخالفة لكلام لسان الدين السابق فى الملحّة البدرية ،

(١) النزول - بضم النون والزاي ، يزنه العنق - المكان المعد لإنزال الضيفان ، والنزول : الضيف ، وفى القرآن الكريم : (كانت لهم جنات الفردوس نزلا)

إذ قال فيها : إن الثورة عليهم كلفت ليلة ثمان وعشرين من رمضان ، وابن خلدون جعلها ليلة سبع وعشرين منه ، والخطب سهل ، وقال في «المحة» إن انصراف السلطان من وادي آش كان ثاني يوم النحر ، وقال ابن خلدون في ذى القعدة ، ولعله غلط من الكاتب حيث جعل مكان الحجة القعدة ، ورائية ابن الخطيب التي ذكرها هي من جُرَّ كلامه وُغِرَ شعره ، على أنه كاه غرر ، إذ جمع فيها المطلوب في ذلك الوقت بأبدع لفظ وأحسن عبارة في ذلك الحفل العظيم ، ولم نزل نسمع في المذاكرات بالمغرب أنه لما انتهى فيها إلى قوله * فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر * قال له بعض من حضر ولعله أراد الغض منه : أحسنت ياوزير فيما قلت ، وفي وصف الحال والسلطان ، غير أنه بقي عليك شيء ، وهو ذكر قرابة السلطان موالينا بنى مَرَيْن وهم من هم ، ولا ينبغي السكوت عنهم ، فارتجل ابن الخطيب حينئذ قوله « ومن دون ما تبغيه - إلى آخره » حتى تخلص لمُدح بن مَرَيْن أقارب السلطان بما لا مرمى وراءه ، ثم قال بعد ذلك معتذراً « أمولاي غاضت فكرتي - إلى آخره » وهذا إن صح أبلغ مما وقع لأبي تمام في سيدنته حيث قال « لا تنكروا ضربي له - البيتين »^(١) لأن أبا تمام ارتجل بيتين فقط ، ولسان الدين ارتجل تسعة عشر بيتاً ، مع ما هو عليه من الخروج عن الوطن وذهاب الجاه والمال ، فأين فأين الحال من الحال ؟

وقد كرر ابن خلدون رحمه الله تعالى في تاريخه قضية اعتقال لسان الدين وخلع سلطانه في موضع آخر ، واندكره وإن سبق بعضه لاشتماله على منشأ الوزير لسان الدين ، وجملة من أحواله إلى قريب من مهلكة فنقول : قال رحمه الله تعالى بعد ذكره عبدالله والد لسان الدين وأنه انتقل من لَوْشَة إلى غَرْ نَاطَة ، واستخدم للملوك

(١) يروى أن أبا تمام مدح ابن المعتصم بقوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أخف في ذكاء إياس

فقل له : ما زدت على أن شبهت الأمير بمن لا وزن له ، فقال علي البديهة :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شرودا في الندى والبأس

فأله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنباس

لابن خلدون
في نشأة لسان
الدين ونهايته

بني الأحمر ، واستعمل على مخازن الطعام ، ما يحصله : ونشأ ابنه محمد هذا ، يعنى
لسان الدين بن الخطيب بفرنطة ، وقرأ وتأدب على مشيختها ، واختص بصحبة
الحكيم المشهور يحيى بن هذيل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرز في الطب ،
وانتحل الأدب ، وأخذ عن أسيافه ، وامتلأ من حول اللسان نظمه ونثره ، مع
انتقاء الجيد منه ، ونبغ في الشعر والترسيل بحيث لا يجارى فيهما ، وامتح السطان
أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر عصره ، وملاً الدنيا بمدائحهم ، وانتشرت في
الآفاق ، فراه السطان إلى خدمته ، وأثبت في ديوان الكتاب ببابه رؤساً بأبي
الحسن ابن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية ، وكتب
السطان بفرنطة من لدن أيام محمد الخلع من سلفه عندما قتل وزيره محمد بن
الحكيم المستبد عليه ، فاستبد ابن الخطيب برئاسة الكتاب ببابه مشاة بالوزارة
ولقبه بها ، فاستقل بذلك ، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات
جيرانهم من ملوك العدو ، ثم داخله السطان في تولية العمال على يده بالمشارطات
فجمع له بها أموالاً ، وبلغ به في الخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله ، وسفر
عنه إلى السطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة معزيا بأبيه السطان أبي الحسن
فجلى في أغراض سفارته ، ثم هلك السطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبع مائة
عداً عليه بعض الزعانف في سجوده للصلاة ، وطعنه فأشواه ، وفاظ لوقته ،
وتعاورت سيوف الموالى للملوحى هذا القاتل ، فزقوه أشلاء ، وبويع ابنه محمد
لوقته ، وقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة
الأصاغر من ملوكهم ، واستبد بالدولة ، وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه ،
وجمل ابن الخطيب رديفاً لرضوان في أمره ، ومشاركاً في استبداده معه ، فجرت
الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى
السطان أبي عنان مستمدين منه على عدوهم الطاغية على عاداتهم مع سلفه ، فلما
قدم على السطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها

واستأذنه في إنشاد شعر قدمه بين يدي نجواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :
 خليفة الله ساعد القـــــدرُ علاك ما لاح في الدجى قمر
 ودافعت عنك كفُّ قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
 وجْهك في النائبات بدرُ دجى لنا وفي المحلِّ كفُّك المطر
 والناس طراً بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
 وجمـــــلة الأمر أنه وطن في غير عليـــــاك ماله وطر
 ومن به مذ وَصَلَتْ حبلهم ماجحدوا نعمة ولا كفروا
 وقد أحمـــــتهم بأنفسهم فوجهوني إليـــــك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات ، وأذن له في الجلوس ، وقال له قبل أن يجلس :
 ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان ، وردهم بجميع
 ما طلبوه ، وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف ، وكان معه في ذلك الوفد :
 لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا ، ومكثت دولتهم هذه
 بالأندلس خمس سنين ، ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان شركه في جده
 الرئيس أبي سعيد ، وتحين خروج السلطان إلى منزله خارج الحمراء ، وتسور
 دار الملك المعروفة بالحمراء ، وكبس رضوان في بيته فقتله ، ونصب للملك إسماعيل
 ابن السلطان أبي الحجاج بما كان صهره على شقيقته ، وكان معتقلا بالحمراء ،
 فأخرجه ، وبايع له ، وقام بأمره مستبداً عليه ، وأحس السلطان محمد بقرع
 الطبول وهو بالبستان ، فركب ناجيا إلى وادي آش ، وضبطها ، وبعث بالخبر إلى
 السلطان أبي سالم إثرما استولى على ملك آبائه بالمغرب ، وقد كان مشوا أيام أخيه
 أبي عنان عندهم بالأندلس ، واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب
 وضيق عليه في محبسه ، وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودة استحسنت
 أيام مقامه بالأندلس ، وكان غالبا على هوى السلطان أبي سالم ، فزين له استدعاء
 هذا السلطان الخلويع من وادي آش يعده زبونا على أهل الأندلس ، ويكف به

عادية القرابة الموشحين هنالك متى طمحووا إلى ملك المغرب ، فقبل ذلك منه ،
 وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه ، وبعث من أهل
 مجلسه الشريف أبا القاسم النعماني ، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب وحل
 معتقله ، فأطلق ، وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش ، وسار في ركاب
 سلطانه ، وقدموا على السلطان أبي سالم ، فاهتز لقدم ابن الأحمر ، وركب في
 الموكب لتلقيه ، وأجلسه إراء كرسيه ، وأنشد ابن الخطيب قصيدته يستصرخ
 السلطان انصرته ، فوعده ، وكان يوما مشهوداً ، ثم أكرم مَثْوَاهُ ، وأرغد نزلهُ ،
 ووفر أرزاقَ القادمين مع ركابه ، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والأفطاع ،
 ثم استأنس واستأذن السلطان في التجوال بجهاث مراكش والوقوف على أعمال
 الملك بها ، فأذن له ، وكتب إلى العمال بإتحافه ، فتباروا في ذلك ، وحصل منه
 على حظ ، وعند ما مر بسلاً إثر قُفْرله من سفره دخل مقبرة الملوك بشالة ، ووقف
 على قبر السلطان أبي الحسن ، وأنشد قصيدة على روى الراي يرثيه ويستجير به في
 استرجاع ضياعه بغير ناطة ، مطلعها :

إن بان منزله وشطَّتْ داره قامت مقامَ عيانه أخبارُهُ^(١)

قسم زمانك عبرة أو عبرة هذِي ثراه وهذه آثاره^(٢)

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة ، فشتموه ،
 واستقر هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة ، ثم عاد السلطان محمد الخلويع
 إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعائة ، وبعث عن مخلصه بفاس من
 الأهل والولد ، والناظم بالدولة يومئذ الوزير عمر بن عبد الله بن علي ، فاستقدم
 ابن الخطيب من سلا ، وبعثهم لنظره ، فسر السلطان لقدمه ، وردّه إلى منزلته

(١) إن بان منزله : بعد ، وشطَّتْ داره : بمعناه ، والعيان - بكسر العين - المعاينة والمشاهدة

(٢) العبرة - بكسر العين وسكون الباء - الاعتبار والانعاظ ، والعبرة - بفتح

العين وسكون الباء - الدفعة ، وفي ابن خلدون « عبرة أو عبرة »

كما كان مع رضوان كافله ، وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم قد لحق بالطاغية ملك النصارى فى ركاب أبيه عند ما أحس بالشر من الرئيس صاحب غرناطة ، وأجاز يحيى من هنالك إلى العدو ، وأقام عثمان بدار الحرب ، فصحب السلطان فى مئوى اغترابه هنالك ، وتقلب فى مذاهب خدمته ، وانحرفوا عن الطاغية عند ما يؤسوا من الفتح على يده ، فتحولوا عنه إلى تغور بلادهم ، وخطبوا الوزير عمر بن عبد الله فى أن يمكهم من بعض التغور الغربية التى لطاعتهم بالأندلس يرتقبون منها الفتح ، وخطبى السلطان الخلع فى ذلك ، وكانت بينى وبين عمر بن عبد الله ذمة مرعية ، وخاصة متأكدة ، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله ، وحملته على أن يرد عليه مدينة رندة إذ هى من تراث سلفه ، فقبل إشارتى فى ذلك ، وتسوغها السلطان الخلع ، ونزل بها ، وعثمان بن يحيى فى جملة ، وهو النقدم فى بطائه ، ثم غزوا منها مائة ، فكانت ركابا للفتح ، وملكها السلطان ، واستولى بعدها على دار ملكه بغرناطة ، وعثمان بن يحيى متقدم القدم فى الدولة ، عريق فى الخاضة ، وله على السلطان دلة واستبداد على هواه ، فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده ، وأعادته إلى مكانه فى الدولة من علو يده ، وقبل إشارته ، أدركته العيرة من عثمان ، ونكبر على السلطان الاستكفاء^(١) به ، وأراه التخوف من هؤلاء الأعياص على ملكه ، فحذره للسلطان ، وأخذ فى التدبير عليه ، حتى نكبه وأباه وإخوته فى رمضان سنة أربع وستين وسبعائه ، وأودعهم المطبق ، ثم غربهم بعد ذلك ، وخلا لابن الخطيب الجو ، وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلص بنيه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلفت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطابة السلطان وحاشيته ، فتمننوا فى السعيات

(١) نكر - بفتح النون وكسر السكاف - أنكر ، وفى التنزيل : (فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكروهم) والاستكفاء : طلب الكفاية به ، أو اعتباره كافيا لاه فى مهامه

فيه ، وقدمه السلطان عن قبولها ، ونمى الخبر بذلك إلى ابن الخطيب ، فشمّر عن ساعده في التفويض ، واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العدو يومئذ في القبض على ابن عمه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق ، كانوا قد نصبوه شيخا على الغزاة بالأندلس لما أجاز من العدو بعد ما جاس خلالها لطلب الملك ، وأضرّم بها نار الفتنة في كل ناحية ، وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله القائم حينئذ بدولة بني مرّين ، فاضطر إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماساي ، ونزلوا على السلطان الخلوّع أعوام سبعة وستين وسبعائة ، فأكرم نزلهم ، وتوفى على بن بدر الدين شيخ الغزاة ، فقدم عبد الرحمن مكانه ، وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد الله ، فغص بما فعله السلطان الخلوّع من ذلك ، وتوقع انتقاض أمره منهم ، ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسرّها في بني مرّين ، فجزع لذلك ، وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي وإراحة نفسه من شغبهم على أن يكون له المسكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابته إلى ذلك ، وكتب له العهد بخطه على يد سفيره إلى الأندلس ، وكانته أبي يحيى بن أبي مدين ، وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي يفلوسن وابن ماساي ، فقبض عليهما واعتقلهما ، وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية ، ور بما تخيل أن السلطان مال إلى قبولها ، وأنهم قد أحفظوه عليه ^(١) ، فأجمع التحوّل عن الأندلس إلى المغرب ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور ، وسار إليها في لمة ^(٢) من فرسانه ، وكان معه ابنه علي الذي كان خالصة للسلطان ، وذهب لطيّته ، فلما حاذى جبل الفتح فرّضة الجاز إلى العدو مال إليه ، وسرح إذنه بين

(١) أحفظوه عليه : أثاروا حفيظته ، والحفيظة - بفتح الحاء - الغضب ، فكأنه

قال : أغضبوه عليه (٢) لمة - بضم اللام وتشديد الميم - الفرقة والجماعة

يديه ، فخرج قائد الجبل لتلقيه ، وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك ، وجيز له الأسطول من حينه ، فأجاز إلى سبته ، وتلقاه ولاتها بأوع التكرمة وامثال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعائة بمقامه من تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه ، وأحله من مجلسه بمحل الأمن والغبطة ، ومن دولته بمكان التنويه والعزة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيرا إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ، ثم أكره المنافسون له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتدبير عثراته ، وإبداء ما كان كامنا في نفسه من سقطانه ، وإحصاء معاييه ، وشاع على السنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أخصوها عليه ونسبوها ، ورفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن بن الحسن ، فاسترعاها ، وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضي ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات ، وإمضاء حكم الله فيه ، فصم عن ذلك ، وأنف لذمته أن تحقر ، ولجواره أن يرد ، وقال لهم : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ، وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارى ، ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من أهل الأندلس في جملة ، فلما هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين وسبعائة ورجع بنومرين إلى المغرب وتركوا تلمسان سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة ، فنزل بفاس ، واستكثر من شراء الضياع ، وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنان ، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى ، واتصلت حاله على ذلك إلى أن كان ما نذكره ، انتهى .

وقال ابن خلدون في تاريخه ماصورته : كان محمد بن الأحمر الخلويع قد رجع من رُندة إلى ملكه بغرناطة في جمادى من سنة ثلاث وستين ، وقتل له الطاغية عدوه الرئيس المنتزى على ملكهم حين هرب من غرناطة إليه وفاء بمهد الخلويع ، واستوى

حديث ابن خلدون عن نهاية لسان الدين

على كرسية ، واستقل بملكه ، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب ، فاستخلصه^(١) ، وعقد له على وزارته ، وفوض إليه في القيام بملكه ، فاستولى عليه ، وملك هواه ، وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناء ، إلى أن نزلت به آفة في رياسته فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ، وكان لأبناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة من ولد عمهم السلطان أبي علي ، ويخشونهم على أمرهم ، ولما لحق الأمير عبد الرحمن ابن أبي يفلوسن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب ، واستخلصه^(٢) لنجواه ، ورفع في الدولة رتبته ، وأعلى منزلته ، وحمل السلطان على أن عقده على العزاة المجاهدين من زنائة مكان بنى عمه من الأعياص ، فكانت له آثار في الاضطلاع بها ، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه وكان ابن الخطيب ساعيا في مرضاته عند سلطانه ، فدس إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماساي ، وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره ، وحمل السلطان عليهما إلى أن سطا بهما ابن الأحمر ، واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز ، وتغير الجو بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب ، وأظلم ، وتنكر له ، فنزع عنه إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنة ثنتين وسبعين وسبعائة لما قدم من الوسائل ، ومهد من السوابق ، فقبله السلطان ، وأحله من مجلسه محل الاصطفاء والقرب ، وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فبعثهم إليه ، واستقر في جملة السلطان ، ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس ، وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ، ونمي ذلك^(٣) إلى ابن الأحمر ، فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلا انتقى فيها من متاع الأندلس وما عونها وبغالها الفارهة ومملوحي السبي وجواريه ، وأوفد بها رسلا يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه ، فأبى السلطان من ذلك ونكره ، ولما هلك السلطان

(١) استخلصه : جملة من خلاصانه ومن يركن إليهم ، وفي القرآن الكريم :
(اتقوني به استخلصه لنفسى) (٢) نمي ذلك إليه - بالبناء للدجھول - بلغه ،
وتقول « نمي فلان الحديث ينميه - مثل رمى يرمى » تريد أنه نقله

واستبدّ الوزير ابن غازي بالأمر تحييز إليه ابن الخطيب ، وداخله ، وخاطبه ابن الأحمر بمثل فيه ما خاطب السلطان عبد العزيز ، فليج واستنكف عن ذلك ، وأقبح الرد وانصرف رسوله إليه وقد رهب سطوته ، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن ابن أبي يفلوس^(١) وأركبه الأسطول ، وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماساي ، ونهض - يعنى ابن الأحمر - إلى جبل الفتح ، فنأزله بعساكره ، ونزل عبد الرحمن ببطوية .

ثم ذكر ابن خلدون كلاما كثيرا تركته لطوله ، وملخصه أن الوزير أبو بكر ابن غازي الذي كان تحييز إليه ابن الخطيب ولّى ابن عمه محمد بن عثمان مدينة سبتة خوفا عليها من ابن الأحمر ، ونهض هو - أعنى الوزير - إلى منازل عبد الرحمن ابن أبي يفلوس ببطوية إذ كانوا قد بايعوه ، فامتنع عليه ، وقتاله أياما ثم رجع إلى تازا ، ثم إلى فاس ، واستولى عبد الرحمن على تازا ، وبينما الوزير أبو بكر بفاس يدبر الرأي إذ وصله الخبر بأن ابن عمه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبي سالم ، وهو المعروف بنذى الدولتين ، وهذه هى دولته الأولى ، وذلك أن ابن عم الوزير وهو محمد بن عثمان لما تولى سبتة كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح ، وأخذ بمخنقه وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب ، فاستعجب له ، وقبح ما جاء به ابن عمه الوزير أبو بكر بن غازي من الاستغلاظ له فى شأن ابن الخطيب وغيره ، فوجد ابن الأحمر فى ذلك السبيل إلى غرضه ، وداخله فى البيعة لابن السلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرقبة ، وأن يقيمه للمسلمين سلطانا ولا يتركهم فوضى وهملات تحت ولاية الصبي الذى لم يبلغ ولا تصبح ولايته شرعا ، وهو السعيد بن أبي فارس الذى بايعه الوزير أبو بكر بن غازي بتلمسان حين مات أبوه واستبد عليه ، واختص ابن الأحمر أحمد بن أبي سالم

(١) يقع هذا الاسم فى ابن خلدون تارة « يفلوسن » بالنون ، وتارة أخرى

« يفلوس » بغير نون

من بين أولئك الأبناء لما سبق بينه وبين أبيه أبي سالم من الموات^(١) ، وكان ابن الأحمر اشتراط على محمد بن عثمان وحزبه شروطا : منها أن ينزلوا له عن جبل الفتح الذي هو محاصر له ، وأن يبعثوا إليه جميع أبناء الملوك من بنى مرين ؛ ليكونوا تحت حوطته ، وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا عليه ، فانهقد أمرهم على ذلك ، وتقبل محمد بن عثمان شروطه ، وركب من سبتة إلى طنجة ، واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله فبايعه ، وحمل الناس على طاعته ، واستقدم أهل سبتة للبيعة وكتابتها فقدموا وبايعوا ، وخطب أهل جبل الفتح فبايعوا ، وأفرج ابن الأحمر عنهم ، وبعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح ، وخطب أهله بالرجوع إلى طاعته ، فارتحل ابن الأحمر من مآقة إليه ، ودخله ، ومحا دولة بنى مرين مما وراء البحر ، وأهدى للسلطان أبي العباس وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس ، وحمل إليه مالا للإعانة على أمره ، ولما وصل الخبر بهذا كله إلى الوزير أبي بكر بن غازى قامت عليه القيامة ، وكان ابن عمه محمد بن عثمان كتب إليه يُعَمِّوه بأن هذا عن أمره ، فتبرأ من ذلك ، ولطف ابن عمه أن ينقض ذلك الأمر ، فاعتزل له بانقضاء البيعة لأبي العباس ، وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمه إلى مارامه منه^(٢) بلغه الخبر بأنه أشخص الأبناء للمعتقلين كلهم للأندلس ، وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر ، فوجم وأعرض عن ابن عمه ، ونهض إلى تازا لمحاصرة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ، فاهتبل في غيخته ابن عمه محمد بن عثمان ملك المغرب ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة نحو ستمائة ، وعسكر آخر من الغزاة ، وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمه السلطان أحمد ومظاهرة واجتماعهما على ملك فاس ، وعقد بينهما الاتفاق على أن يختص عبد الرحمن بملك

(١) الموات : جمع مائة ، وهي الأمر الذى يتوصل به ، تقول « مت فلان إلى

فلان بكذا » أى توسل إليه به ، ووقع فى ب « من المواتى »

(٢) رامه منه : طلبه

سلفه ، ففرضيا ، وزحف محمد بن عثمان وسلطاناه إلى فاس ، وبلغ الخبر إلى الوزير أبي بكر بمكانه من تازا ، فانفضَّ معسكره ، ورجع إلى فاس ، ونزل بكدية العرائس وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون ، فصمد إليه الوزير بعساكره ، فاختل مصافه ، ورجع على عقبه مغلولاً^(١) ، وانهب عسكره ، ودخل البلد الجديد ، وجأجأ بالعرب أولاد حسين فعسكروا بالزبتون ظاهر فاس ، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف ، وشردهم إلى الصحراء ، وشارف السلطان أبو العباس أحمد بجموعه من العرب وزناتة ، وبعثوا إلى ولي دولتهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصره الذى اختطه بملوية ، فبناءهم ، وأطلعوه على كامن أسرارهم ، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق ، فاجتمعوا بوادى النجا ، وتحالفوا ثم ارتحلوا إلى كدية العرائس فى ذى القعدة من سنة خمس وسبعين وبرز إليهم الوزير بعساكره ، فانهزمت جموعه ، وأحيط به ، وخلص إلى البلد الجديد بعد غص الريق ، واضطرب معسكر السلطان أبي العباس بكدية العرائس ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه ، وضربوا على البلد الجديد سياجا بالبناء للحصار ، وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب ، ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر ، فأحكموا الحصار ، وتحكموا فى ضياع الوزير ابن الخطيب بفاس ، فهدموها وعاثوا فيها ، ولما كان فاتح سنة ست وسبعين داخل محمد بن عثمان ابن عمه الوزير أبا بكر فى النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان ، لسكون الحصار قد اشتد به ويئس وأعجزه المال ، فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافى له عن أعمال مراکش بدل سبجلماسة ، ففقدوا له على كره ، وطوّوا على المسكر ، وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان ، وبايعه ، واقتضى عهده بالأمان وتخليه سبيله من الوزارة ، ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع الحرم ، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراکش ، واستولى عليها ، انتهى .

(١) فى ب « مغلولاً » بالغين المعجمة - تحريف

وقال حفيد السلطان ابن الأحمر في تاريخه ماصورته : لما لحق الرئيس أبو عبد الله ابن الخطيب بالمغرب عام اثنين وسبعين وسبعمائة ، وكان من وفاة مجيره والحامي عنه السلطان عبد العزيز ما ألعنا بذكره شدّ الوزير أبو بكر بن غازي يده على ابن الخطيب بانيا على أشد الأشياء ألا يُسلمه لمولانا جدنا مع توقع البغضاء ، واقتدى هذا الوزير بالسلطان عبد العزيز في إعراضه عن العقود الموجهة من الأندلس بالتدّرع من موبقات ابن الخطيب ، ولج في الغلواء ، وسجل موجبات الوفاء ، والبواعث من مولانا جدنا تتزايد ، والأساطيل تتجهز ، والآراء بالقصد الخطيو يفتقى منها الصواب ويتخير ، حتى خيم مولانا جدنا بظاهر جبل الفتح ، وكان إذ ذاك راجعا إلى إيالة المغرب ، فأناخ عليه كل كل الجيش ، وأهمهم ثقل الوطأة ولم يبال مولانا جدنا بما أرسلت آناء الليل وأطراف النهار من شآبيب الأنفاط ، والجوار^(١) من باب الشطائين قريب ، والخالصة من الثقات مستريب ، والنجاة من تلك الأهوال من الأمر الغريب ، ولم يبق بقرة ناطة من له خلوص ، ولا من تترامى به همة إلا وأعمل السير الحثيث^(٢) ولحق بمولانا جدنا لحاق الحب بالحبيب ، حتى أهل العلم ، والرجاحة والحلم ، ولا كالسيد الإمام الأستاذ أبي سعيد قطب الجلمة ، وعميد اللمة ، وهو الذي بلغنا نظمه في هذه الوجهة ، وعندما ألقى عصا التسيار في الجلمة القريبة من أولى العداوة ، ومن ذلك قصيدته المشهورة التي أولها :

أيا جبَلِ الفتح استمَلت نفوسنا فلا قلب إلا نحو مَغْنَاكَ قد سبق

فأرسلت إذ جئناك فينا صواعقا تخال بها جوّ السماء قد انطبق

وقوله في إجابة السفهاء من الهاتفين بالسور موطئا معجبا رحمة الله تعالى عليه :

وذمّوا وما يعنوت إلا مذمما وأنت - بحمد الله - تدعى محمدا

(١) الجوار - بضم الجيم - رفع الصوت (٢) السير الحثيث - السريع

وقول حامل اللواء الآتي ذكره في تضاعيف الأسماء :

أَمَّا مَرَامُكَ فِي عِرَاضِ الْبِيدِ فمَبْلَغٌ مَا شِئْتُ مِنْ مَقْصُودٍ^(١)
وَالهَجْرُ إِنْ أَلْفَتْهُ أَسْنَةُ الْعَدَا يَا بَاهُ فَضْلُ مَقَامِكَ الْحَمُودِ
سَحَقْلَهُمْ سَفَهَاءُ كُلِّ قَبِيلَةٍ شَذَتْ مَقَاتِلُهُمْ عَنِ الْمَعُودِ
قَدْ ضَلَّتْ الْأَحْلَامُ مِنْهُمْ رَشْدَهَا هَذَا ، وَمَنْكَ الْحِلْمُ غَيْرَ بَعِيدِ
مَعَ عَزْمَةٍ لَوْ شِئْتُ هَدَيْتُ كُلَّ مَا قَدْ أَحْكَمُوا مِنْ مَعْلَمٍ وَمَشِيدِ

إلى أن قال : انخبر عن اجتماع الأميرين أبي العباس وأبي زيد متصاحبين ومتراغبين على استخلاص مدينة فاس من يد الوزير أبي بكر بن غازي بن الكاس ، وكتب الرئيس أبو عبد الله بن زَمْرُك في ملخص^(٢) هذه الكائنة حث الوزير محمد بن عثمان السير في وسط عام خمسة وسبعين وسبعائة ، وتلاقى بسلطانه أبي العباس مع الأمير أبي زيد عبد الرحمن ، واستقلا بالطائفة ، وحصلا من التضييق على السعيد الطفل الصغير وعلى وزيره أبي بكر بن غازي في متسع الخطوة ورحيب ذرع الخلافة ، وتصالحا عن رضا وتسليم منهما ومن أشياءهما على تسليم السعيد إلى اللحاق بمن كان في طنجة من الأمراء ، واتصل السلطان عبد الرحمن بمراكش ، فكان ملكها ، وجابى أموالها ، وتملك السلطان أبو العباس مدينة فاس وما إلى البلاد الساحلة وسواها مما يحتوى عليه ملك المدينة البيضاء برا وبحرا

وعبر كاتب الدولة عن المدينة وعن الطفل متمسكها بقوله : وإلى هذا فقد ارتفع الالتباس ، واطرد القياس ، وغير خفي عن ذي عقل سليم ، وذو تفويض للحق وتسليم ، أن دار الملك المريني كرامة بلا زهر ، ورياض بلا نهر ، إن لم يقتعد كرميها ، من يزين جيدها ويحيد حليها ، وأن أوان البشرية إن يتمتع للدين ، والآل قلادة التقوى منوطة

(١) البید — بكسر الباء — جمع بیداء ، وهى الصحراء ، وعراضها : الواسعة منها

(٢) فى ب « مخلص »

بقلم أعلام الملوك المهتدين ، ثم ذكر ما يطول من فصول ، وربما اشتملت على فصول ، وما خصه مثل ما ذكر ابن خلدون .

ثم ساق قاضي القضاة ابن خلدون - بعد ما تقدم حمله من تاريخه - السلام على محنة لسان الدين بن الخطيب ووفاته مقتولا رحمه الله تعالى فقال ماصورته^(١) :
ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين استقل بسلطانه ، والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه ، وسليمان بن داود بن اعراب كبير بنى عسكر رديفه ، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر - عند ما بويع بطنجة - على نكبة الوزير ابن الخطيب وإسلامه إليه ، لما نعى إليه عنه أنه كان يغرى السلطان عبد العزيز بملك الأندلس ، فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقيه أبو بكر بن غازي بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان ، ولازمه بالحصار ، أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفا على نفسه فلما استولى السلطان على البلد أقام أياما ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض على ابن الخطيب ، فقبضوا عليه ، وأودعوه السجن ، وطأروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر ، وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس متى أعاده الله تعالى إلى ملكه ، فلما استقر إليه سلطانه أجاز إليه سليمان سفيرا عن الوزير عمر بن عبد الله ومقتضيا عهده من السلطان ، فصدده الوزير ابن الخطيب عن ذلك ، محتجا بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياص^(٢) الملك من بني عبد الحق ، لأنهم يعسوب زناثة ، فرجع سليمان ، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب ، ثم جاوز الأندلس لحل إمارته من جبل الفتح فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفث كل واحد منهما لصاحبه بما يحفظه مما كمن في صدورهما^(٣) ، وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله

(١) في بعض ما هنا مخالفة لما جاء في تاريخ ابن خلدون (٣٤١/٧)

(٢) في «لأعياض» بالضاد معجمة (٣) يحفظه : يفضيه ، وكمن : استتر وخفي

ابن زَمْرَك ، فقدم على السلطان أبي العباس ، وأحضر ابن الخطيب بالمشور في مجلس الخاصة ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في الحجة ، فعظم النكير فيها ، فوبخ ونكل وامتنحن بالعذاب بمشهد ذلك الملاء ، ثم نقل إلى محبسه ، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه ، ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلا ، ومعهم زعافنة جاؤا في لقيف الخدم مع سُفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقا في محبسه ، وأخرج شلوه من الغد ، فدفن بمقبرة باب المحروق ، ثم أصبح من الغد على سافة قبره طريقا ، وقد بُجعت له أعواد ، وأضرمت عليه نار ، فاحترق شعره ، واسودَّ بشره ، فأعيد إلى حفرتة ، وكان في ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سامان ، واعتدوا بها من هَنَآنه ، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفاعل لما يريد .

وكان - عفا الله تعالى عنه ! - أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فُتْجِهَشْ هوَاتِفُه بالشعر يبكي نفسه ، ومما قال في ذلك رحمه الله تعالى :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صُمُوتٌ
وأنافسنا سكنت دفعة كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما وكنا نقوت فما نحن قوت ^(١)
وكنا شمس سماء العُلا غر بنا فناحت علينا السموت ^(٢)
فكم جدات ذا الحسام الظبا وذو البخت كم جدَّ لته البخوت ^(٣)
وكم سيق للقبر في خرقة فتي ملئت من كُساه الثخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفات ، ومن ذا الذي لا يفوت
ومن كان يفرح منهم له فقل : يفرح اليوم من لا يموت

(١) عظاما الأولى : جمع عظيم ، وعظاما الثانية : جمع عظم

(٢) عجز هذا البيت في ابن خلدون * عزيز فناحت عليها البيوت * محرف

(٣) في ابن خلدون « فكم جزلت ذا الحسام » وفيه « وذو البخت . الثخوت »

أبيات قالها
لسان الدين
وهو في السجن

انتهى كلام ابن خلدون في « ديوان العبر ».

وقال الحافظ ابن حجر في « أنباء الغمر » بعد أن ذكر ما قدمناه على سبيل الاختصار، مانصه : واشتهر أنه - يعني لسان الدين - نظم حين قُدِّمَ للقتل الأبيات المشهورة التي يقول فيها :

وقل للعداة مضى ابن الخطيب وفات فسبحان من لا يفوت^(١)

فمن كان يشمت منكم به فقل : يشمت اليوم من لا يموت

والصحيح في ذلك ما ذكره صديقه شيخنا ولي الدين ابن خلدون أنه نظم الأبيات المذكورة وهو في السجن ، لما كان يستشعر من التشديد ، انتهى .

ثم حكى ابن حجر عن بعض الأعيان أن ابن الأحمر وجَّهه إلى ملك الإفرنج في رسالة ، فلما أراد الرجوع أخرج له رسالة لابن الخطيب تشتمل على نظم ونثر ، فلما قرأها قال له : مثل هذا كان ينبغي أن لا يقتل ، ثم بكى حتى بل ثيابه ، انتهى كلام الحافظ ، وبعضه بالمعنى .

فانظر - سددك الله تعالى! - بكاء العدو الكافر على هذا العلامة ، وقتل إخوانه في الإسلام له على حظ نفساني ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، لا رب غيره .

قلت : ورأيت بحضرة فاس - حاطها الله تعالى! - تحميسا لهذه الأبيات بديعا منسوبا إلى بعض بني الصباغ ، وزاد في الأصل بعض أبيات على ما ذكره ابن خلدون من هذه القطعة ، والمزید يشبه نفس لسان الدين بن الخطيب ، ففعل ابن خلدون اختصر منها ، أو لم يقف على الزائد ، ولتثبت جملته تكميلا للعقود ، فنقول : قال رحمه الله تعالى :

(١) العداء - بضم العين - جمع عاد بمعنى العدو ، بوزن قاض وقضاء وغاز وغزاة ، ولا يكون جمع عدو (٢) في ب « مثل هذا كان ينبغي أن يقتل » ولا يصح معه المعنى

تخميس أبيات
لسان الدين

أيا جاهلا غره ما يفوت وألهاه حال قليل الثبوت
تأمل لمن بعد أنس يقوت بُعدنا وإن جاورتنا البيوت^(١)

وجئنا بوعظ ونحن صموت

لقد نلت من دهرنا رفعة تقضت كبرق مضى سرعة
فهيها نرجو لها رجعة وأصواتنا سكنت دفعة

كجهر الصلاة تلاه القنوت

بدالى من العز وجه شباب يُؤمل سني وبأسى يهاب^(٢)
فسرعان مزق ذاك الإهاب ومدت وقد أنكرتنا الثياب

علينا نساجهما العنكبوت

فأها لعز تقضى مناما منحنا به الجاه قوما كراما
وكنا نسوس أمورا عظاما وكنا عظاما فصرنا عظاما

وكنا نقوت فيها نحن قوت

وكنا لدى الملك حلى الطلى فأها عليه زمانا خلا
نعوض من جدّة باليلى وكنا شمس سماء العلّا

غر بنا فناحت علينا السموت

تعودت بالرغم صرف الليالى وحملت نفسى فوق احتمالى
وأيقنت أن سوف يأتى ارتحالى ومن كان منتظرا للزوال

فكيف يؤمل منه الثبوت

هو الموت يا ماله من نبا يجوز الحجاب إلى من أبى
ويألف أخذ سني الحبّا فكم أسلمت ذا الحسام الظبا

وذا البخت كم جدّله البخوت

(١) كذا فى ب ، ولعله « تأمل لمن بعد أنس يفوت » أو « بعد أنس يموت »

(٢) السيب - بفتح السين وسكون الياء - العطاء .

هو الموت أفصحَ عن مجمة وأيقظ بالوعظ من خفقة

وسلَّى عَنِ الحزن ذا حرقة وكَم سيق للقبْر في خرقة

فتى ملئت من كسَاه التخوت

تقضى زمانى بعيش خصيب وعندى لذنى انكسار المنيب

وها الموت قد صبت منه نصيبى فقل للعدا ذَهَبَ ابنُ الخطيب

وفات ومن ذا الذى لا يفوت

مضى ابن الخطيب كمن قبله ومن بعده يقتفى سُبُلَه

وهذا الردى نائر شَمَلَه فمن كان يفرح منهم له

فقل : يفرح اليوم من لا يموت

هو الموت عم فما للعدا يُسرُّونِ بى حين ذقت الردى

ومن فاتَه اليوم يأتى غدا سبيلى الجديد إذا ما المدى

تتابع آحادُه والشُّبوت

أخىَّ تَوخَّ طريق النجاة وقدم لنفسك قبل المات

وشمر بجدِّ لما هَوَّات ولا تغترر بسراب الحياة

فإنك عما قريب تموت

وقد ذكرنى قوله رحمه الله تعالى « فمن كان يفرح منهم له - إلى آخره » قول بعض

العلماء الشاميين :

يا ضاحكا بمن استقلَّ غباره سيثور عن قدميك ذاك العثير^(١)

لا فارس يجنودها منعتْ حى كسرى ، ولا لاروم خُلد قيصر

جدد مضت عادٌ عليه وجُرهم وتلاه كهلان وعقب خمير^(٢)

وسطا بفسان الملوك وكندة فلها دماء عنده لا تُنثار

(١) العير - بوزن درهم - الغبار والتراب .

(٢) الجدد - بفتح الجيم والـدال جميعا - المستوى من الأرض ، وأراد أن هذا

طريق معتاد لا يتخلف أحد عن السير فيه .

لعبت بهم فكأنهم لم يخلقوا ونُسوا بها فكانهم لم يذكروا
وما أحسن قول أبي الخطاب بن دَحِيَّة الحافظ بعد كلام ما صورته : وأخذت من
طريق خوزستان إلى طريق حلوان ، وقاسيت من الغربة أصناف الألوان ، ومررت
على مدائن كسرى أنوشروان ، وزرت بها قبر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم
الزاهد العابد المعمر سلمان ، وأعملت منها السير والإغذاذ ، إلى مدينة بغداد ،
فنظرت إليها معالم وربوعا ، وأقت بها مرة عاما ومرة أسبوعا وأسبوعا ، وأنا أبدى
في ندائهم وأعيد ، والترب قد علا على منازلهم والصعيد ، وأسأل عن الخلفاء
الماضين وأنشد^(١) ، ولسان الحال يجاوبني وينشد :

يا سائل الدار عن أناسٍ ليس لهم نحوها معبَادُ
مرت كما مرت الليالي أين جَدِيس وأين عاد

بل أين أبو البشر آدم الذي خلقه بيده الكبير المتعال ؟ أين الأنبياء من ولده
والأرسال ؟ أهل النبوة والرسالة ، والوحى من الله ذى الجلالة ، أين سيدهم محمد
الذى فضله عليهم ذو العزة والجلال ؟ وجعله شفيعهم مع أمته والناس في شدائد
الأهوال ، أين القرون الماضية والأجيال ؟ أين التبابعة والأقيال ؟ أين ملوك همدان ؟
أين أولو الأبرق الفرد أو غمدان ؟ أين أولو التيجان والأكاليل ؟ أين الصيد والبهايل ؟
بل أين النمارذة وأكبرهم غروذ إبراهيم الخليل ؟ أين الفراعنة ومن هو بالسحر عليم ، الذين
منهم فرعون موسى الكريم ؟ أين ملك الهدنانية هدد بن بدد الكردي ، الذى
لم يكن غدره بمفيد له ولا مُجْدَى ؟ وقد أخبر الحق جل جلاله عنه أنه كان يأخذ
كل سفينة غصبا^(٢) ، وزعم المؤرخون أنه كان أيضا يملأ القلوب رُعبا ، ويسوم
أصحابه قتلا وصلبا ، مع الطمع فى المال ، وعدم النظر فى عقبى المال ، أين الفرس
وملوكتها ، وعدلها وعدوها ؟ أين دارا بن دارا بن بهمان ؟ أين إسكندر بن فلبيس

(١) « أنشد » هنا : مضارع قولهم « نشد فلان الضالة بنشدها » إذا طلبها .

(٢) يشير إلى قوله تعالى فى قصة موسى والخضر (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) .

اليوناني الذي غلبه وملك بلاده في ذلك الزمان ؟ وأطاعه جميع ملوك الأقاليم ،
وقدر الله به امتحان الخلق ذلك تقدير العزيز العليم ، أين كسرى وقيصر ؟ غلبهما
من الموت الأسد القسور ، بعد أن أخرجهما من بلادهما أمير المؤمنين أبو حفص
عمر ، لما ظهرت الملة الحنيفية كما ظهرت الشمس وبدأ القمر ، أين أولاد جفنة
وملوك غسان ؟ أين مدامح زياد وحسان^(١) ؟ أين هريم بن سنان ؟ أين الملأب
بالسنان^(٢) ؟ أين أولاد مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؟ أين بنو عبد المدان ؟ أين
أرباب العواصم ؟ أين قيس بن عاصم ؟ أين العرب العرباء الأمة الفاضلة ، والجماعة
المنافضة ؟ أين أولو الباس والحفاظ ، وذوو الحمية والإحفاظ ؟ حيث الوفاء والعهد ،
والحباء والرّفد ، إلى علو المهمل ، والوفاء بالذمم ، والعطاء الجزل ، والضيف والنزل ،
وهبة الأقاليم والبزل ، وإنها لا تدين عزا ولا تُقَاد ، ولا ترام أنفة ولا تقاد ، أين
قريش المغرورة في الجاهلية بالحى اللقاح ، والشعب الوقاح ؟ أين الماضون من
ملوك بني أمية ذوو الألسن الذلق ، والأوجه الطلق ؟ والحمية ؟ أين خلفاء بني
العباس بن عبد المطلب ، الذين شرفهم بالأصالة وليس إليهم بالمنجلب ؟ ذوو الشرف
الشامخ ، والفخر الباذخ ، والخلافة السنية الرضية ، والمملكة العامة المرضية ، بلعقنا
والله وفاتهم ، ولم يبق إلا ذكرهم وصفاتهم ، قبض ملك الموت أرواحهم قبضا ،
ولم يترك لهم حراكا ولا نبضا ، ومزق الدود لحومهم قددا ، ووجدوا ما عملوا حاضرا
ولا يظلم ربك أحدا ، إلا ما كان من أجساد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم ،
فإن الله تعالى حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، وقد تكلمت على هذا
الحديث وأثبت أنه من الصحيح لا السقيم ، وخرجت طرقة في كتابي العلم المشهور
بعون من العزيز الرحيم ، فما أبعد المرء عن رشده وما أقصاه ، كم وعظه الدهر وكم
وصاه ، يخلط الحقيقة بالحال ، والعاطل بالحال^(٣) ، ولا توبة حتى يشيب الغراب ،

(١) زياد : هو النابتة الدياني ، وحسان : هو ابن ثابت الأنصاري .

(٢) ملاعب الأسنة : لقب أبي براء عامر بن مالك بن جعفر

(٣) العاطل : الذي لا يلبس حليا ، والحالى : ضده .

ويألف الدم التراب ، فيألفني لبعده الدار ، وانقضاض الجدار ، وأنت هامة ليل
أو نهار^(١) ، وقاعد من عمرك على شقي جُرْفٍ هار ، تقرأ العلم وتدعيه ، ولا تفهمه
ولا تعيه ، فهو عليك لا لك ، فأولى لك ثم أولى لك ، أما أن الليل النقي أن
تجلى أحلاكه ، ولنظم البغى أن تنتثر أسلاكه ، وأن يستفزع الجاني جنّاه ،
ويأسف على ما اقترفه وجنّاه ، وأن يلبس عهاده بتا ، ويطلق الدنيا بتا ، ويفر
منها فرار الأسد ، ويتيقن أنه لا بدّ من مفارقة الروح الجسد ، نبهنا الله تعالى من
سِنَاتٍ غفلتنا ، وحسن ما ساء من صدئنا الذميمة وسلطاننا ، وجعل التقوى
أحصن عددنا وأوثق آلاتنا ، اللهم إليك المآب ، وبيدك المتاب ، قد واقعنا
الخطايا ، وركبنا الأجرام رواحل ومطايا ، فتب علينا أجمعين ، وأدخلنا برحمتك
في عبادك الصالحين الطائعين ، وصلى الله على سيد ولد آدم محمد شفيعنا يوم القيامة ،
وصاحب الخوض المورود والمقام المحمود والكرامة ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه
أهل الرضوان المنتخبين ، وسلام الله عليه وعليهم إلى يوم الدين ، انتهى وهو
آخر كتابه « النبراس » ، في تاريخ بني العباس » وذكرته بطوله لمناسبته .

قلت : وقد سلكت هذا المنحى نظماً في خطبة هذا الكتاب كما بمر ،
وللسان الدين رحمه الله تعالى كلام قريب من هذا سيأتي في ثمره إن شاء الله تعالى
وأقول : إني قد تذكرت هنا قول القائل :

نطوى سبوتا وآحاداً ونشرها ونحن في الطيّ بين السبت والأحد
فعدّ ماشئت من سبت ومن أحد لا بد أن يدخل المطوى في العدد

وقول الآخر :

ألم تر أن الدهر يوم وليلة يكرّان من سبت عليك إلى سبت
فقل لجديده العيش لا بد من ليلى وقل لاجتماع الشمّل لا بد من شت^(٢)

(١) يقال « فلا هامة اليوم أو غد » كناية عن كونه عرضة لموت سريع

(٢) شت - بفتح الشين وتشديد التاء - أي تفرق

واعلم أن لسان الدين لما كانت الأيام له مسألة ، لم يقدر أحد أن يواجهه بما
يدنس معاليه أو يطمس معالمه ^(١) ، فلما قلبت الأيام له ظهر مجتنباً ، وعاملته بمنعها
بعد منحها ومنها ، أكثر أعداؤه في شأنه الكلام ، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال
من ربة الإسلام ، بتنقص النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، والقول بالحللول
والاتحاد ، والانخراط في سلك أهل الإلحاد ، وسلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد ،
وغير ذلك مما أثاره الحقد والعداوة والانتقاد ، مقالات نسبوها إليه خارجة عن
السنن السوي ، وكلمات كدروا بها متهمل علمه الروي ، ولا يدين بها ويفوه
إلا الضال الغوي ، والظن أن مقامه رحمه الله تعالى من لبسها بري ، وجنابه
سامحه الله تعالى عن لبسها عري ، وكان الذي تولى كبر محنته وقتله ، تلميذه
أبو عبد الله بن زمرك الذي لم يزل مضمراً لخطئه ، فلقد وقفت على خط ابن لسان الدين
على أنه تسبب في قتل لسان الدين أبيه ، وسيأتي الإلماع والإلمام بابن زمرك المذكور
في تلامذة لسان الدين ، مع أنه - أعني لسان الدين - حلاه في الإحاطة أحسن
الحلي ، وصدقه فيما انتحله من أوصاف العلا ، وقد سبق في كلام ولي الدين
ابن خلدون أنه قدم على السلطان أبي العباس أحمد المربني في شأن الوزير
ابن الخطيب ، وأخرج إلى مجلس الخاصة ، وامتنحن والمجالس بالأعيان غاصة ،
ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سعى العبيد القاضي
أبو الحسن بن الحسن النباعي ، فكم قبل يده ، ثم جاهره بعد انتقال الحال ، وجدَّ
في أمره مع ابن زمرك حتى قتل لسان الدين ، وانتقضت دولته ، فسبحان من
لا يتحوّل ملكه ولا يبيد .

وقد سبق فيما جلبناه من كلام ابن خلدون أن القاضي ابن الحسن قدم على

(١) يطمس : أراد أنه يحقى ، والمعالم : جمع معلم ، وأراد به الأمر الظاهر المعلوم

تم
ألفها أعداء
لسان الدين به

السلطان عبد العزيز في شأن لسان الدين والانتقام منه بسبب تلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه بمقتضاها ، فأبى السلطان من ذلك ، وقال : هلا فعلتم أنتم ذلك حين كان عندكم ؟ وامتنع لذمته أن يخفّره^(١) ، فلما أراد الله بنفوذ الأمر ، وعدم نفع يزيد وعمره ، توفي السلطان عبد العزيز ، واختلت الأحوال ، واضطربت بالمغرب نيران الأهوال ، فقدم في شأنه الوزير الكاتب ابن زمرك خادمه الذي رباه وصنيعته ، فكان ما كان مما سبق به الإلمام .

وقد ذكرنا في الباب الأول قول لسان الدين رحمه الله تعالى في قصيدته النونية :

تَلَوْنِ إخواني علىَّ وقد جنت على خطوبُ حجة ذات ألوان
وما كنت أدري قبل أن يتنكروا بأن خِواني كان مجمع خِواني^(٢)
وكانت وقد حُمَّ القضاء صنائعي على بما لا أرتضى شر أعوان

ولقد صدق رحمه الله تعالى ، على أنه قال هذه القصيدة في النكبة الأولى التي انتقل فيها مع سلطانه إلى المغرب ، كما مر مفصلاً^(٣) ، وكأنه عبر عن هذه المحنة الأخيرة التي ذهبت فيها نفسه على يد صنائعه الكاتب ابن زمرك والقاضي ابن الحسن ، سامح الله الجميع !

ويرحم الله أبا إسحاق التلمساني صاحب الرجز في الفرائض حيث يقول :

القدر في الناس شيمة سلفت قد طال بين الوري تصرفها
ما كل من قد سرت له نعم منك يرى قدرها ويعرفها
بل ربما أعقب الجزاء بها مضرة عز عنك مصرفها
أما ترى الشمس كيف تعطف بالنور على البدر وهو يكسفها

وقال لسان الدين ، بعد ذكره أن ملك النصارى دون جابجه بن دون الفنش استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، ولاذبه ،

(١) يخفّره : مضارع « خفر فلان ذمة فلان » أي نقض عهده

(٢) الإخوان - بكسر الحاء ، بزة الكتاب - المائدة ، والإخوان : جمع خائن

(٣) انظر هذه القصيدة بطولها في الجزء السادس (ص ٣٣٧) من هذا الكتاب

ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى ، ولقيه بصخرة عباد من أحواز^(١) رُنْدَة ، فسلم عليه ، ويقال : إن أمير المسلمين لما فرغ من ذلك طلب باسان زنّانة الماء ليفسل يده به من قُبلة الفَنش أو مصاحته ، مانصه : والشئ بالشئ يذكر ، فأثبت حكاية اتفقت لى بسبب ذلك ، أستدعى بها الدعاء بمن يَحْسُن عنده موقعها ، وهى حكاية

للسان الدين مع رسول ملك النصارى

أن اليهودى الحكيم ابن زرزار على عهد ملك النصارى حفيد هذا الفَنش المذكور وصل إلينا بغرناطة فى بعض حوائجه ، ودخل إلى بدار سكنائى مجاور القصر السلطانى بحمراء غرناطة ، وعندى القاضى اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة ، ويده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبى عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبى الحسين ، وكان محمد هذا قد فر إلى صاحب قشتالة ، واستدعى من قبله إلى الملك ، فسهل له ذلك ، وشرط عليه ما شاء ، وربما وصله خطابه بما لم يقنعه فى إطارئه ، فقال لى : مولاي السلطان دُنْ بطره يسلم عليك ، ويقول لك : انظر مخاطبة هذا الشخص ، وكان بالأمس كَلْبًا من كلاب بابيه ، حتى ترى خسارة الكرامة فيه ، فأخذت الكتاب من يده وقرأته ، وقلت له : أبلغه عنى أن هذا الكلام ما جرك إليه إلا خلوّ بابك من الشيوخ الذين يعرفونك بالكلاب وبالأسود ، وبمن تُغسل الأيدي منهم إذا قبلوها ، فتعلم من الكلب الذى تغسل اليد منه ومن لا ، وإن جدّ هذا الولد هو الذى قبل جدّك يده واستدعى الماء لغسل يده منه بمحضر النصارى والمسلمين ، ونسبهُ الجد إلى الجد كنسبة الحفيد للحفيد ، وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه ، وأنت مُعرّض إلى اللجأ إليه فيكافئك بأضعاف ما عاملته به ، فقام أبو الحسن المستقضى يبيكى ، ويقبل يدي ، ويصفنى بولى الله ، وكذلك من حضرنى ، وتوجه إلى المغرب رسولا ، فقص على بنى مرين

(١) الأحواز : جمع حوز - بفتح الحاء وسكون الواو - وأصله الموضع الذى تتخذ حوله مسناة ، ويراد منه ههنا الأرباض التى تبكتنف البلد ، وهى ضواحيها

خير ما شاهدته منى وسمعه ، وبالحضرة اليوم من تلقى منه ذلك كثير ، جعل الله تعالى ذلك خالصا لوجهه ! انتهى .

وقد أثنى لسان الدين في « الإحاطة » على القاضي ابن الحسن المذكور
 كإسياني ، وقال في ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصه : ثم قدّم للقضاء الفقيه
 الحسيب أبا الحسن ، وهو عين الأعيان بما لَقَّه ، الخصوص برسم التجلة والقيام بالمعقد
 والحل ، فسدد وقارب ، وحمل ^(١) الكَلَّ ، وأحسن مصاحبة الخطبة والخطبة ، وأكرم
 المشيخة مع النزاهة ، ولم يقف في حسن التأني على غاية ، فاتفق على رجاءه ،
 ولم يقف في النصح عند غاية ، انتهى .

وحين أظلم الجوبينه وبين لسان الدين ذكره في « السكتية الكامنة » ، بما
 يباين ماسبق ، ولقبه بالجعسوس ^(٢) ، ولم يقنعه ذلك حتى ألف فيه « خلع الرسن الحسن
 في وصف القاضي ابن الحسن »

وقد وقفت بفاس المحروسة على كتاب مطول كتبه ابن الحسن للسان الدين
 بعد تحوُّله عن الأندلس ، ونص ما تعلق به الغرض هنا : فشرعتم في الشراء ،
 وتشديد البناء ، وتركتم الاستعداد لهاذم اللذات ، هيئات هيئات ، تبنون
 مالا تسكنون ، وتدَّخرون مالا تأكلون ، وتؤملون مالا تدركون ؟ أينما تكونوا
 يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ، فأين المهرب مما هو كائن ، ونحن
 إنما نتقلب في قدرة الطالب ، شرقم أو غر بتم ، والأيام تتقاضى الدين ،
 وتنادى بالنفس الفرارة إلى أين إلى أين ، ونترك الكلام مع الناقد فيما ارتكبه من
 تزكية نفسه ، وعدَّ ما جلبه من مناقبه ، ما عدا ما هدد به من حديد لسانه ، خشية
 اندراجها في نمط من قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من شر الناس من
 ترَكَّه الناس اتقاءً فُحْشِهِ » ولا غيبة فيمن ألقى جباب الحياء عن وجهه ، وزخه ^(٣) على

(١) الكل - بفتح الكاف وتشديد اللام - العاجز الضعيف

(٢) الجعسوس - بزنة العصفور - القصير الدميم

(٣) زخه - بالزاي والحاء المعجمتين - دفعه أشد الدفع

ما أبداه أو أهداه من العيوب التي نسبها لأخيه ، واستراح على قوله بها فيه ،
ونذكره على طريقة نصيحة الدين بالحديث الثابت في الصحيح عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو قوله « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لادرهم له
ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ،
ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، فُيعطى هذا
من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من
خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » ويعلم الله أن معنى هذا الحديث
الثابت عن النذير الصادق ، هو الذي حملني على نصيحتكم ، ومراجعتكم في كثير
من الأمور : منها الإشارة عليكم بإغهاب عين ما كتبتم به في التاريخ وأمثاله ،
فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من العيبة المحرمة أحياء وأمواتا غير شيء حصل بيدكم
وضررتم أنفسكم بما رتبتم لهم من المطالبات بنص الكتاب والسنة قبلكم ، والرضا
بهذه الصفة الخاسرة أمر بعيد من الدين والعقل ، وقد قلت لكم غير مرة عن
أطراسكم المَسْوَدَّة بما دعوتهم إليه من البدعة والتلاعب بالشرعية إن حقها التخريق
والنحريق ، وإن من أطراها لكم فقد خدع نفسه وخدعكم ، والله الشهيد بأني
نصحتكم وما غششتكم ، وليس هذا القول وإن كان ثقيلا عليكم بمخالف كل
الخالقة لما زُنتم^(١) به من تقدم المواجهة بالملاطفة والمعاملة بالكرامة ، فليست المداراة
بقادحة في الدين ، بل هي محمودة في بعض الأحوال ، مستحسنة على ما بيَّنه العلماء ،
إذ هي مقارنة في الكلام أو مجاملة بأسباب الدنيا لصلاحها وإصلاح الدين ،
وإنما المدموم المداينة ، وهي بذل الدين لمجرد الدنيا ، والمصانعة به لتحصيلها ، ومن
خالط للضرورة مثلكم ، وزايله بأخلاقه ونصحه مخاطبة ومكاتبه ، واستدل له
بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صحة مقالته ، فقد سلم
والحمد لله من مدهانته ، وقام لله تعالى بما يجب عليه في حقكم من التحذير والإنكار

(١) تقول « زن فلان بكذا » وهو يزن بكذا « بالبناء للجهول - إذا اتهم

به ونسب إليه ، وفي ب « الماذنبتكم به » وأحسبه محرفا عما أثبتناه

مع الإشفاق والوجل^(١) ، وأكثرت في كتابكم من المن^(٢) بماذا كرتم أنكم صنعتهم ، وعلى تقدير الموافقة لكم ليتكم ما فعلتم ، فسلمنا من المعرة وسلمتم ، وجل القائل سبحانه : (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غني حلیم) وقلمنا شاركتكم أنتم في شيء إلا بأغراض حاصلة في يدكم ، ولأغراض^(٣) دنيوية خاصة بكم ، فالللام إذن في الحقيقة إنما هو متوجه إليكم ، وأما ما أظهرتم بمقتضى حرركاتكم وكلامكم من التندم على فراق محلّكم ، والتعلّل بأخبار قطركم وأهلّكم ، فتناقص منكم وإن كنتم فيه بغدركم :

أتبكي على ليلي وأنت تركتها فكنت كآت غيّبه وهو طائع
وما أكل ما مننتك نفسك مخليا تلاقى ، ولا كّل له أنت تابع
فلا تبكين في إثر شيء ندامة إذا نزعت من يدك النوازع
وعلى أن تأسفكم لما وقعت فيه من الغدر لسلطانكم ، والخروج لا لضرورة غالبية عن أوطانكم ، من الواجب بكل اعتبار عليكم ، سيما وقد مددتم إلى التمتع بغيرها عيذك ، ولو لم يكن بهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة إلا ما خُصّت به من بركة الرباط ورحمة الجهاد لكفها فخرًا على ما يجاورها من سائر البلاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه » وقال عليه الصلاة والسلام « الرّوْحَةُ بروحها العبد في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما فيها » وعلى كل تقدير فإذا لم يكن يا أخى فراركم من الأندلس إلى الله وحده بالتوبة المكّلة ، والاستغفار مع الانقطاع في أحد المواطن المسكرمة المعظمة بالإجماع ، وهى طيبة أو مكة أو بيت المقدس ، فقد خسرتكم صفقة رحلتكم ، وتبين أن لغبر وجه الله العظيم كانت نية هجرتكم ، اللهم إلا إن كنتم قد لاحظتم مسألة الرجل الذى قتل مائة نفس ، وسأل أعلم أهل الأرض فأشار عليه بعد إزماع التوبة

(١) الوجل . الخوف ، أو أشده

(٢) المن : تعدادك النعم على من أنعمت عليه ، وذكر فضلك فيها

(٣) كذا ، وأحسبه « ولأغراض دنيوية » بالعين المهملة

بمفارقة المواطن التي ارتكب فيها الذنوب ، واكتسب بها العيوب ، فأمر آخر ، مع أن كلام العلماء في هذا الحديث معروف ، ويقال لكم من الجواب الخاص بكم : فعليكم إذاً بترك القيل والقال ، وكسر حربة الجدال والقتال ، وقصر ما بقي من مدة العمر على الاشتغال بصلاح الأعمال ، ووقعت في مكتوبكم كلمات أوردتها النقد في قالب الاستهزاء والازدراء ، والجهالة بمقادير الأشياء ، ومنها « ربح صرصر » وهو لغة القرآن ، و« قاع قرقر » وهو لفظ سيد العرب والعجم محمد صلى الله عليه وسلم ، ثبت في الصحيح في باب التغليظ فيمن لا يؤدي زكاة ماله ، قيل : يا رسول الله ، والبقر والغنم ؟ قال « ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كانت يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ، تنطحه بقرونها ، وتطوؤه بأظلافها - الحديث الشهير » قال صاحب المعلم : بطح لها بقاع قرقر : أى ألقي على وجهه ، والقاع : المستوى من الأرض ، والقرقر : كذلك ، هذا ما حضر من الجواب ، وبقي في مكتوبكم حشو كثير من كلام إقذاع وفحش ^(١) بعيد من الحشمة والحياء رأيت من الصواب الإعراض عن ذكره ، وصون اليد عن الاستعمال فيه ، والظاهر أنه إنما صدر منكم وأنتم بحال مرض ، فلا خرج فيه عليكم ^(٢) ، أنسا الله تعالى أجلكم ^(٣) ، ومكن أمنكم ، وسكن وجلكم ، ومنه جل اسمه نسأل لى ولكم حسن الخاتمة ، والفوز بالسعادة الدائمة ، والسلام الأتم يعتمدكم ، والرحمات والبركات من كاتبه على بن عبد الله بن الحسن وفقه الله ، وذلك بتاريخ أخريات جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وسبعائة .

وقيد رحمه الله تعالى في مدرج طى هذا الكتاب مانصه : يا أخى - أصلحني الله وإياكم ! - بقي من الحديث شيء الصواب الخروج عنه لكم ، إذ هذا أوانه .
(١) تقول « أقذع فلان في هجوه » و« قذع » أيضاً ، إذ أرمى بالنفيسة وأساء القول وسب فأفحش في السب

(٢) المرض ، هنا : الجنون ، وهو يشير بهذه الفقرة إلى قوله جلت كلمته :
(ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج)
(٣) أنسا أجلكم : أجل مدة بقائكم وأطال عمركم

وتأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه^(١) ، وليكون البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول الله ، وحاصله أنكم عددتم ما شاركتكم فيه بحسب الأوقات ، وقطعتم بنفسه الأمور كلها إلى أنفسكم ، وأنها إنما صدرت عن أمركم وبإذنكم ، من غير مشاركتي في شيء منها لكم ، ثم منّتم بها المنّ القبيح المبطل لعمل بركم على تقدير التسليم في فعله لكم ، ورميتم غيركم بالتقصير في حاله كله طريقة من يبصر القذى في عين أخيه ويدع الجذع في عينه^(٢) ، وأقصى ما تسنى للمحب أيام كونكم بالأندلس تقلد كلفة قضاء الجماعة ، وما كان إلا أن وليتها بقضاء الله وقدره ، فقد تبين لكل ذى عقل سليم أنه لا مؤجد إلا الله ، وأنه إذا كان كذلك كان الخير والشر والطاعة والمعصية حاصلًا بإيجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه من غير عاضد له على تحصيل مراده ولا معين ، ولكنه جلت قدرته وعد فاعل الخير بالثواب فضلا منه ، وأوعد فاعل الشر بالعقاب عدلا منه ، وكأني بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة ، وما أحوجكم إلى تأملها بعين اليقين ، فكابدت أيام تلك الولاية النكد من النكابة باستحقاركم للقضايا الشرعية ، وتهاونكم بالأمور الدينية ، ما يعظم الله به الأجر ، وذلك في جملة مسائل : منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة بعد تقضى موجباته على كره منكم ، ومنها مسألة ابن أبي العيش المتقف في السجن على آرائه المضلّة التي كان منها دخوله على زوجته إثر تطليقه إياها بالثلاث ، وزعمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره مشافهة بالاستمئاع بها ، فحملتم أحد ناسكم تناول إخراجها من الثقف من غير مبالاة بأحد ، ومنها أن أحد الفتيان المتعلقين بكم توجهت عليه المطالبة بدم قتيل ، وسيق المدعى عليه للذبح بغير سكين ، فما وسعني بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السنة ، فأنتم لذلك ، وسجنتم الطالب وليّ الدم ، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور ، إلى غير ذلك مما لا يسع الوقت شرحه ، ولا يجمل بي

(١) اتفق العلماء على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة غير جائز ، ويجوز تأخير البيان إلى وقت الحاجة إليه

(٢) يشير إلى قول بعضهم « فلان يرى القذى في عين أخيه ، ولا يرى الجذع في عينه » إذا كان كثير العيب للناس على توافقه الأمور وهو مليء بكبار العيوب

ولا بكم ذكره ، والمساءلة الأخرى أنتم توليتُم كبرها حتى جرى فيها القدر بما جرى به من الانفصال ، والحمد لله على كل حال ، وأما الرمي بكذا وكذا مما لا علم لنا بسببه ، ولا عذر لكم من الحق في التكلم به ، فشيء قلما يقع مثله من البهتان ممن كان يرجو لقاء ربه ، وكلامكم في المدح والهجو ، هو عندى من قبيل اللغو ، الذى تَمُرُّ به كراما (١) والحمد لله ، فكثروا أو قللوا من أى نوع شئتم ، أنتم وماترضونه لنفسكم ، وما فهت لكم بما فهت من الكلام ، إلا على جهة الإعلام ، لا على جهة الانفعال ، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال والأفعال ، فذهبي غيرمذهبكم ، وعندى ما ليس عندهم ، وكذلك رأيتم تكثرُونَ في مخاطبتكم من لفظ الرقية في معرض الإنكار لوجود نفعها ، والرمى بالمنقصة والحق لمستعملها ، ولو كنتم قد نظرتُم في شيء من كتب السنة وسير الأئمة المسلمة نظر مصدق لما وسعكم إنكار ما أنكرتم ، وكتبه بخط يدهم ، فهو قاذح كبير في عقيدة دينكم ، فقد ثبت بالإجماع في سورة الفلق أنها خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه المراد بها هو وآحاد أئمتِه ، وفي أمهات الإسلام الخمس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتمكى رَقَاهُ جبريل ، فقال : بِسْمِ اللَّهِ يُبْرِيكُ ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شر حاسد إذا حسد ، ومن شر كل ذي عين » وفي الصحيح أيضاً أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في سفر ، ففروا بحي من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فلم يضيفوهم ، فقالوا : هل فيكم راق فإن سيد الخي لديغ ، أو مصاب ؟ فقال رجل من القوم : نعم ، فأناه فَرَقَاهُ بفاتحة الكتاب ، فبرئ الرجل ، فأعطى قطعة من غنم - الحديث الشهير ، قال أهل العلم : فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرقية والطب وتعليم القرآن ، وهو قول مالك وأحمد والشافعي وأبي ثور وجماعة من السلف ، وفيه جواز المقارضة ، وإن كان ضد ذلك أحسن ، وفي هذا القدر

(١) إشارة إلى قوله تعالى في وصف عباد الرحمن من سورة الفرقان : (والذين

لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما)

كفاية ، وما رَقِيتُ قط أحدا على الوجه الذي ذكرتُم ، ولا استرقيت والحمد لله ، وما حملني على تبين ما بينته الآن لكم في المسألة إلا إرادة الخير التام لجهتكم ، والطمع في إصلاح باطنكم وظاهركم ، فإني أخاف عليكم من الإفصاح بالظعن في الشريعة ، ورمي علمائها بالمنقصة على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم منكر علم الجزئيات ، القائل بعدم قدرة الرب جل اسمه على جميع الممكنات ، وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناسٍ أعلام قلماء تجوز عليهم - حفظهم الله ! - المغالطات ، فتأسركم شهادة العدول التي لا مدفع لكم فيها ، وتقع الفضيحة ، والدين النصيحة ، أعاذنا الله من درك الشقاء ، وشماتة الأعداء ، وجهْدِ البلاء ، وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغي في الجنب الرفيع ، جناب سيد المرسلين ، وقائد الغر المحجلين ^(١) ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه نُقِلَ عنكم في هذا الباب أشياء منكورة ، يكبر في النفوس التكلم بها أتم تعلمونها ، وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم ، وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتُم قبل تقلص ظل السلطنة عنكم لكانت الأمة المسلمة امتعاضا لدينها ودينها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدُّول ما صدر عنكم من العيث في الأبقار والأموال ، وهتك الأعراض ، وإفشاء الأسرار ، وكشف الأسرار ، واستعمال السكر ، والحيل والغدر ، في غالب الأحوال للشرىف والمشروف ، والخدام والخدم ، ولو لم يكن في الوجود من الدلائل على صحة ما رضيتُم به لنفسكم من الاتسام بسوء العهد والتجاوز الحض وكفران النعم والركون إلى ما تحصل من الخطام الزائل إلا محكم مع سلطانكم مولاكم وابن مولاكم أيده الله بنصره وما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه وفي الكثير من أهل قطره - كماكم وضمه لا يغسل دَنَمها البحر ، ولا ينسي

(١) الفر : جمع أفر ، ويريد به الأبيض الوجه ، والمحجل : أصله الفرس الذي في قوائمه يابض وسائر جسمه ليس بأبيض ، وهو مأخوذ من الحديث « أنا قائد الغر المحجلين من أثر الوضوء يوم القيامة »

عارها الدهر ، فإنكم تركتموه أولاً بالمغرب عند تلون الزمان ، وذهبتُم للسكدية والأخذ بمقتضى المقامة الساسانية إلى أن استدعاه الملك ، وتخلصت له بعد الجهد الأندلس ، فسقطتم عليه سقوط الذباب على الحلواء ، وضربتُم وجوه رجاله بعضا ببعض ، حتى خلا لكم الجو ، وتمكن الأمر والنهى ، فمزمتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم ، ثم وريتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء ، مكرا منكم ، فلما بلغتم أرض الجبل انحرفتم عن الجادة ، وهربتم بأفقالكم الهروب الذى أنكره عليكم مَنْ بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر فى العدوتين من مؤمن وكافر وبر وفاجر ، فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرفاتكم حازم ، أو يثق بكم فى قول أو فعل صالح أو طالح ، ولو كان قد بقى لكم من العقل ما تفكرون به فى السكيفية التى ختمتم بها عملكم بالأندلس من الزيادة فى المعرم وغير ذلك مما لكم وزره ووزر من عمل به بعدكم إلى يوم القيامة حسبما ثبت فى الصحيح^(١) لملكم على مواصلة الحزن ، وملازمة الأسف والندم على ما أوقعتم فيه نفسكم الأمانة من التورط والتنشب فى أشطان الآمال ودسائس الشيطان ، ونعوذ بالله من شرور الأنفس وسيات الأعمال وأما قولكم عن فلان « إنه كان حشرة فى قلوب اللوز » و « إن فلانا كان برغوئا فى تراب الجمول » فكلام سفساف ، يقال لكم من الجواب عليه : وأنتم يا هذا أين كنتم منذ خمسين سنة مثلاً ؟ خلق الله الخلق لاستظهاراً بهم ولا استكثاراً وأنشأهم كما قدر أحوالاً وأطواراً ، واستخلفهم فى الأرض بعد أمة أمما وبعد عصر أعصاراً ، وكلفهم شرائعه وأحكامه ولم يتركهم هملاً ، وأمرهم ونهاهم ليلوهم أيهم أحسن عملاً ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وبكل اعتبار فلا نعلم فى نمط الطلبة تدريجاً كان أسمى من تدريجكم ، ونبدأ من كذا فإنه كان كذا وأكثر أهل زمانه تحملاً وتقللاً فى نفسه بالنسبة إلى منصبه كان الشيخ أبو الحسن بن

(١) يشير إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سنة سيئة فعلية وزرها ووزر

الحياب ، ولكنه حين علم رحمه الله تعالى من نشأتكم وحالتكم ما علم نبذ مصاهر تكم
وصرف عليكم صداقكم ، وكذلك فعلت بنت جزّى زوج الرهيصي معكم ، حسبما هو
مشهور في بلدكم ، وذكرتم أنكم ما زلتم من أهل الغنى حيث تقرتم بذكر العرض
وهو بفتح العين والراء حطام الدنيا على ما حكى أبو عبيد ، وقال أبو زيد : هو
يسكون الراء المال الذي لا ذهب فيه ولا فضة ، وأى مال خالص يعلم لكم
أولأيكم بعد الخروج من الثّفاف على ما كان قد تبقى عنده من تجّبي قرية
مترايل ؟ ثم من العدد الذي برز قبلكم أيام كانت أشغال الطعام بيدكم على
ما شهد به الجمهور من أصحابكم ، وأما الفلاحة التي أشرتم إليها فلا حق لكم فيها
إذ هي في الحقيقة لبيت مال المسلمين ، مع ما يبيدكم على ما تقرر في الفقهيات ،
والعدوم شرعا كالعدوم حسا ، ولوقبل من أهل المعرفة بكم بعض ما لديهم من
سقطاتكم في النّال والقييل ، ولم يصرف إلى دفع معرفتها عنكم وجه التأويل ،
لكن كانت مسألتكم ثانية لمسألة أبي الخير بل أبي الشر الحادثة أيام خلافة الحكم
الحكم المسطورة في نوازل أبي الأصبح بن سهل ، فاعلموا ذلك ، ولا تهمّلوا
إشارتي عليكم قديما وحديثا بلزوم الصلوات ، وحضور الجماعات ، وفعل الخيرات ،
والعمل على التخلص من التبعات (إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا
ولا يغرنكم بالله الغرور)

وقتم في كتابكم « أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد » وقد أذهب الله
عنا ببركة الملة المحمدية عيّبة الجاهلية^(١) في التفاخر بالآباء ، ولكني أقول لكم على
جهة المقابلة لكلامكم : إن كانت الإشارة إلى الجيب بهذا فن المعلوم المتحقق
عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أمثال قطره ، قال القاضي أبو عبد الله
ابن عسكرو قد ذكر في كتابه من سلفي فلان بن فلان ، ما نصه : وبيته بيت

(١) العيبة - بفتح العين وسكون الياء - مثل العيب والعباب ، وهو النقيصة
والوصمة وكل ما يخلو عنه الشيء بأصل فطرته ، وقالوا « العيبة » لمستودع الثياب
ونحوها ، ثم كنوا عن القلوب والصدور بالعياب كما في الحديث « الأنصار كرشى
وعيبى » لأن القلوب والصدور مستودع السرائر كما أن العياب مستودع الثياب

قضاء وعلم وجلالة لم يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر ، استقضى جدّه المنصور ابن أبي عامر ، وقاله غيره وغيره ، ويبدى من عهود الخلفاء وصكوك الأمراء المكتتة بخطوط أيديهم من لدن فتح جزيرة الأندلس إلى هذا العهد القريب ما تقوم به الحجة القاطعة لسان الحاسد والجاحد ، والمنة لله وحده ، وإن كانت الإشارة للغير من الأصحاب في الوقت حفظهم الله فكل واحد منهم إذا نظر إليه بعين الحق وجد أقرب منكم نسباً للخطط المعتمدة ، وأولى بميراثها بالفرض والتعصيب أو مساوياً على فرض المسامحة لكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، حرام دمه وماله وعرضه » .

ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول : من كان يافلان من قومكم في عهود نسبكم نبيها مشهوراً^(١) ، أو كاتباً قبلكم معروفاً ، أو شاعراً مطبوعاً ، أو رجلاً نبيها مذكوراً ، ولو كان يالوشى^(٢) وكان سكان من الواجب الرجوع إلى التناصف والتواصل والتواضع ، وترك التحاسد والتباغض والتقاطع ، « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ، وكذلك العجب كل العجب ، من تسميتكم الخربات التي شرعتم في بنائها بدار السلام ، وهيئات هيئات ، المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجلاء وعناء وفناء ، ولولم يكن من الموعظة الواقعة بتلك الدار في الوقت إلا موت سعيدكم عند دخولها ، لأغناكم عن العلم اليقين بمآلها .

وأظهرتم سروراً كثيراً بما قلتم إنكم نالتم حيث أنتم من الشهوات التي ذكركم أن منها الإكثار من الأكل والخرق والعود بإزاء جارية الماء على نطح الجلد ، والإمساك أولى بالجواب على هذا الفصل ، فلا خفاء بما فيه من الخسة والخبائث والخبث ، وبالجملة فسرور العاقل إنما ينبغى أن يكون بما يحمل تقدمه من

(١) نبيها : أراد طائر الذكر رفيع القدر

(٢) لوشى : نسبة إلى لوشة أصل منبت لسان الدين وقومه

زاد التقوى للدار الباقية ، فما العيش كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) إلا عيش الآخرة ، فقدموا إن قبلتم وصاة الحبيب أو البغيض بعضاً عسى أن يكون لكم ، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم ، هذا الذي قلته لكم ، وإن كان لدى من يقف عليه من نمطه الكثير ، فهو باعتبار المسكان وما مر من الزمان في حيز اليسير ، وهو في نفسه قول حق وصدق ، ومستنداً كثيره كتاب الله وسنة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى سائر أنبيائه ، فاحمدوا الله العلي العظيم على تذكيركم به إذ هو جار مجرى النصيحة الصريحة ، يسرني الله وإياكم لليسرى ، وجعلنا ممن ذكر فانتفع بالذكرى ، والسلام ، انتهى كلام القاضي ابن الحسن النباهي في كتابه الذي خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى .

وأين هذا الكلام الذي صدر من ابن الحسن في حقه من إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى في تولى ابن الحسن المذكور القضاء ، وهو : هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسه ، ودل على ما يرضى الله عز وجل التماسه ، وأطلع نور العناية الذي يحلو الظلام نبراسه ، واعتمد بمثابة العدل من عرف بافتراح هضبتها ناسه ، وألقى بيد المعتمد به زمام الاعتقاد الجميل تروق أنواعه وأجناسه ، وشيد مبنى العز الرفيع ، في قبة الحسب المنيع ، وكيف لا والله بانيه ، والمجد أساسه ، أمر به وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر - أيد الله أوامره ، وخلد مفاخره ! - لقاضي حضرته العلية ، وخطيب حمرائه السنية ، الخصوص لديه بترفع المزية ، المصروف إليه خطاب القضاء بإيالته النصرية ، قاضي الجماعة ، ومصرف الأحكام الشرعية المطاعة ، الشيخ الكذا أبي الحسن ابن الشيخ الكذا ألى محمد بن الحسن - وصل الله سمادته ، وحرس مجادته ، وسنى من فضله إرادته ! -

(١) يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم إن العيش عيش الآخرة ، فاغفر

عَصَبَ منه جبين المجد بتاج الولاية ، وأجال قداح الاختيار حتى بلغ الغاية وتجاوز النهاية ، ما ألقى منه يمين عَرَابَةِ السراية^(١) ، وأحله منه محل اللفظ من المعنى والإعجاز من الآية ، وحشر إلى مدعاة ترفيعه وجوه البر وأعيان الغاية ، وأنطق بتبجيله ، ألسن أهل جيله ، بين الإفصاح والكناية ، ولما كان له الحسب الأصيل الذى شهدت به ورقات الدواوين ، والأصالة التى قامت عليها صحاحُ البراهين ، والآباء الذين اعتد بمضاء قضائهم الدين ، وطَبَّقَ مفاسل الحكم بسيوفهم الحق المبين ، وازدان بمجالسة وزرائهم السلاطين ، فمن فارس حكم أو حكيم تدبير ، وقاض فى الأمور الشرعية ووزير ، أو جامع بينهما جمع سلامة لا جمع تكسير ، تعدد ذلك واطرد ، ووجد مَشْرَعُ المجد عذبا فورد ، وقصرت النظراء عن مداه فانفرد ، وفَرَى الفَرَى فى يد الشرع فأشبهه السيف البرد ، وجاء فى أعقابهم مُجِيبا لما درس ، بما حقق ودرس ، جانيا لما بذر السلف المبارك واغترس ، طاهر النشأة وقورها ، محمود السجية مشكورها ، متحليا بالسكينة ، حالا من النزاهة بالمكانة المكيئة ، ساحباً أذْيَالَ الصَّوْنِ ، بعيدا عن الانصاف بالفساد من لدن الكون^(٢) ، فَخَطَبَتْه الخلطة العالية ، واغتنبت به الجأدة الأولية ، واستعملته دولته التى ترتاد أهل الفضائل للرتب ، واستظهرت على المناصب بأبناء التقى والحسب ، والفضل والمجد والأدب ، ممن يجمع بين الطارف والتالد والإرث والمكتسب ، فكان معدودا من عدول قضائهم ، وصدور نهائهم ، وأعيان وزرائهم ، وأولى آرائهم ، فلما زان الله تعالى خلافته بالتمحيص المتحلى من التخصيص ، وخلص ملكه الأصيل كالذهب الإبريز بعد التخليص ، كان ممن يحب ركابه الطالب للحق بسيف الحق ، وسلك فى مظاهرتة أوضح الطرق ، وجادل من حادّه بأمضى من الحداد الدُّلْق ، واشتهر خبر وفائه فى الغرب والشرق ، وصلى به صلاة السفر

(١) يشير إلى قول الشماخ بن ضرار يمدح عرابة الأوسى :

إذا ماراية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

(٢) الكون ، هنا : الوجود

والحضر ، والأمن والحذر ، وخطب به في الأماكن التي بعد بذكر الله عهداً ،
 وخاطب عنه - أيده الله تعالى ! - الخطابات التي حُمدَ قصدها ، حتى استقل ملكه فوق
 سريره ، وابتهج منه الإسلام بأميره وابن أميره ، ونزل الستر على العباد والبلاد
 ببركة إيلته ويُمن تديره ، وكان المجلس المقرب الحل ، والحُفَى المشاور في العقد
 والحل ، والرسول المؤتمن على الأسرار ، والأمين على الوظائف الكبار ، مزين
 المجلس الساطع بالوقار ، ومتحف الملك بغريب الأخبار ، وخطيب منبره العالی
 في الجمعات ، وقارئ الحديث لديه في المجتمعات ، ثم رأى أيده الله تعالى أن يشرك
 رعيته في نفعه ، ويصرف عوامل الحظوة على مزيد رفعة ، ويجلسه مجلس الشارع
 صلوات الله عليه لإيضاح شرعه ، وأصله الوثيق وفرعه ، وقدمه أعلى الله تعالى
 قدمه ، وشكر آلاءه^(١) ونعمه ، قاضياً في الأمور الشرعية ، وفاصلاً في القضايا الدينية ،
 بحضرة غرناطة العلية ، تقديم الاختيار والانتقاء ، وأبقى له خیر السلف على الخلف
 والله سبحانه يتمتع بطول البقاء ، فليتول ذلك عادلاً في الحكم ، مهتدياً بنور العلم ،
 مسوياً بين الخصوم حتى في لَحْظِهِ والتفاته ، متصفاً من الحلم بأفضل صفاته ، مهيباً
 في الدين ، رؤفاً بالمؤمنين ، جزلاً في الأحكام ، مجتهداً في الفصل بأمضى حُسام ،
 مراقباً لله عز وجل في النقص والإبرام ، وأوصاه بالمشورة التي تقدح زناد التوفيق ،
 والتثبت حتى ينتج قياس التحقيق ، باراً بمشيخة أهل التوثيق ، عادلاً إلى سعة
 الأقوال عند المضيق ، سائراً من مشورة المذهب على أهدي طريق ، وصية
 أصدرها له مُصدّر الذكرى التي تنفع^(٢) ، ويُعلي الله بها الدرجات ويرفع ، وإلا فهو
 عن الوصاة غنى ، وقصده قصد سنى ، والله عز وجل وليُّ إعانته ، والحارس من
 التبعات أكناف ديانته ، والكفيل بحفظه من الشبهات وصيانته ، وأمر أيده
 الله تعالى أن ينظر في الأحباس على اختلافها ، والأوقاف على شتى أصنافها ،

(١) الآلاء : النعم ، واحدها إلى ، بكسر الهمزة وفتح اللام مثونة

(٢) أخذه من قوله تعالى : (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)

واليتامى التى انسدت كفالة القضاة على إضعافها ، فيزود عنها طوارق الخلل ، ويجرى أمورها بما يتكفل لها بالأمل ، وليعلم أن الله عز وجل يراه ، وأن فلتات الحكم تعاوده المراجعة فى أخراة ، فيدّرع جنة تقواه ، وسبحان من يقول : إن الهدى هدى الله ، فعلى من يقف عليه أن يعرف أمر هذا الإجلال ، صائنا منصبه من الإخلال ، مبادرا أمره الواجب بالامتثال ، بحول الله ، وكتب فى الثالث من شهر الله المحرم ، فاتح عام أربعة وستين وسبعمائة ، عرف الله سبحانه فيه هذا المقام العلى عوارف النصر المبين والفتح القريب بمنه وكرمه فهو المستعان لارب غيره ، انتهى .

ونظير هذا ما أنشأه لسان الدين على لسان سلطانه للكاتب أبى عبد الله ابن زمرك حين تولى كتابة السر ، ونصه : هذا ظهير كريم نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرغه ، وأفرد له مقلو العز وجهه ، وأوتره شفعه ، وقربه فى بساط الملك تقريبا فتح له باب السعادة وشرّعه^(١) ، وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على من دون رتبته من أولى صنعته أن يتبعه ، ورعى له وسيلة السابقة عند استخلاص الملك لما ابتزّه الله من يد الغاصب وانتزعه ، وحسبك من زمام لا يحتاج إلى شىء معه ، أمر به أمير المسلمين محمد للكذا الكذا فلان ، وصل الله سعادته ، وحرس تجادته ، أطلع الله تعالى [نه] وجه العناية أبهى من الصبح الوسيم ، وأفطعه جناب الإنعام الجسيم ، وأنشقه آراج الخطوة عاطرة النسيم ، ونقله من كرسى التدريس والتعليم ، إلى مرّقى التنويه والتكريم ، والرتبة التى لا يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم ، وجعل أفلامه جياذ الإجمالة أمره العلى ، وخطابه السنّى ، فى ميدان الأقاليم ، ووضع فى يده أمانة القلم الأعلى ، جاريا من الطريقة المثلّى ، على المنهج القويم ، واختصه بمزية التفوق على كتاب بابه والتقديم ، لما كان ناهض الفكر فى طلبة حضرته زمن البداية ، ولم تزل تظهر عليه لأولى التمييز مخايل هذه العناية ، فإن حضر فى حلق العلم جلى

مرسوم من إنشاء لسان الدين بتولى ابن زمرك كتابة السر

(١) تقول « شرح فلان بابه إلى الطريق » تريد أنه أنفذ البساب إلى

في حلبة الحفاظ إلى الغاية ، وإن نظم أو نثر أتى بالقصائد المصقولة ، والمحادثات المنقولة ، فاشتهر في بلده وغير بلده ، وصارت أزمّة العناية طوعَ يده ، بما أوجب له المزية في يومه وغده ، وحين رد الله عليه ملكه الذي جبر به جناح الإسلام^(١) ، وزين وجوه الليالي والأيام ، وأدال الضياء من الظلام ، كان ممن وسمه الوفاء وشهره ، وعجم الملك عود خلوصه وخبره ، فحمد أثره ، وشكر ظاعره ومُضْمَره ، واستصحب على ركابه الذي صحبَ اليمين سفره ، وأخلصت الحقيقة نفره ، وكفل الله وِردَه وصَدَره ، ميمون النقيبة ، حسن الضريبه ، صادقاً في الأحوال المريبة ، ناطقاً عن مقامه بالمحادثات العجيبة ، واصلاً إلى المعاني البعيدة بالعبارة القريبة ، مبرزاً في الخدم الغريبة ، حتى استقام العباد ، ونطق بصدق الطاعة الحى والجلاد ، ودخلت في دين الله أفواجا العبادُ والبلاد ، لله الحمد على نعمه الثرة العهاد^(٢) ، وآلائه المتوالية الترداد ، رعى له أيده الله هذه الوسائل وهو أحقّ من يرعاها ، وشكر له الخدم المشكور مسعاها ، فنص عليه الرتبة الشماء التي خطبها بوفائه ، وألبسه أثواب اعتنائه ، وفسح له مجال آلائه ، وقدمه ، أعلى الله قدمه ، كاتبَ السر ، وأمين النهى والأمر ، تقديم الاختيار بعد الاختبار ، والاعتباط بخدمته الحسنة الآثار ، وتيمن باستخدامه قبل الخلول بدار الملك والاستقرار ، وغير ذلك من موجبات الإكبار ، فليتول ذلك عارفا بمقداره ، مقتنيا لآثاره ، مستمينا بالسكتم لأسراره ، والاضطلاع بما يحمد من أمانته وعفافه ووفاره ، مُعْطِياً هذا الرسم حقه من الرئاسة ، عارفا بأنه أكبر أركان السياسة ، حتى يتأكد الاعتباط بتقريبه وإدناؤه ، وتتوفر أسباب الزيادة في إعلانه ، وهو إن شاء الله غنى عن الوصاة فهماً ثاقباً يهتدى بضميانه ، وهو يعمل في ذلك أقصى العمل ، المتكفل ببلوغ الأمل ، وعلى من يقف عليه من سحابة الأفلام ، والكتاب الأعلام ، وغيرهم من الكافة والخدام ، أن يعرفوا قدر هذه العناية

(١) جبر به جناح الإسلام : أراد قواه به ، وأصل الجبر إصلاح ما انكسر من

عظم وعجوه

(٢) الثرة من السحب والعيون : الغزيرة الماء الفيضة به ، قال عنترة بن شداد :

جادت عليه كل عين ثرة فتركن كل قرارة كالدرهم

الواضحة الأحكام ، والتقديم الراسخ الأقدام ، ويوجبوا ما أوجب من البر والإكرام ، والإجلال والإعظام ، بحول الله ، وكتب في كذا ، اتت .

فانظر صانئى الله وإياك من الأغيار ، وكفانا شرَّ من كثر الصنعة التى هى على النقص عنوان ومعيار ، إلى حال الوزير لسان الدين بن الخطيب مع هذين الرجلين ، القاضى ابن الحسن والوزير ابن زمرك اللذين تسببا فى هلاكه حتى صار أتراً بعد عين ، مع تنويهه بهما فى هذا الإنشاء وغيره ، وتفيهما - كما هو معلوم - ظلال خيره ، فقبلاه بالغدر ، وأظهرا عند الإمكان حقد القلب وغِلَّ الصدر ، وسددا نَقْتَلِه سهاماً وقسيّاً ، وصيرا سبيل الوفاء نسيّاً منسياً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن إنشاء لسان الدين فى حق القاضى ابن الحسن أيضاً - حين أضيفت إليه الخطابة إلى القضاء - على لسان سلطانه : هذا ظهير كريم أعلى رتبة الاحتفاء (١) اختياراً واختباراً ، وأظهر معانى السكرامة والتخصيص انتقاء واصطفاء وإيثارة ، ورفع لواء الجلالة على من اشتمل عليه حقيقة واعتباراً ، ورقى فى درجات العز من طاولها على بهر أنوار ، ودينا كرم فى الصالحات آثاراً ، وزكا فى الأصالة نجاراً ، وخلوصاً إلى هذا المقام العلى السعيد الذى راق إظهاراً وإضماراً ، أمر به وأمضاه ، وأنفذ حكمه ومقتضاه ، أمير المسلمين عبد الله محمد ، إلى آخره ، للشيخ السكندى القاضى العدل الأرضى قاضى الجماعة ، وخطيب الحضرة العلية ، المخصوص لدى المقام العلى بالحظوة السنية ، والمسكاة الحفية ، الموقر الفاضل ، الخافل الكامل ، المبرور أبى الحسن ، ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل ، الأعز الماجد الأسنى المرفع الأحفل ، الأصلح المبارك الأكمل ، الموقر المبرور المرحوم أبى محمد بن الحسن ، - وصل الله عزته ! ووآلى رفعتة ومبرته ! ووهب له من صلة العناية الربانية أملة وبغيته ! - لما أصبح فى صدور القضاة العلماء مُشاراً إلى جلاله ، مستنداً إلى معرفته

موازنة من
المؤلف بين
لسان الدين
والنباهى
وابن زمرك

مرسوم من
لسان الدين
يتولى النباهى
الخطابة مع
القضاء

(١) تقول « احتفى فلان بفلان احتفاء » إذا بالغ فى إكرامه ، وأظهر السرور والفرح به ، أو أكثر السؤال عن حاله .

الخصوصية بكأله ، مطرزا على الإفادة العلمية والأدبية بمحاسنه البديعة وخصاله ،
محفوقا بمعقد الحكم النبوي ببركة عدالته وفضل خلاله ، وحل في هذه الحضرة
العلية المحل الذي لا يرقاه إلا عين الأعيان ، ولا يثوى مهاده إلا مثله من أبناء
المجد الثابت الأركان ، وموئل العلم الواضح البرهان ، والمبرزين بالماثر العلية في
الحسن والإحسان ، وتصدر لقضاء الجماعة فصدرت عنه الأحكام الراجحة الميزان ،
والأنظار الحسنة الأثر والعيان ، والمقاصد التي وفّت بالغاية التي لا تستطاع في هذا
الميدان ، فكم من قضية جلا بمعارفه مُشْكَلها ، ونازلة مبهمة فتح بإدراكه مقفلها ،
ومسألة عرف نكرتها وقرر مهملها ، حتى قرت بعدالته وجزالته العيون ، وصدقت
فيه الآمال الفاجحة والظنون ، وكان في تصديره لهذه الولاية العظمى من الخير
والخير ما عسى أن يكون ، كان أحق بالتشفيع لولايته وأولى ، وأجدر بمضاغفة
النعم التي لا تزال تترادف على قدره الأعلى ، فلذلك أصدر له أيده الله هذا الظهير
الكريم مشيدا بالترفيع والتنويه ، ومؤكدا للاحتفاء الوجيه ، وقدمه ، أعلى الله
قدمه ، وشكر نعمه ! خطيبا بالجامع الأعظم من حضرته ، مضافا ذلك إلى ولايته
ورفيع منزلته ، مرافقا لمن بالجامع الأعظم عمره الله بذكره من عليّة الخطباء ، وكبار
العلماء ، وخيار النبهاء الصلحاء ، فليتداول ذلك في جمعاته ، مظهرها في الخطة أثر
بركاته وحسناته ، عاملا على ما يقربه عند الله من مرضاته ، ويظفره بجزيل
مُثُوباته ، بحول الله وقوته ، انتهى .

فهذا ثناء لسان الدين المرحوم على القاضي ابن الحسن ، وإشادته بذكره^(١) ،
ويشارته وتدييره ولى قضاء القضاة وخطابة الجامع الأعظم بغير ناطة ، وهذان
المنصبان لم يكن في الأندلس في ذلك الزمان من المناصب الدينية أجلّ منهما ،
ولما حصل لسان الدين رحمه الله تعالى ما حصل من النفرة عن الأندلس ، وإعمال

(١) تقول « أشاد فلان بذكر فلان » إذا نوه به وأعلى قدره

الحيلة في الانفصال عنها ؛ لعلمه أن سعايات ابن زمرّك وابن الحسن ومن يعصدها تمكنت فيه عند سلطانه ، خلص منها على الوجه الذي قدّمناه ، وشمّر القاضي ابن الحسن عن ساعد إذايته ، والتسجيل عليه بما يوجب الزندقة ، كما سبق جميعه مُفَصَّلًا ، فحينئذ أطلق لسان الدين عنان قلمه في سبّ المذكور وثلبه^(١) ، وأورد في كتابه «الكتيبة السكّانة» ، في أبناء المائة الثامنة» من مثالبه^(٢) ما أنسى ما سطره صاحبُ القلائد في ابن باجة المعروف بابن الصائغ حسبنا نقلنا ذلك ، أعنى كلام الفتح ، في غير هذا الموضع ، ولم يقتنع بذلك حتى ألف الكتاب الذي سماه «بخلع الرّسن» كما ألعنا به فيما سبق ، والله سبحانه يتجاوز عن الجميع بمنه وكرمه ١ .

واعلم أن للسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الغاية في المدح والتّمدّح ، فتارة على طريق التّرسّل ، وطّورا على غيرها ، وقد أقذع وبالع رحمه الله تعالى في هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال ، وهو أشد من وقع النّبال ، ومنه ما وصف به الوزير ، الذي كان استوزره السلطان إسماعيل بن الأحمر الثّائر على سلطان ابن الخطيب ، حسبما سبق الإيّام بذلك ، والوزير هو إبراهيم بن أبي الفتح الأصلع الغوى ، إذ قال في المذكور وفي ابن عمه محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح العقرب الردي ، بعد كلام ، ما صورته : وما ظنك برجل مجهول الجدد ، موصوم الأبوة ؟ إلى أن قال : تنور خبز ، وبركة مرقّة ، وثعبان حلّواء ، وفاكهة مغنى ، في شح النفس ، متهاك في مسترذل الطبع ، عليه العذبوط^(٣) الغبي ابن عمه بسذاجة زعموا ، مع كونه قبيح الشكل ، بشمع الطلعة ، إلى أن قال : وفي العشر الأول من رمضان عام واحد وستين وسبعمائة تقبض على الوزير المشوم ، وابن عمه الغوى المشوم ، وولد الغوى مرسل الظفيرة أبعد الناس في مهوى الاغترار يخنثال في السرف والحلية ، سم من سم القوارير ، وابتلاء من الله لذوى الغيرة ، يروح نشوان العشيات ،

(١) ثلبه يثلبه ثلّبا - من مثال ضرب - ذمه وعدد نقائصه

(٢) المثالب : جمع مثلبة - بوزن منقصة - وبمعناها

(٣) لعله «العذبوط» وهى دويبة بيضاء ناعمة تشبه بها أصابع الجوارى

يرقص بين يديه ومن خلفه عدد من الأخلاف ، يعاقرون النبيذ في السكك الغاصة ، وولد العقرب الردى بضده قماءة^(١) وتقطبا ، تنبوعنهما العيون ، ويبكى منهما الخبز ، كأنهما صمتا عند المحاورة وأظلمتا عند اللألاء ، من أذلاء بنى النضير ، ومهتضى خبير ، فثقتا مليا ، وبودرَ بهما إلى ساحل المنكب ، قال الخبز : فمأرايت منكوبين أقبح شكلا ، ولا أفقد صبرا ، من ذينك التيسين الحبقين ، صلح الرأس ، ضخام الكروش ، مبهورى الأنفاس ، متلجلجى الأسنة ، قد ربت بمحل السيف من عنق كل جبار منها شحمة أترجية كأنها سنام الحوَار^(٢) ، لا يثيرون دما ، ولا يستزلون رحمة ، ولا يمهدون عذرا ، ولا يتزودون من كتاب الله آية ، قد طبع الله على قلوبهم ، وأخذهم بغيهم ، وعجل لهم سوء سمعهم ، وللحين أركبهم وجراءهم^(٣) - يعنى أولادهم - فى جفن غزوى تحف بهم المساعير من الرجال ، واقتفى بهم أثر قرقورة تحمل حاجا إلى الإسكندرية تورية بالقصد ، فلما لججوا قذف بهم فى لجة بعد استخلاص ماضبوا به^(٤) ، وتلكأ الأصلع الغوى فأثبت بجراحة أشعر بها هديه ، واختلط العقرب الردى فنال من جناب الله سخطا وضيقا ، تعالى الله عن نكيره ، فكان فرعون هذا الزمان جبروتا وعتوا وميته ، عجل الله لهم العذاب ، وأغرقهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، فسبحان من لا تضع الحقوق مع عدله ، ولا تنفسخ الآماد مع منازعة رداء كبريائه ، مرغم الأنوف ، وقاطع دابر الكافرين ، وفى ذلك أقول مستريحا ، وإن لم يكن - علم الله تعالى - شانى ، ولا تكرر فى ديوانى :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكنَّ من يُبصِرُ جنونك يعشق

ومن أمثالهم «مَنْ اسْتَغْضِبَ فَلَمْ يَغْضَبْ فَهُوَ حِمَارٌ» والله سبحانه يقول ومن أصدق من الله قليلا (وجزاء سيئة سيئة مثلها) والعفو أقرب للتقوى ، والقرب

(١) القماءة : قصر القامة (٢) الحوار - بزة غراب - ولد الناقة

(٣) الجراء : جمع جرو ، وهو الصغير من أولاد السكالب (٤) ضبوا به : تشبوا

والبعد بيده سبحانه ، وصدرت هذه الكلمة حين تعرف إجلالهم في الجفن
إلى الإسكندرية ، وبعد ذلك صح هلا كهـم :

كن من صروف الردى على حذرٍ لا يقبل الدهرُ عُذرَ مُعْتَذِرٍ
ولا تعول فيه على دعةٍ فأنت في قلعةٍ وفي سفرٍ
فكل رى يُفْضَى إلى ظمأٍ وكل أمن يدعو إلى غررٍ
كم شامخ الأنف ينثنى فرحاً بال عليه زمانه وخري
قل للوزير البليد قد ركضت في ربك اليوم غارةُ الغيرِ
يا ابن أبي الفتح نسبة عكست فلا بفتح أنت ولا ظفر
وزارة لم يَجِدْ مقلدها عن شؤمها في الوجود من وزرٍ (١)
في طالع النحاس حُزَّتْ رتبها وكل شيء في قبضة القدر
أى اختبارٍ لم نبال نصبته في جسد للنحوس أو نظر
بات له المشتري على غير وأحرق فيه قرصة القمر
يا طملاً ما عليه من عمل يا شجراً ما لديه من ثمر
يا مفرط الجهل والغباوة لا يُحْسَبُ إلا من جملة البقر
يادأثم الحقْد والفضاظة لا يَفْرِقُ ما بين ظالم وبري (٢)
يا كد اللون ينطفئ كذا من حسد يستطير بالشرر
يا عدل سرج يادن مقتعد ملآن من ريبة ومن قدر
يا واصلاً للحشاء ناشئة الليل ورَبَّ الضراط في السَّحَرِ
من غير لب ولا مراقبة لله في مورد ولا صَدَرِ (٣)
يا خاملاً جابه الفروج يرى صهر أولى الجاه فخر مفتخر
كانوا نَبِيطاً في الأصل أو حبشاً ما عنده عبرة بمعتبر

(١) الوزر - بفتح الواو والزاي - الملجأ (٢) برى : أصله برىء

(٣) المورد : الورود على الماء ، والصدر : الرجوع عنه

يا ناقص الدين والمروءة والعقل ومجرى اللسان بالهذر
 يا ولد السحق غير مكتم حديثه يا ابن فاسد الدبر
 يا بغل طاحونة يدور بها مجتهد السير مغمض البصر
 في أشهر عشرة طحنتهم فيارحى الشؤم والوارد
 والله ما كنت يا مشوم ولا أنت سوى عرة من العرر
 ومن أبو الفتح في الكلاب وهل لجاهل في الأنام من خطر
 قد ستر الدهر منك عورته وكان لليوم غير مستقر
 حانوت بزيمشى على فرش ونور عرس يحتال في حبر
 لا منة تتقى لمترك ولا لسان يبين عن خبر
 ولا يد تنمى إلى كرم ولا صفاء يريح من كدر
 عهدى بذاك الجبين قد مانت غضونه الغبر بالدم الهدر
 عهدى بذاك القفا الغليظ وقد مد لوقع المهند الذكر
 أهدتك للبحر كف منتقم ألقك للحوت كف مقتدر
 يا يتم أولادك الصغار ويا حيرتهم بعد ذاك في الكبر
 يا ثكل تلك السماء أمهم وظاعن الموت غير منتظر
 والله لانال من تخلفه من أمل بعدها ولا وطير
 والله لا مسخقان^(١) لا انتقلت رجلك منها إلا إلى سقر
 ألحقك الله بالهوان ولا رعاك فيمن تركت من عرر
 ما عوقب الليل بالصباح وما تقدم البرق عارض المطر
 وقال موريا بدم الأخوين ، في شأن سلطان تلك الدولة الذى أضحى أثرا بعد عين :
 ياسماعيل ثم أخيه قيس تأذن ليلى هى بانبلج
 دم الأخوين داوى جرح قلبى وعالجنى ، وحسبك من علاج

وهذه تورية بديعة ، لأن الأطباء يقولون : إن من خاصية دم الأخوين النفع من الجراح .

وقال رحمه الله تعالى : قلت في رأس الغادر بالدولة حين عُرِضَ على :
في غير حفظ الله من هامة هام بها الشيطان في كل واد
ما تركت حمدا ولا رحمة في فم إنسان ولا في فؤاد

وقال أيضا في تلك الدولة بعد كلام ، ما نصه : وانتدب قاضيهم الشيخ المتراخي الدين ، والفك المنحل العصب والعقيدة ، المرق في العمومية ، المشهور بقبول الرشوة ، أبو فلان فلان بن فلان ، الغريب الاسم والولاية ، ومفتيهم معدن الرياء والهوادة ، والبعد عن التخصص والحشمة ، والمثل في العاه ، والطرف في النهالك على الخطأ ، فلان البناء ، المسخر في بناء الحفيرة ، المستخدم في دار ابنه أجيرا ، مختضبا بالطين ، مضايقا في رمق العيشة ، وحبسك به دليلا على الحياء وفضل البنوة ، فلفقوا من خيوط العناكب شبهات تقلدوا بها حل العقد الموثق ، ديدنهم في معارضة صلب الملة بالأراء الخبيثة ، يتحكم الوقاح منهم في الحكم الذي نزل به شديد القوى على الذي لا ينطق عن الهوى ، بحسب شهوته ، تحكمه في غزل أمه إيثارا للعاجل ، واسترابة بالوعيد ، ففسخوا النكاح ، وحلوا محرم البضع للدائل ، وقد تأذن الله بنفسه ، وأجرى دمه نقدا قبل دفع فقده ، سبحانه حكم الحكام ، وقاهر الظلام ، وباء مشيخة السوء بلعنة الله وسوء الأحداث ، ومن يلعن الله فلن تجدله نصيرا ، انتهى .

ومن كلامه في «نفاضة الجراب» ، وقد ذكر وزير المغرب محمد بن علي بن مسعود

ما ملخصه : وأنه مجنون ، أحول العين ، وخش النظر ، يظن به الغضب في حال الرضا ، يهيج به المرار^(١) فيمكن زمانا خاف كلة مرقد ، يدخل إليه وعاء الحاجتين خوفا من إصهاره إلى فضاء منزله ، وتوحشه من أهله وولده ، إلى أن تضعف

(١) المرار : جمع مرة - بكسر الميم - وهي خلط من أخلاط البدن وهي الصفراء

وهي أقوى الأخلاط

سورة المِرَّة فيخف أمره ، قد باين زوجه مع انسحاب رواق الشبيبة ، وتوفر داعية الغبطة ، لحلف جره الوسواس السوداوى ، نستدفع بالله شر بلائه ، فاستعان مستوزره منه برأى الفضل بن سهل ويحيى بن خالد وأمثالهما ، تدارك الله رفق الإسلام بلفظه ! انتهى .

ولما دخل لسان الدين رحمه الله تعالى مدينة مكناسة الزيتون تأخر قاضيا الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن على بن أبى رمانة عن لقائه يوم وصوله ، فكتب إليه بما نصه :

جفا ابن أبى رمانة وَجَهَ مَقْدَمِي وَنَكَبَ عَلَى مُعْرَضًا وَتَحَامَانِي
وَحَجَّبَ عَنِّي حَبَهُ غَيْرَ جَاهِلٍ بِأَنِّي ضَعِيفٌ وَالْمَبْرَةُ مِنْ شَانِي
وَلَكِنْ رَأَيْتُ مَغْرِبِيَا مُحَقَّقًا وَأَنْ طَعَامِي لَمْ يَكُنْ حَبَ رَمَانٍ

زيارة القاضى أصلحه الله لثلى ممن لا يخافه ولا يرجوه ، تجب من وجوه :
أولها كونى ضيفا ، ممن لا يعد على الاختبار زَيْفًا ، ولا تجر مؤانسته حَيْفًا ، فضلا
عن أن تشرع^(١) رحما أو تسل سيفا ، وثانيها أنى أمت إليه من الطلب بنسب ، بين
موروث ومكتسب ، وقاعدة الفضل قد قررها الحق وأصلها ، والرحم كما علم تدعو
لمن وصلها ، وثالثها المبدأ فى هذا الغرض ، ولكن الواو لا ترتب إلا بالعرض ، وهو اقتفاء
سنن المولى أيدى الله فى تأنيسى ، ووصفه إياى بمقرئى وجليسى ، ورابعها - وهو عدة
كيسى ، وهزبرُ خيسى^(٢) ، وقافية تجنيسى ، ومقام تلوينى وتلبيسى - مودة رئيس
هذا الصنف العلمى ورئيسى ، فليت شعرى ما الذى عارض هذه الأصول الأربعة
ورجح مذاهبها المتبعة ، إلا أن يكون عمل أهل المدينة ينافيها ، فهذا بحسب النفس
ويكفيها ، وإن تعذر لقاء أو استدعاء ، وعدم طعام أو وعاء ، ولم يقع نكاح
ولا استراء ، فلم يتعذر عذريقتضيه الكرم ، والمنصب المحترم ، فالجِلة إلى التماس

(١) تشرع رحما : ترفعه ، وأراد تسدده فى وجه الخصم

(٢) الهزير : الأبد ، والخيى - بكسر الخاء - مسكنه

الحمد ذات استباق ، والعُرف بين الله والناس باق ، والغيرة على لسان مثله مفروضة ، والأعمال معروضة ، والله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة ، وإن كان لدى القاضى فى ذلك عذر فليُفِده ، وأولى الأعذار به أنه لم يقصده ، والسلام ، انتهى ويعنى بالمولى السلطان أبا سالم ابن السلطان أبى الحسن المربى ، وبرئيس هذا الصنف العلامة الخطيب أبا عبد الله بن مرزوق ، رحم الله الجميع !

ومن كلام لسان الدين - رحمه الله تعالى ! - رسالة فى أحوال خدّمة الدولة ومصايرهم ، وتنبيههم على النظر فى عواقب الرياسة بعيون بصائرهم ، عبر فيها عن دُوق ووجدان ، وليس الخبر كالعيان ، وخاطب بها الإمام الخطيب عين الأعيان ، سيدى أبا عبد الله بن مرزوق ، وكأنه - أعنى لسان الدين - أشار ببعض فصولها إلى نفسه ، ونطق بالغيب فى نكبتة التى قادته إلى رَمْسِهِ ، وكان ذلك منه عندما أراد التخلّى عن خدمة الملوك ، والتحلّى بزينة أهل التصوف والسلوك ، فلم يرد الله أن تكون مهجته نائية عن ساحة الظلمة خارجة ، وأراد سآحه الله وغفر له غمراً وأراد الله خارجة^(١) ، وصورة ما قال رحمه الله تعالى :

وأحسست منه - يعنى ابن مرزوق - فى بعض كتبه الواردة إلى صاغية^(٢) إلى الدنيا وحينئذ لما بلّاه من غرورها ، فحملنى الطور الذى ارتكبته فى هذه الأيام بتوفيق الله على أن أخاطبه بهذه الرسالة ، وحقها أن يجعلها خدّمة الملوك ممن ينسب إلى نبل ، ويلم بمعرفة ، مُصَحِّفاً يَدْرُسُهُ ، وشعاراً يلتزمه ، وهى : سيدى الذى يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافآت ، ولم تختلف فى مدحها الأفعال ولا تغيّرت الصفات ، ولا تزال تعترف بها العظام الرُفَات ، أطلقك الله من أسْرِ كل السكون كما أطلقك من أسْرِ بعضه ، وزهدك فى سمائه القانية وفى أرضه ، وحقّر الحظ فى عين بصيرتك بما يحملك على رَفْضِهِ ، اتصل بى الخبر السار من تركك لشأنك ، وإجناء الله تعالى

(١) هذا مثل قاله عمرو بن العاص لمن جاء مصر ليقتله فأصاب خارجة وهو

يظنه عمراً (٢) صاغية : ميلا ، وهو مصدر على جاء على زنة اسم الفاعل

رسالة
لسان الدين
فى خدمة الدولة

إياك ثمرة إحسانك ، وأنجياب ظلام الشدة الحالك ، عن أفق حالك ، فكبرت ،
وفي الفرج من بعد الشدة اعتبرت ، لا بسوى ذلك من رضا مخلوق يؤمر فيأتمر ،
ويدعوه القضاء فيبتدر^(١) ، إنما هو في^(٢) ، وظل ليس له الأمر شيء ، ونسأل الله
جل وعلا أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيها ، وأول معارج نفسك التي تقربها
من الحق وتُدنيها ، وكأني والله أحسُّ بشغل هذه الدعوة على سمعك ، ومضادتها
ولاحول ولا قوة إلا بالله لطبعك ، وأنا أنافرك إلى العقل الذي هو قسطاس الله تعالى
في عالم الإنسان ، والآلة لبث العدل والإحسان ، والملك الذي يبين عنه ترجان
اللسان ، فأقول : ليت شعري ما الذي غبط سيدي بالدنيا ، وإن بلغ من زبرجدها
الرتبة العليا ، ونفرض المثال بحال إقبالها ، ووَضِل حبالها ، وخشوع جبالها ، وضراعة
سبيلها ، ألتوقع المكروه صباحا ومساء ، وارتقاب الحوالة التي تدل من النعيم
البأساء ، ولزوم المنافسة التي تعادي الأشراف والرؤساء ؟ أترتب العتب على التقصير
في الكتب ، وضعينة جارِ الجنب ، ولولع الصديق بإحصاء الذنب ؟ النسبة وقائع
الدولة إليك وأنت برى ، وتطويقك الموبات وأنت منها عرى ؟ ألاستهدافك
المضار التي تنتجها غيره الفروج ، والأحقاد التي تضبطها ركبة السروج ، وسرحة
المروج ، ونجوم السماء ذات البروج ؟ ألتقليدك التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك ،
وصحت إليه فافتك ، من حاجة لا يقتضى قضاءها الوجود ، ولا يكفيها الركوع الملك
والسجود ؟ ألقطع الزمان بين سلطان يُعبد ، وسهام للغيوب تكبد ، وعجاجة شر
تلبد ، وأقبوحة تخذ وتؤبد ؟ الوزير يُصانَع ويُدارى ، وذى حجة صحيحة يُجادل
في مرضاة السلطان ويُمارى ، وعورة لا توارى ؟ ألباكرة كل قرن حاسد^(٣) ، وعدو
مستاسد ، وسوق للإنصاف والشفقة كاسد ، وحال فاسد ، أوفود تنزاحم بسدّتك
مكلفة لك غير مافي طَوْفك ، فإن لم يقع الإسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ؟

(٢) في : ظل

(١) يبتدر : يسرع

(٣) في ب « كل غرن » ولعله محرف عما أثبتناه أو أصله « غر حاسد »

الجلساء بيبابك ، لا يقطعون زمان رجوعك وإيابك ؟ إلا بقبيح اغتيالك ،
فالتصرفات تمقت ، والقواطع توقت ، والألاق^(١) تبث ، والسعايات تحث ، والمساجد
يشتكى في حلقتها البث ، يعتقدون أن السلطان في يدك بمنزلة الحمار المدبور ،
واليتيم المحجور ، والأسير المأمور ، ليس له شهوة ولا غضب ، ولا أمل
في الملك ولا أرب ، ولا موجدة لأحد كأمته ، وللشر ضامنة ، وليس في نفسه
عن رأى نفرة ، ولا بإزاء ما لا يقبله نزوة ولا طفرة ، إنما هو جارحة
لصيدك ، وعان في قيدك ، وآلة لتصرف كيدك ، وأنت علة حيفه ، ومسلط
سيفه ، الشرار يَسْمُلون عيون الناس باسمك ، ثم يمزقون بالغيبة مرق جسمك ،
قد تمخلهم الوجود أخبث مافيه ، واختارهم السفية فالسفيه ، إذ الخير يستره الله تعالى
عن الدول ويخفيه ، ويقنعه بالقليل فيكفيه ، فهم يمتاحون بك ويولونك الملامة ،
ويفتحون عليك القول ويسدّون طرق السلامة ، وليس لك في أثناء هذه
إلا مالا يعوزك مع ارتفاعه ، ولا يفوتك مع انقشاعه ، وذهاب صدّاعه ، من غذاء
يشبع ، وثوب يقنع ، وفراش ينيم ، وخديم يقعد ويقيم ، وما الفائدة في فرش
تحتها جمر الغضى ، ومال من ورائه سوء القضا ، وجاه يحلق عليه سيف مُنْتَضَى ،
وإذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لا تملك ، واللجاج حول المسقط الذى تعلم أنها
فيه تهلك ، فكيف تنسب إلى نبل ، أو تسير من السعادة فى سُبُل ؟ وإن وجدت
فى الجلوس بمجلس التحية ، بعض الأريحية ، فليت شعرى أى شئ زادها ، أو معنى
أفادها ؟ إلا مباكرة وجه الحاسد ، وذى القلب الفاسد ، ومواجهة العدو المستاسد ،
أو شعرت ببعض الإيئاس ، فى الركوب بين الناس ، ما ألتذت إلا بحلم كاذب ،
أو جذبها غير الغرور جاذب ، إنما راكبك من يُحدّق إلى الحلية والبزّة ، ويستطيل
مدة العزة ، ويرتاب إذا حدثت بخبرك ، ويتبعم بالنقد والتجسس مواقع نظرك ،
ويمنعك من مسامرة أنيسك ، ويحتال على فراغ كيسك ، ويضمّر الشر لك ولرئيسك ،
وأى راحة لمن لا يباشر قصده ، ويمشى إذا شاء وحده ؟

(١) الألاقى : الشدائد ، واحدها ألقىة

ولو صح في هذه الحال لله تعالى حظ وهبه زهيدا ، أو عين الرشد عملا حميدا ،
لساغ الصَّاب^(١) ، وخَفَّتْ الأوصاب ، وسَهَّلَ المصَّاب ، لكن الوقت أشغل ، والفكر
أوغل ، والزمن قد عمرته الحصص الوهمية ، واستنفدت منه الكمية ، أما ليله ففكر
أو نوم ، وعتب بحراء الضرائر ولوم ، وأما يومه فتدير ، وقبيل ودَّير ، وأمور
يَعْيَاهَا تَبِير^(٢) ، وبلاء مُبِير^(٣) ، ولغظ لا يدخل فيه حكم كبير ، وأنا بمثل ذلك خبير ،
والله يأسدي وَمَنْ فلق الحَبِّ ، وأخرج الأَبَّ^(٤) ، وذرا من مشى ومن دَبَّ ، وسمى
نفسه الربَّ ، لو تعلق المأل الذي يحمره هذا القدح ، ويورى سقيطه هذا القدح ،
بأذيال الكواكب ، وزاحت البدر بدره بالمناكب ، لما ورثه عقب ، ولا خلص
به محتقب^(٥) ، ولا فاز به سافر ولا منتقب ، والشاهد الدول ، والمشائم الأول ، فإن
الرباع المُتَمَنَّا ؟ وأين الديار المبتناة ؟ وأين الحوائط المغترسات ؟ وأين الذخائر
الختلست ؟ وأين الودائع المؤلمة ؟ وأين الأمانات الحاملة ؟ تأذن الله بتبجيرها ، وإذناء
نار التبار من دنائرها ، فقلما تلقى أعقابهم إلا أعراء الظهور ، مترممين لجريات
الشهور ، متعللين بالهباء المنثور ، يُطْرَدُونَ من الأبواب التي حجب عنها آبؤهم ،
وعرف منها إباؤهم ، وشم من مقاصيرها عَنَبُهم وكَبَاؤهم ، ولم تسامحهم الأيام إلا في
إرث محرر ، أو حلال مقرر ، وربما تحقَّقه الحرام ، وتعدَّز منه المَرَام ، هذه - أعزك
الله ! - حال قبولها مع الترفيه ، ومالها المرغوب فيه ، وعلى فرض أن يستوفي العمر
في العز مُسْتَوْفِيه ، وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم ، وحوث بَغْي يبتلع ويلتقم ،
ومُطَبَّق يحجب الهواء ، ويظيل في التراب النَّوَاء ، وثعبان قيد يعض الساق ،
وشؤبوب عذاب يمزق الأَبْشار الرَّفَاق ، وغيلة يهديها الواقب الغاسق ، ويجرعها

(١) الصاب : عصارة شجر مر كرية الطعم (٢) تبير - بفتح التاء - اسم جبل بعينه

(٣) مبير : مهلك ، أباره يبره إبارة أهلكته

(٤) الأب - بتشديد الباء - المرعى وطعام الحيوان

(٥) محتقب : محتمل ، وأصله الذي يضع في حتميته

العدو الفاسق ، فصرف السوق ، وسلعته المعتادة الطروق ، مع الأفول والشروق ،
 فهل في شيء من هذا مُعْتَبَرٌ لنفس حرة ، أو ميساوي جرعة حال مرة ؟ واحسرتا
 للأحلام ضلت ، وللأقدام زلت ، ويالها مصيبة جلت ، ولسيدى أن يقول : حكمت
 باستئصال الموعظة واستجفائها ، ومُرَاوِدَةُ الدنيا بين خلانها وأكفائها ، وتناسى عدم
 وفائها ، فأقول : الطيب بالعلل أدرى ، والشفيق بسوء الظن مُعَرِّى ، وكيف لا وأنا
 أقف على السحاآت بخط يد سيدى من مَطَارِحِ الاعتقال ، ومشاقف النوب الثقال ،
 وخطوات الاستعداد ، لقاء الخطوب الشداد ، ونَوْشِ الأَسِنَّةِ الحِداد ، وحيث يحمل
 بمثله أن لا يصرف في غير الخضوع لله تعالى بنانا ، ولا يثنى لخلق عنانا ، وأتعرّف أنها
 قد ملأت الجوّة والدوّ ، وقصدت الجاد والبوّ ، تقتمح أكف أولى السّمات ،
 وحَفَظَةَ المذمّات ، وأعوان النّوب الملمات ، زيادّة في الشقاء ، وقصدا بريامن الاختيار
 والانتقاء ، مشتملة من التجاوز على أغرب من العنقاء ، ومن النفاق على أشهر من
 البقاء ، فهذا يوصف بالإمامة ، وهذا يُجْعَلُ من أهل الكرامة ، وهذا يكلف
 الدّعاء وليس من أهله ، وهذا يطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله ، إلى
 ما أخَفَظَنِي والله من البحث عن السموم ، وكتب النجوم ، والمذموم من العلوم ،
 هلا كان مَنْ ينظر في ذلك قد قوطع بقاتا ، وأعتقد أن الله قد جعل لزمان الخير
 والشر ميقاتا ، وأنا لا نملك موتا ولا نشورا ولا حياتا ، وأن اللوح قد حَصَرَ
 الأشياء محوّا وإثباتا ، فكيف نرجو لما منع منّا لا أو نستطيع مما قدر إفلاتا؟ أفيدونا
 ما يرجح العقيدة المقررة فتحوّل إليه ، وبينوا لنا الحق نُعَوِّلُ عليه ، الله الله
 يا سيدى في النفس المرشحة ، والذات المحلاة بالفضائل الموشّحة ، والسلف الشهير
 الخير ، والعمر المُشْرِف على الرحلة بعد حَثِّ السير ؛ ودع الدنيا لبنيتها أوكس
 حظوظهم ! وأخسّ لحوظهم ! وأقل متاعهم ! وأعجل إسرائهم ! وأكثر عناءهم !
 وأقصر آناءهم !

مَنَّمْ إِلَّا مَا رَأَيْتُ وَرَبِّمَا ، نُعِيِي السّلامه

والناس إما جائر أو حائر يشكو ظلامه
 وإذا أردت العزلا ترزأ بنى الدنيا قلامه
 والله ما احتقب الحريص سوى الذنوب أو الملامه
 هل ثم شك فى المعاد الحق أو يوم القيامة
 قولوا لنا ما عندكم أهل الخطابة والإمامه

وإن رَمَيْتَ بأحجارى ، وأوجرت المرمن أشجارى ، فوالله ما تلبست اليوم منها
 بشئ قديم ولا حديث ، ولا استأثرت بطيب فضلا عن حبيث ، وما أنا إلا عابرُ
 سبيل ، وهاجر مرعى وَبَيل ، ومرتبِعٌ وَعَدًا قدر فيه الإنجاز ، وعاكف على حقيقة
 لا تعرف الجاز ، قد فررت من الدنيا كما يُفَرُّ من الأسد ، وحاولت المقاطعة حتى
 بين روحى والجسد ، وغسل الله قلبى والله الحمد من الطمع والحسد ، فلم أبق عادة
 إلا قطعتها ، ولا جُنَّةً للصبر إلا أدرَعْتُهَا ، أما اللباس فالصوف ، وأما الزهد فيما
 بأيدي الخلق فمعروف ، وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف ، ووالله لو علمت
 أن حالى هذه تنصل ، وأن عُرَاهَا لا تنفصل ، وأن ترتبى هذا يدوم ، ولا يحيرنى
 الوعد المحتوم ، والوقت المعلوم ، لمت أسفًا ، وحسبى الله وكفى ، ومع هذا يا سيدي
 فالموعظة تتلقى من لسان الوجود ، والحكمة ضالة المؤمن يطلبها ببذل الجهود ،
 ويأخذها من غير اعتبار بمحلها المذموم ولا الحمود ، ولقد أعملت نظرى فيما يكافئ
 عنى بَعْضَ يَدِكَ ، أو ينتهى فى الفضل إلى أَمَدِكَ ، فلم أرك الدنيا كفاء هذا
 لو كنت صاحب دنيا ، وألقيت بذل النفس قليلا لك من غير شرط ولا تُنْيَا^(١) ،
 فلما ألهمنى الله لمخاطبتك بهذه النصحية المفرغة فى قالب الجفاء ، لمن يثبت عين الصفا ،
 ولا يشيم^(٢) بآفة الوفا ، ولا يعرف قاذورة الدنيا معرفة مثلى من المتدسسين بها
 المنهمكين ، وينظروا غَوَّارَهَا القارح بعين اليقين ، ويعلم أنها المومسة التى حُسِّنَتْهَا

(١) الثنيا - بضم الثاء وسكون النون - الاستثناء

(٢) يشيم : ينظر ، والبارقة : السحابة ذات البرق

زور ، وعاشقها مغرور ، وسرورها شرور ، تبين لى أننى قد كافأت صنعتك المتقدمة ،
 وخرجت عن عهدتك الملتزمة ، وأتحضتُ لك النصيح الذى يُعزُّ بعز الله ذاتك ،
 ويطيب حيائك ، ويحيى موانك ، ويريح جوارحك من الوصب ، وقلبك من
 النَّصب ، ويحقر الدنيا وأهلها فى عينك إذا اغتَبَرْتَ ، ويلاشى عظامها لديك إذا
 اختبرت ، كل من تقع عينك عليه فهو حقير قليل ، وفقير ذليل ، لا يَفْضُلُك بشيء
 إلا باقتناء رشد أو ترك غى ، أثوابه النبيلة يجرداها الغاسل ، وغرورة عزه يقصاها
 القاصل ، وماله الحاضر الحاصل ، يعبث فيه الحسام الفاصل ، والله ما تعين للخلف
 إلا ماتعين السلف ، ولا مصير المجموع إلا إلى التلف ، ولاصح من الهياط والمياط ، والصياح
 والعياط ، وجمع القيراط إلى القيراط ، والاستظهار بالوزعة والأشرط ، والخطب والخباط ،
 والاستكثار والاعتباط ، والغلو والإشطاط ، وبناء الصَّرْح وعمل السَّاباط ، ورفع
 العُمد وإدارة الفُسطاط ، إلا أمل يذهب القوة ، وينسى الآمال المرَّجوة ، ثم
 نفَس يصعد ، وسكرات تتردد ، وحسرات لفراق الدنيا تتجدد ، ولسان يثقل ، وعين
 تبصر الفراق وتمقل ، فل هو نبأ عظيم أتم عنه مُعرضون ، ثم القبر وما بعده ، والله
 مُنجز وعيده ووعدده ، فالإضراب الإضراب ، والتراب التراب ، وإن اعتذر سيدى
 بقلة الجَلَد ، لكثرة الولد ، فهو ابن مرزوق لا ابن رزاق ، وييده من التسبب
 ما يتكفل بامساك الأرماق ، أين النَّسخُ الذى يتبلغ^(١) الإنسان بأجرته ، فى كن
 حجرتة ؟ لا بل السؤال الذى لا عار عند الحاجة بمرعته ، السؤال والله أقوم طريقا ،
 وأكرم رفيقا ، مِنْ يَدٍ تمتد إلى حرام ، لا يقوم بمَرَام ، ولا يؤمن من ضرام ،
 أحرقت فيه الحلل ، وقُلِبَت الأديان والملل ، وضربت الأبخار ، ونُحِرَت العِشار ،
 ولم يصل منه على يدي واسطة السوء العشار ، ثم طلب عند الشدة قفضح ، وبان
 شؤمه ووَضَح ، اللهم طهر منها أدينا وقلوبنا ، وبلغنا من الانصراف إليك مطلوبنا

(١) النسخ : أراد به كتابة السكتب لمن يشاء ، ويتبلغ : يتوصل

وعرفنا بمن لا يعرف غيرك ، ولا يسترفد إلا خيرك ، يا الله .
 وحقيق على الفضلاء إن جَنَحَ سيدى منها إلى إشارة ، أو أعمل فى اجتلابها
 إضْبَارَه (١) ، أو لَيْسَ منها شارة ، أو تشوّف لخدمة إمارة ، أن لا يحسنوا ظنونهم
 بعدها بآبِ ناس ، ولا يغتروا بِسِمَةِ ولا خلق ولا لباس ، فما عدا عما بدا ؟ تَقْضَى
 العمر فى سجن وقيد ، وعمرى وزيد ، وضر وكيد ، وطراد صيد ، وسعد وسعيد ،
 وعبد وعبيد ، ففى تظهر الأفكار ، ويقر القرار ، وتلازم الأذكار ، وتشام الأنوار ،
 وتستجلى الأسرار ؟ ثم يقع الشهود الذى يذهب معه الإخبار ، ثم يحق الوصول
 الذى إليه من كل ما سواه الفرار ، وعليه المَدَار ، وَحَقُّ الحق الذى
 ما سواه فباطل ، والفيض الرحمانى الذى رَبَّاه الأبد هاطل (٢) ، ما شأت مخاطبتى
 لك شائبة ترين ، ولقد مَحَضْتُ لك ما يمحضه الحبيب للحبيب ، فتحمل جنائى
 الذى حَمَلْتُ عليه غيره ، ولا تظنّ بى غيره ، وإن لم تعذرني مكاشفة سيادتك
 بهذا النَّثْ . فى الأسلوب الرث ، فالحق أقدم ، وبقاؤه لا يهْدَم ، وشأنى معروف
 فى مواجهة الجبارة على حين يَدَى إلى رِفْدِهِم ممدودة ، ونفسى فى النفوس المتهافئة
 عليهم معدودة ، وشبانى فاحم ، وعلى الشهوات مزاحم ، فكيف بى اليوم مع
 الشيب ، ونُصْحُ الجَّيْب ، واستكشاف العيب ، إنما أنا اليوم على كل من عرفنى
 كلُّ ثَقِيل ، وسيف العدل فى كفى صَقِيل ، أعذل أهل الهوى ، وليست النفوس
 فى القبول سَوَا ، ولا لكل مَرَض دَوَا ، وقد شَفِيتُ صدرى ، وإن جهلت
 قدرى ، فاحملنى - حملك الله تعالى ! - على الجادة الواضحة ، وسحب عليك ستر الأبوّة
 الصالحة ، والسلام . انتهت الرسالة البديعة فى بابها ، الآتية من الموعظة بلبابها ،
 ذات النصيحة الصريحة التى يتعين على كل عاقل خصوصا مَنْ يريد خدمة الملوك
 التمسك بأسبابها .

(١) الإضبارة - بكسر الهمزة - الحزمة من الصحف ومن السهام

(٢) الرباب : السحاب ، وهاطل : منسكب بالمطر ، و « الأبد » منصوب

قلت : وقد رأيت بخط الإمام العلامة الخطيب ابن مرزوق على هامش قول لسان الدين أول الكلام « وأحسست منه في بعض كتبه إلى آخره » ما صورته : تَوَهَّم مالا يقع ، بل لما تجلّت عنى سحب النكبة والامتحان جازمت بالرحلة ، وعزمت على النقلة ، وفرت عن خدمة السلطان ، وملازمة الأوطان ، قال ابن مرزوق : والعجب كل العجب أن جميع ما خاطبني به أبقاه الله تعالى ! - تحلّى به أجمع ، وابتلى بمامنه حَذَرٌ ، فكانه خاطب نفسه وأنذرها بما وقع له ، فالله تعالى يحسن له الخاتمة والخلاص ، انتهى .

وكتب تحت كلام ابن مرزوق هذا بخطه ابن لسان الدين على ، ما صورته : صدق والله سيدي أبو عبد الله بن مرزوق ، كان الله تعالى له ! قاله ولده ابن المؤلف . قلت : وهذا الذي قاله ابن مرزوق كان في حياة ابن الخطيب ، ولذلك دعا له بالبقاء ، وبحسن الخاتمة والخلاص ، وقد أسفر الغيب عن محنته ، ثم قتله على الوجه الذي وصفه أثناء هذه الرسالة ، إذ قال : وأماضه من عدوّ يتحكم وينتقم ، وحوث بغى يبتلع ويلتقم ، ومُطَبَّق يحجب الهواء ، ويطيل في التراب الثواء ، وتعبان قيد يعض الساق ، وشؤبوب عذاب يمزق الأبخار الرقاق ، وغيلة يهديها الواقب الغاسق ، ويخرعها العد والغاسق ، فصرف السوق ، وسلعته المعتادة الطروق ، مع الأنول والشروق ، فإنه رحمه الله تعالى حصل له ما ذكر ، ثم اغتاله ليلا وخنقه في محبسه عدوه الغاسق سليمان بن داود ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، فالله تعالى يثيبه بهذه الشهادة !.

وقد تذكرت هنا مرثية ابن صابر المنجنيقي ، وهي :

مرثية لابن
صابر المنجنيقي

هل لمن ير تجي البقاء خلود وسوى الله كل شيء يبيد^(١)
والذي كان من تراب وإزعا ش طويلا إلى التراب يعود

(١) « سوى الله » مستثنى تقدم في أول الكلام ، والأصل : وكل شيء يبيد سوى الله ، ونظيره قول الشاعر :

خلا الله لأرجو سواك ، وإنما أعد عيالي شعبة من عيالكا

فصير الأنام طراً لما صا ر إليه آبأؤهم والجدود^(١)
 أين حوّا أم أين آدم إذا هما الملك والثوا والخلود
 أين هابيل أين قابيل إذ هـذا لهذا معاند وحسود
 أين نوح ومن نجما معه بالـفلك والعالمون طراً فقيـد
 أسلمته الأيام كالطقل للمو ت ولم يغن عمره الممدود
 أين عاد بل أين جنة عاد إرّم أين صالح وثمود
 أين إبراهيم الذى شاد بيت الله فهو المعظم المقصود
 أين إسحاق أين يعقوب أم أين بنوه وعدّهم والعديد
 حسدوا يوسف أخاهم فكادوا ومات الحساد والمحسود
 وسليمان فى النبوة والملـك قضى مثل ما قضى داود
 ذهباً بعد ما أطاع لذا الخلق وهذا له أـلـين الحديد
 وابن عمران بعد آياته التسـبع وشقّ الخضمّ فهو صعيد^(٢)
 والمسيح ابن مريم وهو روح الله كادت تقضى عليه اليهود
 وقضى سيد النبيين والها دى إلى الحق أحمد الحمود
 وبنوه وآله الطاهرون الزُّ هـرُ صلى عليهم للمعبود
 ونجوم السماء منتثرات بعد حين وللّهواء ركود
 ولنار الدنيا التى توقد الصخر خمود وللمياه جمود
 وكذا للثرى غداة يقوم الناس منها تـزـلزل وهمود
 هذه الأمهات نار وترب وهواء رطب وماء برود
 سوف تنفى كما فنينا فلا يبقـى من الخلق والد ووليد
 لا الشقى الغوى من نوب الأيا م ينجو ولا السعيد الرشيد

(١) الثوا : أصله الثواء - بالمد - فتصره حين اضطر ، ومعناه الإقامة

(٢) ابن عمران : هو موسى كليم الله ، والخضم : البحر ، والصعيد : الأرض اليابسة

ومتى سَلَّتِ المنايا سيوفاً فالموالى حَصِيدُها والعبيد^(١)
وأما قصيدة ابن عبدون الأندلسى التى رثى بها بنى الأفطس وذَكَرَ فيها كثيراً
من الملوك الذين أبادهم الدهر وطحنهم بِرَحَاهِ وصيرهم أترأً بعد عين قفيها ما يوقظ
النوام ، وأولها :

الدهر يَفْجَعُ بعد العين بلاثر فما البسكاء على الأشباح والصُّور ؟
وبالجملة فالأمر كما قال ابن الهبّارية :

الموت لا يبقى أحد لا والداً ولا ولداً .

مات ليبد ولُبدٌ وخلد الفرد الصمد

كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، اللهم اختم لنا
بالحسنى ، وردنا إليك رداً جميلاً .

وتذكرت هنا أيضاً مراثية على روى مراثية المنجنيق السابقة منها :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بعدهم وثمود

بينما هم على الأسرة والأمنّاط أفضت إلى التراب الحدود

ثم لم يَنْقُضِ الحديث ولكن بعدذا الوعدُ كله والوعيدُ

وأطباء بعدهم لحقوهم ضل عنهم سَعَوُطُهم واللُدُودُ^(٢)

وصحيح أضحى يعود مريضاً وهو أدنى الموت ممن يعود

وما أحكم قول السلطان أبى على ابن السلطان أبى سعيد المرينى يخاطب أخاه

السلطان

أبى على المرينى السلطان أبا الحسن وقد حصره بِسِجِّ لِمَاسَةٍ حتى أخذه قَنَرًا :

فلا يفرنك الدهر الخووف فكم أباد مَنْ كان قبلى يا أبا الحسن

الدهر مذ كان لا يبقى على صفة لا بد من فرح فيه ومن حزن

أين الملوك التى كانت تهابهم أسد العرين ثَوَّأ فى اللحد والكفن

(١) الموالى : جمع مولى ، وهو هنا السيد

(٢) السعوط : ما يوجر فى الأنف ، واللدود - بفتح أوله - ما يصب فى أحد

شقى النعم من الدواء

بعد الأسرة والتيجان قد محيت رسومها وغفت عن كل ذي حسن^(١)
فاعمل لأخرى وكن بالله مؤتمراً واستغن بالله في سر وفي علان
واختر لنفسك أمراً أنت أمره كأنتي لم أكن يوماً ولم تكن
ودخل السلطان أبو الحسن سيجلماسة عنوة على أخيه السلطان أبي علي عمر
سنة ٧٣٤ ، وجاء به في الكبيل^(٢) لفاس ، ثم قتله بالفصد والخنق في ربيع الأول
من السنة ، وكان القبض عليه في الحرم ، رحمه الله تعالى !

ومما وجد مكتوباً على قصر بعض السلاطين :

قد كان صاحب هذا القصر مغتبطاً في ظل عيش يخاف الناس من باسه
فبيد ———— نما هو مسرور بلذته في مجلس اللهو مغبوط بجلاسه
إذ جاءه بفتنة مالا مردله فخر ميتاً وزال التاج عن راسه

رجع إلى أخبار لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى - قلت : وقد زرت
قبراً رحمه الله تعالى بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذي يقال له باب الشريعة ، لقبر لسان الدين
وهو يسمى الآن باب المحروق ، وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض ، بل
ينزل إليه بانحدار كثير ، ويزعم الجبل من عوام فاس أن الباب المذكور إنما سمي
بباب المحروق لأجل ما وقع من حرق لسان الدين به حين أخرجه بعض أعدائه
من حفرة كما مر ، وليس كذلك ، وإنما سمي باب المحروق من دولة الموحدين ،
قبل أن يوجد لسان الدين ولا أبوه ، بسبب ثائر ثار على الدولة ، فأمسك وأحرق
في ذلك الحبل ، والله غالب على أمره ، وحصل لي من الخشوع والحزن عند زيارة
قبره - رحمه الله تعالى ! - مالا مزيد عليه ، جعل الله له تلك الحن كفارة وطهرة ، فإنه
كان آية الله علماً وجلالة وحكمة وشهرة .

وقد تذكرت عند كتيبي هذا الحبل رسالة كتبها بعض أئمة المغرب في عزاء

(١) غفت : أصله بمعنى درست وانمجت وضمنه هنا معنى خلت

(٢) السكيل - بفتح السين - وسكون الباء - القيد

تليق
أهل العرب
بق العزاء

الوزير الشهير أبي جعفر بن جبير الأندلسي رحمه الله تعالى إلى بنيهِ ، وهى مما يصلح
أن يوصف بمثلها لسان الدين رحمه الله تعالى ، وفيها عزاء بمن مضى ، ونصها :
عزاء يا كواكب الهدى ، فى بدركم الذى تحييه الردى ^(١) ، ونجّع به الفضل والندى ،
فقل للشهب أن تنكدر على فراقه ، وللصبح أن يخبو نور إشراقه ، وللريح أن
تمزق صدارا ، وللأهلة أن لا تعرف إبدارا ، وللليل أن يشتمل خميسة الحزن ،
وللسماء أن تبسكه بأدمع المزن ، وللرعد أن ينتحب لوفاته ، وللبرق أن يحكى
برجفانه أفئدة عُقَاتِهِ ^(٢) ، وللثريا أن ينغصم سوارها ، وللشمس أن تنكسف أنوارها ،
وللنشرة أن تنثر كواكبها ، وللجوزاء أن تنفض مناكبها ، وللنيرات أن ترفض
مواكبها ، وللارامح أن يبيت أعزلا ، وللبدرا أن لا يألف منزلا ، والمجرة أن
يفيض دمعاً نهرها ، وللغميصاء أن يطرد بكأؤها وسهرها ، وللروض أن يفارق
إمراعه ، وللأورق أن يهتف بما راعه ، وللغصون أن تنهصر لهفته ، وتنقص أسفا
على ختفه ، ولكن هو الحمام يختل ويختل ، ولا يخجل بمن يتر ، لعدم ما أوجده
الكون ، ويذبل مَنْ أكنفه الصون ، وأين بنا عن مكافح لا نقاتله ، ورام
أرواحنا مقاتله ، لا يديه ناصرة ، وعزيمته قاصرة للفياصرة ، ويمينه كاسرة للأكاسرة
لم يبق من رسم ، لطسم ، ولا من إحسان ، لغسان ، ولا من أياذ ، لإياد ، ولا من
سلطان ، لقحطان ، ولا من نجيب ، لتجيب ، ولا شرف ضخم ، للخم ، لم يكن له عن
اليمنين إقصار ، ومنهم الأنصار ، وهم أسماع للنبي وأبصار ، وعمد إلى المصابيح
من مضر يطفئها ، هذا والوحى ينزل فيها ، ولم يصخ فى الصديق ، إلى التصديق ،
وأصمى الفاروق برداه ، وحكم فيه أبا لؤلؤ ومُدَاه ، وأمكن صرف الأقدار ، من شهيد
الدار ، ولم يرع من على بالبسالة ، والذبل العسالة ^(٣) ، ولا أبقى سبطيه وقد تفقات
عنهما بيضة الرسالة ، وأذهب الزبير حواري الرسول ، وحفظه وهو بأيدي الملائكة

(١) تحييه : تنقصه وأخذ منه ، والردى : الهلاك

(٢) عفاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف

(٣) الذبل : جمع ذابل ، وهو الرمح ، والعسالة : الشديدة الاهتزاز

مغسول ، وأفات ابن معاذ^(١) ولم يخجل بقوته ، على أنه اهتز العرش لموته ، وأردى
 يحمزة ومقعدته من النبوة ، مقعد الأبوة ، وشفى من عمار صدور الأسفل ، وأردى
 مالكاً بشربة من غسل ، ولم يعبأ بمضاء عمرو ، ولا بحلم معاوية ودهاء عمرو ،
 فيأله من خطب ، مؤد بكل يابس ورطب ، يشرب ماء الأعمار ، ويجعل الأجداث
 منازل الأبقار ، ويلوك السوق والأملأك ، ولا يبالي أية لأك ، ولا يقبل شفيعة ،
 ولا يفادر منحطاً ولا رفيعاً ، هاهو اعتمد نور عللاً فكسفه ، وطود حلم فكسفه ،
 وأعلق المجد في حبله ، وأقصد الفضل بنباله ، ونجح كنانة ، بسهم لم ينثل مثله من
 كنانة ، فيا طارق الأعين لقد بوأت بأنفس الأعلاق ، ويا ناعية لقد نعمت بأسق
 الأخلاق ، رؤيداً أسائلك ، عمن لم تضيع لديه وسائلك ، أين سماحته وطلافته ؟
 أين كلفه بالحمد وعلاقته ؟ ما الذي ثنى عطفه عن الارتياح ؟ أم أين عافيه من ذلك
 الامتياح ؟ أم من يؤلف أمنية كما ألفت السحب أيدي الرياح ؟ فيأهبة الحمد
 أطوى عزفك فما تنشق ، وياربة المجد أقصرى طرفك فما تعشق ، ويا معشر
 عفاته ، كيف حبيتم وقد علمتم بوفاته ؟ ويا زمر أماله ، صفرت أيديكم من إجماله ،
 ويا أخاير صحابه ، أين مواقع صحابه ؟ ويا بني ولاته ، من يتبوا مقام علانه ؟
 ويا منافسى شيمه ، من يجود بمثل ديمه ؟ ويا منازعى كرمه ، من يطيف المعتمنين
 بمثل حرمة ؟ ويا حاسدى هممه ، من له كحفاظه وذمه ؟ سيدي لقد أضاعت
 مساعيك وأشرقت ، وأغصت الحاسدين طراً وأشرقت ، وحسبهم أن لم ينتهبوا
 إلا إذانت ، ولا نطقوا إلا حين مت ، ولين ملأك وصحبك ، أن أحيتك
 صنائعك وقد قضيت نحبك ، وإن خُم فناؤك ، فقد أبقي الحياة الخالدة ثناؤك :

ردت صنائعه عليه حياته فكأنه من نشرها منشور
 والناس ماتهم عليه واحد في كل دار أنة وزفير

(١) ابن معاذ : هو سعد بن معاذ ، وفي موته يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

وما اهتز عرش الله من أجل هالك سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو

وهذا هو الذي يعنيه هنا صاحب هذه الرسالة

سيدى ، أما تجيب صرّخه لهفان ، أم عدك عن الجواب أنك فان ، سيدى
 من لأمك ، يسط أناملك ، من للمرملات الصّرانك ، يارشادك وآرائك ؟ من
 لقربانك ، بصلتك وحبانك ؟ من لأخيك ، بمواق أوأخيك ؟ من لأبنائك ،
 بلطف إحنائك ؟ انفض شملهم^(١) وكان جميعاً ، ونادوك لوناذوا منك سميعاً ، هذا
 كبيرهم يدعوك فلا تجيبه ، وقد فت الأضلاع وجيبه ، يبكى عند تلك الرجام ،
 بأدمع سجام ، وقد ألهمت الزفرات حشاه ، وألح الدمع يحفنه حتى أعشاه ، والأصاغر
 ما لهم بعدك مغزع ، ورضيعهم تسلب به الأنفس رحمة وتنزع ، لا يدري ما جزع
 عليك فيجزع ، لشد ما أذابتهم وقدة الأوار ، حين عدموا منك كرم النجوى والجوار ،
 أف لدهر رماهم بالأجوار ، وتركهم أنجما مسلوقة الأنوار ، لا جرم أن يحزنوا
 عليك ويكثرثوا^(٢) ، فلقد تسالوا عنك ببعض ماورثوا ، وما ورثتهم غير الحزن والبث ،
 وأمل فى الحياة كاهباء المنبث ، كما تتلى محاسنك فاسمع ، طفقت عليك شئون عيني
 تدمع ، أيا ضريحه ، كيف وجدت ريحه ؟ لقد أرج بك ذلك المعفر ، حتى ما ينافحه
 المسك الأذفر ، وكما ظفرت بوجوده ، فجد كل قبر بمجوده ، ففيه سماء ثرة وغمام ،
 ونور انضم عليه منك كمام ، ولو علمت بمن بين جنبيك راقد ، لعلوت حتى تلوح
 فى ذراك الفراقد ، ويا دافنيه كيف هلتم عليه الرغام ؟ أو لم تنكروا على الشمس أن
 تغام ، هيهات لقد سمحتم بإقبار ، عف الشماثل طيب الأخبار ، وإلحاد ، من لا زراع
 فى فضله ولا إلحاد ، أى نفس تحذتم له التراب مستودعا ، فأضحى عزنين
 للسكرام مجدعا ؟ .

فتى مثل نصل السيف من حيث جئته لنائبة نابتك فهو مضارب
 فتى همّه حمد على النأى راجح وإن بات عنه ماله وهو عازب
 أما وإن ازدحت بمهلكه الأوصاب ، وفدح الرزء وجل المصاب ، حتى لا نالف

(١) انفض : تفرق ، والشمل : المجتمع

(٢) يكثرث ، هنا بمعنى يشق عليهم ، وتقول « كرت فلان النعم » إذا اشتد عليه
 وبلغ منه المشقة .

الناسا ، فلقد سر الموت من حيث سا ، فلقد خلفنا بدهر ما فيه غير مصائب ،
ولا يبالي من أقصد سهمه الصائب ، فيا فقيد الندى ما كان أجدرك بالخلود
وأخلقك ، ويا جواد عمره ما كان أقصر طلقك ، توى ، حين استوى ، وتواري ،
إذ ملأ الأفق أنوارا ، وكسف حين بلغ الكمال ، فكان كالفنن عندما اعتدل
مال ، أو كالشهاب عندما استقام حار ، وكذلك عمر كواكب الأسجار ، هذه
البراعة التحفت بعده الضنى ، والصحف تطوى على جهالة وتحنى ، وعهدى به إن
امتطى راحته اليراع ، راع ، أودبج الأوراق ، راق ، أو استدر طبعه السلسال ،
سال ، وأى روض أراد ، راد ، ومتى أراغ الإنشاء ، أحسن إن شاء ، فحق للفؤاد
أن يستعبر بوقده ، وللمدامع أن تسيل دما على فقدته ، بيد أنه الموت لا بد أن نرد
مشرعه ، ونسيع على شرق به جرعته ، فإنا زرع يحصده الذى ازدرعه ، وصبرا
ياذوى أرحامه وبنيه ، ومن مرفى غلواء الوجد فالسلوان يثنيه ، وشحا على أجرم
لا يذهب به الجزع ويفنيه ، والله يزلف الفقيد من رحمة ويدنيه ، ويقطفه زهر
رضوانه ويحنيه ، ويسر لكم العزاء الأجل برحمته ويسئيه ، والسلام . انتهت

ويرحم الله القائل :

كل جمع إلى الشتات يصير أى صفو ما شابه تكديره^(١)

أنت فى اللهو والأمانى مقيم والمنيايا فى كل وقت تسير

والذى غمره بلوغ الأمانى بسراب وخلب مغرور

ويك يا نفس أخلصى إن ربي بالذى أخفت صدور بصير

ولا خفاء على ذوى الأحلام ، من الأعلام ، أن الدنيا أضغاث أحلام :

يندم المرء على ما فاته من لبانات إذا لم يقضها^(٢)

وتراه فرحا مستبشرا بالتي أمضى كأن لم يمضها

(١) الشتات - بفتح الشين - التفرق ، وشابه : خالظه

(٢) اللبانات : جمع لبانة - بضم اللام - وهى الحاجة

إنها عندى كأحلام الكرى لقريب بعضها من بعضها
وقال أبو منصور أسعد النحوى :

يجمع المرء ثم يترك ما يجمع من كسبه لغير شكور
ليس يحظى إلا بذكر جميل أو بعلم من بعده مأثور

وقال الإمام الشهير أبو الفرج بن الجوزى :

يا ساكن الدنيا تاهب وانتظر يوم الفراق
وأعدّ زاداً للرحيل فسوف يحدى بالرفاق
وابك الذنوب بأدمع تهيل من سحب المآق
يا من أضاع زمانه أرضيت ما يفنى يساق

وكان ابن الجوزى المذكور آية الله فى كثرة التأليف والكتابة والوعظ
والحفظ ، وأقل من كان يحضر مجلسه عشرة آلاف ، وربما حضر عنده مائة ألف
وقال فى آخر عمره على المنبر : كتبت بأصبعى هاتين ألفى مجلدة ، وتاب على يدي
مائة ألف ، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودى ونصرانى ، وأسمع رحمه الله
تعالى الناس أكثر من أربعين سنة ، وحدث بمصنفاته مرارا .

وقال الحافظ الذهبي فى حقه : الحافظ الكبير ، الواعظ ، المفنن ، صاحب
التصانيف الكثيرة الشهيرة فى العلوم المتعددة ، وعظ من صغره ، وفاق فيه الأقران
ونظم الشعر المليح ، وكتب بخطه مالا يوصف ، ورأى من القبول والاحترام مالا
مزيد عليه ، وحُزِرَ^(١) مجلسه غير مرة بمائة ألف ، وحضر مجلسه المستضىء مرارا من
من وراء الستر ، انتهى .

ومن كلامه فى بعض مجالسه : والله ما اجتمع لأحد أملة ، إلا وسعى فى تفرقة
أجله ، وعقارب المنايا تلسع الناس ، وخدران جسم الأمل يمنع الإحساس .

(١) وحزر مجلسه - بالبناء للمجهول - قدر عدد من حضره

وقال في قوله صلى الله عليه وسلم « أعمار أمتي من الستين إلى السبعين » إنما طالت أعمار القدماء لطول البادية ، فلما شارف الركبُ بلدَ الإقامة قيل : حثوا المطى .
وقال في الذين عبدوا العجل : لو أن الله خار لهم ، ما خار لهم ^(١) .

وقال يوما وقد طرب أهل المجلس : فهمتم فهمتم ^(٢) .
وقال في خلافة أبي بكر رضى الله عنه ، بعد أن ذكر أحاديث تدل على خلافته كقوله صلى الله عليه وسلم « مروا أبا بكر فليصل بالناس » وغيره ، ماصورته :
فهذه أحاديث تجرى مجرى النص ، فهمها الخصوص ، غير أن الرافضة في إخفاؤها كاللصوص ، فقال السائل : لما قال « أقيلوني » ما سمعنا مثل جواب على رضى الله عنه « والله لا أقنأك » فقال : لما غاب على عن البيعة في الأول ، أخلف ما فات بالمدح في المستقبل ، ليعلم السامع والرأى أن بيعة أبي بكر وإن كانت من ورأى ، فهي رأى ، ومثل ذلك الصَّدْر لا يرأى .

وقال في قول فرعون « أليس لى ملك مصر » : يفتخر بما أجراه ، ما أجراه ^(٣) !
وتواجدَ رجل في مجلسه فقال : عجبا ! كلنا في إنشاد الضالة سَوَا ، فلم وجدت وَحْدَكَ ألم الجوى ، وأشد :

قد كتمت الحب حتى شفنى وإذا ما كنم الداء قتل
بين عينيك علالات الكرى فدع النوم لربات الحجل
ونظر يوما إلى أقوام ييكون في مجلسه ويتواجدون فأنشد :

ولو لم يهيجني الظاعنون لهاجنى حاتم ورق في الديار وقوع
تداعين فاستبكيين من كان ذاهوى نوائح لم يقطر لهن دموع
وكيف أطبق العاذلين وذكرهم يؤرقنى والعاذلون هجوع
وقام رجل وتواجد فأنشد :

(١) خار لهم الأولى : اختار ، وخار لهم الثانية : صوت ، خار الثور يخور
(٢) فهمتم الأولى : من الفهم ، فالقاء من أصل السكمة ، وفهمتم الثانية : من الهيام ، فالقاء عاطفة (٣) ما أجراه الثانية : أصلها ما أجراه صيغة تعجب من الجراءة

وما زال يشكو الشوق حتى كأنما تنفس من أحشائه وتكلمها
ويبكي فأبكي رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعا بكيت له دما
وأعجبه يوما كلامه فأنشد :

تردحم الألفاظ والمعاني على فؤادي وعلى لساني

تجري بي الأفكار في ميدان أراحم النجم على مكان

ووعظ المستضيء يوما فقال : يا أمير المؤمنين ، إن تكلمت خفت منك ، وإن
سكت خفت عليك ، فأنا أقدم خوفي عليك ، على خوفي منك ، لمحبتى لدوام أيامك ،
إن قول القائل « اتق الله » خير من قول القائل : أنتم أهل بيت مغفور لكم .
وقال الحسن البصري : لأن تصحب أقواما يخوفونك حتى تبلغ المأمن خير
لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى تبلغ الخauf ، وكان عمر بن الخطاب
رضي الله عنه يقول : إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ولم أعيره فأنا الظالم
يا أمير المؤمنين ، كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط ؛ لئلا ينسى
الجوع ، وكان عمر رضي الله عنه يعصر بطنه عام الرمادة فيقول : قرقرى إن شئت
أولا تقرقرى ، فوالله لا شيعت والمسلمون جوع ، فتصدق الخليفة المستضيء
بصدقات كثيرة ، وأطلق من في السجن .

وقال رحمه الله تعالى لبعض الولاة : اذكر عدل الله فيك ، وعند العقوبة
قدرة الله عليك ، وإياك أن تشفى غيظك بسقم دينك .

وقال : الطاعة تبسط اللسان ، والمعاصي تذلل الإنسان .

وقال له قائل : ما نمت البارحة من شوق إلى المجلس ، فقال : نعم ، لأنك
تريد أن تنفرج ، وإنما ينبغي أن لا تنام الليلة لأجل ما سمعت فيه .

وقيل له : إن فلانا أوصى عند الموت ، فقال : طين سطوحه في كانون .

وقال له قائل : أسبح أم أستغفر ؟ فقال : الثياب الوسخة أحوج إلى الصابون
من البخور .

وسأله سائل : ما الذى وقر فى قلب أبى بكر رضى الله عنه ؟ فقال : قوله ليلة المعراج « إن كان قال فلقد صدق^(١) » فله السابق .

ولما قال له بعضهم « سيفٌ على نزل من السماء فسعفة أبى بكر أين ؟ » أجابه بقوله : إن سعفة هزت يوم الردة فأنثرت سبباً جاء منه مثل ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند ، ثم قال : يا عجباً للروافض ، إذا مات لهم ميت تركوا معه سعفة من أين ذا المصطلح ؟ .

وسئل عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبى بكر » فقال : الميت يقسم ماله ويكفن ، وأبو بكر أخرج ماله كله وتحلل بالعباء .

وقال فى قوله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) قال على : إني والله لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ، ثم قال أبو الفرج : إذا اصطلاح أهل الحرب فما بال النظارة ؟ .

وقال : قال جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سلم على عائشة ، ولم يواجهها بالخطاب احتراماً لزوجها ، وواجه مريم لأنها لم يكن لها زوج ، فمن يحترمها جبريل كيف يجوز فى حقها الأباطيل ؟

قال أبو شامة : وكان ابن الجوزى - رحمه الله تعالى ! - مُبْتَلًى بالكلام فى مثل هذه الأشياء ، لكثرة الروافض ببغداد وتعنتهم بالسؤالات فيها ، فكان يصيراً بالخروج منها لحسن إشاراته .

(١) لما سمع أهل مكة حديث الرسول عن المعراج ذهبوا إلى أبى بكر فقالوا له : أرأيت إلى ما يقول صاحبك ؟ وقصوا عليه حديث المعراج ، يريدون أن يستبعده كما استبعده غيره من ضعاف الإيمان ، فغيب رضى الله عنه ظنونهم وقال : إن كان قال ذلك فلقد صدق .

وانقطع القراء يوما عن مجلسه فأنشد :

وما الحلّى إلا زينة لتيصّة يُتَمَّم من حُسْن إذا الحسن قَصَّرَا
وأما إذا كان الجلالُ مَوْفَرًا كحسنك لم يحتج إلى أن يُزَوَّرَا

وقيل له : لم تعمل موسى عليه السلام بسوف تراني ؟ فأنشد :

إن لم يكن وَصْلُ لَدِيكَ لَنَا يشفي الصبابة فليكن وَغْدَ
ولما ذكر أن بلالا - رضى الله عنه ! - لما منع الطواف بالبيت كان يقف من بعيد
وينظر إليه ويبكى أنشد :

أمر على منازلهم وإني بمن أضحى بهاصبٌ مَشُوق
وأومى بالتحية من بعيد كما يومى بأصبغه الغريق
ومن شعر أبي الفرج رحمه الله تعالى :

لَعِبْتَ ومثلك لا يلعب وقد ذهب الأطيب الأطيب
وقد كنت في ظلمات الشباب فلما أضاء أنجلي الغميب
ألا أين أقرانك الراحلون ؟ لقد لاح إذ ذهبوا المذهب^(١)

ولنقتصر على هذا المقدار ، ونرجع إلى أحوال لسان الدين رحمه الله تعالى
وارتجاله ، والاعتبار بحاله ، فنقول :

ومما يناسب أن نذكره في هذا الحل ونشبهه فيه ما حكاه العالم العلامة بلدينا
سيدى أبو الفضل ابن الإمام التلمسانى رحمه الله تعالى عن جدى الإمام قاضى
القضاة سيدى أبى عبد الله المقرئ التلمسانى رحمه الله تعالى ، وهو أحد أشياخ
لسان الدين كما يأتى إن شاء الله ذلك فى محله ، قال : كنت مع ذى الوزارتين
أبى عبد الله ابن الخطيب فى جامع البيرة من الأندلس إذ مر بنا الاعتبار ، فى تلك
الآثار ، فأنشد ابن الخطيب ارتجالا :

رجع إلى أخبار
لسان الدين

(١) لاح : ظهر ، والمذهب : المكان الذى نذهب إليه

من شعر
لسان الدين
ابن الخطيب

أقنأ برهمة ثم ارتحلنا كذلك الدهر حال بعد حال
وكل بداية فإلى انتهاء وكل إقامة فإلى ارتحال
ومن سام الزمان دَوَامَ حال فقد وقفَ الرجاء على المحال

وحكى لسان الدين في « الإحاطة » عن نفسه أنه خطط هذه الأبيات في
مرحلة نزلها رحمه الله تعالى حسبا يأتي ذلك في شعره .

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى :

لبسنا فلم نُبَلِّ الزمانَ وأبـالانا يتابع أخرانا على الغى أولانا
ونفتر بالآمال والعمر ينقضي فما كان بالرُّجعى إلى الله أولانا
وماذا عسى أن ينظر الدهر من عسا فما انقاد للزجر الحيث ولا لانا
جزينا صنيع الله شر جزائه فلم نرع مامن سابق الفضل أولانا
فيارب عاملنا بما أنت أهله من العفو واجبر صدعنا أنت مولانا

وقد حكى غير واحد أنه رحمه الله تعالى رىء بعد موته في المنام ، فقال له الراى :
ما فعل الله بك ؟ فقال : غفرلى بييتين قلتهما ، وهما :

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له أغلاق
أبروم مخلوق ثناءك بعدما أثنى على أخلاقك الخلاق^(١) ؟
وقد كرر رحمه الله تعالى هذا المعنى فى قصيدة فى حقه صلى الله عليه وسلم ،
وشرف وكرام ، ومجد وعظم ، وبارك وأنعم ، وهو قوله :

مدحتك آيات الكتاب فما عسى يثنى على عليك نظم مديحى
وإذا كتاب الله أثنى مُفْصِحاً كان القصور قصار كل فصيح
وستأنى هذه القصيدة فى نظمه إن شاء الله تعالى .

وقد رأيت بالمغرب تخميسا للبيتين الأولين منسوباً للأديب الشهير الذكر

(١) يشير إلى قوله تعالى فى حقه صلوات الله وسلامه عليه : (وإنك لعلى خلق عظيم)

بالمغرب أبي عبد الله محمد بن جابر النساني المكناسي رحمه الله تعالى ، ولا بأس
أن نورده هنا ، وهو قوله رحمه الله تعالى :

يا سائلا لضرر خير العالم ينهى إليه مقام صب هائم

بالله ناد وقل مقالة عالم يا مصطفي من قبل نشأة آدم

والكون لم تفتح له أغلاق

بثناك قد شهدت ملائكة السما والله قد صلى عليك وسلم

يا مجتبي ومعظما ومكرما أروم مخلوق ثناءك بعدما

أثني على أخلاقك الخلاق

وما أحسن قول لسان الدين - رحمه الله تعالى ! - بعد ما عرّف بنفسه وسلته : وكان

بالحي ممن ذكر قد التحق بالميت ، وبالقبر قد استبدل بالبيت .

وقال رحمه الله تعالى بعد إيراد جملة من نظم ما صورته : وقلت والبقاء لله

وحده ، وبه يحتم الهذر :

عدّ عن كيت وكيت ما عليها غير ميت

كيف ترّجى حالة البقيا لمصباح وزيت^(١)

وسياتي ذلك .

ولقد صدق رحمه الله تعالى ، ورقى درجته في الجنة ! .

وأما البيتان الشائعان على السنة أهل المشرق والمغرب وأنهما قيّلا في لسان

الدين رحمه الله تعالى ، وبعضهم ينسبهما له نفسه ، فالصحيح خلاف ذلك كما

سيأتي ، وهما :

قف كي ترى مغرب شمس الضحى بين صلاة العصر والمغرب

واسترحم الله قتيلا بها كان إمام العصر في المغرب

تحقيق في
شأن بيتين

(١) البقيا - بضم الباء وسكون القاف - البقاء .

وشرح بعضهم البيتين فقال : إن قوله « قتيلا بها » من باب الاستخدام :
أى قتيلا بشمس الضحى التى هى المتغزل فيها .

وقد رأيت وأنا بالمغرب بخط الشيخ الأغصاوى أنهما لم يعن بهما قائلهما لسان
الدين بن الخطيب ، وإنما هما مقولان فى غيره ، ونسبهما ، ونسيت الآن ذلك
لطول العهد ، والله أعلم .

ويدل على ذلك أنه - رحمه الله تعالى ! - لم يقتل بين صلاة العصر والمغرب
وإنما قتل فى جوف الليل كما علم فى محله ، على أنه يمكن بتكلف تأويل ذلك بأنه
قامت لقائلهما قرينة على أنه بصدد الموت فى ذلك الوقت ، وهذا لو ثبت أنهما
قيلا فيه ، وقد علمت أن الأغصاوى نفى ذلك ، فالله أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك .

ثم رأيت فى كتاب إسماعيل بن الأحرر فى ترجمة بعض العلماء ما نصه : فمن
قوله يرثى الأمراء بالمغرب ، وقد حل رسمه بين صلاة العصر والمغرب :

قف كي ترى مغرب شمس العلا بين صلاة العصر والمغرب
واسترحم الله دفيننا به كان ملكك العصر فى المغرب

وهذا مما يبعد أنهما فى لسان الدين من وجوه لا تخفى على المتأمل : منها قوله
« كان ملكك العصر » فإن لسان الدين لم يكن كذلك ، وقد تقدم آنفا « كان
إمام العصر فى المغرب » وهو أحسن ، لما فيه من التورية البديعة ، والله أعلم .

رجع إلى أخبار لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى - وقد عرض عدوه عود إلى أخبار
الرئيس ابن زمرّك فى بعض قصائده التى مدح بها سلطانه الغنى بالله أبا عبد الله
ابن نصر بما تسنى له من الظفر بابن الخطيب ، ومن حماء منه ، وهو الوزير
ابن السكاسى ، على يد من عينه لملك الغرب ، وأعانه بجنده وعضده ، كما تقدم ،
وهو السلطان أحمد المرينى ، فقال من قصيدة عيدية :

يَهْنِي زِمَانَكَ أَعْيَادُ مُجَدَّدَةٍ من الفتوح مع الأيام تَغْشَاهُ
 غَضِبْتَ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا بِحَقِّهِمَا يا حبيذا غضب في الله أَرْضَاهُ
 فَوَقْتَ لِلْغَرْبِ سَهْمًا رَأْسَهُ قَدَرُ وسدّد الله للأعداء مَرَمَاهُ
 سَهْمِ أَصَابِ وَرَامِيهِ بِذِي سَلَمٍ لقد رمى الغرض الأَفْصَى فَأَصْبَاهُ
 مَنْ كَانَ بِنْدُكَ يَا مُوَلَايَ يَفْقُدُهُ فليس يخلفه فتح ترجاهُ ^(١)
 مَنْ كَانَ جَنْدُكَ جَنْدَ اللَّهِ يَنْصُرُهُ أَنَالَهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَسَنَّاهُ
 مَلَكَتْ غَرْبًا بِهِ خَلَدْتَ مِنْ مَلِكٍ للشرق والغرب منه مَا تَمْنَاهُ
 وَسَامَ أَعْدَاءُكَ الْأَشْتَقِينَ مَا كَسَبُوا ومن تَرَدَّى رِداءَ الْغَدْرِ أَرْدَاهُ
 قُلْ لِلَّذِي رَمَدَتْ جَهْلًا بِصِيرَتِهِ فلم تر الشمس شمس الهدى عَيْنَاهُ
 غَطَّى الْهَوَى عَقْلَهُ حَتَّى إِذَا ظَهَرَتْ له المَرَاشِدُ أَعْشَاهُ وَأَعْمَاهُ
 هَلْ عِنْدَهُ وَذُوبَ الْغَدْرِ تَوَقُّهُ أَنْ الَّذِي قَدْ كَسَاهُ الْعِزُّ أَعْرَاهُ ^(٢)
 لَوْ كَانَ يَشْكُرُ مَا أُولِيَتْ مِنْ نَعَمٍ مَازَلَتْ مَلْجَأُ الْأَحْيَى وَمَنْجَاهُ
 سَلَّ السَّعُودَ وَخَلَّ الْبَيْضَ مَغْمَدَةً فَالسَّيْفُ مَهْمَا مَضَى فَالسَّعْدُ أَقْصَاهُ
 وَاشْرَعَ مِنَ الْبَرْقِ نَضْلًا رَاعَ مَصْلَتَهُ وَارْفَعَ مِنَ الصَّبْحِ بَهْدًا رَاقَ مَجْلَاهُ
 فَالْعَدُوَّتَانِ لَنَا قَدْ ضَمَّ مَلِكُهُمَا أَنْصَارُ مَلِكِكَ صَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمَا
 لَا أَوْحَشَ اللَّهُ قَطْرًا أَنْتَ مَالِكُهُ وَأَنْسَ اللَّهُ بِالْأَلْطَافِ مَغْنَاهُ
 لَا أَظْلَمَ اللَّهُ أَفْقًا أَنْتَ نَبِيُّهُ لَا أَهْمَلَ اللَّهُ سَرَحًا أَنْتَ تَرَعَاهُ
 وَاهْنَأْ بِشَهْرِ صِيَامٍ جَاءَ زَائِرُهُ مُسْتَنْزِلًا مِنْ إِلَهِ الْعَرْشِ رَحْمَاهُ
 أَهْلًا بِالسَّعْدِ فَانْهَلَتْ بِهِ مَنَنْ وَأَوْسَعَ الصَّنْعِ إِجْمَالًا وَوَفَّاهُ
 أَمَا تَرَى بَرَكَاتِ الْأَرْضِ شَامِلَةً وَأَنْعَمَ اللَّهُ قَدْ عَمَتْ بِرَايَاهُ
 وَعَادُكَ الْعِيدُ تَسْتَحْلِي مَوَارِدَهُ وَيَجْزِلُ الْأَجْرَ وَالرَّحْمَى مَصْلَاهُ

(١) البند - بفتح الباء وسكون النون - العلم الكبير ، وأصله فارسي .

(٢) توبقه : تهلكه .

جهزت جيش دعاء فيه ترفعه
أفصت فيه من النعماء أجر لها
واليت للخلق ما أوليت من نعم
وأول هذه القصيدة :

هذى العوالم لفظ أنت معناه
بحر الوجود وفلك الكون جارية
من نور وجهك ضاء الكون أجمعه
عرش وفرش وأملك مسخرة
سبسان من أوجد الأشياء من عدم
من ينسب النور للأفلاك قلت له
مولاي مولاي بحر الجود أغرقني
فالقلك تجرى كما الأفلاك جارية
وكلهم نعم للخلق جارية
يا فائق الرتق من هذا الوجود كما
كن لي كما كنت لي إذ كنت لأعمل
وأنت في حضرات القدس تنقاني
ما أقبح العبد أن ينسى وتذكره
غفرانك الله من جهل بليت به
منى على حجاب لست أرفعه
فعد على بما عودت من كرم
ثم الصلاة صلاة الله دأمة

كل يقول إذا استنطقته الله
وباسمك الله مجراه ومُرْسَاه
حتى تشيد بالأفلاك مبناه
وكلها ساجد لله مولاه
وأوسع الكون قبل الكون نعماء
من أين أطلعت الأنوار لولاه
والخلق أجمع في ذا البحر قد تاهوا
بحر السماء وبحر الأرض أشباه^(١)
تبارك الله لا تحصى عطاياه
في سابق العلم قد خطت قضاياه^(٢)
أرجو ولا ذنب قد أذنت أخشاه
حتى استقر بهذا الكون مثواه
وأنت باللطف والإحسان ترعاه
فمن أفاد وجودي كيف أنساه
إلا بتوفيق هدي منك ترضاه
فأنت أكرم من أملت رحماه
على الذي باسمه في الذكر سماه

(١) الفلك: السفين، والأفلاك: جمع فلك - بفتح الفاء واللام جميعاً - وهو فلك السماء

(٢) أخذ قوله « يا فائق الرتق » من قوله تعالى : (أن السموات والأرض كانتا

الجبتي وزناد النور ما قدحت
والمصطفى وكما أم الكون ما فتحت
ولا تفجر نهر للنهار على
يا فاتح الرُّسلِ أو يا ختمها شرفا
لم أذكر غير حب فيك أرفعه
صلى عليك إله أنت صفوته
وعم بالروح والريمان صحبته
وخص أنصاره الأغلبين صفوته
أنصار ملتته أعلام بيعته
وأيد الله من أحياء جهادهم
المنتقى من صميم الفخر جوهره
العلم والحلم والإفضال شيمته

ولاذ كآ من نسيم الروض مسرّاه (١)
عن زهر زهر يروق العين مرآه (٢)
دُر الدارِى فغطاه وأخفاه
والله قدس في الحالين معناه
وسيلةً لكريم يوم أنقاه
ما طيبت بلذيد الذكر أفواه
وجاءهم من نمير العفو أصفاه
وأسكنوا من جوار الله أعلاه
مناقب شرفت أثني بها الله
وواصل الفخر أخراه بأولاه
ما بين نصر وأنصار تهاداه
والبأس والجود بعض من سجاياه

وهي طويلة ، ولنقتصر منها على ما ذكر

وقد صرح ابن زمرّك المذكور في قصيدة أخرى مدح بها سلطانه الغنى بالله ،
وهنا بفتح المغرب على يد السلطان أحمد ، وذكر فيها ظفره بالوزير ابن السكاس ،
وهو - أعني ابن السكاس - كان القائم بنصرة لسان الدين ، والمانع له ، والمجير له منهم
حين طلبوه منه ، فلما لم يخقر ذمته تمكنت - كما سبق - أسباب العداوة ، وجرد ذلك
أن أغرى السلطان أحمد على تملك فاس ، واشترطوا عليه كما مر القبض على لسان
الدين وإرساله إليهم ، وقد نقلت هذه القصيدة من تأليف لحفيد السلطان الغنى بالله
ونصّ محل الحاجة منه : ومن ذلك أيضا قوله - يعنى ابن زمرّك - هنا لمولانا الجدل
رحمه الله تعالى بالفتح المغربى للسلطان أبى العباس ابن السلطان أبى سالم المرينى :

(١) ذكا : تضوعت ربحه

(٢) أصل السكاس كأم الزهر ، وهو الغلاف الذى ينشق عن الثمر

هي نفحة هبّت من الأنصار أهدتك فتح ممالك الأمصار
 في بشرها وبشارة الدنيا بها مستمتع الأسماع والأبصار
 هبّت على قطر الجياد ففروقت أرجاءه بالنفحة المطّار
 وسرت وأمر الله طيّ برودها يهدي البرية صنع لطف الباري
 مرت بأدواح المنابر فانبرت خطباؤها مفتحة الأطيّار
 حنت معارجها إلى أعشارها لما سمعن بهاحنين عشار
 لو أنصفتك لكلت أدواحها تلك البشائر يانع الأزهار
 فتح الفتوح أتاك في حل الرضا بعجائب الأزمان والأعصار
 فتح الفتوح جنيت من أفناه ما شئت من نصر ومن أنصار
 كم آية لك في السعود جلية خلدت منها عبرة استبصار
 كم حكمة لك في النفوس خفية خفيت مداركها عن الأفكار
 كم من أميرأّم بابك فأنثى يدعى الخليفة دعوة الإكبار
 أعطيت أحمد راية منصوره بركانها تروى عن الأنصار
 أركبته في المنشآت كأنما جهزته في وجهه المزار
 من كل خافقة الشراع مصفق منها الجناح تطير كل مطّار
 ألت بأيدي الريح فضل عانها فتكاد تسبق لحة الأبصار
 مثل الجياد تدافعت وتساقت من طافح الأمواج في مضمار
 لله منها في المجاز سواح وقفت عليك الفخر وهي جوارى
 لما قصدت بها مراسي سبتة عطفت على الأسوار عطف سوار^(١)
 لما رأت من صبح عزمك غرة مخوفة بأشعة الأنوار
 ورأت جبيناً دونه شمس الضحى لبتك بالإجلال والإكبار

(١) عطفت عطف سوار : يريد أنها حاصرتها وضيق الخناق عليها .

فأفضت فيها من نَدَاكَ مواهبها
وأريت أهل الغرب عزم مغرَّب
وخطبت من فاس الجديد عقيلة
ما صدَّقوا متن الحديث بفتحها
وتسمعوا الأخبار باستفتاحها
قولوا لقرَد في الوزارة غـره
أسكنته من فاس جنة ملكها
حتى إذا كفر الصنيعة وازدرى
جرعت نجل الكاس كأسامرة
كفر الذي أوليته من نعمة
فطرحته طَرَحَ الفِوَاة فلم يفر
لم يتفق خليفة مثل الذي
لم أدر والأيام ذات عجائب
ألواء صبح في ثنية مشرق
وشهاب أفق أم سنان لا مع
ومناقب المولى الإمام محمد
فاق الملوك بهمة علوية
لوصافح الكف الخضيب بكفه
والشهبُ تطعم في مطالع أفقها
سل بالشارق صبحها عن وجهه
سل بالغائم صَوَّبَها عن كفه

حسنت مواقعها على التكرار
قد ساء عدته غرائب الأقدار
لبتك طوع تسرع وبادر
حتى رأوه في متون شِفَارٍ^(١)
والخبر قد يغنى عن الأخبار
حلم مننت به على مقدار
متنعاً منها بدار قرار
بحقوقها ألحقته بالنار
دست إليه الختف في الإسكار
لا تأنسُ النعماء بالكفار
من عز مغرِبِه بغير فراو
أعطى الإله خليفة الأنصار
تردادها يحلو على التذكار
أم راية في جَحْفَل جَرَّار
ينقضُّ بجما في سماء غبار
قد أشرقت أم هن زُهرُ دَرَارِي^(٢)
من دونها نجم السماء السارى
فخرت بنهر للمجرة جارى
لو أحرزت منه منبع جوار
يفتر منه عن جبين نهار
تنبيك عن بحر بها زَخَّار

(١) المتون : جمع متن ، وهو هنا الحد ، والشفار : جمع شفرة ، وأراد بها السيف

(٢) الدراري ، هنا : النجوم ، وزهر : جمع زهراء ، وأراد بها المضيئة ، والإضافة من إضافة الصفة للموصوف .

سل بالبروق صفاحها عن عزمه	تخبرك عن أمضى شباً و غرار ^(١)
قد أحرز الشيم الخطيرة عندما	أمضى العزائم صهوة الأخطار ^(٢)
إن يلقى ذوالإجرام صفحة صفحه	فسح القبول له خطأ الأعمار
يا من إذا هبت نواسم حمده	أزرت بعرف الروضة المعطار
يا من إذا اقترت مباسم بشره	وهب النفوس وعاث في الإقنار
يا من إذا طاعت شمس سعوته	نُغشى أشعتها قوى الأبصار
قسما بوجهك في الضياء فإنه	شمس تمد الشمس بالأنوار
قسما بعزمك في المضاء فإنه	سيف تجرده يدُ الأقدار
لَسَمَاح كَفَكَ كَلِمَا اسْتَوْهَبْتَهُ	يُزْرِى بغيث الديمة المدرار ^(٣)
لله حضرتك العلية لم تزل	يلقى الغريبُ بها عصا النسيار
كم من طريد نازح قذفت به	أيدي النوى في التفر رهن سفار
بأغته ما شاء من آماله	فسلا عن الأوطان بالأوطار
صيرت بالإحسان دارك داره	مُتَعَت بالحسنى وعقبى الدار
واخلق تعلم أنك الغوث الذى	يضى عليها وافي الأستار
كم دعوة لك المَحْوَل مجابة	أعرت جفون المزن باستعبار
جادت بجارى الدمع من قطر الندى	فرعى الربيع لها حقوق الجار
فأعاد وجه الأرض طلقا مشرقا	متضاحكا بمباسم النوار
يا من مآثره وفضل جهاده	تُحْدَى القطارُ بها إلى الأفطار
حطت البلاد ومن حوته ثغورها	وكفى بسعدك حاميا لذمار
فلرب بكر للفتوح خطبتها	بالمشرفة والقننا الخطار
وعقيلة للكفر المارُعَتها	أخرست من ناقوسها المهذار

(١) الشبا : جمع شباة ، وهى حد السيف ، والفرار - بكسر الغين - مثله .

(٢) أصل الصهوة : مقعد الفارس من الفرس .

(٣) المدرار : أراد الكثير المطلان

أذهبت من صفح الوجود كيائها
عمرها بها جنات عدن زخرفت
صبحت منها روضة مطلولة
وأسود وجه الكفر من خزي متى
ولرب روض للغنى متآود
مهما حكمت زهر الأسنة زهره
متوقد لهب الحديد بجوّه
فبكل ما تفت صقال مشهر
في كف أروع فوق نهْد سابج
من كل منعفر بالهجة بارق
من أشهب كالصبح يطالع غرة
أو أدهم كالليل إلا أنه
أو أحر كالجر يذكي شعله
أو أشقر حلى الجمال أديمه
أو أشعل راق العيون كأنه
شهب وشقر في الطراد كأنها
عودتها أن ليس تقرب منها
يا أيها الملك الذي أيامه
يَهْنِي لواءك أن جَدَّكَ زاحف
لا غرو أن فقت الملوك سيادة
السابقون الأوّلون إلى الهدى

ومحوها إلا من التذكّار
ثم انثوا عنها ديار بوار^(١)
فأعدتها للحين موقد نار
ما أحر وجهه الأبيض البتار^(٢)
ناب الصهيل به عن الأطيار
حكمت السيوف معاطف الأنهار
تصلى به الأعداء لفح أوار
قداح زند للحفيظة وارى
متموج الأعطاف في الإحضار^(٣)
حمل السلاح به على طيار
في مُسْتَهْل العسكر الجرار
لم يرض بالجوزاء حلى عذار
وقد أرتى من بأسه بشار
وكساه من زهو جلال نُصار
غلس يخالط سدفه بنهار
روض تفتح عن شقيق بهار
حتى يخالط بالدم الموار
غرر تلوح بأوجه الأعصار
بلواء خير الخلق للكفار
إذ كان جدك سيد الأنصار
والمصطفون لنصرة المختار

(١) دار بوار - بفتح الباء والواو جميعاً - دار هلاك

(٢) الأبيض البتار : السيف ، والبتار : صيغة مبالغة من البتر ، وهو القطع

(٣) الإحضار : السير السريع

متهللون إذا النزيل عراهم سقرُواله عن أوجه الأبقار^(١)
 من كل وضاح الجبين إذا احتبى تلقاه معصوبا بتساج فخار
 قدلاث صُبْحاً فوق بدر بعدما لبس المكارم وارتدى بوقار
 فاسأل بيدٍ عن مواقف بأسهم فهم تلافوا أمره ببيدار
 لهم العوَالى عن معالى فخرها نقل الرواة عوَالى الأخبار
 وإذا كتاب الله يتلو حـدم أودى القصورُ بمنة الأشعار
 يا ابن الذين إذا تُذوكر فخرهم فحروا بطيب أرومة ونجار^(٢)
 حقاً لقد أوضحت من آثارهم لما أخذت لدينهم بالثار
 أصبحت وارث مجدهم وفخارهم ومشرّف الأعصار والأمصار
 يا صادرا فى الفتح عن وردِ المنى ردّ ناجح الإيراد والإصدار
 واهناً بفتح جاء يشتمل الرضا جذلان يرفل فى حلى استبشار
 وإليكما ملء العيون وسامة حينك بالأبكار من أفكارى
 تجرى حُدَاة العيس طيب حديثها يتعللون به على الأكوار^(٣)
 إن مسهم لفتحُ الهجير أبلهم منه نسيمُ ثنائك المعطار
 وتميل من أصغى لها فكأننى عاطيته منها كؤس عُقار
 قذفت بحور الفكر منها جوهرها لما وصفت أناملا ببحار
 لا زلت للإسلام سترأ كلما أم الحبيج البيت ذا الأستار
 وبقيت يا بدر الهدى تجرى بما شاءت علاك سوابق الأقدار

ولابن زمرّك السابق قصيدة أخرى قالها بعد موت لسان الدين بن الخطيب وخلع السلطان أبى العباس أحمد بن أبى سالم الذى قتل ابن الخطيب فى دولته ، وكان سلطان الأندلس مؤنثا للسلطان أحمد المذكور ، ولذلك امتنع لرده لملكه ، فقال

(١) عراهم : نزل بهم ، وسفروا : أصله من السفور وهو إزالة الغطاء عن الوجه

(٢) الأرومة : الأصل ، ومثله النجار بكسر النون بزنة الكتاب

(٣) العيس : الإبل ، واحدها أعيس أو عيساء ، والأكوار : جمع كور ، وهو الرجل

ابن زمرّك وزير صاحب الأندلس بعد ابن الخطيب هذه القصيدة يمدح بها سلطانه
 أثناء وجهته لتجديد الدولة الأحمدية المذكورة صدر عام تسعة وثمانين وسبعمائة :
 هَبَّ النسيم على الرياض مع السحر فاستيقظت في الدّوح أجفان الزّهر
 ورمى القضب دراهما من نورهِ فاعتاض من طلّ الغمام بها در
 نثر الأزاهر بعد ما نظم الندي يا حسن ما نظم النسيم وما نثر
 قم هاتهما ————— والجوّ أزهر باسم شمساً تحل من الزجاجة في قمر
 إن شجّها بالماء كفّ مديرها ترميه من شهب الحباب بها شرر
 نارية نورية من ضوءها ————— قدح السراج لنا إذا الليل اعتكر
 لم يبق منها الدهر إلا صبغة قد أرعشت في الكأس من ضعف الكبير
 من عهد كسرى لم يُفَضَّ ختامها إذ كان يدخر كنزها فيما دخر
 كانت مذاب التبر فيما قد مضى فأحالها ذوب اللجين لمن نظر
 جدّد بها عرس الصّبح فإنها بكر تحبها الكرام مع البكر^(١)
 وابلل بها رmq الأصيل عشية والشمس من وعد الغروب على خطر
 محمرة مصفرة قد أظهرت خجل المريب يشوبه وجل الحذر
 من كفّ شفاف تجسد نوره من جوهر لألاء بهجتِه بهر^(٢)
 تهوى البدر كماله وتود أن لو أوتيت منه المحاسن والغرر
 قد خط نور عذاره في خــــده قلمان من آس هناك ومن شعر
 وإلى عليك بها الكؤوس ، وربما يسقيك من كأس الفتور إذا فتر
 أسكر الندامى من يديه ولحظه متعاقب مهما سقى وإذا نظر
 حيث الهديل مع الهدير تناغيا فالطير تشدو في الغصون بلا وتر
 والمُضْبُ مالت للعناق كأنها وفد الأحبة قادمين من السفر

(١) البكر : جمع بكرة - بضم الباء فيهما - وهى أول الهار

(٢) بهر : أصاب بالهر وهو الإعياء والضعف

متلاعبات في الحلى ينوب في
والنرجس المطلول يرنو نحوها
والنهر مصقول الحسام متى يرد
يجرى على الحصباء وهى جواهر
هل هذه أم روضة البشرى التى
لم أدر من شغف بها وبهذه
جاءت بها الأجفان ملء ضلوعها
ومسافر فى البحر ملء عنائه
قادته نحوك بالخطام كأنه
وأراه دين الله عزة أهله
يا فخر أندلس وعصمة أهلها
كم معضل من دائها عاجته
ماذا عسى يصف البليغ خليفة
ورثت هذا الفخر يملك الهدى
من شاء يعرف خرمهم وكلهم
أبنائهم أبناء نصر بعدهم
مولاي سعدك والصبح تشابهها
هذا وزير الغرب عبد أبى
كفر الذى أوليته من نعمة
إن لم يميت بالسيف مات بغيطه
ركب الفرار مطية ينجو بها

وجفائهن الورد حسنا عن خفر^(١)
بلا حظ دمع الندى منها انهمر
درع الغدير مصفقا فيه صدر
متكسراً من فوقها مهملاً عثر
فيهم الأرباب البصائر معتبر
من منهما فتن القلوب ومن سحر
ملء الخواطر والمسامع والبصر
وافى مع الفتح المبين على قدر
جمل يساق إلى القياد وقد نفر
بك يا أعف القادرين إذا قدر
للناس سر فى اختصاصك قد ظهر
فشفيت منه بالبدار وبالبد^(٢)
والله ما أيامه إلا غرر
من كل من آوى النبى ومن نصر
فليتلى وحى الله فيهم والسير
بسيوفهم دين الإله قد انتصر
وكلاهما فى الخافقين قد اشتهر
لم يلف غيرك فى الشدائد من وزر
والله قد حتم العذاب لمن كفر
وصلى سعيماً للتأسف والفكر
فجرت به حتى استقر على سقر

(١) الحفر - بفتح الحاء والفاء - الحياء والحجل

(٢) البدر - بكسر الباء وفتح الدال - جمع بدرية ، بالفتح ، وهى عشرة آلاف درهم

وكذا أبوه وكان منه حمامة
بلغته والله أكبر شـاهد
حتى إذا جحد الذي أوليته
في حاله والله أعظم عـبرة
فاصبر تنـل أمثالها في مثله
رد حيث شئت مسوِّعاً ورد المنى
لا زلت محروساً بعين كـلاءة

قد حم وهو من الحياة على غرر
ما شاء من وطن يعز ومن وطر
لم تبق منه الحادثات ولم تذر
لله عبد في القضاء قد اعتبر
إن العواقب في الأمور لمن صبر
فأله حسبك في الورود وفي الصـدر
مادام عين الشمس تعشى من نظر

ومنها وقد أضاف إليه من التغزل طوع بداره ، وحجة اقتداره ، فقال :

والعود في كف النديم سـير ما
غنى عليه الطير وهو بدو حـه
عود نوى حـجر القضيـب رعى له
لا سـيما لما رأى من ثـره
ويظن أن عذاره من آسـه
يسـبى القلوب بلفظه وبلـظه
قد قيـدته لأنسا أوتاره
لم يُبـل قاي قبل سمع غنائـه
جس القلوب بحـسه أوتاره
نمت لنـا أـلـهنا بجميع ما
يا صامتـا والعود تحت بنانـه
أغنى غـناؤك عن مدامك ، يا ترى
باحث أنا ملك اللـدان بكل ما

تُنـاقى لنا منه الأناـملُ قد جـهـر^(١)
والآن غنى فوقه ظي أغـر
أيام كانا في الرياض مع الشـجر
زهراً ، وأين الزهر من تلك الدر
ويظن تفاح الخـدود من الثـمر
وافتنى بين التـكـلم والنـظر
كالظبي قيـد في السـكناس إذا نـفر
بـعدّر سلب العقول وما اعتـذر
حتى كأن قلوبنا بين الوتر
قد أودعت فيه من القلوب الفـكر
يغنيك نطق الخـبر فيه عن الخـبر
هل من لحاظك أم بنانك ذا السـكر
كان المـتيم في هواه قد سـتر

ومقاتل ماســـــــــــــــــل غير لحاظه والرمح هز من القوام إذا خطر
دانت له منا القلوب بطاعة والسيف يملك ربه مهما قهر
وسئل إن شاء الله تعالى بترجمة ابن زمرك هذا في باب التلامذة ، ونشير هناك إلى
كثير من أحواله ، وكيفية قتله ، مع أولاده وخدمه بمرأى ومسمع من أهله ، فكان
الجزء من جنس العمل ، وخاب منه الأمل ، إذ لسان الدين قتل غيلة بليل غاسق ،
على يد مختلس في السجن فاسق ، وأما ابن زمرك فقتل بالسيف جهاراً ، وتناوشته
سيوف مخدومه بين بناته إبداء للتشفي وإظهاراً ، وقتل معه من وجد من خدمه
وأبنائه ، وأبعده الدهر وطالما أدناه ، وهكذا الحال في خدام الدول وذوى الملك ،
أنهم أقرب شيء من الهلك ، ويرحم الله من قال : إياك وخدمة الملوك فإنهم
يستقلون في العقاب ، ضرب الرقاب ، ويستكثرون في الثواب ، ردّ الجواب .

رجع إلى ما كنا فيه من أحوال لسان الدين بن الخطيب - وكان رحمه الله تعالى
قريب موته لما توفي السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني
بتلمسان وتغلب على الأمر الوزير أبو بكر بن غازي بن السكاس مبيعاً لابن صغير السن
من أولاد السلطان عبد العزيز - ألف كتابه المسمى « بإعلام الأعلام ، بمن بويغ
من ملوك الإسلام قبل الاحتلال » ومراده بذلك تثبيت دولة الوزير الذي أبي أن
يخفّر عهده وذمته ، وامتنع أن يمسك منه أهل الأندلس ، فأكثروا القالة في الوزير
بسبب مبايعته للصبى ، وبنوا ظاهر الأمر على أن ذلك لا يجوز بالشرع ، وأبدوا
وأعادوا في ذلك ، وأسروا ما كان من أمرهم ^(١) حسوا في ارتقاء ، ومن جملة كلام
لسان الدين بن الخطيب في ذلك الكتاب قوله : فتي نبس ^(٢) أهل الأندلس
بانكار بيعة صبى صغير ، أو نيابة صاحب أو وزير ، فقد عموا وصموا ، وخطروا
بربع الإنصاف فأعرضوا وما ألبوا ^(٣) ، وبما سنوه لغيرهم ذموا . انتهى

(١) في ب « وأسروا من كان أمرهم حسوا في ارتقاء »

(٣) ألبوا : نزلوا

(٢) نبس : أراد نطق

وكان رحمه الله تعالى ألف للسلطان عبد العزيز حين انخيازه إليه « المباخر الطيبية ، في المباخر الخطيبية » : يذكر فيه نباهة سلفه ، ومالهم من الجحد ، وقصده الردُّ على أهل الأندلس المجاهرين له بالعداوة ، القادحين في فخر سلفه ، ثم ألف للسلطان من المذكور كتاب « خلع الرسن ، في التعريف بأحوال ابن الحسن » ليكونه تولى كبر الخط منه ، والسعي في هلاكه كما مر ، وقال في حق هذا الكتاب : إنه لا شيء فوقه في الظرف والاستطراف ، يُسلى الشكالي ، ونستغفر الله تعالى ، انتهى . ومع هذا كله لما أنشبت المنية أظفارها لم تنفعه مما كتب تيممة ^(١) ، ونال ما أمله فيه أهل السعاية والتيممة ، وسجلوا عليه المقالات الذميمة ، وقد صار الجميع إلى حكم عدل قادر يحيى من العظم رميمه ، وينصف المظلوم من الظالم ، ويجازى الجاهل والعالم ، ويساوى بين المأمور والأمر ، والشريف والمشرؤف ، والعزیز والحقير ، والمنكر والمعروف ، وعفوه سبحانه مؤمل بعد ، وهو لا يخلف الوعد ، ومن سبقته العناية ، لم تضره الجناية ، وقد كان لسان الدين بن الخطيب - رحمه الله تعالى - محبا في العفو حتى إنه كان إذا جرى لديه ذكر عقوبة الملوك لأتباعهم تشمئز نفسه من ذلك ويقول مامعناه : ما ضرهم لو عفوا ، ورأيت له - رحمه الله تعالى ! - في بعض مؤلفاته وقد أجرى ذكر استعطاف ذى الوزارتين أبى بكر بن عمار للسلطان المعتمد بن عباد حين قبض عليه بقوله :

سجايك إن عافيت أئدى وأتمح	وعُذْرُكَ إن عاقبت أولى وأضح
وإن كان بين الخططين مزية	فأنت من الأدنى إلى الله أجنح ^(٢)
وماذا عسى الأعداء أن يتزايدوا	سوى أن ذنبى ثابت ومصحح
وإن رجائى أن عندك غير ما	يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
أقلى بما بينى وبينك من رضا	له نحو روح الله باب مفتوح

(١) أخذ هذا من قول الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تيممة لا تنفع

(٢) أجنح : أفعل تفضيل من قولهم « جنح إلى كذا » أى مال إليه

ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم فكل إناء بالذى فيه يرشح
 وقالوا : سيجزيه فلان بذنبه فقلت : وقد يعفو فلان ويصفح
 ألا إن بطشا للمؤيد يرتى ولكن حلما للمؤيد يرجح
 وبين ضلوعى من هواه تيممة ستشفع لو أن الحمام يملح
 سلام عليه كيف دار به الهوى إلى فيدنو أو على فينرح
 ويهنيه إن مت السلو فإننى أموت ولى شوق إليه مبرح
 ما نصه : ولابن عمار كلمات شهيرة تعاليج بمرامها جراح القلوب ، وتغنى على
 هضبات الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب والأجل المحسوب ، إلى
 أن قال : وما كان أجمل بالمعتمد أن يبقى على جان من عبيده ، قد مكته الله من
 عنقه ، لا يؤمل الحصول على أمره ، ولا يحذر تعصب قبيله ، ولا يزيد العفو عنه
 إلا ترعفا وعزة وجلالة وهمة وذكرا جميلا وأجرا جزيلا ، فلا شيء أمحى للسيئة من
 الحسنة ، ولا أقتل للشر من الخير ، ورحم الله الشاعر إذ يقول :
 وطعنتمهم بالمكرمات وباللها في حيث لو طعن القفالتمكسرا^(١)
 وقد تذكرت هنا قول الأديب أبى عبد الله محمد بن أحمد التجاني رحمه الله تعالى
 ورضى عنه :

أتعجب أن حطت يد الدهر فاضلا عن الرتبة العليا فأصبح تحتها
 أما هذه الأشجار تحمل أكلها وتسقط منه كل ما طاب وانتهى
 وحكى غير واحد من مؤرخى الأندلس أن السكاتب الشهير الوزير أبا جعفر
 ابن عطية القضاعي لما تغير له عبد المؤمن وتذاكر مع بعض من أهل العلم أبيات
 ابن عمار السابقة قال : ما كان المعتمد إلا قاسى القلب حيث لم تعطفه هذه الأبيات

(١) الها : العطايا ، ومن كلامهم « الها تفتح الها » أى العطايا تنطق
 الألسنة بالثناء

إلى العفو ، ووقع لابن عطية المذكور مثل قضية ابن عمار ، واستعطف فما نفع ذلك وقتل رحمه الله تعالى ، ولنلم بذلك فنقول :

في نكبة
عبد المؤمن
باب عطية

كان أبو جعفر هذا من أهل مراکش ، وأصله القديم من طُرُوشة ، ثم بعد من دَانِيَّة ، وهو ممن كتب عن علي بن يوسف بن تاشفين أمير لَمْتُونَة ، وعن ابنه تاشفين وإسحاق ، ثم استخلصه لنفسه سالبُ ملكهم عبد المؤمن بن علي ، وأسند إليه وزارته ، فنهض بأعبائها ، وتحبب إلى الناس بإجمال السعي والإحسان فعمت صنائعه ، وفشا معروفه ، وكان محمودَ السيرة ، مبحث الحاولات ، ناجح المساعي ، سعيد المآخذ ، مُيسِّر المآرب ، وكانت وزارته زينا للوقت ، وكلا للدولة ، وفي أيام توجهه للأندلس وجد حساده السبيل إلى التدبير عليه ، والسعي به ، حتى أوغروا صدر الخليفة عبد المؤمن عليه ، فاستوزر عبد السلام بن محمد الكومي ، وانبرى لمطالبة ابن عطية ، وجَدَّ في التماس عَوْرَاته ، وتشنيع سَقَطَاته ، وطرحت بمجلس السلطان أبيات منها :

قل للامام أطل الله مُدَّتَه قولاً تَبَيَّنُ لذي لُبِّ حَقَائِقُه
إن الزراجين قوم قد وترتهمُ وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل لذلك ما كثرت فيهم علاقته
فبادرِ الحزمَ في إطفاء نارهم فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والأهمُ كهَم فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أني ناصح لكم والحق أبلج لا تخفى طرائقه

قالوا : ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وغر صدره على وزيره أبي جعفر ، وأسرَّ له في نفسه تغيراً ، فكان من أقوى أسباب نكبته .

وقيل : أفضى إليه بسر فأفشاه ، وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس فقلق وعَجَّلَ الانصراف إلى مراکش ، فحجب عند قدومه ، ثم قيد إلى المسجد في اليوم بعده حاسِرَ العامة ، واستحضر الناسُ على طبقاتهم ، وقرروا على

ما يعلمون من أمره ، وما صار إليه منهم ، فأجاب كل بما اقتضاه هواه ، وأمر بسجنه ، ولف معه أخوه أبو عقيل عطية ، وتوجه في إثر ذلك عبد المؤمن إلى زيارة تربة المهدي محمد بن تومرت ، فاستصحبهما بحال ثقاف ، وصدرت عن أبي جعفر في هذه الحركة من لطائف الأدب نظماً ونثراً في سبيل التوسل بتربة إمامهم المهدي عجائب لم تجد شيئاً مع نفوذ قدر الله تعالى فيه ، ولما انصرف من وجهته أعادها معه قافلاً إلى مراکش ، فلما حاذى تاقرت أنفذ الأمر بقتلها بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحه هنالك ، فضيا لسبيلهما ، رحمهما الله تعالى !

ومما خاطب به الخليفة عبد المؤمن مستعظماً له من رسالة تعالى فيه فعالتة من اعتذارات ابن عطية لعبد المؤمن المنية ، ولم ينل الأمنية ، وهذه سنة الله تعالى فيمن لم يحترم جناب الألوهية ، ولم يحرس لسانه من الوقوع فيما يخذش في وجه فضل الأنبياء على غيرهم وعصمتهم - قوله سامحه الله : تالله لو أحاطت بي كل خطيئة ، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة ، حق سخرت بمن في الوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وقلت : إن الله تعالى لم يوح ، في الفلك لنوح ، وبريت لقدار ثمود نبلاً^(١) ، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلاً ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين ، وأوقدت مع هامان على الطين ، وقبضت قبضة من أثر الرسول فبذتها ، وافترت على العذراء البتول^(٢) فقدتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة^(٣) ، وظاعرت الأحزاب بالقصوى من العدو ، وذمت كل قرشي ، وأكرمت لأجل وخشي^(٤) كل حبشي ، وقلت : إن بيعة السقيفة ، لا توجب إمامة الخليفة ، وشحذت شفرة غلام المغيرة^(٥) بن شعبة ، واعتقلت من حصار الدار وقتل أشمطها^(٦) بشعبة ، وقلت : تقاتلوا رغبة في الأبيض

(١) قدار ثمود : عاقر ناقة صالح (٢) العذراء البتول : مريم أم عيسى عليه السلام

(٣) صحيفة القطيعة التي كتبها قریش وعلقتها في الكعبة لمقاطعة بني هاشم رهط الرسول

(٤) وحشي : قاتل حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد

(٥) غلام المغيرة : قاتل عمر بن الخطاب . (٦) أراد بأشمط الدار عثمان بن عفان ، وأخذ هذا من قول حسان :

ضجوا بأشمط عنوان السجود به

يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً

والأصفر^(١)، وسَفَكُوا الدماء على الثريد الأعفر، وغادرت الوجّه من الهامة خَضِيْبًا، وناولتُ من قرَع سنّ الحُسَيْنِ قَضِيْبًا^(٢)، ثم أتيت حضرة المعلوم لائذاً ، وبَقَرُ الإمام المهدي عائذاً ، لقد آن للمقاتي أن تُسمع ، وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع ، مع أني مقترف ، وبالذنب معترف .

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ لَنَا بِرَدِّ قُلُوبِ هَدَّهَا الْخَفَقَانُ
وكتب مع ابن له صغير آخرة :

عطفنا علينا أمير المؤمنين ، فقد
قد أغرقنا ذنوبُ كلها لجج
وصادفتنا سهام كلها غرض
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه
من جاء عندكم يسعى على ثقة
فالثوب يطهر عند الغسل من دَرَن
أتمم بذلتكم حياة الخلق كلهم
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم
وصديعة كفراخ الورق من صغر
قد أوجدتهم أيادٍ منك سابقة
فوقع عبدالمؤمن على هذه القصيدة (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) .

ومما كتب به من السجن :

أنوحُ على نفسي أمْ أُنْتَظَرُ الصَّفْحَا
فقد آن أن تُنسى الذنوب وأن تمحى
فها أنا في ليل من السخط حائر
ولا أهتدى حتى أرى للرضا صباحا
وامتحن عبدالمؤمن الشعراء بهجوا بن عطية ، فلما أسمعوه ما قالوا ، أعرض

(١) يريد ما كان بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما

(٢) يروى أن يزيد بن معاوية لما وضعت أمامه رأس الحسين أخذ ينكت أسنانه

بقضيب (عصا) كان في يده .

عنهم ، وقال : ذهب ابن عطية ، وذهب الأدب معه .

وكان لأبي جعفر أخ اسمه عطية قتل معه ، ولعطية هذا ابن أديب كاتب ، وهو أبو طالب عقيل بن عطية ، ومن نظم في رجل تعشق قَيْنَةً كانت ورثت من مولاهما مالا فكانت تنفق عليه منه ، فلما فرغ المال ملها :

لَا تَلَحُّهُ أَنْ مَلَّ مِنْ حَبِهَا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنْ وَدِّ

لَمَّا رَأَاهَا قَدْ صَفَا مَالُهَا قَالَ : صَفَا الْوَجْهَ مَعَ الْوَجْدِ

وكان أبو جعفر بن عطية من أبلغ أهل زمانه ، وقد حكى أنه مر مع الخليفة عبد المؤمن ببعض طرق مراكش ، فأطلت من شبائك جارية بارعة الجمال ، فقال عبد المؤمن :

* قَدَّتْ فَوَادِي مِنَ الشَّبَاكِ إِذْ نَظَرْتُ *

فقال الوزير ابن عطية مجيزاله :

* حَوْرَاءُ تَرْنُو إِلَى الْعِشَاقِ بِالْمَقْلِ *^(١)

فقال عبد المؤمن :

* كَأَنَّمَا لَحْظُهَا فِي قَابِ عَاشَتِهَا *

فقال ابن عطية :

* سَيْفُ الْمُؤَيَّدِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِي *
ولا خفاء أن هذه طبقة عالية .

ومن فصول رسالته التي كتب بها عن أبي حَفْص ، وهي التي أورثته الرتبة العالية السنية ، والوزارة الموحّدية المؤمنية ، قوله : كتبنا هذا من وادي ماسة بعد ما تجدد من أمر الله الكريم ، ونصر الله تعالى المجهود المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، فتبهر الأنوار إشراقا ، وأحْدَقَ بنفوس المؤمنين إحداقا ، ونبه

(١) ترنو : تنظر ، والمقل : جمع مقلة ، بضم الميم - وهي هنا العين .

للأمانى النائمة جُفُونَا وأحدافا ، واستغرق غاية الشكر استغرافا ، فلا تطيق الألسن
لكنه وصفه إدراكا ولا لحافا ، جمع أشتات الطلب والأرب ، وتقلب في النعم
أكرم منقلب ، وملا دلاء الأمل إلى عقد الكرب .

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القُشْبِ
وتقدمت بشارتنا به جهله ، حين لم تعط الحال بشرحه مهله ، كان أولئك الضالون
قد بطروا عدوانا وظلما ، واقتطعوا الكفر معنى وأسماء ، وأملى لهم الله تعالى ليزدادوا
إثما ، وكان مُقدِّمهم الشقى قد استمال النفوس بخـز عباته ، واستهوى القلوب
بمهولاته ، ونصب له الشيطان من حبالاته ، فأتته الخطابيات من بعد وكُشِبَ ،
ونسلت إليه الرسل من كل حَدَب ، واعتقدته الخواطر أعجب عجب ، وكان الذى
قادم إلى ذلك ، وأوردتهم تلك المهالك ، وُصُولُ من كان بتلك السواحل ممن ارتسم
برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على زعمه بالقيام
والصيام ، آناء الليالى والأيام ، لبسوا الناموس أثوابا ، وتدرَّعوا الرياء جلبابا ، فلم
يفتح الله تعالى لهم للتوفيق بابا .

ومنها في ذكر صاحبهم الماسى المدعى للهداية : فصرع بحمد الله تعالى لحينه ،
وبادرت إليه بوادر منونه ، وأتته وأفادت الخطيئات عن يساره ويمينه ، وقد
كان يدعى أنه بُشِّرَ بأن المنية فى هذه الأعوام لا تصيبه ، والنوائب لا تنوبه ،
ويقول فى سواء قولاً كثيراً ، ويختلق على الله تعالى إفكاً وزوراً ، فلما رأوا هيئة
اضطجاعه ، وما خطته الأسنة فى أعضائه وأضلاعه ، ونفذ فيه من أمر الله تعالى مالم
يقدرُوا على استرجاعه ، هُزِمَ من كان لهم من الأحزاب ، وتساقطوا على وجوههم
تساقط الذباب ، وأعطوا عن بكرة أبيهم صَفَحَاتِ الرقاب ، ولم تقطر كلومهم
إلا على الأعقاب ^(١) ، فامتلات تلك الجهات بأجسادهم ، وأذنت الآجال بانقراض
(١) هذه كناية عن جبنهم وفرارهم ، وأنه يقتلون فارين مولين ، وأخذ هذا من

قول الشاعر :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أعناقنا تقطر الدما

آمادهم ، وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم ، فلم يعاين منهم إلا من خر صريعا ، وسقى الأرض نجيعا^(١) ، ولقى من أمر الهنديات^(٢) فظيما ، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامى فى الوادى ممن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ، ويسبح طامعا فى الخروج إلى ما يُنَجِّيه ، اختطفته الأسيئة اختطافا ، وأذاقته موتا ذُخانا^(٣) ، ومن لج فى الترامى على لُجَجِهِ ، ورام البقاء فى ثُبَجِهِ^(٤) ، قضى عليه شَرَقُهُ ، وألوى بذقنه غَرَقُهُ ، ودخل الموحَّدون إلى البقية السكائنة فيه يتناولون قنالهم طعنا وضربا ، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولا عظيما وكرها ، حتى انبسطت مراقبة الداء ، على صفحات الماء ، وحكت حمرتها على زرقة حمرة الشَّمَقِ على زرقة السماء ، وجرت العبرة للمعتبر ، فى جرى ذلك الدم جرى الأبحر .

و بالجملة فالرجل كان نسيجَ وَخْدِهِ رحمه الله تعالى وساحه ، وقصة لسان الدين تشبه قصته ، وكلاهما قد ذاق من الذل بعد العز غَصَّتَهُ ، وبَدَّلَ الدهرُ نصيبه من الوزارة وَحِصَّتَهُ ، بعد أن افتعد ذِرْوَةَ الأمر وَمِنْصَتَهُ ، رحم الله تعالى الجميع ، إنه يجيب سميع !

(١) النجيع : الدم

(٢) الهنديات : السيوف

(٣) سم ذعاف : قاتل لحينه ، وهو بزنة غراب .

(٤) الثبج : أصله معظم موج البحر

الباب الثالث

في ذكر مشايخه الجلالة ، هداة الناس ونجوم الملة ، وما يتعلق بذلك من الأخبار الشافية من العلة ، والمواعظ المنجية من الأهواء المضلة ، والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة .

أقول : لاختفاء أن الشيخ لسان الدين رحمه الله تعالى أخذ عن جماعة من أهل العدو والأندلس عدة فنون ، وحدث عنهم بما يصدق الأقوال ويحقق الظنون . فمن أشياخه رحمه الله تعالى الفقيه الجليل الشريف النبيه الشهير ، رئيس العلوم اللسانية بالأندلس ، قاضي الجماعة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني السبتي ، رحمه الله تعالى ! كان هذا الشريف آية الله الباهرة في العربية والبيان والأدب ، ويكفيه فضلاً أنه شرح الخرزجية ، وافترع هضاب^(١) مشكلاتها بفهمه ، من غير أن يسبقه أحد إلى استخراج كنوزها ، وإيضاح رموزها ، وشرح مقصورة أديب المغرب الإمام أبي الحسن حازم بن محمد القرطاجي الأندلسي التي مدح بها أمير المؤمنين المستنصر بالله أبا عبد الله محمدًا الحفصي ، وسمى هذا الشرح « بفتح الحجب المستورة » ، عن محاسن المقصورة « وهذا الشرح في مجلدين كبيرين ، وفيه من القوائد مالا مزيد عليه ، رأيته بالمغرب ، واستفدت منه كثيرا .

ومن فوائد الشريف المذكور أنه قال فيما جاء من الحديث في صفة وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأقبل بهما وأدبر » : إن أحسن الوجوه في تأويله أن يكون قدم الإقبال تفاؤلا ، ثم فسر بعد ذلك على معنى أدبر وأقبل ، قال : والعرب تقدم في كلامها ألفاظا على ألفاظ أخرى ، وتلتزمه في بعض المواضع ،

(١) الهضاب : جمع هضبة ، وهي ما ارتفع من الأرض ، وافترعها : علاها

وارتفع فوقها ، وفي الكلام مجاز

كقولهم : قام وقعد ، ولا تقول : قعد وقام ، وكذلك أكل وشرب ، ودخل
 وخرج ، وعلى هذا النمط كلام العرب ، فتكون هذه المسألة من هذا ، قال : ويؤيد
 ما قلناه - وهو موضع النكته - تفسيره لأقبل وأدبر في باقي الحديث على معنى أدبر
 ثم أقبل ، ولو كان اللفظ على ظاهره لم يحتاج إلى تفسير ، انتهى .

وحدث رحمه الله تعالى عن جده لأمه قال : كنت بالمشرق ، فدخلت على
 بعض القرائين ، فالتيت الطلبة يعربون عليه قول امرئ القيس :

كأن أباناً في أفانين وذوقه كبير أناس في بجاد مُزمل
 فأنشد ولا أدري هل هي له أو لغيره :

إذا ما الليالي جاورتك بساقط وقدرك مرفوع فعنه ترحل
 ألم تر ما لاقاه في جنب جاره (كبير أناس في بجاد مُزمل)^(١)
 وكان بعض الناس ينشد في هذا المقصد قول الآخر :

عليك بأرباب الصدور ، فمن غدا مضافاً لأرباب الصدور تصدراً
 وإياك أن ترضى بصحبة ساقط فتنحط قدراً من علاك وتمحقرا
 فرفع أبو من ثم خفض مزمل يبين قولي مغنياً ومحذرا
 وهذا معنى قول الشاعر :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى
 وما أحسن قول أبي بحر صفوان بن إدريس المرسى رحمه الله تعالى :

إنا إلى الله من أناس قد خلعوا لبسة الوقار
 جاورتهم فانخفضت هوناً يارب خفض على الجوار
 ومن نظم الشريف رحمه الله تعالى :

وأحور زان خديه عذار سبي الألباب منظره العجائب

(١) « مزمل » في بيت امرئ مرفوع لأنه من وصف « كبير أناس » الذي
 هو خبر « كأن » ولكنه جره لمجاورته المجرور وهو « بجاد » فالشاعر ههنا يقول :
 لا تجاور مخفوض القدر لئلا يصيبك منه .

أقول لهم وقد عابوا غرامى به إذ لاح للدمع انسكاب
أبعد كتاب عارضه يُرجى خلاص لى وقد سبق الكتاب؟

ومن الغريب فى توارده الخواطر ما وجد بخط الأديب البارع المحدث الكاتب
أبى عبد الله محمد ابن الشيخ الكبير أبى القاسم بن جَزَى الكلبى رحمهما الله تعالى
وسياًتيان ما معناه : قلت هذه القطعة :

ومعسول الملى عادت عَذَاباً على قلبى ثنياه العذاب^(١)
وقد كتب العذار بوجنتيه كتاباً حظ قارئه اكتساب
وقالوا سلوت فقلت خيراً وأنى لى وقد سبق الكتاب؟

ثم عرضتها على شيخنا القاضى أبى القاسم الشريف بعد نظمها بمدة يسيرة فقال لى :
قد نظمت هذه المعنى بالعروض والقافية فى هذه الأيام اليسيرة ، وأنشدنى :
* وأخو زان خديه عذار * الأبيات السابقة .

وهذا يقع كثيراً ، ومنه ما وقع لابن الرقام حيث قال : من شعر عمى قوله :
جُلُ فى فى البلاد تمل عزاً وتكرمة فى أى أرض فكن تبلغ مُنالك بها^(٢)
جبل الفوائد بالأسفار مكتسب والله قد قال (فامشوا فى مناكبها)

فقال له الفقيه ابن حنبل : مثل هذا وقع لأبى حيان إذ قال :

يا نفس مالك تهوين الإقامة فى أرض تعذر كل من مُنالك بها
أما تلوت وعجز المرء منقصة فى محكم الوحى (فامشوا فى مناكبها)

فحصل العجب من هذا الاتفاق الغريب .

ونقلت ممن نقل من خط الفقيه محمد بن على بن الصباغ العقيلي ما صورته :
كان الشريف الغرناطى - رحمه الله تعالى ! - آية زمانه ، وأزمنة البيان طوع بنانه ،
له شرح المقصورة القرطاجنية أغرب ما تتجلى به الآذان ، وأبداع ما ينشرح له

(١) اللعي - بفتح اللام - سمرة فى باطن الشفة ، وأراد هنا الريق ، يريد أن
طعم رضابه كطعم العسل (٢) جل : أمر من الجولان ، وهو التنقل فى البلاد ،
والن : جمع منية ، وهى ما يتمناه الإنسان

الجنان ، إلى العقل الذى لا يدرك ، والفضل الذى حمد منه المسلك ، حدثني بنادره جرت بينه وبين مولاي الوالد مَنْ أثق به من طلبة الأندلس وأعلامها ، قال : دخل والدك يوما لأداء الشهادة عنده ، فوجد بين يديه جماعة من الغزاة يؤدون شهادة ، فسمع القاضى منهم ، وقال لهم : هل تَمَّ من يعرفكم ؟ فقالوا : نعم ، يعرفنا على الصباغ ، فقال القاضى : أتعرفهم يا أبا الحسن ، فقال له : نعم ياسيدى ، معرفة محمد بن ^(١) يزيد ، فما أنكر عليه شيئا بل قال لهم : عرف الفقيه أبو الحسن ما عنده ، فانظروا مَنْ يعرف معه رسم حاكم ، فانصرفوا راضين ، ولم يرتعن والدى فى شيء من حاكم ، ولا كشف القاضى لهم ستر القضية .

قال محمد بن على بن الصباغ : أما قول والدى « معرفة محمد بن يزيد » فإشارة إلى قول الشاعر :

أسائل عن ثَمالة كل حى فكلهم يقول وما ثَماله ^(٢)

فقلت محمد بن يزيد منهم فقالوا الآن زدت بهم جهاله ^(٣)

فتفطن القاضى رحمه الله تعالى لجودة ذكائه إلى أنه لم يرتعن فى شيء من معرفتهم ، ممتنعاً من إظهار ذلك بلفظه الصريح ، فكفى واكتفى بذكاء القاضى الصحيح ، رحمهما الله تعالى ! انتهى .

ومن فوائد الشريف ما حكاه عنه تلميذه الإمام النظار أبو إسحاق الشاطبى رحمه الله تعالى ! ونصه : قال لى الشيخ القاضى الكبير الشهير أبو القاسم الحسنى يوما وقد جرى ذكر « حتى » التى للابتداء ، وأن معناها التى يقع بعدها الكلام سواء كان ذلك متعلقا بما قبلها لم يتم دونه أولا ، بل لا يكون الأمر إلا كذلك ، قال : وقد حدثني بعض الأصحاب أنه سمع رجلا يصلى أشفاع رمضان ، فقرأ من سورة الكهف إلى قوله تعالى (ثم أتبع سببا) فوقف هناك ، وركع وسجد ، قال :

(١) محمد بن يزيد : هو أبو العباس المبرد ، والبيتان الآتيان قيدا فى هجوه

(٢) حفظى فى هذا البيت :

سألنا عن ثَمالة كل حى فقال القائلون : ومن ثَماله ؟

(٣) حفظى فى عجز هذا « البيت فقالوا زدتنا بهم جهاله »

فظننت أنه نسي ما بعد ، ثم ركع وسجد حتى يتذكر بعد ذلك ويعيد أول الكلام ، فلما قام من السجود ابتداء القراءة بقوله (حتى إذا بلغ) فلما أتم الصلاة قلت له في ذلك ، فقال : أليست حتى الابتدائية ؟ قال القاضي الشريف المذكور : فيجب أن يفهم أن الاصطلاح في حتى وفي غيرها من حروف الابتداء مذكور ، انتهى . وقال الشاطبي : أنشدني أبو محمد بن حذلم لنفسه :

شأن المحبين في أشجاشهم عَجَبٌ وحالتي بينهم في الحب أعجبها

قد كنت أبعث من ريح الصبارُ سَلاً تأنى فتطفئ أشواقي فتذهبها

والآن أرسل دمعي إثرها دِيَمًا فتلتظي نار وجدى حين أسكبها^(١)

فأعجب لنار اشتياقي في الحشا وقتت الريح يذهبها والماء يلهبها

ثم قال الشاطبي ما نصه : أخذ هذا المعنى فتممه ، من قطعة أنشدناها شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف رحمه الله تعالى عليه ! أذكر الآن آخر بيت منها وهو :
يامن رأى النار إن تطفأ مخالفة فبالرياح ، وإن توقد فبالماء

وأخذ عن الشريف المذكور رحمه الله تعالى جماعة غير لسان الدين ، من أشهرهم العلامة النظار أبو إسحاق الشاطبي ، والوزير الكاتب أبو عبد الله بن زمرك قال حفيد السلطان الغني بالله بن الأحمر رحمه الله تعالى في حق ابن زمرك : إنه كان يتردد الأعوام العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف ، فأحسن الإصغاء ، وبذَّ الأئمة البلغاء ، بما أوجب أن رثاه عند الوقوف على قبره بالقصيدة الفريدة التي أولها :

* أغرى سرّاً الحى بالإطراق *

وقال في موضع آخر : ومما بذبه - يعني ابن زمرك - سبقاوتبريزاً ، وعرضه على نقدّة البيان فرأيت منه كل مذهب خلصت إبريزاً ، مرثيته للقاضي المعظم الشريف أبي القاسم الحسنى من شيوخه ، وهي :

أغرى سرّاً الحى بالإطراق نبأ أصم مسامع الآفاق

(١) الديم - بكسر الدال وفتح الباء - جمع ديمة ، وهي المطر الدائم الذي لا ينقطع وتلتظي : تحترق

مرثية
ابن زمرك
لشيخه القاضي
الحسنى

أمسى به ليل الحوادث داجيا والصبح أصبح كاسف الإشراف
 فجع الجميع بواحد جمعت له شقى العلا ومكارم الأخلاق
 هبوا لحكمكم الرصين فإنه صرف القضاء فماله من واق
 نفس الزمان بصرفه في صفحة كل اجتماع مؤذن بفراق
 ماذا ترجى من زمانك بعد ما علق الفناء بأنفس الأعلاق
 من تحسد السبع الطباق علاءه عالوا عليه من الثرى بطباق
 إن المنى — يا للبرايا غاية سبق الكرام تلخصها بسباق^(١)
 لما حسبنا أن تحول أبوسا كشفت عوان حرومها عن ساق
 ما كان إلا البدر طال سيراره حتى رمت يد الردى بمحقاق
 أنف المقام مع الفناء نزاهة فنوى الرحيل إلى مقام باق
 عدم الموافق في مرافقه الدنا فنضى الركاب إلى الرفيق الباقي
 أسفا على ذاك الجلال تقلصت أفيأؤه وعهدن خير رواق
 يا أمرى بالصبر، عيل تصبرى دعنى عدتك لواعج الأشواق
 وذري اليراع تشى بدمع مدادها وشى القريض يروق فى الأوراق
 واحسرتا للعلم أقفر ربعه والعدل جرّد أجمل الأطواق
 ركدت رياح المعالوات لفقدتها كسدت به الآداب بعد نفاق
 كم من غوامض قد صدّعت بفهمها خفيت مداركها على الحذاق
 كم قاعد فى البيد بعد قعوده قعدت به الآمال دون الحاق
 لمن الركائب بعد بعدك تئذّضى ما بين شام ترتبى وعراق
 تقبلي الفلا بمناسم مفلولة تسم الحصى بنجيعها الرقاق^(٢)
 كانت إذا اشتكت الوجى وتوقفت يهفو نسيم ثنائك الخفاق

(١) خصل السباق : الخطر الذى يراهن عليه فى النضال ، وهو بفتح الحاء

وسكون الصاد .

(٢) الفلا : جمع فلاة وهى الصحراء ، وتفلها : تقطعها .

فإذا تنسمت الثناء أمامها
 يأمزجى البدن القلاص خواقفا
 مات الذى ورث العلا عن معشر
 رفعت لهم رايات كل جلالة
 علم الهداة وقطب أعلام النهى
 رقت سجاياه وراقت مجتلى
 كالزهر فى لألانه ، والبدر فى
 مهما مدحت سواء قيّد وصفه
 يا وارثا نسب النبوة جامعا
 يا ابن الرسول وإنها لوسيلة
 ورد الكتاب بفضلكم وكالكم
 مولاي إني فى علاك مقصر
 ومن الذى يُحصى مناقب مجدكم
 يهني قبورا زرتها فقد ثوت
 خط الردى منها سطوراً نصها
 ولحقت ترجمة الكتاب وصدده
 كم من سراة فى القبور كأنهم
 قل للسحاب اسحب ذبولك نحوه
 أودى الذى غيث العباد بكفه
 إن كان صوبك بالمياه فدرها
 بشر كثير قد نعوا لماعى

مدت لها الأعناق فى الإعناق
 رقصاً بها فالسعى فى إخفاق^(١)
 ورثوا تراث المجد باستحقاق
 فتميزوا فى حلبة السباق
 حرم العفاة المجتنى الأرزاق
 كالشمس فى بُعد وفى إشراق
 عليائه ، والزهر فى الإبراق
 وصفاته حمد على الإطلاق
 فى العلم والأخلاق والأعراق
 يرقى بها أوج المصاعد راق
 وكفى ثناء الواحد الخلاق
 قد ضاق عن حصر النجوم نطاق
 عند الحصى والرمل غير مطاق
 منا مصون جوانح وحداق
 لا بد أنك للنفاء ملاق
 وفوائد المكتوب فى الإلحاق
 فى بطنها در ثوى بحقاق
 وألعب بصارم برقك الخفاق
 يزرى بواكف غيثك الغيثاق
 در يروض ماحل الإملاق
 قاضى القضاة وغاب فى الأطباق

(١) اللزجى : السائق ، والبدن : جمع بدنة ، وأراد بها الإبل ، والقلاص - بكسر
 القاف - جمع قلوص ، وهو الشابة الفتية من النوق .

ألبستهم ثوب الكرامة ضافيا وأرحت من كد ومن إرهاق
يَتَفَيَّوْنَ ظلال جاهك كلما لفحت سُموماً الخطب بالإحراق^(١)
عدموا المرافق في فراقك وانطوى عنهم بساط الرفق والإرفاق
رفعوا سريرك خافضين رؤسهم ما منهم إلا حليف سسياق
لكن مصيرك للنعم مَحْلداً كان الذي أبقى على الأرماق^(٢)
ومن العجائب أن يُرى بحر الندى طود الهدى يَسْرِي على الأعناق
إن يَحْمِلوك على الكواهل طالما قد كنت محمولا على الأحداق
أو يرفعوك على العواتق طالما رفعت ظهر منابر وعتاق
ولئن رحلت إلى الجنان فإننا نَصَلِّي بنار الوجد والأشواق
لو كنت تشهد حزن من خلقته لَتَنَى عنانك كثرة الإشفاق
إن جَنَّ ليل جُنَّ من فرط الأسى وسوى كلامك ماله من راق
فابعث خيالك في الكرى يبعث به ميت السرور لتاكل مشتاق
أغليت يارزبه التصبر مثل ما أرخصت در الدمع في الآماق
إن يخلف الأرض الغامُ فإنني أسقى الضريح بدمعي المهرِّاق
وكانت وفاة الشريف للذكور سنة إحدى وستين وسبع مائة .

قال ابن الخطيب القسطنطيني في وفياته : وفي هذه السنة - يعني سنة ٧٦١ -
توفي شيخنا قاضي الجماعة بَغْرَنَاطَة حرسها الله تعالى أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف
الحسني ، وكتب لي بالإجازة العامة بعد التمتع بمجلسه ، وله شعر مدون سَمَّاهُ
« جهد المقل » وله الشرح على الخزرجية في العروض ، وأقدم عليها بعد أن عجز
الناس عن فكها ، وكان إماما في الحديث والفقه والنحو ، وهو على الجملة ممن
يحصل الفخر ببلداته ، ولم يكن أحد بعده مثله بالأندلس ، انتهى .

(١) يتفَيَّون : يستظلون ، ولفحت : هبت حارة ، والسموم : أراد بها الرياح الحارة

(٢) الأرماق : جمع رَمَق ، وهو بقية الروح في البدن ، يقول : لولا ثقتنا بأنك

صائر إلى نعيم الجنان لم نبق على الحياة .

وقال في « الإحاطة » إن مولد الشريف كان سنة سبع وتسعين وسمائة ،
وإن وفاته سنة ستين وسبعائة ، وفي وفاته مخالفة لما تقدم ، والله أعلم .

وما أحسن قول الشريف أبي القاسم المترجم به :

حدائق أنبت فيها الغواصي ضروب النور رائقة البهاء

فما يبدو بها النعمان إلا نسبناه إلى ماء السماء (١)

وكان للشريف أبي القاسم المذكور ابنان نجيبان : أحدهما قاضي الجماعة أبو المعالي ،
والآخر أبو العباس أحمد ، قال الراعي في كتابه « الفتح المنير » ، في بعض ما يحتاج

إليه الفقير « ما نصه : حكاية تتعلق بالانقطاع ، نسأل الله تعالى العافية : وقع

للسيد الشريف قاضي الجماعة بغرناطة أبي المعالي ابن السيد الشريف أبي القاسم

الحسن شارح الخرزجية ومقصورة حازم نفع الله تعالى بسلفهم الكريم ، وكانت

أم السيد أبي المعالي حسينية ، فكان شريفا من الجهتين ، أنه كان قد ترك كبار

أوظائف والرياسات ، وتجرد للعبادة ، ولبس المرقعة ، وسلك طريق القوم ، وكان

من الدين والعلم والتعظيم في قلوب أهل الدنيا وأهل الآخرة على جانب عظيم ، يشار

إليه بالأصابع ، وكان أخوه شيخى وأستاذى أبو العباس أحمد قاضيا بشرق الأندلس

فكان أخوه أبو المعالي المذكور لا يأكل في بيت شقيقه شيئا لأجل ذلك ، واعيشه

من خدم السلطان ، وكان إذا احتاج إلى الطعام وهو في بيت أخيه أعطاني درهما

من عنده اشترى له به ما يأكل ، وأقام على هذه الحالة الحسنة سنين كثيرة ، ثم

إنه دخل يوما على الفقراء بزواية المحروق من ظاهر غرناطة ، وكان شيخ الفقراء

بها في ذلك الوقت الشيخ أبا جعفر أحمد المحدود ، فقال لهم : يا سادتي ، إنه كان

معنى قنديل أستضيء به فمقدته في هذه الأيام ، وما بقيت أبصر شيئا ، فقال له

شيخهم المذكور : يا شريف أول رجل يدخل علينا في هذا المجلس يجيبك عن

(١) النعمان : أراد الأفاضل ، وهو نبت أحمر ، ووري بالنعمان بن المنذر بن ماء

السما ، وماء السماء : أراد به المطر ، وهو من تمام التورية ، لأن « ماء السماء » من

أسماء آباء النعمان كما سمعت .

مسألتك ، فدخل عليهم رجل من خيارهم من أهل البادية ، فسلم وجلس ، فقال له الشيخ : إن الشريف يسأل الجماعة ، فقلت له : أول رجل يدخل علينا يجيبك ، فوفقت أنت ، فأجبه عن مسألتك ، فقال له : ما سؤالك يا شريف ؟ فقال : إنه كان لي قنديل أستضيء به ففقدته ، وما بقيت أبصر شيئا ، فقال له الفقير : هذا لا يصدر إلا عن سوء أدب ، أخبرنا بما وقع منك ، فقال له الشريف : ما أعلم أنه وقع مني شيء ، غير أن المباشر فلانا طلبه السلطان للمصادرة ، فاستخني منه ، فمررت ببابه يوما ، فناداني من شقة الباب ، يا سيدي ، اجعل خاطرك معي لله تعالى ، فقلت له : اذكر الذكر الغلاني ، قلت : وأنا أظن أنه أمره بذكر اسمه تعالى اللطيف فإنه سريع الإجابة في تفريج الشدائد والكرب ، نص عليه البوني في منتخبه ، وهو مجرب في ذلك ، وقد رَوَاهُ لي عن بعض مشايخه السيد الشريف أحمد أخوه ، فقال له الفقير : هل كان أذن لك في تلقينه ؟ قال : لا ، قال له الفقير : لا يعود إليك نورك أبدا ؛ لأنك قد أسأت الأدب ، فكان كما قال ، فانتطع وولي بعده قضاء الجماعة ، وعزل عن سخط ، وخدَمَ الملوك ، وأكل طعامهم ، وحالته أولا وآخرها معروفة بغرناطة ، نسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من المطرودين عن باب رحمته بمنه وكرمه ! انتهى كلام الراعي رحمه الله تعالى .

رجع إلى مشايخ لسان الدين ، رحمه الله تعالى ورضي عنه وسامحه ! فنقول : أبو عبد الله محمد

بن جابر الوادي

ومن مشايخ لسان الدين الإمام الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر

الوادي أشي ، ولد بتونس ، وهو محمد ابن الإمام المحدث معين الدين جابر بن محمد ابن قاسم بن أحمد القيسسي ، شيخ ممتع نبيل رحال متقن .

قال الخطيب ابن مرزوق : وعاشرته كثيرا سفرا وحضرا ، وسمعت بقراءته ، وسمع بقراءتي ، وقرأت عليه الكثير ، وقيدت من إفوائده ، وإنشدني الكثير ،

فأول ما قرأت عليه بالقاهرة ، وقرأت عليه بمدينة فاس ، وبظاهر قسنطينة ، وبمدينة بجاية ، وبظاهر المهدية ، وبمنزلى من تلمسان ، وقرأت عليه أحاديث عوالى من تخرج الدمياطى ، وفيها الحديث المسلسل بالأولية ، وسلسلته عنه من غير رواية الدمياطى بشرطه ، ثم قرأت عليه أكثر كتاب « الموطأ » رواية يحيى ، وأعجله السفر فأتممته عليه فى غير القاهرة ، وحدثنى به عن جماعة ، ومُعَوِّله على الشيخين قاضى القضاة أبى العباس بن الغاز الخرزجى وهو أحمد بن محمد بن حسن والشيخ أبى محمد بن هرون وهو عبد الله بن محمد القرطبى الطائى الكاتب المعمر الأديب ، بحق سماعه لأكثره على الأول وقراءته بأجمعه على الثانى ، قال الأول : أخبرنا أبو الربيع بن سالم بجميع طرقه فيه منها عن ابن مرزوق وأبى عبد الله بن أبى عبد الله الخولانى عن أبى عمرو عثمان بن أحمد المغافرى عن أبى عيسى بسنده ، وقال الثانى : أخبرنا أبو القاسم بن بقرطبة ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الحق عن محمد بن فرج مولى الطلاع عن يونس بتمام سنده .

قال شيخنا : وفى هذا السند^(١) غريبتان : إحداهما أنه ليس فيه إجازة ، والثانية أن شيوخه كلهم قرطبيون .

قال ابن مرزوق : قلت ولا غرابة فى اتصال سماع الموطأ وقراءته ، فقد وقع لى على قلة التحصيل متصلا من طرق ولله الحمد ، وقدرويته عن قرطبى ، وهو أبو العباس بن العشاء ، ثم قرأت عليه كتاب « الشفاء » لعياض ، وحدثنى به عن أبى القاسم عن أبى عبد الله بن أبى القاسم الأنصارى الماتقى نزىل سبته ويعرف بها بابن حكم وبابن أخت أبى صالح ، عن أبى زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الخرزجى ، عن أبى جعفر أحمد بن حكم ، عن المؤلف ، وحدثنى به أيضا عن قاضى الجماعة ابن أبى الربيع بن سالم عن أبى جعفر بن حكم .

(١) السند — بفتح السين والنون جميعا — هو فى اصطلاح علماء الحديث الطريق الموصل إلى المتن : أى الرجال الذين يروى عنهم المتن .

ثم قال ابن مرزوق بعد كلام ما صورته : ورويت عنه وأنشدني لأبي محمد ابن هرون :

لا تَطْمَعَنَّ في نفع آلك إنه ضرر ، وقلَّ النفع عند الآل^(١)
أقصر رؤْيِدَكَ إن ما أعلقته بالآل من أهل كمثل الآل^(٢)
ولابن هرون المذكور :

أقلَّ زيارة الأحبِّ ب تزدد عندهم قربا
فإن المصطفى قد قا ل زرغبنا تزدد حبا
ولابن هرون أيضا :

رمانى بالنوى زمني فشمْلُ الأنس مفترق
وليلي كله فكر فقلبي منه محترق
وللآداب أبناء يبحر الفقر قد غرقوا
وكل منهم وجِلٌّ بما يلقاه أوفرق
يغصُّ بريقه منه وفي النطق أو شرق
وقد صَفِرَتْ أكنفهم فلا ورق ولا ورق
ولطف الله مرتقبٌ به العادات تنخرق

قال ابن مرزوق : وشعره الفائق لا يحصر ، وهو عندى في مجلد كبير ، وولد ابن جابر سنة ٦٧ ، وسمع بمصر على جماعة ، وكتب بخطه كثيراً ، وله معرفة بالحديث والنحو واللغة والشعر ، وله نظم حسن ، وتوفى بتونس سنة ٧٧٩ ، وأخذ القراءات عن ابن الزيات وغيره ، وترجمة الحافظ بن جابر رحمه الله تعالى واسعة مشهورة ، وقد ذكرناه في غير هذا الكتاب بما جمعناه .

(١) آل في هذا الوضع هم الأهل ، وأصل ألفه الماء فأبدلت همزة ثم قلبت الهمزة ألفا لسكونها إثر همزة مفتوحة في صدر الكلمة .
(٢) آل ، هنا : السراب ، وهو ما تراه في الصحراء كأنه ماء ، وليس بماء .

بعض ما أنشده
لسان الدين
لشيوخه

ومما أنشده لسان الدين رحمه الله تعالى لبعض المتصوفة من شيوخه ولم يُسمه قوله :

هل تعلمون مصارع العشاق عند الوداع بلوعة الأشواق
والبين يكتب من نحيب دماهم إن الشهيد آمن توى بفراق^(١)
لو كنت شاهد حالهم يوم النوى لرأيت ما يلقون غير مطاق
منهم كئيب لا يمل بكاءه قد أحرقت مدامع الآماق^(٢)
ومحرق الأحشاء أشعل نارها طول الوجيب بقلبه الخفاق
ومؤله لا يستطيع كلامه مما يقاسى فى الهوى ويلاق
خرس اللسان فما يطيق عبارة ألم ألم وما له من راق
ما للحب من المنون وقاية إن لم يجد محبوبه بطلاق
مولاي عبدك ذاهب بفرامه أدرك بفضلك من ذمّاه الباقي
إني إليك بذاتي متوسل فاعطف بلطف منك أو إشفاق

وهذه الأبيات أوردها رحمه الله تعالى فى الروضة فى العشق ، بعد أن حدّث وتكلم عليه ، ثم أورد عدة مقطوعات ، ثم ذكر بعدها هذه الأبيات كما ذكر .

وأنشد لسان الدين رحمه الله تعالى لبعض أشيائه ، وسماء ، وأنسيته أنا الآن :

بما بيننا من خلوة معنوية أرق من النجوى وأحلى من السلوى
قضى ساعة فى ساحة الدار وانظري إلى عاشق لا يستفيق من البلوى
وكم قد سأت الريح شوقا إليكم فاحزن مسراها على ولا ألوى

وقوله :

أنست بوحدتى حتى لو أنى أتانى الأنس لاستوحشت منه

(١) البين — بالفتح — الفراق ، والنحيب : الدم ، وأصل الشهيد الذى يموت فى قتال العدو بقصد إعلاء كلمة الله ، وأراد هنا تشبيه ميت العشق به ، وتوى — بالتاء المثناة — هلك .

(٢) الآماق : العيون هنا ، وواحد « مؤق » فلما أرادوا جمعه قدموا الهمزة على الميم فاجتمع فى الجمع همزتان أولاهما مفتوحة والثانية ساكنة فقلّبوا الثانية ألفا .

ولم تدع التجارب لى صديقاً أميل إليه إلا ملئت عنه
وقوله رحمه الله تعالى :

عليك بالعزلة إن القى من طاب بالقلّة في العزلة

لا يرتجى عزلة وال ، ولا يخشى من الذلة في العزلة

ومن أكابر شيوخ ابن الخطيب رحمه الله تعالى جدى الإمام العلامة قاضى
القضاة بحضرة الخلافة فاس الحروسة أبو عبد الله .

قال فى «الإحاطة» محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن
ابن أبى بكر بن على القرشى المقرئ ، يكنى أبا عبد الله ، قاضى الجماعة بفاس ، تلمسانى .

أوليته - نقلت من خطه قال : وكان الذى اتخذها من سلفنا قراراً^(١) ، بعد أن
كانت لمن قبله مزاراً ، عبد الرحمن بن أبى بكر بن على المقرئ صاحب الشيخ

أبى مدين ، الذى دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو أبى الخامس
فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن ، وكان هذا الشيخ

عزوى الصلاة ، حتى إنه ربما امتحن بغير شيء فلم يؤنس منه التفات ، ولا استشعر
منه شعور ، ويقال : إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبى مدين ، انتهى .

وكتب بعض المغاربة على هامش هذا الحل من «الإحاطة» ما صورته :
القرشى وهَمَّ ، انتهى .

فكتب تحته الشيخ الإمام أبو الفضل ابن الإمام التلمسانى رحمه الله تعالى
ما نصه : بل صحيح ، نطقت به الألسنُ والمكائبات والإجازات ، وأعربت عنه

الخلال الكريمة ، إلا أن البدلية يا سيدى أبا عبد الله والمنافسة تجعل القرشية فى
إمام المغرب أبى عبد الله المقرئ وهَمَّا ، والحمد لله ، انتهى .

قلت : ومن صرح بالقرشية فى حق الجد المذكور ابن خلدون فى تاريخه ، وابنُ

(١) قرار - بفتح القاف - مكان استقرار ، ومزار : أراد موضعاً يزورونه
ويعودون منه .

الأحمر في « نثر الجمان » وفي شرح البردة عند قوله .

* لعلَّ رحمة ربى حين ينشرها *

والشيخ ابن غازي ، والولى الصالح سيدى أحمد زروق ، والشيخ علامة زمانه سيدى أحمد الوانشريسى ، وغير واحد ، وكفى بلسان الدين شاهداً مُزَكِّي .

وقد ألف عالم الدنيا ابن مرزوق تأليفاً استوفى فيه التعريف بمولاي الجد سماه « النور البدرى » ، فى التعريف بالحقىقة المَقْرَى وهذا بناء منه على مذهبه أنه بفتح الميم وسكون القاف ، كما صرح بذلك فى شرح الألفية عند قوله :

* ووضعوا لبعض الأجناس علم *

وضبطه غيره وهم الأكتزون بفتح الميم وتشديد القاف ، وعلى ذلك عوّل أكثر المتأخرين ، وهما لغتان فى البلدة التى نسب إليها ، وهى مَقَرَّة من قرى زاب إفريقية ، وانتقل منها جده إلى تلمسان محبة شيخه ولى الله سيدى أبى مدين رضى الله عنه ! .

رَجَعَ إلى تكملة كلام مولاي الجد فى حق أوليته :

قال رحمه تعالى بعد الكلام السابق فى حق جده عبد الرحمن ، ما صورته :
ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة ، فهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار ، واتخذوا طنبلاً للرحيل ، وراية تقدم عند المسير ، وكان ولدُ يحيى الذين أحدهم أبو بكر خمسة رجال ، فعقدوا الشركة بينهم فى جميع مملكوه أو يملكونه على السواء بينهم والاعتدال ، فكان أبو بكر ومحمد وهما أرومتا^(١) نَسَبِي من جميع جهات أمى وأبى بتلمسان ، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بِسِجِلْمَاسَة ، وعبد الواحد وعلى وهما شقيقاهم الصغيران بآيواالن ، فاتخذوا بهذه الأقطار الحوايط والديار ، وتزوجوا النساء ، واستولدوا الإماء ، وكان التلمسانى يبعث إلى الصحراوى

(١) الأرومة — بفتح الهمزة أو ضمها — الأصل ، يريد أن أحدهما كان جده لأبيه والآخر كان جده لأمه . وأصل الأرومة لأصل الشجرة ، ثم استعيرت للنسب ، ومن كلامهم « نفس ذات أكرمومة ، من أطيب أرومة » .

بما يرسم له من السلع ، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر ،
والسجلهاسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ، ويكاتبهما بأحوال
التجار ، وأخبار البلدان ، حتى اتسعت أموالهم ، وارتفعت في الضخامة أحوالهم ،
ولما افتتح التكرور كورة إبولاتن وأعمالها أصيبت أموالهم فيما أصيب من
أموالها ، بعد أن جمع من كان فيها منهم إلى نفسه الرجال ، ونصب دونها
ودون مالهم القتال ، ثم اتصل بملكهم فأكرم مشواه ، ومكنه من التجارة بجميع
بلادها ، وخاطبه بالصاديق الأحب ، والخالصة الأقرب ، ثم صار يكتب من
بتمسان يستقضى منهم مآربه ، فيخاطبه بمثل تلك الخطابية ، وعندى من كتبه
وكتب ملوك المغرب ما ينبي^{*} عن ذلك ، فلما استوثقوا من الملوك ، تذاكلم
الأرض للسلوك ، فخرجت أموالهم عن الحد ، وكادت تقوت الحصر والعد ، لأن
بلاد الصحراء قبل أن يدخلها أهل مصر كان يجلب إليها من المغرب مالا بال^(١) له
من السلع ، فتعارض عنه بماله بال من الثمن (أى مدبر دنيا ضم جنبأ أبى حم وشمل
ثوباه كان يقول^(٢) : لولا الشناعة لم أزل فى بلادى تاجرا من غير تجار الصحراء
الذين يذهبون بجنيت السلع ، ويأتون بالتبر الذى كل أمر الدنيا له تبع ، ومن
سواهم يحمل منها الذهب ، ويأتى إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب ، ومنه
ما يغير من العوائد ، ويجر السهءاء إلى المفاسد) ولما درج^(٣) هؤلاء الأشياخ جمل
أبناءؤهم ينفقون مما تركوا لهم ، ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم ، وصادفوا توالى الفتن ،
ولم يسلموا من جور السلاطين ، فلم يزل حالهم فى نقصان إلى هذا الزمن ، فها أنا
ذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصوله عيشا ، وأصوله حرمة ، ومن جملة
ذلك خزانة كبيرة من الكتب ، وأسباب كثيرة تعين على الطلب ، فتفرغت
بحول الله عز وجل للقراءة ، فاستوعبت أهل البلد لقاء ، وأخذت عن بعضهم

(١) شئ غير ذى بال : أى ليس له شأن يجعله مما يهتم له .

(٢) هكذا فى الاصل وفى الإحاطة (١٣٧/٢) ولعله محرف عن «كان مدبر الدنيا

أبو حم يقول : لولا الشناعة — إلخ » (٣) درجوا : ماتوا .

عَرَضًا وإلقاء ، سواء المقيم القاطن ، والوارد والظاعن ، انتهى كلامه في أوليته ، وقد نقله لسان الدين في « الإحاطة » .

وقال مولاي الجدد رحمه الله تعالى : كان مولدي بتلمسان أيام أبي حم موسى ابن عثمان بن يعمر أسن بن زيان ، وقد وقفت على تاريخ ذلك ، ولكني رأيت الصفح عنه لأن أبا الحسن بن مؤمن سأل أبا طاهر السَّكَنِي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت أبا الفتح بن زيان عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت علي بن محمد اللبان عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت حمزة ابن يوسف السهمي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت أبا بكر محمد ابن عدى المنقري عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت أبا إسماعيل الترمذي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت بعض أصحاب الشافعي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت الشافعي عن سنه فقال : أقبل على شانك ، فإني سألت مالك بن أنس عن سنه فقال : أقبل على شانك ، ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه ، انتهى .

قلت : ولما تذكرت مع مولاي العم الإمام ، صب الله تعالى على مضجعه من الرحمة الغمام ! هذا المعنى الذي ساقه مولاي الجدد رحمه الله تعالى أنشدني لبعضهم :

أَحْفَظُ لِسَانَكَ لَا تَبْخُ بِثَلَاثَةٍ سِتٍّ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبٍ
فَعَلَى الثَّلَاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلَاثَةٍ بِمَكْفَرٍ وَبِحَاسِدٍ وَمَكْذَبٍ^(١)

قال الوائش ريس في حق الجدد ما نصه : القاضي الشهير الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن محمد المقرئ ، التلمساني المولد والمنشأ ، القاضي المسكن ، كان رحمه الله تعالى عالما عاملا ظريفا نبيا ذا كيان نبلا فهما متيقظا جزلا محصلا ، انتهى .

وقد وقفت له بالمغرب على مؤلف عَرَفَ فيه بمولاي الجدد ، وذكر جملة من

(١) في هذا البيت لف ونشر مشوش ؛ فالمكذب يرجع إلى السن ، والحاسد يرجع إلى المال ، والمكفر يرجع إلى المذهب .

أحواله ، وذلك أنه طلبه بعض أهل عصره في تأليف أخبار الجد ، فألف فيه ما ذكر وقال في « الإحاطة » في ترجمة مولاي الجد بعد ذكره أوليته ما صورته :
 حال هذا الرجل مشار إليه بالعدوة الغربية اجتهدا ودؤبا وحفظا وعناية واطلاعا
 وثقلا ونزاهة ، سليم الصدر ، قريب الغور ، صادق القول ، مسلوب التصنع ، كثير
 الهشة ، مفرط الخفة ، طاهر السداجة ، ذاهب أقصى مذاهب التخلق ، محافظ
 على العمل ، مثابر على الانقطاع ، حريص على العبادة ، مضائق في العقد والتوجه ،
 يكابد من تحصيل النية بالوجه واليدين مشقة ، ثم يغافص^(١) الوقت فيها ويوقعها دفعه
 متبعها إياها زعقة التكبير برجفة ينبو عنها سمع من لم تؤنسه بها العادة بما هو دليل
 على حسن المعاملة ، وإرسال السجدة ، قديم النعمة ، متصل الخيرية ، مكب على
 النظر والدرس والقراءة ، معلوم الصيانة والعدالة ، منصف في المذاكرة ، حاسر
 للذراع عند المباحثة ، راحب عن الصدر في وطيس المناقشة ، غير مختار للقرن ،
 ولا ضان بالفائدة ، كثير الالتفات ، متقلب الحديقة ، جهر بالحجة ، بعيد عن
 المراء والمباهة ، قائل بفضل أولى الفضل من الطلبة ، يقوم أتم القيام على العريضة
 والفقہ والتفسير ، ويحفظ الحديث ، ويتبهر بحفظ التاريخ والأخبار والآداب ،
 ويشارك مشاركة فاضلة في الأصلين والجدل والمنطق ، ويكتب ويشعر مصيبا
 غرض الإجابة ، ويتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال ، ويعتنى بالتدوين
 فيها ، شرق وحج ولقي جلة ، واضطبن^(٢) رحلة مفيدة ، ثم عاد إلى بلده فأقرأ به ،
 وانقطع إلى خدمة العلم ، فلما ولي ملك المغرب السلطان محالف الصنع ونشيدة
 الملك وأثير الله من بين القرابة والأخوة أمير المؤمنين أبو عنان اجتذبه ، وخطبه
 بنفسه ، واشتمل عليه ، وولاه قضاء الجماعة بمدينة فاس ، فاستقل بذلك أعظم
 الاستقلال ، وأنفذ الحق ، وألان السكامة ، وآثر التسديد ، وحمل الكل ،

(١) يغافص الوقت : يفاجئه

(٢) أصل هذه المادة قولهم « اضطبن فلان كذا » إذا جعله في ضنبه ، وهو —
 بكسر فسكون — ناحيته وكنفه ، وأراد هنا أنه اعتزمها وفعلها

وخفض الجناح ، فحسنت عنه القالة^(١) ، وأحبته الخاصة والعامة ، حضرت بعض مجالسه للحكم فرأيت من صبره على اللد^(٢) وتأنيه لا يجحجج ورفقه بالخصوم ما قضيت منه العجب .

دخوله غرناطة - ثم لما أخر عن القضاء استعمل بعد لأى فى الرسالة ، فوصل الأندلس أوائل جمادى الثانية من عام سبعة وخمسين وسبعائة ، فلما قضى غرض رسالته ، وأبرم عقد وجهته ، واحتل مائة فى منصرفه ، بداله فى نبد السكفة ، وأطراح وظيفة الخدمة ، وحل التقيد ، إلى ملازمه الإمرة ، فتقاعد ، وشهر غرضه وبّت فى الانتقال طمع من كان صحبته ، وأقبل على شأنه ، فخلى بينه وبين همه ، وترك وما اتحله من الانقطاع إلى ربه ، وطار الخبر إلى مرسله ، فأنف من تخصيص إيالته بالهجرة والعدول عنها بقصد التخلّى والعبادة ، وأنكر ما حقه الإنكار من إبطال عمل الرسالة ، والانتباض قبل الخروج عن العهدة ، فوغر صدره على صاحب الأمر ، ولم يبعد حمله على الظنة والمواطأة على النفرة ، وتجهزت جملة من الخدام المجلّين فى مأزق الشبهة المضطلعين بإقامة الحجّة ، مولين خطة الملام ، مخيرين بين سحائب عاد من الإسلام ، مظنة إغلاق النعمة ، وإيقاع العقوبة ، أو الإشادة بسبب إجارتها بالطبيعة والمنابذة ، وقد كان المترجم به لحق بغرناطة فتذم بمسجدها ، وجأر بالانقطاع إلى الله ، وتوعد من يحبره بنكير من يحير ولا يحار عليه سبحانه ، فأهم أمره ، وشغلت القلوب أبدته ، وأمسك الرسل بخلال ما صدرت شفاعته اقتضى له فيها رفع التبعة وتركه إلى تلك الوجهة ، ولما تحصل ما تيسر من ذلك انصرف محمّداً بعالمى القطر قاضى الجماعة أبى القاسم الحسنى المذكور قبله والشيخ الخطيب أبى البركات بن الحاج مسلمين لوروده ، مشافهين بالشفاعة فى غرضه ، فانتشعت الغمة ، وتنفست الكربة ، واستصحبها من الخطابة السلطانية

(١) حسنت عنه القالة : كان كلام الناس وحديثهم عنه حسنا ، وهى كناية عن

حميد سيرته ، فإن من حسنت سيرته حمدت سيرته

(٢) اللد - بزنة سبب - الخصومة الشديدة

في أمره من إملائي ما يذكركم حسبما ثبت في الكتاب المسمى « بكناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » المجموع بسلاما صورته :

المقام الذي يحبُّ الشفاعة ويرغى الوسيلة ، ويُنجز العِدَّة ويتمم الفضيلة ، ويُضفي مجده المُنَّ الجزيله ، ويعبى حمده الممادح العريضة الطويلة ، مقامُ محل والدنا الذي كرم مجده ، ووضح سعده ، وصح في الله تعالى عقده ، وخلص في الأعمال الصالحة قصده ، وأعجز الألسنة حمده ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقاه الله سبحانه لوسيلة يرعاها ، وشفاعة يُكرم مسعاها ، وأخلاق جميلة تحبب دَعْوَةَ الطبع الكريم إذا دعاها ، معظم سلطانه الكبير ، ومجد مقامه الشهير ، المتشيع لأبوتّه الرفيعة قولاً باللسان واعتقاداً بالضمير ، المعتمد منه بعد الله على الملجأ الأحمى والولى النصير ، فلان .

سلام كريم ، طيب برّعيم ، يخص مقامكم الأعلى ، وأبوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى جعل الخلق الحميدة دليلاً على عنايته بمن خلّاه خلّاه ، وميز بها النفوس النفيسة التى اختصها بكرامته وتولاها ، حمداً يكون كفواً للنعم التى أولاه ، وأعاده ووالاه ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد عبده ورسوله الملتقى من درجات الاختصاص أرفعها وأعلاها ، الممتاز من أنوار الهداية بأوضاعها وأجلها ، مطلع آيات السعادة يرّوق مجتلاها ، والرضا عن آله وصحبه الذين خبر صدق ضمائرهم لما ابتلاها ، وعسل ذكركم^(١) فى الأفواه فما أعذب أوصافهم على الألسن وأحلاها ، والدعاء لمقام أبوتكم حرس الله تعالى علّاها ، بالسعادة التى يقول الفتح أنا طلاع الشيا وابن جلالها ، والصنائع التى تحترق المفاوز بركاتها المبشرات فتفلى فلّاها ، فإنّا كتبنا إليكم - كتب الله تعالى لكم عزة مشيدة البناء ، وحشد على

(١) عسل ذكركم : وجده الناس طيب المذاق ، واستعذبوا الحديث عنهم

أعلام صنائعكم الكرام جُيُوشُ الثناء ، وقلدكم من قلائد مكارم الأخلاق ما يشهد لذاتكم منه بسابقة الاعتناء ! - من حمراء غرناطة حرسها الله والودُّ باهر السناء ، ظاهر السناء ، مُجَدَّد على الآناء ، والتشيع رَحْبُ الدسيعة والفناء ، وإلى هذا - وصل الله تعالى سعدكم ، وحرس مجدكم ! - فإننا خاطبنا مقامكم الكريم في شأن الشيخ الفقيه الحافظ الصالح أبي عبد الله المَقْرِي خار الله تعالى لناوله ، وبلغ الجميع من فضله العيم أمله ، جوابا عما صدر عن مثابكم فيه من الإشارة الممتلئة ، والمآرب المَعْمَلَة ، والقضايا غير المهملة ، نُضادركم بالشفاعة التي مثَلُها بأبوابكم لا يرد ، وظمَّأها عن متَهَل قبولكم لا تجلِّي^(١) ولا تُصَدِّد ، حسباسنه الأب الكريم والجد ، والقَبِيل الذي وضع منه في المكارم الرسم والحد ، ولم نُصْدر الخطاب حتى ظهر لنا من أحواله صدق الخيلة ، وتبلج صبح الزهادة والفضيلة ، وجود النفس الشحيحة بالعرض الأدنى البخيلة ، وظهر تخليه عن هذه الدار ، واختلاطه باللفيف والغمار ، وإقباله على ما يعنى مثله من صلة الأوراد ومداومة الاستغفار ، وكنا لما تعرّفنا إقامته بمالقة لهذا الغرض الذي شَهَرَه ، والفضل الذي أبرزه للعِيَانِ وأظْهَرَه ، أمرنا أن يعقَى بأحواله ، ويُعَاكَ على فراغ باله ، ويُجَرِّى عليه سيب من ديوان الأعشار الشرعية وصریح ماله ، وقلنا أما أتاكَ من غير مسألة مستند صحيح لاستدلاله ، فعر من مالقة على ما تعرّفنا لهذا السبب ، وقعد بحضرتنا مستور المنتمى والمنْتَسَب ، وسكن بالمدرسة بعض الأماكن المعدة لسكنى المتسمين بالخير والمحترفين ببضاعة الطلب ، بحيث لم يتعرف وروده ووصوله إلا بمن لا يؤبه بتعريفه ، ولم يتحقق زوائده وأصوله لقلة تصرّيفه ، ثم تلاحق إرسالكم الجَلَّة فوجبت حينئذ الشفاعة ، وعرضت على سوق الحلم والفضل من الاستلطاف والاستعطاف البضاعة ، وقررنا ما تحقّقناه من أمره ، وانقباضه عن زَيْدِ الخلق وعَمْرِهِ ، واستقباله الوجهة التي من ولى وجهه

(١) كذا في ب ، وأحسبها محرفة عن « لا تحلاؤ » وتقول « حلات فلانا عن

ورود الماء » إذا منعتَه وصددته عنه

شَطْرَها فقد آثر أثيرا ، وَمَنْ ابتاعها بمتاع الدنيا فقد نال فضلا كبيرا وخيرا كثيرا ،
 وسألنا منكم أن تبيحوه ذلك الغرض الذي رماه بعزمه ، وقصر عليه أقصى همه ، فما
 أنخلق مقامكم أن يفوز منه طالب الدنيا بسهمه ، ويحصل منه طالب الآخرة على حظه
 الباقي وقسمه ، ويتوسل الزاهد بزهده والعالم بعلمه ، ويعول البرى على فضله ويشق
 المذنب بجله ، فوصل الجواب الكريم بمجرد الأمان وهو أرب من آراب ،
 وفائدة من جراب ، ووجه من وجوه إعراب ، فرأينا أن المثل بعد جناء ، والإعادة
 ليس بثقلها خفاء ، ولجئكم بما ضمنا عنه وفاء ، وبأدركنا الآن إلى العزم عليه في
 ارتحاله ، وأن يكون الانتقال عن رضا منه من صفة حاله ، وأن يقتضى له ثمرة
 المقصد ويبلغ طية الإسعاف في الطريق إن قصد ، إذ كان الأمان لمثله ممن تعلق
 بجناب الله من مثلكم حاصل ، والدين المتين بين نفسه وبين الخافة فاصلا ،
 وطالب كيمياء السعادة بإعانتكم واصل ، ولما مدت اليد في تسويق حالة هديكم
 عليها أبدا يمرض ، وعلمكم يصرح بمزيتها ولا يعرض ، فكمولوا أبقاكم الله
 عالم تسعنا فيه مشاحة الكتاب ، وألحقوا بالأصل حديث هذه الإباحة فهو أصح
 حديث في الباب ، ووفوا غرضنا من مجدكم ، وخلوا بينه وبين مراده من ترك
 الأسباب ، وقصد غافر الذنب وقابل التوب بإخلاص المتأب ، والتشمير ليوم
 الغرض وموقف الحساب ، وأظهروا عليه عناية الجناب ، الذى تعلق به أعلق الله
 به يديكم من جناب ، ومُعَاذَ الله أن تعود شفاعتنا من لديكم غير مكملّة الآراب^(١) ،
 وقد بعثنا من ينوب عنا في مشافهتكم بها أحمد المتأب ، ويقتضى خلاصها بالرغبة
 لا بالغلاب ، وهما فلان وفلان ، ولولا الأعدار لكان في هذا الغرض أعمال
 الركب ، يسبق أعلام الكتاب ، وأنتم تولون هذا القصد من مكارمكم ما يوفر
 النماء الجليل ، ويربّي^(٢) على التأميل ، ويكتب على الود الصريح العقد وثيقة

(١) الآراب : جمع أرب - بوزن سبب وأسباب - وهو المطلب والبيعة .

(٢) يربّي : يزيد .

التسجيل ، وهو سبحانه يبيكم لتأييد المجد الأثيل ، وإزالة الرّفْدِ الجزيل ، والسلام الكريم يخص مقامكم الأعلى ، ومثابكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، فى الحادى والعشرين لجمادى الآخرة من عام سبعة وخمسين وسبعائة ، انتهى كلام ابن الخطيب فى « الإحاطة » .

وذكر فى الريحانة أنه كتب فى هذا الغرض ما نصه : وإلى هذا فإننا وقفنا على كتابكم الكريم فى شأن الشيخ الصالح الفقيه الفاضل أبى عبد الله المقرئ ، وقفنا الله وإياه لما يُزَلَفُ لديه ، وهدانا لما يقرب إليه ، وما بلغكم بتقاعده بمالقة ، وما أشرتم به فى أمره ، فاستوفينا جميع ما قررتم ، واستوعبنا ما أجمتم فى ذلك وفسرتم ، واعلموا يا محلاً والدنا - أمتنا الله ببقائكم الذى فى ضمنه اتصال السعادة ، وتعرف النعم المأكدة ! - أننا لما انصرف عن بابنا هو ومن رافقه عن انشراح صدور ، وتكليف جدل بما تفضلتم به وسرور ، تعرفنا أنه تقاعد بمالقة عن صحبه ، وأظهر الاشتغال بما يخلصه عند ربه ، وصرف الوجه إلى التخلّى مشفقاً من ذنبه ، واحتج بأن قصده ليس له سبب ، ولا تعين له فى الدنيا أرب ، وأنه عرض عليكم أن تسمحو له فيما ذهب إليه ، وتقرؤوه عليه ، فيعجل البدار ، ويمهد تحت إياتكم القرار ، فلما بلغنا هذا الخبر ، لم يخاف الله عندنا به مبالاة تعتبر ، ولا أعددنا به فيما يذكر ، فكيف فيما ينكر ، وقطعنا أن الأمر فيه هين ، وأن مثل هذا الغرض لا تلتفت إليه عين ، فإن بابكم غنى من طبقات أولى الكمال ، ملئ بتسوية الآمال ^(١) ، موفور الرجال ، معمور بالفقهاء العارفين بأحكام الحرام والحلال ، والصلحاء أولى المقامات والأحوال ، والأدباء فرسان الروية ^(٢) والارتجال ، ولم ينقص بفقدان الحصى أعداد الرمال ، ولا يستكثر بالقطرة جيش العارض ^(٣) المنثال ، مع ما علم من إعانتكم على مثل هذه الأعمال ، واستمساكم بإسعاف غرض من صرف وجهه إلى ذى

(١) ملي : أراد كفيل ضامن ، وتسوية الآمال : إجازة المطلب وجعله سائفا .

(٢) الروية : التأتى فى الأمر والتمهل ، ويقابلها الارتجال .

(٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ، والمنثال : أراد الممطر مطراً متباعدة .

الجلال ، ولو علمنا أن شيئاً يهجنس في الخاطر من أمر مقامه ، لقابلناه بعلاج سقامه ، ثم لم ينشب أن تلاحق بحضرتنا بارزا في طَوْر التقليل والتخفيف ، خالطاً نفسه بالليف ، قد صار نكرة بعد العلمية والتعريف ، وسكن بعض مواضع المدرسة منقبضا عن الناس لا يظهر إلا الصلاة يشهدُ جماعتها ، ودعوة للعباد يخاف إضاعتها ، ثم تلاحق إرساؤكم الجَلَّة ، الذين تحمق لملتهم التَّجَلَّة ، فحضروا لديننا ، وأدوا المحاطبة الكريمة كما ذكر إلينا ، وتكلمنا معهم في القضية ، وتنحَّلنا في الوجوه المرضية ، فلم نجد وجهاً أخلص من هذا الغرض ، ولا علاجاً يتكفل ببرء المرض ، من أن كلّفناهم الإقامة التي يتبرك بيمين جوارها ، ويعمل على إشارها ، بخلاف ما نخطب مقامكم بهذا الكتاب الذي مضمونه شفاعَةٌ يضمن حباؤكم احتساباً ، ويرعى اتِّمّاءها إلى الخلوص وانتسابها ، ويعيدها قد أعملت الخطوة أثوابها ، ونقصدكم ومثلكم من يقصد في المَهْمَة ، فأنتم المثل الذائع في عموم الحلم وعلمواهمه ، في أن تصدروا له مكتوباً مكمل الفصول ، مقرر الأصول ، يذهب الوجَل ، ويرفع الخجل ، ويسوغ من مآربه لديكم الأمل ، ويخلص النية ويرتبُ العمل ، حتى يظهر ما لنا عند أوتكم من تكميل المقاصد ، جرياً على ما بذلتم من جميل العوائد ، وإذا تحصل ذلك كان بفضل الله إيا به ، وأناخت بعقوة وعدمكم^(١) الوفي ركابه ، ويحصل لمقامكم عزه ومجده وثوابه ، وأنتم ممن يرعى أمور الجحد حق الرعاية ، ويجرى في معاملة الله تعالى على ما أسس من فضله البدايه ، وتحقق الظنون فيما لديه من المدافعة عن حَوَزة الإسلام والحمايه ، هذا ما عندنا أعجلنا به الإعلام ، وأعملنا فيه الأفلام ، بعد أن أجهدنا الاختيار وتنحَّلنا السكلام ، وجوابكم بالخير كفيلاً ، ونظرُكم لنا والمسلمين جميل ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام . انتهى

(١) وقع في ب « بعقوة وعدمكم » وأحسبه محرفاً عما أثبتته ، والعقوة - بالفتح ما حول الدار ، وساحتها ، والمحلة ؛ ويقال « ما يطور بعقوة فلان أحد » أى ما يدنو أحد من ساحتها .

قلت : وهذه آفة مخالطة الملوك ، فإن مولاي الجد المذكور كان نزل عن القضاء وغيره ، فلما أراد التخلي إلى ربه لم يتركه السلطان أبو عنان كما رأيت .
وقد ذكر لسان الدين رحمه الله تعالى في « الإحاطة » شيوخ مولانا الجد ، فلقد كرمهم من جزء الجد الذي سماه « نظم اللاكلى » ، في سلوك الأمالي ومنه اختصر لسان الدين ما في « الإحاطة » في ترجمة مشيخته فنقول : قال مولاي الجد رحمه الله تعالى فمن أخذت عنه ، واستفدت منه ، علمها - يعنى تلمسان - الشاخوان^(١) ، وطالماها الراسخان : أبو زيد عبد الرحمن ، وأبو موسى عيسى ، ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام ، وكانا قد رحلا في شبابهما من بلدهما برشك إلى تونس فأخذا بها عن ابن جماعة وابن العطار واليفرنى وتلك الحلبة ، وأدركا المرجاني وطبقته من أعجاز المائة السابعة ، ثم وردا في أول المائة الثامنة تلمسان على أمير المسلمين أبي يعقوب وهو محاصر لها ، وفتيه حضرته يومئذ أبو الحسن على بن يخلف التنسي ، وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يعد ، وارتفع شأنه عند أبي يعقوب ، حتى إنه شهد جنازته ، ولم يشهد جنازة أحد قبله ، وقام على قبره ، وقال : نعم الصاحب فقدنا اليوم ، حدثني الحاج الشيخ بعباد تلمسان أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق العجيسى أن أبا يعقوب طلع إلى جنازة التنسي في الخليل حوالى روضة الشيخ أبي مدين فقال : كيف تتركون الخليل تصل إلى ضريح الشيخ؟ هلا عرضتم هنالك - وأشار إلى حيث المعراض الآن خشبة - ففعلنا ، فلما قتل أبو يعقوب وخرج المحصوران أنكرا ذلك ، فأخبرتهما ، فأما أبو زيان - وكان السلطان يومئذ - فنزل وطاقأ رأسه ودخل ، وأما أبو حمو - وكان أميراً - فوثب وحلفها ، ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين اختصا ابني الإمام ، وكان أبو حمو أشد اعتناء بهما ، ثم بعده ابنه أبو تاشفين ، ثم زادت حُظُوتهما عند أمير المسلمين

(١) أصل العلم الجبل ، والشامخ : الشديد الارتفاع ، ويشبه الرجل بالجبل إما في كونه ثابتاً راسياً لا ترجحه الأعاصير ، وإما في كونه مشهوراً طائر الذكر ، وإما في كونه يهتدى به أو يستعصم بذراه .

أبى الحسن ، إلى أن توفي أبو زيد في العشر الأوسط من رمضان عام أحد وأربعين وسبعائة بعد وقعة طريف بأشهر ، فزادت مرتبة أبى موسى عند السلطان ، إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان في أول عام تسعة وأربعين ، وكان أبو موسى قد صدر عنه قبل الوقعة ، فتوجه صحبة ابنه أمير المسلمين أبى عِنان إلى فاس ، ثم رده إلى تِلْسان ، وقد استولى عليها عثمانُ بن عبد الرحمن بن يحيى بن يعمراسن بن زِيَّان ، فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام ، قال لى خطيب الحضرة الفاسية أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عبد الله الرندي : لما أزعج الفقيه^(١) وَمَنْ أَطاق معه على الْقُفُولِ إلى تِلْسان بتُّ على قشيعهم ، فرأيتنى كأنى نظمت هذ البيت في المنام :

وعند وداع القوم ودَّعت سَلُوتى وقلت لها بَيْنِي فَأنتِ المودَّعُ
فانتهت وهو في فيَّ ، فحاولت قريحتي بالزيادة عليه فلم يتيسر لى مثله ، ولما استحكم ملك أبى تاشفين واستوثق رَحَلُ الفقيهان إلى المشرق في حدود العشرين وسبعائة فلقيا علاء الدين القونوى ، وكان بحيث إني لما رحلت فلقيت أبا على حسين بن حسين ببجاية قال لى : إن قدرت أن لا يفوتك شىء من كلام القونوى حتى تكتب جميعه فافعل ، فإنه لا نظير له ، ولقيا أيضا جلال الدين القزوينى صاحب البيان ، وسمعا صحيح البخارى على الحجار ، وقد سمعته أنا عليهما ، وناظرا تقي الدين ابن تيمية ، وظهر اعليه^(٢) ، وكان ذلك من أسباب محنته ، وكانت له مقالات فيما يذكر وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين ، حدثنى شيخى العلامة أبو عبد الله الأبلئ أن عبد الله بن إبراهيم الزمورى أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه :

مُحَصَّلٌ فى أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلادٍ
أصلُ الضلالة والإفك المبين ، فما فيه فأكثره وَخَى الشياطين
قال : وكان فى يده قضيب ، فقال : والله لو رأيته لضربت به هذا القضيب هكذا ،

(١) أزعج الأمر وعليه : عزم عليه ، والقفول : الرجوع والعود (٢) ظهر اعليه : تغلبا

ثم رفعه ووضعه ، وبحسبك مما طار لهذين الرجلين من الصيت بالمشرق أنى لما
 حلت بيت المقدس وعرف به مكاني من الطلب ، وذلك أنى قصدت قاضيـه
 شمس الدين بن سالم ليضع لى يده على رسم أستوجب به هنالك حتما ، فلما أطلت
 عليه عرفه بى بعض من معه ، فقام إلى حتى جلست ، ثم سألتى بعض الطلبة
 بحضرته فقال لى : إنكم معشر المالكية تبيحون للشامى يمر بالمدينة أن يتعدى
 ميقاتها إلى الجحفة ، وقد قال رسول صلى الله عليه وسلم بعد أن عين المواقيت
 لأهل الآفاق « هُنَّ لهن ، ولهن مرَّ عليهن من غير أهلهن » وهذا قد مر على ذى
 الخليفة وليس من أهله فيكون له ، فقلت له : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال
 « من غير أهلهن » أى من غير أهل المواقيت ، وهذا سلب كلى ، وإنه غير صادق
 على هذا الفرد ، ضرورة صدق نقيضه وهو الإيجاب الجزئى عليه ، لأنه من بعض
 أهل المواقيت قطعا ، فلما لم يتناولوه النص رجعنا إلى القياس ، ولا شك أنه لا يلزم
 أحدا أن يحرم قبل ميقاته وهو يمر به ، لكن من ليس من أهل الجحفة لا يمر
 بميقاته إذا مر بالمدينة ، فوجب عليه الإحرام من ميقاتها ، بخلاف أهل الجحفة ،
 فإنها بين أيديهم ، وهم يمرون عليها ، فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك ،
 فلما عرفت أنانى آت من أهل المغرب فقال لى : تعلم أن مكانك فى نفوس أهل
 هذا البلد مكين ، وقدرك عندهم رفيع ، وأنا أعلم انقباضك عن ابنى الإمام ، فإن
 سُئِلت فانتسب لهما ، فقد سمعت منهما ، وأخذت عنهما ، ولا تظهر العدول عنهما
 إلى غيرهما فتضع من قدرك ، فإنما أثبت عند هؤلاء الناس خليفتهما ووارث علمهما وأن
 لا أحد فوقهما :

* وليس لما تبني يد الله هادم *

وشهدت مجلسا بين يدى السلطان أبى تاشفين عبد الرحمن بن أبى حم ذكر
 فيه أبو زيد بن الإمام أن ابن القاسم مقلد مقيد النظر بأصول مالك ، ونازعه

أبو موسى عمران بن موسى المشدالي ، وادّعى أنه مطلق الاجتهاد ، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه ويبلغه عنه لما ليس من قوله ، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة ، قال : فلو تقيّد بمذهبه لم يخالفه غيره ، فاستظهر أبو زيد بنص لشرف الدين التلمساني مثل فيه الاجتهاد الخصوص باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك والمزني إلى الشافعي ، فقال عمران : هذا مثال ، والمثال لا تلزم صحته ، فصاح به أبو موسى بن الإمام وقال لأبي عبد الله بن أبي عمرو : تكلم ، فقال : لا أعرف ما قال هذا الفقيه ، الذي أذكركه من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثل ، فقال أبو موسى للسلطان : هذا كلام أصولي محقق ، فقلت لها وأنا يومئذ حديث السن : ما أنصفتما الرجل ، فإن المثل^(١) كما تؤخذ على جهة التحقيق كذلك تؤخذ على جهة التقريب ، ومن ثمّ جاء ما قاله هذا الشيخ ، أغنى ابن أبي عمرو ، وكيف لا وهذا سيبويه يقول : وهذا مثال ولا يتكلم به ، فإذا صح أن المثال قد يكون تقرّيبا فلا يلزم صحة المثال ولا فساد الممثل لقساده ، فهذان القولان من أصل واحد .

وشهدت مجلسا آخر عند هذا السلطان قرىء فيه على أبي زيد بن الإمام حديث « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » في صحيح مسلم ، فقال له الأستاذ أبو إسحاق ابن حكم السلوى : هذا الملّقى مُحْتَضَرٌ حقيقة ميت مجازا ، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم ، والأصل الحقيقة ؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يُقْنِعْه ، وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض التنقيح فقلت : زعم القرافى أن المشتق إنما يكون حقيقة في الحال ، مجازا في الاستقبال ، مختلفا فيه في الماضي ، إذا كان محكوما به ، أما إذا كان متملّقا للحكم كما هنا فهو حقيقة مطلقا إجماعا ، وعلى هذا التقرير لا مجاز ، فلا سؤال ، لا يقال : إنه احتج على ذلك بما فيه نظر ، لأننا نقول : إنه نقل

(١) المثل - بضمين - جمع مثال ، زنة كتاب وكتب .

الإجماع ، وهو أحد الأربعة التي لا يُطالب مدعيها بالدليل ، كما ذكر أيضاً ، بل نقول : إنه أساء حيث احتج في موضع الوفاق ، كما أساء الأحمى وغيره في الاحتجاج على وجوب الطهارة ونحوها^(١) ، بل هذا أشنع ، لكونه مما علم من الدين بالضرورة ، ثم إنا لو سلمنا نفى الإجماع فلنا أن نقول : إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التي يعقبها الموت عادة ، لأن تلقينه قبل ذلك إن لم يدهش فقد يوحش ، فهو تنبيه على وقت التلقين : أى لقنوا مَنْ تحكمون بأنه ميت ، أو نقول : إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإيهام ، ألا ترى اختلافهم فيه : هل أخذ من حضور الملائكة ، أو حضور الأجل ، أو حضور الجلاس ، ولا شك أن هذه حالة خفية يحتاج في نصبها دليلاً على الحكم إلى وصف ظاهر يضبطها ، وهو ما ذكرناه ، أو من حضور الموت ، وهو أيضاً مما لا يعرف بنفسه ، بل بالعلامات ، فلما وجب اعتبارها وجب كون تلك التسمية إشارة إليها ، والله تعالى أعلم .

كان أبو زيد يقول فيما جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبي زيد « وإذا سلم الإمام فلا يثبت بعد سلامه ولينصرف » : إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلم مَنْ خلفه ، لثلاثين بين يدي أحد ، وقد ارتفع عنه حكمه ، فيكون كالداخل مع المسبوق ، جمعاً بين الأدلة ، قلت : وهذا من مُلحِ الققيه .

اعترض عند أبي زيد قول ابن الحاجب « ولبن الآدمى والمباح طاهر » بأنه إنما يقال في الآدمى لبان ، فأجاب بالمنع ، واحتج بقول النبي صلى الله عليه وسلم « اللبن للفحل » وأجيب بأن قوله ذلك لتشريكه المباح معه في الحكم ؛ لأن اللبان خاص به ، وليس موضع تغليب ، لأن اللبان ليس بعاقل ، ولا حجة على تغليب ما يختص بالعاقل .

تكلم أبو زيد يوماً في مجلس تدريسه في الجلوس على الحرير ، فاحتج

(١) إنما يكون الاستدلال على المتفق عليه إساءة أن لو كان الغرض من الاستدلال مقصوداً على إقامة الحجة على الخصم ، أما وليس الغرض من الاستدلال قصراً على ذلك بل قد يكون لبيان المستند من كلام صاحب الشريعة وأنه ليس مما ساق الرأى إليه فلا إساءة فيه .

إبراهيم السلوى المنع بقول أنس : « فقمتم إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس »
 فنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراش فحسب ، لاحتمال أن يكون إنما
 أراد التغطية معه أو وحدها ، وذكر حديثا فيه تغطية الحصير ، فقلت : كلا الأمرين
 يسمى لباسا ، قال الله عز وجل (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) وفيه بحث .
 كان أبو زيد يصحف قول الخونجى فى الجمل والمقارنات التى يمكن اجتماعه
 معها فيقول « والمقارنات » ولعله فى هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعى لما
 قرأ عليه :

وَعَرَّرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَابِنٌ بِالصَّيْفِ تَامِرٌ

فقال :

وَعَرَّرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَابِنٌ بِالصَّيْفِ تَامِرٌ^(١)

فقال : أنت فى تصحيفك أشعر من الخطيئة ، أو كما حكى عن صلى بالخليفة فى رمضان
 ولم يكن يومئذ يحفظ القرآن ، فكان ينظر فى المصحف ، فصحف آيات : صنعة
 الله ، أصيب بهامن أساء ، إنما المشركون نحس ، وعدوها أباه ، تقية الله خير لكم ،
 هذا أن دعوا للرحمن ولدا ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يعنيه .

سمعت أبا زيد يقول : إن أبا العباس الغمارى التونسى أول من أدخل « معالم »
 الإمام فخر الذين للمغرب ، وبسبب ما قفل به من القوائد رحل أبو القاسم
 ابن زيتون .

وسمعه يقول : إن ابن الحاجب ألف كتابه الفقهى من ستين ديوانا ،
 وحفظت من وجادة أنه ذكر عند أبى عبد الله بن قطرال المراكشى أن ابن الحاجب
 اختصر الجواهر فقال : ذكر هذا لأبى عمرو حين فرغ منه فقال : بل ابن شاس
 اختصر كتابى ، قال ابن قطرال : وهو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس ،

(١) قد صحف أيضا إلى « أنك لا تنى بالصيف تامر » .

والإنصاف أنه لا يخرج عنه وعن ابن بشير إلا في الشيء اليسير ، فهما أصلاه
ومعتمده ، ولا شك أن له زيادات وتصرفات تنبئ عن رسوخ قدمه وبعْد مداه
وكان أبو زيد من العلماء الذين يَحْشُونَ الله ، حدثني أمير المؤمنين المتوكل
ابن عِنان أن والده أمير المسلمين أبا الحسن نَدَبَ الناسَ إلى الإعانة بأموالهم على
الجهاد ، فقال له أبو زيد : لا يصح لك هذا حتى تكسب بيت المال ، وتصلي
ركعتين كما فعل علي بن أبي طالب ، وسأله أبو الفضل بن أبي مدين الكاتب
ذات يوم عن حاله ، وهو قاعد ينتظر خروج السلطان ، فقال له : أما الآن فأنا
مُشْرِكٌ ، فقال : أعيزك من ذلك ، فقال : لم أرد الشرك في التوحيد ، لكن
في التعظيم والمراقبة ، وإلا فأى شيء جلوسى ههنا ؟

والشيء بالشيء يذكر ، قتُ ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن
ينتظر خروجه ، فقام إلى جانبي شيخ من الطلبة ، وأُنشدني لأبي بكر بن خطاب
رحمه الله تعالى :

أبصرت أبواب الملوك تَفْصُ بِالرَّاجِينَ إدراك العِلا والجاه

مترقبين لها فهما فتحت خَرَّوا لِأَذْقَانٍ لَهُمْ وَجِبَاهُ (١)

فأنفت من ذاك الزحام وأشفقت نفسي على إنضاء جسمي الواهى (٢)

ورأيت باب الله ليس عليه من متراحم ، فقصدت باب الله

وجعلته من دونهم لى عُدَّة وَأَنْفَتُ مِنْ غِيٍّ وَطُولِ سَفَاهِي

يقول جامع هذا المؤلف : رأيت بخط عالم الدنيا ابن مرزوق على هذا المحل من

كلام مولاي الجدّ مقابل قوله «ورأيت باب الله» ماصورته : قلت ذلك : لسمعه

أو لقلّة أهله .

(١) أخذ هذا من قول الله تعالى : (ويخرون للأذقان ليكون) والجاه : جمع

جهة ، بوزن قصعة وقصاع وجفنة وجفان .

(٢) أنضى جسمه : أهزله ، والواهى : الضعيف .

إن الكرام كثير في البلاد، وإن قلوا، كما غيرهم قل وإن كثروا^(١)
(قل لا يستوى الخبيث والطيب - الآية) . انتهى

رجع إلى كلام مولاي الجد - قال رحمه الله تعالى ورضي عنه : وحدثني شيخ
من أهل تلمسان أنه كان عند أبي زيد مرة ، فذكر القيامة وأحوالها ، فبكى ، فقلت :
لا بأس علينا وأنتم أمامنا ، فصاح صيحةً ، واسودَّ وجهه ، وكاد يتفجر دماً ، فلما
سُرِّي عنه^(٢) أرفع يديه وطرفه إلى السماء وقال : اللهم لاتفضحنا مع هذا الرجل ،
وأخباره كثيرة .

وأما شقيقه أبو موسى فسمعت عليه كتاب مسلم ، واستفدت منه كثيراً ، فمما
سألته عنه قول ابن الحاجب في الاستلحاق « وإذا استلحق مجهول النسب » إلى
قوله « أو الشرع بشهرة نسبه » كيف يصح هذا القسم مع فرضه مجهول النسب ؟
فقال : يمكن أن يكون مجهول النسب في حال الاستلحاق ، ثم يشتهر بعد ذلك ،
فيبطل الاستلحاق ، فكأنه يقول : ألحقته ابتداءً ودواماً ، مالم يكذبه أحد ،
هذه هي إحدى الحالتين ، إلا أن هذا إنما يتصور في الدوام فقط ، ومما سألته عنه
أن الموثقين يكتبون الصحة والجواز والطوع على ما يوهم القطع ، وكثيراً ما ينكشف
الأمور بخلافه ، ولو كتبوا مثلاً ظاهر الصحة والجواز والطوع لبرئوا من ذلك ،
فقال لي : لما كان مبنى الشهادة وأصلها العلم لم يحمل ذكر الظن ولا منافي معناه
احتمال ، فإذا أمكن العلم بمضمونها لم يحز أن يحمل على غيره ، فإذا تعذر كما هنا
بنى باطن أمرها على غاية ما يسمعه فيه الإمكان عادة ، وأجرى ظاهره على ما ينافي
أصلها ، صيانة لرونقها ، ورعاية لما كان ينبغي أن تكون عليه لولا الضرورة . قلت :
ولذلك عقد ابن فتوح وغيره عقود الجوائح على ما يوهم العلم بالتقدير ، مع أن ذلك

(١) قل - بضم القاف وتشديد اللام - أي قليل .

(٢) سري عنه - بالبناء للمجهول - ذهب عنه ما به .

إنما يدرك بما غايته الظن في الحَزَر^(١) والتخمين ، وكانا معاً يذهبان إلى الاختيار وترك التقليد .

ومن أخذت عنه أيضاً حافظها ومدرسها ومفتيها أبو موسى عمران بن موسى ابن يوسف المشدالي .

أبو موسى
المشدالي

صهر شيخ المدرسين أبي علي ناصر الدين علي ابنته ، وكان قد فر من حصار بجاية ، فنزل الجزائر ، فبعث فيه أبو تاشفين ، وأنزله من التريب والإحسان بالحل المكين ، فدرس بتلمس الحديث والفقه والأصول والنحو والمنطق والجدل والفرائض ، وكان كثير الانساع في الفقه والجدل ، مديد الباع فيما سواهما مما ذكره سألته عن قول ابن الحاجب في السهو « فإن أخل الإعراض فبطل عمده » فقال : معناه فإن أخل غيره أنه معرض ، فحذف المفعول لجوازه ، وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما في معناه من أن وأن ، قال الله العظيم (ألم أحسب الناس أن يتركوا) قلت : وأقوى من هذا أن يكون المصدر هو المفعول الثاني ، وحذف الثالث اختصاراً لدلالة المعنى عليه : أي فإن أخل الإعراض كائناً ، كما قالوا : خلت ذلك ، وقد أعربت الآية بالوجهين ، وهذا عندي أقرب ، ومن هذا الباب ما يكتب به القضاة من قولهم « أعلم باستقلاله فلان » أي أعلم فلان من يقف عليه بأن الرسم مستقل ، فحذفوا الأول ، وصاغوا ما بعده المصدر .

سئل عمران وأنا عنده عما صبغ من الثياب بالدم فكانت حمرة منه ، فقال : يغسل ، فإن لم يخرج شيء من ذلك في الماء فهو طاهر ، لأن المتعلق به على هذا التقدير ليس إلا لون النجاسة ، وإذا عسر قلعه بالماء فهو عَفُو ، وإلا وجب غسله إلى أن لا يخرج منه شيء ، قالت : في البخاري قال معمر : رأيت الزهري يصلي

(١) الحزر - بفتح الحاء وسكون الزاي - مصدر « حزره يحزره » إذا قدره بالظن

هيا صيغ بالبول من ثياب الين ، وتفسيره على ما ذكره عمران ، وكان قد صاهر

لقاضي الجماعة أبي عبد الله بن هربة على ابنته فلم تزل عنده إلى أن توفي عنها . أبو إسحاق
ومنهم مشكاة الأنوار ، الذي يكاد زيتنه يضيء ولو لم تمسه نار ، الأستاذ إبراهيم
أبو إسحاق إبراهيم بن حكم السلوى ، رحمه الله تعالى ! . السلوى

ورد تلمسان بعد العشرين ، ثم لم يزل بها إلى أن قُتِل يوم دخلت على
جني عبد الواد ، وذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان عام سبعة
وثلاثين وسبعمائة .

قال لي الشيخ ابن مرزوق : ابتداء أمر بني عبد الواد بقتلهم لأبي الحسن
السعيد ، وكان أسير لأم ولد تسمى العنبر ، وختم بقتل أبي الحسن بن عثمان إياهم ،
وهو بصفته المذكورة خذوك النعل بالنعل ، فسبحان من دَقَّتْ حِكْمَتُهُ في كل شيء ! .
ولما وقف الرفيقان أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهرى ومحمد بن عبد الرحمن
ابن الحكيم الرندي في رحلتها على قبر السعيد بعباد تلمسان تناول ابن الحكيم
خُفَّةً ثم كتب بها على جدار هناك :

أَنْظُرْ فِيَّ إِلَيْكَ الْيَوْمَ مُعْتَبِرٌ إِنْ كُنْتَ مِنْ بَعِينِ الْفَكْرِ قَدْ خَلَطَا
بِالْأَمْسِ أَدْعَى سَعِيدًا ، وَالْوَرَى حَوْلِي وَالْيَوْمَ يُدْعَى سَعِيدًا مَنْ بَى اتَّعَظَا ^(١)
قال ابن حكم : كان أول اتصالي بالأستاذ أبي عبد الله بن آجروم أني دخلت
عليه وقد حفظت بعض كتاب « المفصل » فوجدت الطلبة يعربون بين
يديه هذا البيت :

عَهْدِي بِهِ الْحَيَّ الْجَمِيعَ وَفِيهِمْ قَبْلَ التَّفَرُّقِ مَيْسِرٌ وَنِدَامٌ ^(٢)
وقد عُيِّنَ عليهم خبر « عهدي » فقلت له : قد سدت الحال - وهي الجملة بعده -

(١) الخول : الخدم ، وزنا ومعنى .

(٢) ندام : جمع نديم ، وهو المشارك لك في الشراب ، ووزنه وزن كريم وكرام
والرواية بتصب « الحى الجميع » على الحالية ، والجملة السادة مسد الخبر هي « وفيهم ميسر »

مسدده ، فقال لى بعض الطلبة : وهل يكون هذا فى الجملة كما كان فى قولك « ضربى زيدا قائماً » ؟ فقلت له : نعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » (١) .

ذكر أبو زيد بن الإمام يومافى مجلسه أنه سئل بالمشرق عن هاتين الشرطيتين (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج لو علم الله فيهم خيراً لتولوا ، وهو محال ، ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين ، فقال ابن حكيم : قال الخونجى : والإهمال بإطلاق لفظ لو وإن فى المتصلة ، فهاتان القضيتان على هذا مهملتان ، والمهملة فى قوة الجزئية ، ولا قياس عن جزئيتين ، فلما اجتمعت ببجاية بأبى على حسين بن حسين وأخبرته بهذا ، وبما أجاب به الزمخشري وغيره ، مما يرجع إلى انتفاء تكرر الوسط ، قال لى : الجوابان فى المعنى سواء ، لأن القياس على الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرر الوسط ، فأخبرت بذلك شيخنا الأبلى ، فقال : إنما يقوم القياس على الوسط ، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ، ولا سالتين ، إلى سائر ما يشترط ، فقلت : ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلاً للجمل ما ينبى عليه من الوسط وغيره ، وإلا فلا مانع غير ما قاله ابن حسين ، قال الأبلى : وقد أجيبت بجواب السامى ، ثم رجعت إلى ما قاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية لأن الشرطية لا تنتج جزئية ، فقلت : هذا فيما يساق منها للحجة ، مثل (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أما فى مثل هذا فلا .

ولما ورد تلمسان الشيخ الأديب أبو الحسن ابن فرحون نزىل طيبة على تربتها السلام سأل ابن حكيم عن معنى هذين البيتين :

(١) نظيره قول الشاعر :

خير اقترابى من الولى حليف رضا وشر بعدى عنه وهو غضبان

رَأَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرْتَنِي لِيَالِي وَصَلَهَا بِالرَّقَّتَيْنِ

كَلَانَا نَاطِرَ قَمَرًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعِينَهَا وَرَأْتُ بَعِينِي

ففكر ثم قال : لعل هذا الرجل كان ينظر إليها ، وهي تنظر إلى قمر السماء ، فهي تنظر إلى القمر حقيقة ، وهو لإفراط الاستحسان يرى أنها الحقيقة ، فقد رأى بعينها لأنها ناظرة الحقيقة ، وأضاف هو ينظر إلى قمر مجازا ، وهو لإفراط الاستحسان لها يرى أن قمر السماء هو المجاز ، فقد رأته بعينه ، لأنها ناظرة المجاز .

قلت : ومن ههنا تعلم وجه الغاء في قوله « فَأَذْكَرْتَنِي » لأنه لما صارت رؤيتها رؤيته ، وصار القمر حقيقة إياها ، كان قوله « رَأَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ فَأَذْكَرْتَنِي » بمثابة قولك أذكركتي ، فتأمله فإن بعض مَنْ لا يفهم كلام الأستاذ حَقَّ الفهم ينشده « وَأَذْكَرْتَنِي » فالقاء في البيت الأول مَبْنِيَةٌ على معنى البيت الثاني ، لأنها مبنية عليه ، وهذا النحو يسمى الإيذان في علم البيان .

ولما اجتمعنا بأبي الوليد بن هانيء مَقْدَمُهُ عَلَيْنَا مِنْ غَرَّ نَاطَةٍ سَأَلَ ابْنَ حَكَمٍ عَنْ تَكَرُّارِ مَنْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (سِوَاكُمْ مِنْ أَسْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ) دُونَ مَا بَعْدَهَا فَقَالَ : لَوْلَا تَكَرُّرُهَا أَوْ لَا تَوَهُمُ التَّضَادُّ بِتَوَهُمِ اتِّحَادِ الزَّمَانِ ، فَارْتَفَعَ بِتَكَرُّارِ الْمَوْضُوعِ ^(١) ، أَمَّا الْآخِرُ فَقَدْ تَكَرَّرَ الزَّمَانُ ، فَارْتَفَعَ تَوَهُمُ التَّضَادُّ ، فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى زَائِدٍ عَلَى ذَلِكَ ، فَقُلْتُ : فَهَلَا اكْتَفَى بِسِوَاكُمْ عَنْ تَكَرُّارِ الْمَوْضُوعِ ، لِأَنَّ التَّسْوِيَةَ لَا تَقَعُ إِلَّا بَيْنَ أَمْرَيْنِ ، وَإِنَّمَا الْجَوَابُ عِنْدِي أَنَّهَا تَكَرَّرَتْ أَوْ لَا عَلَى الْأَصْلِ لِأَنَّهَا صِنْفَانِ يَسْتَدْعِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ اخْتَصَرْتُ ثَانِيًا لِفَهْمِ الْمُرَادِ مِنَ التَّفْصِيلِ بِالْأَوَّلِ مَعَ أَمْنِ اللَّبْسِ ، وَقَدْ أَجَابَ الزُّنْخَشَرِيُّ بِغَيْرِ هَذَيْنِ فَانْظُرْهُ .

سَأَلَنِي ابْنُ حَكَمٍ الْمَذْكُورُ عَنْ نَسَبِ الْحَجِيبِ فِي هَذَا الْبَيْتِ :

(١) الموضوع : هو المحكوم عليه ، وهو هنا « مَنْ » الموصولة .

ومُهَفِّهَف الاعطاف قلت له انتسب فأجاب ما قَتَلُ الحُب حرامٌ
ففكرت ثم قلت : أراه تميميا ، لإلفائه « ما » النافية ، فاستحسنه منى لصغر
منى يومئذ .

تذاكرت يوما مع ابن حكم في تكملة البدر بن محمد بن مالك لشرح التسهيل
لأبيه ، ففضلت عليه كلام أبيه ، ونازعني الأستاذ ، فقلت :
* عهود من الآبا توارثها الأبناء *
فما رأيت بأسرع من أن قال :
* بَنَوْا مَجْدَهَا لَكِنْ بَنَوْهُمْ لَهَا أَبْنَى *
فبهتُ من العجب .

وتوفى الشيخُ ابنُ مالك سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، وفيها ولد شيخنا عبد
المهيمن الحضرمي ، فقيل : مات فيها إمام نحو ، وولد فيها إمام نحو .

سألت ابنَ حكم عن قول فخر الدين في أوّل الحصل « وعندي أن شيئا
منها غير مكتسب » بمعنى لا شيء ولا واحد ، هل له أصل في العربية أو هو كما
قيل من بقايا عجمته ؟ فقال لي : بل له أصل ، وقد حكى ابنُ مالك مثله عن
العرب ، فلم يتفق أن أستوقفه عليه ، ثم لم أزل أستكشف عنه كلَّ من أظن أن
لديه شيئا منه ، فلم أجِدْ مَنْ عنده أثارة منه ^(١) ، حتى مررت في باب الأعمال الداخلة
على المبتدأ والخبر الداخل عليها « كان » من شرح التسهيل قوله « فإن تقدم على
الاستفهام أحد المفعولين نحو « علمت زيدا أبو مَنْ هو » اختير نصبه ، لأن الفعل
مُسَلَّطٌ عليه بلا مانع ، ويجوز رفعه ، لأنه والذي بعد الاستفهام شيء واحد في المعنى
فكانه في حيز الاستفهام ، والاستفهام مشتمل عليه ، وهو نظير قوله : إن أحد
إلا يقول ذلك ، وأحد هذا لا يقع إلا بعد نفي ، ولكن لما كان هنا والضمير

(١) يقال « ما عند فلان أثارة من علم » أى ما عنده بقية منه يرجع إليها .

المرفوع بالقول شيئاً واحداً في المعنى تنزل منزلة واقع بعد نفى « فعلت أنه نحا إلى هذا ، لأن شيئاً ههنا والضمير المرفوع بمكتسب المنفى في المعنى شيء واحد ، فكان شيئاً كأنه وقع بعد غير : أى بعد النفى .

سأل ابن فرحون ابن حكم : هل تجد في التنزيل مست فآت مرتبة ترتيبها في هذا البيت .

رأى فحِبَّ قَرَامِ الوَصْلِ فامتنعت فسام صَبْرًا فَأَعْيَا نَيْلَهُ فَقَضَى
ففكر ثم قال : نعم (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون - إلى آخره) فمنعت
له البناء في (فتنادوا) فقال لابن فرحون : فهل عندك غيره ؟ فقال : نعم (فقال لهم
رسول الله - إلى آخر السورة) فنع له بناء الآخرة لقراءة الواو ، فقلت له : امنع
ولا تسند فيقال لك : إن المعاني قد تختلف باختلاف الحروف ، وإن كان السند
لا يسمع الكلام عليه ، وأكثر ما وجدت الفاء تنتهي في كلامهم إلى هذا
العدد ، سواء بهذا الشرط وبدونه ، كقول نوح عليه السلام : (فعلى الله توكلت
- الآية) وكقول امرئ القيس * غشيت ديار الحى بالبكرات * البيتين ^(١) - لا يقال :
فالجب سابع ، لأننا نقول : إنه عطف على « عاقل » المجرد منها ، ولعل حكمة الستة
أنها أول الأعداد التامة ، كما قيل في حكمة خلق السموات والأرض فيها ، وشأن
اللسان عجيب .

وقوله في هذا البيت « فحِبَّ » لغة قليلة جرى عليها محبوب كثيرا ، حتى
استغنى به عن مُحِبٍّ ، فلا تكاد تجده إلا في قول عنقرة :

وَلَقَدْ نَزَلَتْ فَلَا تَظْنِي غَيْرَهُ مَنِ بَمَنْزِلَةِ الْحَبِّ الْمَكْرَمِ

ونظيره مُحْسُوسٌ مِنْ حَسٍّ وَالْأَكْثَرُ أَحْسَّ وَلَا تَكَادُ تَجِدُ مُحَسَّا ، وهذا التوجيه

(١) البيتان هما قوله :

غشيت ديار الحى بالبكرات	فعامرة فبرقة العيرات
فغول خفيت فأكناف منعج	إلى عاقل فالجب ذى الأمرات

أحسن من قول القرأفي في شرح التنقيح « أجزوا محسوسات مجرى معلومات » (١)
لأن الحسن أحد طرق العلم .

سمعت ابن حكيم يقول : بعث بعض أدباء فاس إلى صاحب له :

ابعثني إلى بشي مدآر فاس عليه

وليس عندك شيء مما أشير إليه

فبعث إليه ببطاة من مري ، يشير بذلك إلى الرياء .

وحدثت أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن المبحوم حضر وليمة ، وكان
كثير الباغم ، فوضع بين يديه صهره أبو العباس بن الأشقر غضاراً من اللون
المطبوخ بالمرى لمناسبته لمزاجه ، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء .

وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوع في الناس ، فنأوله القاضي غضار المقروض ،
فاستحسن الحاضرون فطنته .

أبو محمد
عبد الله الجحاصي والعويل ، أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر الجحاصي .
ومنهم عالم الصلحاء ، وصالح العلماء ، وجليس النزيل ، وحليف البكاء

خطيب جامع القصر الجديد ، وجامع خططي التحديث والتجويد ، ويسميه
أهل مكة البكاء ، ولما قدم أبو الحسن علي بن موسى البحيري سأل عنه ، فقيل له :
لو علم بك أنك ، فقال : أنا آتي من سمعت سيدي أبا زيد الهزيمري يقول له
لأول ما رآه ولم يكن يعرفه قبل ذلك : مرحباً بالفتي الخاشع ، أسمعنا من
قراءتك الحسنة .

دخلت عليه بالفتية أبي عبد الله السطى في أيام عيد ، فقدم لنا طعاماً ، فقلت :
لو أكلت معنا ، فرجونا بذلك ما يرفع من حديث « مَنْ أَكَلَ مَعَ مَغْفُورِهِ غُفِرَ لَهُ »

(١) يريد لما تشاركا في المعنى شركوهما في الاشتقاق ، ومن سنن العرب أن
يحملوا الشيء على نظيره في المعنى كما أن من سننهم أن يحملوا الشيء على تقيضه .

فتيسم وقال لى : دخلت على سيدى أبى عبد الله الفاسى بالإسكندرية ، فقدم طعاما فسأله عن هذا الحديث ، فقال : وقع فى نفسى منه شيء ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فسأله عنه ، فقال لى : لم أقله ، وأرجو أن يكون كذلك .

وصافحته بمصافحته الشيخ أباب عبد الله زيان بمصافحته أباسعيد عثمان بن عطية الصعبدى بمصافحته أباب العباس أحمد الملم بمصافحته المعمر بمصافحته رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسمعتة يحدث عن شيخه أبى محمد الدلاصى أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد ، فكان يخصه لدينه وعقله بالنداء باسمه ، وإنما كان ينعق بما ليكه : ياساقى ، ياطباخ ، يامزين ، فنادى به ذات يوم : يا فراش ، فظن ذلك لموجدة عليه ^(١) ، فلما لم ير أثر ذلك ، وتصورت له به خلوة ، سأله عن مخالفته لعادته معه ، فقال : لا عليك ، كنت حينئذ جنباً ، فكرهت ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الحالة .

ومما نقلته من خط الجصاصى ثم قرأته عليه فحدثنى به قال : حدثنى القاضى أبوزكرى يحيى بن محمد بن يحيى بن أبى بكر بن عصفور قال : حدثنى جدى يحيى المذكور ، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبى المقرئ بتلمسان ، حدثنا الحافظ أبو محمد يعنى والله أعلم عبد الحق الإشبلى ، أخبرنا أبو غالب أحمد بن الحسن المستعمل ، أخبرنا أبو الفتوح عبد الغافر بن الحسين بن أبى الحسن بن خلف الألمى ، أخبرنا أبو نصر أحمد بن إسحاق النيسابورى ، أمدلى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى ، أخبرنا محمد بن على بن الحسين العلوى ، أخبرنا عبد الله بن إسحاق اللغوى وأنا سأله أخبرنا إبراهيم بن الهيثم البلدى ، أخبرنا عبد الله بن نافع بن عيسى

(١) الموجدة - بفتح الميم وكسر الجيم بينهما واو ساكنة - الغضب والغليظ

ابن يونس عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال لى جبريل : ألا أعلمك الكلمات التى قالهن موسى حين انفلق له البحر ؟ قلت : بلى ، قال قل : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وبك المستغاث ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال ابن مسعود : فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تسلسل الحديث على ذلك ، كل أحد من رجاله يقول : ما تركتهن منذ سمعتهن من فلان ، نشيخه ، وقد سمعت المجاصى يكررها كثيراً ، وما تركتهن منذ سمعتهن منه .

وأنشدنى المجاصى قال : أنشدنى نجم الدين الواسطى ، أنشدنى شرف الدين الدمياطى ، أنشدنى تاج الدين الأرموى مؤلف الحاصل ، قال : أنشدنى الإمام فخر الدين لنفسه :

نهاية إقدام العقول عَقَالُ	وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جِسمونا	وحاصل دنيانا أذى ووَبَالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم من رجال قدر أينا ودولة	فبادوا جميعا مسرعين وزالوا ^(١)
وكم من جبال قد عُلَّتْ شُرُفَاتُهَا	رجالٌ فأتوا والجبال جبال ^(٢)

وتوفى المجاصى فى العشر الآخر من شهر ربيع الأول ، عام أحد وأربعين وستائة .

أبو على حسن
ابن يوسف
الحسينى السبتي
ومنهم الشيخ الشريف القاضى الرحلة المعمر أبو على حسن بن يوسف
ابن يحيى الحسينى السبتي :

(١) بادوا : هلكوا

(٢) شرفاتها : جمع شرفة ، وهى هنا قلة الجبل

أدرك أبا الحسين بن أبي الربيع وأبا القاسم الفرق ، واختص بابن عبيدة وابن الشاط ، ثم رحل إلى المشرق فلقى ابن دقيق العيد وحلّته ، ثم قفل فاستوطن تلمسان إلى أن مات بها سنة أربع وخمسين ، أو ثلاث وخمسين وسبعائة ، قرأ علينا حديث الرحمة وهو أول حديث سمعته منه : حدثنا الحسن بن علي بن عيسى ابن الحسن اللخمي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا علي بن المظفر بن القاسم الدمشقي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفرج محمد بن عبد الرحمن ابن أبي العز الواسطي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو العز عبد المغيث ابن زهير ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا زاهر بن طاهر بن محمد الشحامي ، وهو أول حديث سمعته منه (ح) . قال الحسن بن علي : وحدثنا أيضاً عاليا الحسن ابن محمد البكري ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفتوح محمد بن محمد ابن محمد بن الجنيد الصوفي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا زاهر بن طاهر ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي الفضائل عبد الوهاب بن صالح عُرف بابن المغرم إمام جامع همدان بها ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو منصور عبد الكريم بن محمد بن حامد المعروف بابن الخيام ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك ، وهو أول حديث سمعته منه ، حفظا ، أخبرنا أبو الطاهر محمد بن محمد بن نخبش الزيادي ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن يحيى بن هلال البزار ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم ، وهو أول حديث سمعته منه ، أخبرنا سفيان بن عُيينة ، وهو أول حديث سمعته منه ، عن عمرو ابن دينار ، عن أبي قابوس مَوْلى لعبد الله بن عمرو بن العاص ، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السماء » .

(ح) وحدثني الشريف أيضاً كذلك بطريقه عن السُّلَمِيِّ بأحاديثه المشهورة فيه .
وهذا الحديث أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، قال لى الشريف :
قال لى القاضى أبو العباس الرندى : لما قدم أبو العباس بن الغماز من بلنسية نزل
بجاية ، فجلس بها فى الشهود مع عبد الحق بن ربيع ، فجاء عبد الحق يوماً وعليه
برنس أبيض ، وقد حسنت شارته وكملت هيأته ، فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده :
لَيْسَ الْبِرْنَسُ الْفَقِيهُ فَبَاهَى ورأى أنه المَلِيحُ فَتَأَهَا^(١)
لو زليخا رأته حين تَبَدَّى لتمنته أن يكون فتاه^(٢)

وبه أن ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة ، فنزل الشهود من المئذنة
وأخبروا أنهم لم يروه^(٣) ، وجاء حفيد له صغير ، فأخبره أنه أهله ، فردهم معه ، فأراهم
إياه ، فقال : ما أشبه الليلة بالبارحة .

وقع لنا مثل هذا مع أبى الربيع بن سالم ، فأنشدنا فيه :
توارى هلال الأفق عن أعين الورى وأرخت حجاب الغيم دون مُحِيَّاهُ
فلما تصدى لارتقاب شقيقه تَبَدَّى له دون الأنام فحياه
سمعت الشريف يقول : أول زجل عمل فى الدنيا :

بالله يا طير مدلل مرُّبى وسط القفار
إياك تجدد لعاده ترمى حجيرة فى دارى

أبو عبد الله
محمد بن منصور
القرشى
ومنهم قاضى جماعتها ، وكاتب خلافتها ، وخطيب جامعها ، أبو عبد الله
محمد بن منصور بن على بن هدية القرشى .

من ولد عقبة بن نافع الفهري ، نزلها سلفه قديماً ، وحلَّه بها إلى الآن ،
توفى فى أواسط سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، وشهد جنازته سلطانها يومئذ

(١) تاها : فعل ماض من التيه ، والألف للاطلاق

(٢) فتاه : غلامها ، وعبر القرآن عن يوسف بذلك فى قوله : (وقال نسوة
فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه)

(٣) لم يروه : لم يروه

أبو تاشفين ، وولى ابنه أبا على منصوراً مكانه يومئذ ، ولما ثقل لسانه دعا ابنه
هذا فقال له : أكتب هذين البيتين فإنى نظمتهما على هذه الحالة ، فكتب :
إلهى مضت للعمر سبعون حجة جنيت بها لما جنيت الدواهي^(١)
وعبدك قد أمسى عليل ذنوبه فجدلى برحمى منك ، نعم الدواهي^(٢)
ولما ورد الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد المكوذى من المغرب رفع إليه
قصيدة أولها :

سرت والدجى لم يبق إلا سيرها نسيم صبا يحى القلوب مسيرها
وفى الأبيات العجائب التى سارت سير الأمثال ، وهى قوله :
وفى الكلالة الحمراء خمره لو بدت لثكلى لولى ثكلها وثبورها
فما يستوى مئوى لها من سوى القنا خيام ، ومن بيض الصفاح ستورها
وما بسوى صدق الغرام أرومها ولا بسوى زور الخيال أزورها
فأحسن إليه ، وكلم السلطان حتى أرسل جريته عليه ، وقد شهدت المكوذى
وهذه القصيدة تقرأ عليه .

ومنهم القاضى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن أبى عمرو التميمى .
أدرك ابن زيتون ، وأخذ عن أبى الطاهر بن سرور وحلبته ، وعنه أخذت
شرح المعالم له ، وولى القضاء بتلمسان مرات ، فلم تستفزه الدنيا ، ولا باع
الفقر بالغنى .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور .
قاضى الجماعة بعد ابن أبى عمرو ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، لقي بها جلال
الدين القزوينى وحلبته ، وتوفى بتونس فى الوباء العام فى حدود الخمسين وسبعائة

(١) الدواهى ، فى هذا البيت : جمع داهية

(٢) الدواهى ، فى هذا البيت : مؤلفة من كلمتين : أولاهما الدوا ، وأصلها
الدواء خذف الهمزة ، والثانية «هى» المخصوص بالمدح ، كأنه قال : نعم الدواء هى

أبو عبد الله محمد ابن الحسين البروني
ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسين البروني .
قدم عليها من الأندلس ، فأقام إلى أن مات ، سمعته يقول : البقر العدوية (١)
كالإبل المهمة في الصحراء ، لا يجوز أن تباع بالنظر إليها ، لكن بعد أن تمسك
ويستولى عليها .

أبو عمران موسى المصمودي (البخاري)
ومنهم أبو عمران موسى المصمودي ، الشهير بالبخاري .
سمعت البروني يقول : كان الشيخ أبو عمران يدرس صحيح البخاري ، ورفيق
له يدرس صحيح مسلم ، فكانا يعرفان بالبخاري ومسلم ، فشهدا عند قاض ، فطلب
المشهدود عليه الإعذار فيهما ، فقال له أبو عمران : أتمكنه من الإعذار في
الصحيحين ؟ فضحك القاضي ، وأصلح بين الخصمين .

أبو عبد الله محمد ابن يحيى بن النجار
سألته عما ضربه ابن هدية عليه من إباحة الاستيائك في رمضان بقشر الجوز ،
فقال لي : نعم ، ويبلغ ريقه ، تأول رحمه الله تعالى ، أن الخصال المذكورة في السواك
إنما تجتمع في الجوز ، فكان يحمل كل ماروى فيه عليه ، وهذا غلط فاحش ، لأن
العرب لا تكاد تعرفه ، ونظر إلى ما في البخاري من قوله بعد أن ذكر جواز
السواك للصائم « ولا بأس أن يبتلع ريقه » يعني الصائم في الجملة ، فحمله على
المستاك بالجوز ، وكان رحمه الله تعالى قليل الإصابة في الفتيا ، كثير المصائب عليها .
ومنهم نادرة الأعصار : أبو عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن النجار .
قال لي العلامة الألبى : ما قرأ أحد على حتى قلت له : لم أبقِ عندي ما أقول
لك غير ابن النجار .

سمعت ابن النجار يقول : مر عمل الموقتتين على تساوى فضلتى ما بين المغرب
والعشاء والفجر والشمس ، فيؤذنون بالعشاء لذهاب ثمانى عشرة درجة ، وبالفجر

(١) لعله أراد البقر الوحشية ، لأنها غير مقدورة على تسليمها ، كالطير في الهواء
والسمك في الماء ، كل ذلك لا يجوز بيعه ، إلا أن يصاد ويصير في يد البائع مقدوراً
على تسليمه للمشتري .

لبقائها ، والجاري على مذهب مالك أن الشفق الحمر ، وأن تكون فضلة ما بين العشاءين أقصر ؛ لأن الحمر ثانية الغوارب والطوالع ، فتزيد فضلة الفجر بمقدار ما بين ابتداء طلوع الحمر والشمس ، فعرضت كلامه هذا على المزوار أبي زيد عبد الرحمن ابن سليمان اللجاني ، فصوبه .

وذكرت يوماً حكاية ابن رشد الاتفاق في الخمر إذا تخللت بنفسها أنها تطهر ، واعترضته بما في الإكمال عن ابن وضاح أنها لا تطهر ، فقال لي : لا معتبر بقول ابن وضاح هذا ؛ لأنه يلزم عليه تحريم الخمر ؛ لأن العنب لا يصير خلا حتى يكون خمرأ ، وفيه بحث .

وذكرت يوماً قول ابن الحاجب فيما يحرم من النساء بالقراءة «وهي أصول وفصول، وفصول أول أصوله ، وأول فصل من كل أصل وإن علا» فقال : إن تركب لفظ التسمية العرفية من الطرفين حلت ، وإلا حرمت ، فتأملته فوجدته كما قال ، لأن أقسام هذا الضابط أربعة : التركب من الطرفين كابن العم وابن الغم مقابله كالأب والبنت ، التركب من قبل الرجل كابنة الأخ والعم مقابله كابن الأخت والخالة .

وأنشدت يوماً عنده على زيادة اللام :

* بَاعَدَ أُمَّ الْعَمْرِو مِنْ أُسَيْرِهَا ^(١) * البيت

فقال لي : وما يدريك أنه أراد العَمْرَ الذي أراده المعري بقوله :

وَعَمْرُ هِنْدٍ كَانَ اللَّهُ صَوْرَهُ عمرو بن هند يُعَيِّنُ الناسَ تعينتا

وأضاف اللام إليه كما قالوا : أم الخليس ، قلت : ولا يندفع هذا بثبوت كون

(١) هذا بيت من الرجز المشطور ، وبعده * حراس أبواب على قصورها * والنحاة يقررون أنه إذا حصل اشتراك في الأعلام أشبهت النكرات فجاز دخول «ال» عليها كما في هذا البيت ، وجاز أن تضاف كما في قول الشاعر :

علا زيدنا يوم النقار رأس زيدكم بأبيض ماضي الشفرتين يمان

المغنية تكنى أم عمرو ؛ لأن ذلك لا يمنع إرادة المعنى الآخر ، فتكون : أم عمرو ، وأم العمر .

قال ابن النجار : بعثت بهذه الأبيات من نظمي إلى القاضي أبي عبد الله ابن هدية فأخرج لغزها :

إن حروف اسم من كلفت به خَفْتُ على كُلِّ ناطق بَمِ
سائغة سَهْلَةً تَخارجها من أجل هذا تَزَادُ في الكلم
صَحْفُهُ ثم أَقْلِبَنَّ مُصَحِّفَهُ فَعَلَّ ذِكْرِي مَهْذَبَ فِهِمِ
واطلبه في الشعر جَدَّ مطلبه تجدّه كالصبح لاح في الظُّلَمِ
فإن تأملت بِتِّ منه على علم ، وإلا فأنت عنه عَمِي

واللغز «سلمان» وموضعه تأملت بت ، وتوفي رحمه الله تعالى بتونس أيام الوباء العام ومنهم الأستاذ المقرئ الراوية الرحلة أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سبع ابن مزاحم المكناسي .

أبو الحسن
علي بن أبي بكر
المكناسي

ورد علينا من المشرق ، فأقام معنا أعواماً ، ثم رحل إلى فاس ، فتوفي بها في الوباء العام ، جمعت عليه السبع ، وقرأت عليه البخاري والشاطبيتين وغير ذلك ، فأما البخاري فحدثني به قراءة منه على أحمد بن الشننة الحجار سنة ثلاثين وسبعائة ، وكان الحجار قد سمعه على ابن الزبيدي سنة ثلاثين وستائة ، وهذا ما لا يعرف له نظير في الإسلام ، وقد قال عبد الغني الحافظ : لا نعرف في الإسلام مَنْ وازاه (٢) عبد الله بن محمد البغوي في قدم السماع ، فإنه توفي سنة سبع عشرة وثلثمائة ، قال ابن خلاد : سمعناه يقول : أخبرنا إسحاق بن إسماعيل الطالقاني سنة خمس وعشرين ومائتين ، وسمعه ابن الزبيدي على أبي الوقت بسنده ، قال لي ابن مزاحم : هذا

(١) كلفت به : تعشقت به .

(٢) وازاه : ساواه ، وأراد أن يكون بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم عدد من الرواة كالعدد الذي بين البغوي وبين الرسول .

طريق كله سماع ، وأما الشاطبيتان فحدثني بهما قراءة عليه لجميعهما عن بَدْر الدين ابن جماعة ، بقراءتهما عليه عن أبي الفضل هبة الله بن الأزرق ، بقراءتهما عليه عن المؤلف كذلك ، وحدثني بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة عن المؤلف ابن مالك ، وغير ذلك .

ومن ورد عليها لا يريد الإقامة بها شيخى وبركتى وقُدُّوتى أبو عبد الله محمد ابن حسين القرشى الزبيدى التونسى .

حدثني بالصحيحين قراءة لبعضهما ومُناوَلَة لجميعهما ، عن أبي اليمين بن عساكر لقيه بمكة سنة إحدى وثمانين وستمائة بسنده المشهور ، وحدثني أيضاً أن أبا منصور العجمي حدثه بمحضر الشيخين والده حسين وعمه حسن وأثنى عليه ديناً وفضلاً أنه أدخل ببعض بلاد المشرق على المَعْمَر أدخله عليه بعض ولد ولده ، فألقاه ملفوفاً في قطن ، وسمع له دويّاً كدويّ النحل ، فقليل له : أَلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيتُه ؟ قال : نعم ، قلت : ليس في هذا ما يُسْتَرَاب منه إلا الشيخ المعمر ، فإننا لا نعرف حاله ، فإن صح فحدثنا عنه ثلاثي ، وقد تركت سنة خمس وأربعين معصر رجلاً يسمى بعثمان معه تسعون حديثاً يزعم أنه سمعها من المعمر وقد أخذت عنه ، وكتبت منه ، فهذا ثُنائى ، وأمر المعمر غريب ، والنفس أميل إلى نفيه .

ومنهم إمام الحديث والعربية ، وكاتب الخلافة العثمانية والعلوية ، أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي السبكي .

جمع فإوعى ، واستوهب أكثر المشاهير وما سعى ، فهو المقيم الظاعن ، الضارب القاطن ، سألتني عن الفرق بين علم الجنس واسم الجنس ، فقلت له : زعم الخسرو شاهي

(١) المناوَلَة : ضرب من ضروب الزوايا ، وحاصلها أن يناول الشيخ كتاب سماعه إلى تلميذه ويأذن له بروايته عنه ، ولا يكفي مجرد إعطائه الكتاب ، بل لابد من الإذن .

أنه ليس بالديار المصرية مَنْ يعرفه غيره ، وأنا أقول : ليس في الدنيا عالم إلا وهو يعلمه غيره ؛ لأنه حكم لفظي أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعدل عمر ونحوه ، فاستحسن ذلك .

وكان يفكر إضافة الحَوْل إلى الله عز وجل ، فلا يجيز أن يقال « بحول الله وقوته » قال : لأنه لم يَرَدْ إطلاقه ^(١) ، والمعنى يقتضى امتناعه ؛ لأن الحَوْل كالحيلة أو قريب منها .

وتوفى بتونس أيام الوباء العام .

ومنهم التقيہ المحقق الفَرَضِي المدقق أبو عبد الله محمد بن سليمان بن علي السطِّي قرأت عليه كتاب الحوفي علماً وعملاً ، قال لي في قول ابن الحاجب « والثمن والثلث والسدس من أربعة وعشرين » : هذا لا يصح ؛ إذ لا يجتمع الثلث والثمن في فريضة ، وقد سبقه إلى هذا الوهم صاحبُ المقدمات ، وسألت عنه ابن الأبار فقال لي : إنما أراد المقام لأنه يجتمع مع الثلثين ، والإنصاف أنه لا يَحْسُن التعبير بما لا تصح إرادة نفسه عن غيره ، فكان الوجه أن يقول : والثلاثان ، أو ومقام الثلث ، أو نحو ذلك ، لأن الثلث إنما يدخل هنا تقديرًا لتحقيقًا كما في الجواهر ، وانظر باب المدر من كتاب الحوفي ، فإن فيه موافقة السبعة لعدد لا توافقه فهو من باب الفرض ، وعليه ينبغي أن يحمل كلام ابن الحاجب .

أبو عبد الله
محمد بن سليمان
السطِّي

ومنهم الأستاذ أبو عبد الله الرندي ، والقاضي أبو عبد الله محمد بن علي ابن عبد الرزاق الجزولي ، والقاضي أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي يحيى ، في كثير من الخلق ، فلنضرب عن هذا .

جماعة من
شيوخ القرى

(١) إطلاق الأسماء على الله تعالى مختلف فيه بين العلماء ، فقال قوم : هو توقيفي لا يجوز أن يطلق منها شيء عليه سبحانه إلا إذا أذن فيه الشارع ، وقال آخرون : لا يتوقف على الإذن الخاص ، ولكن إذا دل على كمال محض جاز إطلاقه .

ومن شيوخى الصلحاء الذين لقيت بها خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد أبو عثمان سعيد
ابن إبراهيم بن علي الخياط .

أدرك أبا إسحاق الطيار ، وقد صافحته وأنا صغير ، لأنه توفى سنة تسع
وعشرين ، بمصافحته أباه ، بمصافحته الشيخ أبا تميم ، بمصافحته أبا مدين ، بمصافحته
أبا الحسن بن حرزم ، بمصافحته ابن العربي ، بمصافحته الغزالي ، بمصافحته أبا المعالي ،
بمصافحته أبا طالب المكي ، بمصافحته أبا محمد الجري ، بمصافحته الجنيد ، بمصافحته
سرياً ، بمصافحته معروفاً ، بمصافحته داود الطائي ، بمصافحته حبيبا العجمي ،
بمصافحته الحسن البصري ، بمصافحته علي بن أبي طالب ، بمصافحته رسول الله
صلى الله عليه وسلم

ومنهم خطيبها المصقع أبو عبد الله محمد بن علي بن الجال .

أدرك محمد بن رشيد البغدادي صاحب الزهر والوترات على حروف المعجم
والمذهبة وغيرها ، حدثني عنه أنه تاب بين يديه لأول مجلس جلس به تلامذته
منبعون رجلا .

ومنهم الشقيقان الحاجان الفاضلان أبو عبد الله محمد ، وأبو العباس أحمد ، ابنا أبي عبد الله
أبنا ولي الله أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسى .

كساني محمد خرقه التصوف بيده ، كما كساه إياها الشيخ بلال بن عبد الله
الحبشي خادم الشيخ أبي مدين ، كما كساه أبو مدين ، قال محمد بن مرزوق : وكان
مولد بلال سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وخدم أبا مدين نحواً من خمسة عشر عاماً ،
إلى أن توفى في عام تسعين وخمسمائة ، ثم عاش بعده أكثر من مائة سنة ، ولبس
أبو مدين من يد ابن حرزم ، وليس ابن حرزم من يد ابن العربي ، واتصل اللباس
اتصال المصافحة .

ومنها أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي الصنهاجي المكنى ، حدثنا عن قاضيه أبي زيد عبد الرحمن بن علي الدكالي أنه اختصم عنده رجلان في شاة ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر ، وادعى الآخر أنها ضاعت منه ، فأوجب اليمين على المودع عنده ، أنها ضاعت من غير تضييع ، فقال : كيف أضيع وقد شغلتنى حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها ؟ فحكم عليه بالغرم ، فقبل له في ذلك ، فقال : تأولت قول عمر « ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع » .

أبو زيد
الصنهاجي

ومنها أبو عبد الله محمد بن محمد الغزموني .

مكتبي الأول ، ووسيلتي إلى الله عز وجل ، قرأ على الشيخين أبي عبد الله القصري وأبي حريث ، وحج حجات ، وكان عقد بقلبه أنه كلما ملك مائة دينار عيونا سافر إلى الحج ، وكان بصيراً بتعبير الرؤيا^(١) ، فمن عجائب شأنه فيه أنه كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان فيه من أهل تِلْكَسَان أيام محاصرته لها ، فرأى أبو جمعة بن علي التلائسي الجرائمي منهم كأنه قائم على ساقية دائرة وجميع قواديسها يصب في نقيز في وسطها ، فجاء ليشرب ، فلما اغترف الماء إذا فيه قَرْتُ ودم فأرسله ، ثم اغترف فإذا هو كذلك ، ثلاثاً أو أكثر ، فعدل عنه ، فرأى حصاة ماء وشرب منها ، ثم استيقظ وهو النهار ، فأخبره ، وقال : إن صدقت رؤياك فنحن عما قليل خارجون من هذا المكان ، قال : كيف ؟ قال : الساقية الزمان ، والنقيز السلطان ، وأنت جرائمي تدخل يدك في جوفه فينالها القَرْتُ والدم ، وهذا ما لا تحتاج معه ، فلم يكن إلا ضحوة النهار ، وإذا النداء عليه ، فأخرج فوجد السلطان مطعوناً بنجر ، فأدخل يده فنالها القَرْتُ والدم ، فخاط جراحته ، ثم خرج ، فرأى حصاة ماء ، فغسل يديه وشرب .

أبو عبد الله
محمد بن محمد
الغزموني

(١) تعبیر الرؤيا : تفسیر ما تدل علیه . وفي القرآن الكريم (أنبئونی بتأویلہ إن كنتم للرؤيا تعبرون)

ثم لم يلبث السلطان أن توفي ، وسرَّحوا .

وتعداد أهل هذه الصفة يكثر ، فلنصفح عنهم ^(١) ، ولنختم فصل من لقيته بتمسان بذكر رجلين هما بقيد الحياة أحدهما عالم الدنيا ، والآخر نادرتهما .

أما العالم فشيخنا ومعلمنا العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الأيلي ، التماساني .

سمع جده لأمه أبا الحسين بن غلبون المرسي القاضي بتمسان ، وأخذ عن فقهاء أبي الحسين التنسي وابني الإمام ، ورحل في آخر المائة السابعة فدخل مصر والشام والحجاز والعراق ، ثم قفل ^(٢) إلى المغرب فأقام بتمسان مدة ، ثم فرأى أيام أبي حم موسى بن عثمان إلى المغرب .

حدثني أنه لقي أبا العباس أحمد بن إبراهيم الخياط شقيق شيخنا أبي عثمان المتقدم ذكره ، فشكا له ما يتوقعه من شر أبي حم ، فقال له : عليك بالجليل ، فلم يدر ما قال ، حتى تعرض له رجل من غمارة ، فعرض عليه الهروب به ، قال : فحتمت أن يكون أبو حم قد دسَّه علي ، فتنكرت له ، فقال لي : إنما أسير بك على الجبل ، فتذكرت قول أبي إسحاق ، فواطأته ، وكان خلاصى على يده ، قال : ولقد وجدت العطش في بعض مسيرى به ، حتى غلظ لسانى واضطربت ركبتي ، فقال لي : إن جلست قتلتك لئلا أفتضح بك ، فكنت أقوى نفسى ، فمر على بالى في تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس ، وتوشله به ، فوالله ماقلت شيئاً حتى رفع لي غدير ماء ، فأريته إياه ، فشر بنا ونهضنا .

ولما دخل المغرب أدرك أبا العباس بن البناء ، فأخذ عنه ، وشافه كثيراً من علمائه ، قال لي : قلت لأبي الحسن الصغير : ما قولك في المهدي ؟ فقال : عالم

(١) نصفح عنها : نضرب عن ذكرهم

(٢) قفل إلى المغرب : رجع

سلطان ، فقلت له : قد أبت عن مرادى ، ثم سكن جبال الموحدين ، ثم رجع إلى فاس ، فلما افتتحت تلمسان لقيته بها ، فأخذت عنه ، فقال لى الأبل : كنت يوما مع القاسم بن محمد الصنهاجى ، فوردت عليه طومارة من قبل القاضى أبى الحجاج الطرطوشى فيها :

خيرات ما تحويه مبدولة ومطلبى تصحيف مقلوبها

فقال لى : ما مطلبه ؟ فقلت : نارنج .

دخل على الأبل وأنا عنده بتلمسان الشيخ أبو عبد الله الدباغ المالى المتطبب فأخبرنا أن أديبا استجدى وزيراً بهذا الشر :

* ثم حبيب قلما ينصف *

فأخذته فكتبته ، ثم قلبته وصحفته ، فإذا هو : قصبنا ملف شحمى .

ومر الدباغ علينا يوما بفاس ، فدعاه الشيخ ، فلباه ، فقال : حدثنا بحديث اللطافة ، فقال : نعم ، حدثنى أبو زكريا بن السراج الكاتب بسجلماسة أن أبا إسحاق التلمسانى وصهره مالك بن المرحل ، وكان ابن السراج قد لقيهما ، اصطحبا فى مسير ، فأواهما الليل إلى مجشر ، فسألا عن صاحبه ، فذلاً ، فاستضافاه فأضافهما ، فبسط قطيفة بيضاء ، ثم عطف عليهما بحبز ولبن ، وقال لهما : استعملا من هذه اللطافة حتى يحضر عشاؤكما ، وانصرف ، فتحاورا فى اسم اللطافة لأى شىء هو منهما حتى ناما ، فلم يزع أبا إسحاق إلا مالك يوقظه ويقول : قد وجدت اللطافة ، قال : كيف ؟ قال : أبعدت فى طلبها حتى وقعت بما لم يمر قط على مسمع هذا البدوى فضلا عن أن يراه ، ثم رجعت القهقرى حتى وقعت على قول النابغة :

بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَّمَ يَكَادُ مِنَ اللِّطَافَةِ يَعْقِدُ^(١)

(١) مخضب: أراد مخضوبا بالحناء ، والرخص - بفتح الراء وسكون الحاء - الناعم الطرى ، وبنانه : أراد أطرافه ، والعنم - بفتح العين والنون جميعا - شجرلين الأغصان تشبه به أصابع الجوارى ، وقيل : نبت

فسنح لبالي أنه وجد اللطافة ، وعليها مكتوب بالخط الرقيق الأيمن ، فجعل إحدى النقطتين للطاء فصارت اللطافة اللطافة واللين اللين وإن كان قد صحف عنم بغم ، وظن أن يعقد جبن ، فقد قوى عنده الوهم ، فقال أبو إسحاق : ما خرجت عن صوبه ، فلما جاء سألوه ، فأخبر أنها اللين ، واستشهد بالبيت كما قال مالك .

ولا تعجب من مالك فقد ورد فاساً شَيْخُنَا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي عرف بابن المسفر ، رسولا عن صاحب بحاية فزارة ، فزاره الطلبة ، فكان فيما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين يستشكلون كلاما وقع في تفسير سورة الفاتحة من كتاب فخر الدين ، ويستشكله الشيخ معهم ، وهذا نصه : ثبت في بعض العلوم العقلية أن المركب مثل البسيط في الجنس ، والبسيط مثل المركب في الفصل ، وأن الجنس أقوى من الفصل ، فرجعوا به إلى الشيخ الأتلي ، فتأمله ثم قال : هذا كلام مصحف ، وأصله أن المركب قبل البسيط في الحس ، والبسيط قبل المركب في العقل ، وأن الحس أقوى من العقل ، فأخبروا ابن مسفر ، فليج ، فقال لهم الشيخ : التمسوا النسخ ، فوجدوه في بعضها كما قال الشيخ ، والله يؤتي فضله من يشاء .

قال لي الأتلي : لما نزلت تازى بت مع أبي الحسن بن برى وأبي عبد الله النرجالي ، فاحتجت إلى النوم ، وكرهت قطعهما عن الكلام ، فاستكشفتهما عن معنى هذا البيت للمعري :

أقول لعبد الله لما سقاؤنا ونحن بوادي عبد شمس وهاشم^(١)
فجلا يفكران فيه ، فنمت حتى أصبحا ، ولم يجداه ، فسألاني عنه ، فقلت :
معناه أقول لعبد الله لما وهى سقاؤنا ، ونحن بوادي عبد شمس : شم لنا برقا .
قلت : وفي جواز مثل هذا نظر .

(١) « وهاشم » مؤلف من فعلين كما سيفسره : الأول « وهى » ومعناه ضعف ورق وتخرق ، وفاعله ضمير مستتر يعود إلى « سقاؤنا » والثاني « شم » وهو فعل أمر من « شام البرق يشيمه » إذا نظر أين يطر

سمعت الأبلی يقول : دخل قطبُ الدين الشيرازی والدينران على أفضل الدين الخونجي ببلده ، وقد تزَيَّياً بزى القنوية ، فسأله أحدهما عن مسألة ، فأجابه فتعابا عن الفهم ، وقرب التقرير ، فتعابا ، فقال الخونجي متمثلاً :
عَلَى نَحْتُ الْمَعَانِي مِنْ مَعَادِنِهَا وَمَا عَلَى لِسْكِ أَنْ تَفْهَمَ الْبَقَرُ
فقال له : ضم التاء يامولانا ، فعرّفهما ، فحملهما إلى بيته .

قلت : سمعت الشيخ شمس الدين الأصهباني بخا قنّاه قوصون بمصر يقول :
إن شيخه القطب توفي عام أحد عشر وسبعائة ، وله سبع وسبعون سنة ، وهذا يضعف هذه الحكاية عندي .

سمعت الأبلی يقول : إن الخونجي ولى قضاء مصر بعد عز الدين بن عبد السلام ، فقدم شاهداً كان عز الدين آخره ، فذله في ذلك ، فقال : إن مولانا لم يذكر السبب الذي رفع يده من أجله ، وهو الآن غير متمكن من ذكره .
سمعت الشيخ الأبلی يحدث عن قطب الدين القسطلاني أنه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث : مذهب ابن سبعين ، وتملك الططر للعراق ، واستعمال الحشيشة .

سمعت الأبلی يقول : قال أبو المطرف بن عميرة :

فَضَلَ الْجَمَالَ عَلَى الْكَمَالِ بَوَجهِهِ	فَالْحَقُّ لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ وَسَطُهُ
وَبَطَرَفُهُ سَقَمَ وَسَحَرُ قَدْ أَتَى	مُسْتَظْهَرَاهُمَا عَلَى مَا اسْتَنْبَطُهُ ^(١)
عَجِبَا لَهُ بِرَهَانِهِ بِشَرْوَطِهِ	مَعَهُ فَمَا مَقْصُودُهُ بِالسُّفْسُطِهِ

قال : فأجابه أبو القاسم بن الشاط فقال :

عِلْمُ التَّبَايُنِ فِي النُّفُوسِ وَأَنَّهَا مِنْهَا مَغْلُطَةٌ وَغَيْرُ مَغْلُطَةٍ

(١) مستظهرا : أراد متقويا ، والأصل في هذه المادة ظهارة الثوب لأنها تكون

قوة لبطائنه

فئة رأت وجه الدليل وفرقة أصغت إلى الشبهات فهي مؤرّطه
فأراد جمعهما معا في ملكه هذى بمنتجة وذى بمغلطه^(١)

يعنى قولهم فى التام : هو ما تحمل فيه البرهان الفصل .

وأخبار الألبى وأسمعتى منه تحتل كتابا ، فلنقف على هذا القدر منها .

وأما النادرة فأبو عبد الله بن أحمد بن شاطر الجمحى المراكشى .

صحب أبازيد الهرميرى كثيرا ، وأبا عبد الله بن تيجان ، وأبا العباس بن البناء
وأضرابه من المراكشين ومن جاورهم ، ورزق بصحبة الصالحين حلاوة القبول ،
فلا تكاد تجد من يستثقله ، وربما سئل عن نفسه فيقول : ولى مفسود .

قلت له يوما : كيف أنت ؟ فقال : محبوبوس فى الروح ، وقال : الليل والنهار
حرسيان : أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، وقد أخذنا بمجامع الخلق يجرّانهم إلى
القيامة ، وإن مرّدنا إلى الله تعالى .

وسمعه يقول : المؤذنون يدعون أولياء الله إلى بيته لعبادته ، فلا يصدّهم عن
دعائهم ظلّة ولا شـماء ولا طين ، ويصرفونهم عن الاشتغال بما لم يبين لهم ،
فيخرجونهم ويغلقون الأبواب دونهم .

ووجدته ذات يوم فى المسجد ذاكرا ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال (فهم
فى روضة يُحَبَّرُون) فهممت بالانصراف ، فقال : أين تذهب من روضة من رياض
الجنة يقام بها على رأسك بهذا التاج ؟ وأشار إلى المنار مملوا الله أكبر .

مرّ ابن شاطر يوما على أبى العباس أحمد بن شعيب الكاتب وهو جالس فى
جامع الجزيرة ، طهره الله تعالى ! وقد ذهبت به الكفرة ، فصاح به ، فلما رفع

(١) مغلطة : استعمل فيها المغالطة ، والمغالطة ، قياس فاسد إما من جهة صورته
بألا يكون على صورة منتجة كأن يخل شرط من شروط الكمية (الكلية ، أو
الجزئية) أو شرط من شروط الكيفية (السلب أو الإيجاب) وإما فاسد من جهة
للادة بأن يكون المطلوب واحد مقدماته شيئا واحدا ، ويسمى الأخير « مصادرة »

رأسه إليه قال له : انظر إلى مَرْكَب عزرائيل ، وأشار إلى نعش هنالك قد رفع شراعه ونودى عليه الطلوع يا غزى .

وأكل يوما مع أبي القاسم عبد الله بن رضوان السكاتب جلبلانا ، فقال له أبو القاسم : إن في هذ الجلبلان لضربا من طعم اللوز ، فقال ابن شاطر : وهل الجلبلان إلا لوزة دقة .

وسئل عن العلة في نَصَارَةِ الْحَدَّائَةِ ، فقال : قُرْبُ عَهْدِهَا بِاللَّهِ ، فقليل له : فمم تغير الشيوخ ؟ فقالى : من بُعِدَ الْعَهْدُ مِنَ اللَّهِ ، وطول الصحبة مع الشياطين ، فقليل له : فبَخَرُ أَفْوَاهِهِمْ ؟ فقال : من كثرة ما تَفَلَّ الشياطين فيها .

وكان يسمى الصغير : فأر المصطكى ، قال لى ابن شاطر : لقيت عمى ميمونا المعروف بدير لقرب موته وقد أصفر وجهه وتغيرت حالته ، فقلت له : ما باللك ؟ وكان قد خدم الصالحين ورزق بذلك القبول ، فقال : انسَدَّتِ الزر بطانةُ فُطْلَعِ ، يعنى العذرة ، يشير إلى الاحتقان للطبيعة .

أنشدنى ابن شاطر قال : أنشدنى أبو العباس بن البناء لنفسه :
* قصدت إلى الْوَجَازَةِ فى كلامى * (١) الأبيات .

وأخبار ابن شاطر عندى تحتل كراسة ، فلنقتنع منها بهذا القدر .

فصل - ولما دخلت تلهسان على بنى عبد الواد تهيأ لى السفر منها ، فرحلت إلى بجاية ، فقليت بها أعلاما دَرَجُوا فَأَمْسَتْ بعدهم خلاء بَلَقَعَا (٢) ، فمنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى ، عرف بابن المسفر ، باحثه واستفدت منه ، وسألنى عن اسم كتاب الجوهري فقلت له : من الناس من يقول الصَّحَّاح بالكسر ومنهم من يفتح ، فقال : إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح ، كما ذكره فى باب صح ، قلت :

(١) الوجازة - بفتح الواو - الاختصار .

(٢) بلقعا - بزنة جعفر - خالية لا أحد فيها .

ويحتمل أن يكون مصدر صح كحنان .

وكتب إلى بعض أصحابه بجواب رسالة صدره بهذين البيتين :

وصلت صحيفتكم فهزت معطائي فكأنما أهدت كؤوس القرقف^(١)

وكأنها ليل الأمان لخائف أو وصل محبوب لصب مدنف^(٢)

ومنهم قاضيها أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أوى يوسف يعقوب الزواوى .

فقيه ابن فقيه ، كان يقول : من عرف ابن الحاجب أقرأ به المدونة قال :
وأنا أقرأ به المدونة .

ومنهم أبو على حسين بن حسين إمام المعقولات بعد ناصر الدين .

ومنهم خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران ، وكان قدورد تلمسان ، وأورد بها
على قول ابن الحاجب فى حد العلم « صفة توجب تميزا لا يَحتمل النقيض » الخاصة
إلا أن يزاد فى الحد « لمن قامت به » لأنها إنما توجب فيه تميزا لا تميزا ،
وهذا حسن .

ومنهم الشيخان أبو عزيز وأبو موسى بن فرحان ، وغيرهم من أهل عصرهم .
ثم رحلت إلى تونس فلقيت بها قاضى الجماعة وقتئذها أبا عبد الله بن
عبد السلام ، فحضرت تدريسه ، وأكثرت مباحثته ، ولما نزلت بظاهر قسطينة تلقاني
رجل من الطلبة ، فسألني عن هذه الآية (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) فإن
ظاهرها أن الجزاء هو الشرط : أى وإن لم تبلغ فما بلغت ، وذلك غير مفيد ،
فقلت : بل هو مفيد ، أى : وإن لم تبلغ فى المستقبل لم ينفكك تبليغك فى الماضى ،
لارتباط أول الرسالة بآخرها ، كالصلاة ونحوها ، بدليل قصة يونس ، فعبر بانتفاء
ماهية التبليغ عن انتفاء المقصود منه ، إذ كان إنما يطلب ولا يعتبر بدونه ، كقوله

(١) القرقف - بفتح القافين بينهما راء ساكنة - الحجر .

(٢) الصب - بفتح الصاد وتشديد الباء - العاشق ، والمدنف : المريض من العشق

عليه الصلاة والسلام « لا صلاة إلا بطهور » ثم اجتمعت بابن عبد السلام بجامع بوقير بتونس ، فسأله عن ذلك ، فلم يزد على أن قال : هذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » ^(١) وقد علمتم ما قال الشيخ تقي الدين فيه . قلت : كلام تقي الدين لا يعطى الجواب عن الآية ، فتأمله .

وقاضى المناكح أبا محمد الأجدى ، وهو حافظ فقهائها في وقته ، والفقهاء أبا عبد الله بن هرون شارح ابن الحاجب في الفقه والأصول ، والخطيب أبا عبد الله ابن عبد الستار ، وحضرت تدريسه بمدرسة المعرض ، والعلامة أبا عبد الله ابن الجياب الكاتب ، والفقهاء أبا عبد الله بن سلمة ، والشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر وارث طريقة الشيخ أبي محمد المرجاني آخر المذكورين بإفريقية ، ورأيت الشيخ ابن الشيخ المرجاني ، فحدثني أبو موسى بن الإمام أنه أشبه به من الغراب بالغراب ، وسيدى أبا عبد الله الزبيدي المتقدم ذكره ، وأوقفني على خطأ في كتاب الصحاح ، وذلك أنه زعم أن السالم جلدة ما بين العين والأنف ، قال : وفيه يقول ابن عمر في ابنه سالم :

يُدِيرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وَأَدِيرُهُمْ وَجِلْدَةُ بَيْنِ الْأَنْفِ وَالْعَيْنِ سَالِمٌ ^(٢)

قال : وهذا أراد عبد الملك حيث كتب إلى الحجاج « أنت مني كسالم » وهو خطأ فاحش ، وكان يلزمه أن يسميها بالعارة أيضاً ، لقوله عليه السلام « عمارة جلدة

(١) مما وجه به هذا الحديث أن لكل من الشرط والجزاء متعلقا محذوفا ، وأن متعلق أحدهما يخالف متعلق الآخر ، وأن اختلاف التعلقين هو الذي يصحح جعل أحدهما سببا والآخر مسببا ، وكأنه قيل : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله عملاونية فهجرته إلى الله ورسوله ثوابا وأجرا .

(٢) يدبرونني : أراد أنهم يحاولون أن يلفقوه عن ابنه سالم ويحولوا قلبه عن محبته ، في حين أن سالماني بمنزلة الجلدة التي بين العين والأنف ، وهذه - على ما يقال - من أدق أجزاء البدن حساسية .

ما بين عيني وأنتي » وإنما يُراد بمثل هذا القرب والتحمّد

ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء يطول ذكركم ، ثم قفّلت إلى المغرب يُسائرني رجل من أهل قسطينة يعرف بمقصود الحلبي ، فما رأيت رجلاً أكثر أخباراً ولا أظرف نوادر منه ، فما حفظته من حديثه أن رجلاً من الأدباء مرّ بـرجل من الغرباء ، وقد قام بين ستة أطفال ، جعل ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن شماله ، وأخذ ينشد :

ما كنت أحسب أن أبقى كذا أبداً أعيش والدرّ في أطرافه حتف
ساس بستة أطفال توسطهم شخصي كأحرف ساس وسطها ألف
قال : فتقدّمت إليه وقلت : فأين تعريقة السين ، فقال : طالب ورب الكعبة ،
ثم قال للآخر من جهة يمينه : قم ، فقام يجرّ رجله كأنه مبطل ، فقال : هذا تمام
تعريقة السين .

ثم رحلت من تلمسان إلى المغرب ، فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج
أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم البرناسي ، والشيخ الفقيه أبا محمد
عبد المؤمن الجاناتي ، والشيخ الفقيه الصالح أبا زرهون عبد العزيز بن محمد القيرواني ،
والفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله الياصوني ، وكان حافظ وقته ، والفقيه
أبا عبد الله بن عبد الكريم ، وشيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي ،
والأستاذ أبا العباس المكفاسي ، وكنت لقيت الأستاذ أبا العباس بن حزب الله ،
والأستاذ أبا عبد الله القصّار بتلمسان ، ولقيت غير هؤلاء ممن يكثر عددهم ،
وكنت قد لقيت بتازي الفقيه أبا عبد الله بن عطية ، والأستاذ أبا عبد الله المجاصي ،
والشيخ أبا الحسين الجيار ، وغيرهم .

ثم بلغت بالرحلة إلى أغمت ، ثم وصلت إلى سبتة ، فاستوعبت بلاد المغرب
ولقيت بكل بلد من لا بدّ من لقائه من علمائه وصلحائه ، ثم قفّلت إلى تلمسان
فأقمت بها ما شاء الله تعالى ، ثم أعملت الرحلة إلى الحجاز ، فلقيت بمصر الأستاذ

أثير الدين أبا حيان الغرناطى^(١) ، فرويت عنه ، واستفدت منه ، وشمس الدين الأصبهان الآخر ، وشمس الدين بن عدلان ، وقرأ على بعض شروحه لكتب المزنى ، وناولنى إياه ، وشمس الدين بن اللبان آخر المذكورين بها ، والشيخ الصالح أبا محمد المنوفى فقيه المالكية بها ، وتاج الدين التبريزى الأصم ، وغيرهم ممن يطول ذكرهم ثم حججت فلقيت بمكة إمام الوقت أبا عبد الله بن عبد الرحمن التوزرى المعروف بخليل ، وسألته يوم النحر حين وقف بالمسعر الحرام عن بطن مُحَسَّرٍ لأحرك فيه على الجبل ، فقال لى : نملأ الناس على ترك هذه السنة ، حتى نسى بتركها محلها ، والأقرب أنه هذا ، وأشار إلى ما يلى الجابية التى على يسار المار من المسعر إلى منى من الطريق من أول ما يحاذيها إلى أن يأخذ صاعدا إلى منى ، وما رأيت أعلم بالمناسك منه ، والإمام أبا العباس بن رضى الدين الشافعى ، وغير واحد من الزائرين والمجاورين وأهل البلد

وبالمدينة أعجوبة الدنيا أبا محمد عبد الوهاب الجبرتى وغيره

ثم أخذت على الشام ، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية صاحب الفقيه بن تيمية ، وصدر الدين الغمارى المالكى ، وأبا القاسم بن محمد اليمانى الشافعى ، وغيرهم ، وبيت المقدس الأستاذ أبا عبد الله بن مثبت ، والقاضى شمس الدين بن سالم ، والفقيه المذكور أبا عبد الله بن عثمان ، وغيرهم

ثم رجعت إلى المغرب ، فدخلت سجلماسة ودرعة ، ثم قطعت إلى الأندلس ، فدخلت الجبل وأصطبونة ومر بلة ومالقة وبلش والحامة ، وانتهت بى الرحلة إلى غرناطة ، وفى علم الله تعالى ما لا أعلم ، وهو المسئول أن يحملنا على الصراط الأقوم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، انتهى كلام جدى رحمه الله تعالى فى الجزء الذى ألقه فى مشيخته ، وقد خلاصه لسان الدين فى الإحاطة .

(١) هو أبو حيان النحوى ، وتقدمت ترجمته ترجمة مستفيضة فى هذا الكتاب

ولنذكر هنا زيادات لا بأس بها ، فنقول : ولما أُم ولي الدين بن خلدون بذكر مولاي الجد في تاريخه الكبير عند تعريفه بنفسه ، وصّفه بأنه كبير علماء المغرب ونص محل الحاجة من تاريخه : لما رحلت من تونس منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين أقمنا في البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ، ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت واقتعاد كرسى الملك دون أهله بنى قلاوون ، وكنا على ترقب ذلك لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك وتمهيد له ، وأقيمت بإسكندرية شهراً تهيتها أسباب الحج ، ولم يقدر عامئذ ، فانتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة ، فرأيت حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج النذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين في أوجيه ، وتزهو الخوانق والمدارس بأفائه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، وقد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل ^(١) سيجه ، ويحيي إليهم الثمرات والخيرات تَبَجُّه ، ومررت في سكك المدينة تَقَصُّ بزحام المارة وأسوافها تَزْخَرُ بالنعم ^(٢) ، ومازلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه في العمران ، واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجتهم وتاجرهم بالحديث عنه ، سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرئ فقلت له : كيف هي القاهرة ؟ فقال : مَنْ لم يرها لم يعرف عز الإسلام ، وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك ، فقال : كأنما انطلق أهله من الحساب ، يشير إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب ، وحضرت صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبا القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عثمان منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك

(١) النهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثاني ، وكلاهما بفتح أوله وثانيه

(٢) تزخر بالنعم : يريد أنها مملوءة بالنعم ، ووقع في ب « تزخر بالنعم » .

مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة خمس وخمسين ، وسأله عن القاهرة فقال : أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : إن الذي يتخيله الإنسان فإن ما يراه دون الصورة التي تخيلها لانساع الخيال على كل محسوس إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها ، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك انتهى كلام ابن خلدون ، ولا يخلو عن فائدة زائدة .

ولا بأس أن نورد من فوائد مولاي الجند ما حضرني الآن : فمن ذلك ما حكاه عن عبد الرزاق عن ابن قطرال قال : سمع يهودى بالحديث المأثور « نعم الإدام الخلل » فأنكر ذلك ، حتى كاد يصرح بالتدح ، فبلغ ذلك بعض العلماء ، فأشار على الملك أن يقطع عن اليهود الخلل وأسبابه سنة ، قال : فامتت حتى ظهر فيهم الجذام .

ومنها أنه قال : أنشدني الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد قال : أنشدني الشيخ التقي ابن دقيق العبد لنفسه في معنى لطيف حجازي :

إذا كنتُ في نجدٍ وطيب نعيمه تذكرتُ أهلي باللوى فمحرر
وإن كنت فيهم زدت شوقاً ولوعة إلى ساكني نجد وعيل تصبري^(١)
فقد طال ما بين الفريقين موقفي فمن لي بنجد بين أهلي ومعشري
ومنها ما حكاه عن عبد الله بن عبد الحق عن ابن قطرال قال : كنت بالمدينة على ساكنها الصلاة والسلام إذ أقبل رافضى بفحمة في يده ، فكتب بها على جدار هناك :

من كان يعلم أن الله خالقُه فلا يجب أبا بكر ولا عمرا^(٢)
وانصرف ، فألقى على من الفطنة وحسن البديهة ما لم أعهد مثله من نفسي قبل ،

(١) عيل : ضعف أو نقد ، وتصبري : تكلفى الصبر .

(٢) هذا كلام الرافضة ، ديدنهم سب الشيخين ، رضى الله تعالى عنهما !

فجعلت مكان يحب « يسب » ورجعت إلى مجلسي ، فجاء فوجده كما أصلحته ،
فجعل يلتفت يمينا وشمالا ، كأنه يطلب من صنع ذلك ، ولم يهتمني ، فلما أعياه
الأمر انصرف .

ومنها أنه قال : حدثت أن الزاهد أبا عمرة بن غالب المرسى نزيل تلمسان ،
وقد لقيت غير واحد من أصحابه ، سأله بعض أن يشهد عقدا بنته ، فتعذر عليه ^(١) ،
فلم يزل به حق أجاب بعد جهد ، فحضر العقد ، وطعم الوليمة ، ثم لما حضرت ليلة
الزفاف استحضره في ركوبها إلى دار زوجها على عادة أهل تلمسان ، فأجابه مسرعا :
فقل له : أين هذا التيسير من ذلك التعسير ؟ فقال : من أكل طعام الناس مشى في
خدمتهم ، أو كما قال .

ومنها أنه قال : حدثت أن الفقيه أبا عبد الله بن العواد العدل بتونس التقى
يوما مع القاضي أبي علي بن قداح ، وكان ابن العواد شيخا ، فقال له أبو علي :
كبرت يا أبا عبد الله فصرت تمشي كل شهر بدينار ، يُورَى بكثرة الفائدة في مشيه
إلى الشهادة ، فقال له : كنت إذ كنت في سنك أخرج رزقي من الحجر ، يعرض
لابن قداح بأنه جَيَّار ، وكذلك كان هو وأبوه ، رحمهم الله تعالى جميعا ! وهذا
من مزاج الأشراف ، كما جرى بين معاوية والأحنف ، انظر صدر أدب الكتاب

ومنها أنه قال : قال لي الحاج أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الواحد
الرباطي : كنا عند الشيخ تقي الدين بن دقيق العبد ، ففقد أحدنا نعليه : فقال
الشيخ : كنا عند العلم التبريزي فدخل عليه رجل يدعى بشيرا فسلمه ثم خرج
فلم يجد نعليه ، فرجع إلى العلم وأنشده :

دخلت إليك يا أملي بشيرا فلما أن خرجت خرجت بشرا

(١) تعذر عليه : يريد أنه التمس له الأعذار وتكلفها .

أعدىائى التى سَقَطَتْ من اسمى فىائى فى الحساب تعد عسرا
وقال رحمه الله تعالى : لما سعى أولاد الشيخ أبى شعيب بالقاضى أبى الحجاج
الطرطوشى إلى السلطان وأمر بإشخاصه وكثر إرجاف المتشيعين فيهم من بعده
وخرج الأمر على خلاف ما أملوا منه قال فى ذلك :

حمدت الله فى قوم أثاروا شرورا فاستحالت لى سرورا

وقالوا النار قد شبت فلما دنوت لها وجدت النار نورا

ومنها : أنه حكى أن الشيخ أبى القاسم بن محمد اليمنى مدرس دمشق ومفتيها
حكى له بدمشق أنه قال له شيخ صالح برباط الخليل عليه السلام : نزل بى مغربى
فرض حتى طال على أمره ، فدعوت الله أن يفرج عنى وعنه بموت أوصحة ،
فأريت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال : أطعمه الكسكسون ، قال : يقوله
هكذا بالنون ، فصنعت له ، فكأنما جعلت له فيه الشفاء ، وكان أبى القاسم يقول
فيه كذلك ، ويخالف الناس فى حذف النون من هذا الاسم ، ويقول : لا أعدل
عن لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : قلت : ووجه هذا من الطب أن
هذا الطعام مما يعتاده المغاربة ، ويشتهونه ، على كثرة استعمالهم له ، فربما نبه منه
شهوة أوردته إلى عادة^(١) .

وقال الجدر رحمه الله تعالى : رأيت بجامع الفسْطَاط من مصر فقيرا عليه قميص
إلى جانبه دفاة قائمة وبين يديه قلنسوة ، فذكر لى هنالك أنهما محشوتان
بالبرادة ، وأن زنة الدفاة أربعمائة رطل مصرية ، وهى ثلثمائة وخمسون مغربية ،
وزنة القلنسوة مائتا رطل مصرية ، وهى مائة وخمسة وسبعون مغربية ، فعمدت
إلى الدفاة فأخذتها من طوقها أنا ورجل آخر ، فأملناها بالجهد ، ثم أقمناها ،

(١) وجهه أن « الكسكسون » هو طعام المغاربة الذى لا يصبرون عنه ، فإذا
طعمه وقد غاب عنه طويلا أثار فى نفسه شهوة كانت قد ماتت ، فبعثت فيه قوة .

ولم نصل بها إلى الأرض ، وعدت إلى القلنسوة فأخذتها من إصبع كان في رأسها فلم أطق حملها ، فتركها ، وكان يوم الجمعة ، فلما قضيت الصلاة مررنا في جملة من أصحابنا بالفقير ، فوجدناه لابسا تلك الدفاسة في عنقه ، واضعا تلك القلنسوة على رأسه ، فقام إلينا وإلى غيرنا ، ومشى بهما كما يمشى أحدنا بثيابه ، فجعلنا نتعجب ، ويشهد بعضنا بعضا على ما رأى من ذلك ، ولم يكن بالعظيم الخلقة .

وقال رحمه الله تعالى : كان الأستاذ ابن حكم قد بعث إلى بمحرر لأبعث به إلى من يعرضه للبيع ، ثم بلغه أن أحاملا من المتاع التونسي قد وصلت إلى البلد ، فكتب إلى : الحمد لله الذي أمر عند كل مسجد بأخذ الزينة ، وصلواته الطيبة ، وبركاته الصيبة ، على من ختم به شريعته وأكمل دينه ، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه والذين يبعونه ، وبعد فما تعلق به الإعلام ، أن تعوضوا المحرر بإحرام ، لا يخفى على مثلكم جنسه ومجانسه ، ومن كلام العرب : كل ثوب ولاسه ، وإن أرَبِي^(١) على ثمن الأول ثمن الثاني ، فلست عن الزيادة والحمد لله بالواني^(٢) .

ومن فوائده أنه قال : كتب في صدر رسالة صاحبنا الشيخ الناسك أبي على منصور ابن شيخ عصره وفريد دهره ناصر الدين المشدالي الشيخ الخاشع صاحبنا أبو الحسن علي بن موسى البحيري يذكره شوقه إلى لقائه ، لما كان يبلغه عنه ، حتى قدر باجتماعهما بوهْران أيام قضاء البحيري بها :

أوحشتني ولو أطلعت على الذي لك في فؤادي لم تكن لي موحشاً
يا محرراً بالنار قلب محبّه أنسيت أنك مستكن في الحشا

وقال رحمه الله تعالى : أنشدني محمد البلغيتي قال : أنشدني ابن رشيد قال : أنشدني أبو حفص ابن الخيمى المصرى لنفسه :

(١) أرَبِي : زاد .

(٢) الوانى : الفانز العزم ، يريد أنه يبادر إلى دفع الزيادة بينهما

لورأى وَجْهَ حَبِيبِي عَاذِلِي لَتِفَاصِلُنَا عَلَى وَجْهِ جَمِيلِ

وقال رحمه الله تعالى : قال لى محمد بن داود بن المكتب قال لى بلال الحبشى خادم الشيخ أبى مدين : كان الشيخ كثيراً ما ينشد هذا البيت :

اللَّهُ قُلْ وَذَرِ الْوَجُودَ وَمَا حَوَى إِنْ كُنْتَ مَرْتَاداً بِصَدَقِ مَرَادِ

وقال رحمه الله تعالى : دخلت على عبد الرحمن بن عفان الجزولى ، وهو يوجد بنفسه ، وكنت قد رأيته قبل ذلك مُعَاًفً ، فسألته عن السبب ، فأخبرنى أنه خرج إلى لقاء السلطان ، فسقط عن دابته ، فتداعت أركانه ، فقلت : ما حملك أن تتكلف مثل هذا فى ارتفاع سنك ؟ فقال : حب الرئاسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين .

وقال رحمه الله تعالى : قال لى محمد بن مرزوق : قال لى بعض أصحاب أبى إسحاق الطيار دفين عباد تلمسان : إن أبا إسحاق أقام خمساً وعشرين سنة لا ينام إلا قاعداً ، فسألت ابن مرزوق : لم لقب بالطيار ؟ فحدثنى عن بعض أصحابه أنه نَشَرَ ذات يوم ثوبه فى الشمس على بعض السطوح ، ثم قعد هنالك ، فمر به رجل فقال له : طر ، فقال : أعن أمرك ؟ قال : نعم ، فطار حتى وقع على الأرض وما به من باس ، فقال الجدرحه الله تعالى بعد هذا ما نصه : قلت : إذا ما صار الحق للعبد سمعاً وبصراً فسمع به وأبصر أصاخ إلى الأحوال ، واجتلى المعانى ، فبرى من غير مبصر ، ويسمع من غير ناطق ، كما قال الشيخ أبو عبد الله الشوذى الحلو دفين تلمسان :

إِذَا نَطَقَ الْوَجُودُ أَصَاخَ قَوْمِ بَآذَانٍ إِلَى نَطَقِ الْوَجُودِ^(١)

وَذَاكَ النُّطْقَ لَيْسَ بِهِ انْعِجَامٌ وَلَكِنْ دَقٌّ مِنْ فِهْمِ الْبَلِيدِ^(٢)

(١) أصاخ قوم : أنصتوا

(٢) انعجام : أراد به الإبهام والخفاء ، ودق : أراد به خفى

فَكَانَ فُطْنًا تُنَادَى مِنْ قَرِيبٍ وَلَا تَكُ مِنْ يَنَادِي مَنْ بَعِيدٍ
وقال رحمه الله تعالى : حدثت بمصر أن الشيخ سيدي عمر بن الفارض ولع بجمل ،
فكان يستأجره من صاحبه ليتأنس به ، فقيل له : لو اشتريته ، فقال : المحبوب
لَا يُمَلِّكَ ، فسألت : أي حال كان هذا منه ؟ فقيل لي : في ابتداء أمره ، فقلت :
وَجَدَ اعْتِبَارَ (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ) فوقفته به رؤية المعنى فيه عليه ، فأحبه
مدلا ، وطلبه مجلا .

وقال رضى الله عنه : حفظت من خط أبي زيد والد صاحبنا أبي الحسن :
قيل للغزالي : ما تقول في الخلاج ؟ فقال : وما عسى أن أقول فيمن شرب بكأس
الصفاء ، على بساط الوفاء ، فسكر وعَرَبَدَ ، فاستوجب من الله الحد ، فكان حده
شهادته ، ثم قال بعد هذا : قلت عَرَبَدَ الخلاج في الحضرة لما نسي بسكره أوامره ،
فانتصر الظاهر لنفسه لصحة تعلق اسمه ، وسدل الباطن على عذره حجاب الغيرة
من إفشاء سره :

عَلَى سِمَةِ الْأَسْمَاءِ تَجْرِي أُمُورُهُمْ وَحِكْمَةُ وَصَفِ الذَّاتِ لِلْحَكْمِ أُجْرَتِ^(١)
وقال رحمه الله تعالى : سمعت شيخنا بيت المقدس يقول : تجلى الله على المسجد
الأقصى بالجمال ، وعلى المسجد الحرام بالجلال ، وعلى مسجد الرسول صلى الله
عليه وسلم بالكمال ، قلت : فذلك يوقف النواظر ، وذاك يملأ الخواطر ، وهذا
يفتح البصائر^(٢) .

وقال رحمه الله تعالى : أخبرني أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عِنان فارس
نصره الله أن جده أمير المسلمين أبا سعيد سأل كاتبه عبد المهيمن الحضرمي عن
تهادى أهل الحب التفاح دون الخوخ ، وكلاهما حسن المنظر ، طيب الخبر ، شديد
شبهه بأخيه ، شديد تشبيه الوجنت به لمتوخيّه ، فقال : من عند مولانا ، فقال :

(١) السمة - بكسر السين - العلامة ، وأراد بسملة الأسماء معانيها التي تدل هي عليها

(٢) البصائر : جمع بصيرة

أرى ذلك لاشتغال التفاح على الحب الذى يذكر بالحب والهوى ، والخلوخ على النوى الذى يذكر اسمه صُفْرَةَ الْجَوَى .

وقال رحمه الله تعالى : قال لى أبو حيان بالقاهرة : قال لى عمر بن الخيمى :
تجاذبت أنا ونجم الدين بن إسرائيل هذ البيت :

يا بارقا بأعلى الرقتين بدا لقد حكيت ، ولكن فأتك الشنب^(١)

وتحاكنا إلى ابن الفارض ، فأشار بأن ننظم قصيدة نضمها البيت ، فنظم ونظمت :
يا مَطْلَبًا ليس لى فى غيره أَرَبُ إليك آل التقضى وانتهى الطلب^(٢)
فقضى به لى .

وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن أبا يزيد الهزميرى بعث إلى أبى عمران الشولى ، وكان كثير الصلاة ، أنه لم يبق بينك وبين الله حجاب إلا الركيعات ، فرجع إليه ، ما معناه : إن الاتصال كان منها ، فلا كان الانفصال عنها ، يعنى من رزق من باب فيلزمه .

وقال رحمه الله تعالى : كنت بجامع تلمسان ، وإلى جانبى رجل ينتمى إلى طريقة العرفان ، فجعل سائل يشكو الجوع والألم ، فتصدق ذلك الرجل عليه بدرهم ، وقال : إياك أن تشكو الرحمن إلى مَنْ لا يرحم ، فقلت : أمره أن يسأل عزيزاً بمولاه ، ونهاه أن يشكو ذليلاً إلى سواه .

وكان الفارابى كثيراً ما يقول : يا رب إليك المشتكى ، حتى إنه يوجد أثناء كلامه فى غير موضعه ، فيعجب منه من لا علم عنده بمنزعه .

وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن الفخر مر ببعض شيوخ الصوفية فقيل للشيخ : هذا يقيم على الصانع ألف دليل ، فلو قمت إليه ، فقال : وعزته لو عرفه

(١) الشنب — بفتح الشين والنون جميعا — رقة وبرد وعذوبة فى الأسنان ، ومثل هذا قولهم « ليس التكحل فى العينين كالسكحل »
(٢) الأرب : الغرض ، وزنا ومعنى

ما استدلل عليه ، فبلغ ذلك الإمام ، فقال : نحن نعلم من وراء الحجاب ، وهم ينظرون من غير حجاب .

وقال رحمه الله تعالى : حدثت أن رجلاً كان يجلس إلى أبي الحسن الحراني ، وكان يشرب الخمر ، فسكر ذات يوم ، فسقط على زجاجة ، فشُجَّ وجهه ، فاختفى إلى أن برىء ، ثم عاد إلى مجالسة الشيخ ، فلما رآه أنشد :

أجريح كاسات أرقّت نَجِيعَهَا طَلَبُ التَّرَاتِ يَعِزُّ مِنْهُ خِلَاصُ^(١)
لا تَسْفِكَنَّ دَمَ الزَّجَاجَةِ بَعْدَهَا إِنْ الْجُرُوحُ كَمَا عَلِمْتَ قِصَاصُ

فقههما الشاب ، فتاب .

وقال رحمه الله تعالى : كثيراً ما كنت أسمع أبا محمد المجاصي ينشد هذا البيت :
هُمُ الرِّجَالُ وَعَيْبُ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَمْ يَتَصَفَّ بِمَعَانِي وَصَفِّهِمْ رَجُلُ
ثم يبكي ، وكان أهل البلد يسمونه « البكاء » وبعضهم « الخاشع » .

ووجدت بخط مولاي الجد على ظهر كتابه « القواعد » مانصه : الحمد لله تعالى جده ، قرأت صدر كتاب زهرة البساتين للقاسم ابن الطيلسان ، ثم سمعت ثلاثة أحاديث من أوله ، بل حديثاً وأثراً وإنشاداً مِنْ فِي الشَّيْخِ الْخَطِيبِ الصَّالِحِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيَّاشِ الْأَنْصَارِيِّ ، ثُمَّ تَنَاوَلْتُ مِنْهُ جَمِيعَ الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ ، وَأَجَازَنِي بِحَقِّ سَمَاعِهِ لِبَعْضِهِ ، وَتَنَاوَلَهُ لَجَمِيعِهِ مِنْ جَدِّهِ مُحَمَّدِ الْمَذْكُورِ ، بِحَقِّ أَخْذِهِ لَهُ عَنْ مَوْالِيهِ صَهْرِهِ الْقَاسِمِ الْمَذْكُورِ ، وَذَلِكَ بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ مِنْ مَالِقَةِ الْحَرُوسَةِ ، قَالَ ذَلِكَ وَكَتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الْمَقْرِي فِي مِثْمَ عَشْرِينَ لَشَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ مِنْ عَامِ سَبْعَةِ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .

وبخطه رحمه الله تعالى حيث ذكر مانصه : الحمد لله ، مخالفة القواعد الشرعية ،

(١) أرقّت : من قولهم « أراق فلان الماء » إذا صبه وأسأله ، والنجيع : أضله الدم ، شبه به الخمر في اللون ، والترات : جمع ترة - بكسر التاء فيهما — وهي الثأر يقول : إنك أرقّت دم الزجاجة فأرادت أن تأخذ ثأرها منك فشجبت وجهك

للعوائد العرفية ، كإنكار الحشر وفتنة القبر ، ونحوهما من الأمر بالمعروف ، للركون إلى المشهور المألوف ، أو كالتقليد مع الدليل ، الذى ذمه الشرع فى محكم التنزيل . وبخطه أيضاً : الحمد لله ، قد تتابع صفات العام حتى يصير كأنه أشير به إلى شخص بعينه فيختص^(١) ، ومن ثم قيل فى قول الله عز وجل (ولا تطع كل حلاف مهين) : إنه الأخنس بن شريق ، وفى قوله تعالى (ويل لكل همزة لمزة) : إنه أمية بن خلف ، وفى قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيداً) : إنه الوليد بن المغيرة ، انتهى .

ووجد بجه أيضاً رحمه الله تعالى ما نصه : الحمد لله ، قال لى المتوكل على الله أبو عنان أمير المؤمنين فارس بن على : كان جدنا أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق يقول : الولايات ست : ثلاث وقفها على اختيارى : الحجابة ، والقصة ، والشرطة ، وثلاث موكولة إليكم : القضاء ، والإمامة ، والحسبة . ثم قال رحمه الله تعالى : وهذا تدبير حسن .

ومن فوائده : حدثني العدل أبو عبد الله محمد بن أبي زرع عن القاضي أبي عبد الله بن أبي الصبر أنه أمر الوالى بفاس أن يبنى فندق الشماعين ، وكان قد خرب ، فتوقف حتى يأذن السلطان ، فقال له : أسلفنى ما أبنيه به ، فإن أجاز ذلك السلطان ، وإلرددته عليك ، ففعل ، فلما طولب ذكر ما قال له القاضي ، فغضب السلطان ، وبعث فيه ، فجعل المبعوثون يأتونه واحداً بعد واحد وهو متمهل فى وضوئه وإصلاح بزته ومركوبه ، ثم جعل يمشى الهوئى ، فلقية ابنه ، فقال له : أسرع فقدأكثر السلطان من التوجيه إليك ، وهو واجدٌ عليك ، فقال له : مسكين أبو يحيى ، خاف ، وثبت على حاله ، فلما كان فى الطريق لقي بعض

(١) يريد أنه فى أصل وضعه يصح أن يراد منه الكثير ، ولكن الصفة تخصه فكما كثرت الصفات وتتابع عليه خصصته كل واحدة منها نوع تخصيص حتى يصير بعد مجموعها كالاسم العلم الذى وضع للدلالة على واحد بعينه

العلماء ، فتعرض إليه ، فقال : قل بخني لطفك ، بلطيف صنعك ، بمجمل سترك ، دخلت في كنفك ، تشفعت بنبيك ، فحفظه ، ثم طلبه فلم يجده ، فجعل يقول ذلك ، فلما رآه السلطان سكن ما به ، ثم سأله عن ذلك برفق ، فقال له القاضي : كرهت الخراب بقرب القرويين وبالشماعين الذي هو عين فاس ، فسألت الوالى ذلك على أنى أغرم إن لم يُجْز ، وقلت له : المرجو من السلطان أن يجعله حبساً ، فقال : قد فعلت ، ثم بعث إلى الشهود وحبسه على الجامع ، وشكر للقاضي صنيعه ، وصرفه مغبوطاً .

وهذا السلطان هو أبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، وتوفى محاصراً لتلمسان في ذى العقدة من عام ستة وسبعائة ، وكان ابتداء حصاره إياها سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وكان جملة الحصار فيما حدثت ألف شهر ، انتهى .

ومن فوائد مولاي الجد رحمه الله تعالى ما حكاه تلميذه أبو إسحاق الشاطبي في كتاب « الإنشادات والإفادات » ونصه : إفادة ، حضرت يوماً مجلساً في المسجد الجامع بقرنطة مقدّم الأستاذ القاضي أبي عبد الله المقرئ ، في أواخر ربيع الأول عام سبعة وخمسين وسبعائة ، وقد جمع ذلك المجلس القاضي أباعبد الله والقاضي أبا القاسم الشريف شيخنا والأستاذ أباسعيد بن لب والأستاذ أبا عبد الله البُلَنسِي وذو الوزارتين أبا عبد الله بن الخطيب وجماعة من الطلبة ، فكان من جملة ماجرى أن قال القاضي أبو عبد الله المقرئ : سئلت عن مسألة في الأصول لم أجد لأحد فيها نصاً ، وهى تخصيص العام المؤكد بمنفصل ، فأجبت بالجواز محتجاً بقول الله عز وجل (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) فهذا عام مؤكد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم يحل الله من الفواحش إلا مسألة الناس » انتهى .

ومن الكتاب المذكور ما نصه : إفادة ، حدثني الشيخ الفقيه القاضي الجليل
 الشهير الخطير أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقرئ رحمه الله تعالى ، وأملاه
 علينا ، عن العالم الكبير أبي حيان بن يوسف بن حيان أنه قال : ورد كتاب من
 الأستاذ أبي عبد الله بن مثبت الغرناطي إلى صاحب له يسمى حمزة ، وفيه :
 سئل الشيخ ، قال أبو حيان يعني وجدت على ظهر نسخة من المفصل بخط عتيق
 سئل ابن الأخضر بمحضر ابن الأبرش : علام انتصب قوله :
 * مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قُلْتَ سَوْفَ أَنَا لَهُ *

فقال :

* ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى *

فقال : سألتك عن إعراب كلمة ، فأجبتني بشرطيت ، فقال ابن الأبرش :
 قد أجابك لو كنت تفهم ، قال أبو حيان : فوقع عليه للحين أن هذا الشطر
 من قول النابغة :

أَتَانِي أَيْتَ الْعَرَبِ أَنْكَ لِمَتْنِي وَتِلْكَ الَّتِي تَصْطُكُ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
 مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قُلْتَ سَوْفَ أَنَا لَهُ وَذَلِكَ مِنْ تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
 يروى « مقالة » بالرفع ، على أنه بدل من « أنك لمتني » الفاعل ، وبالفتح على
 ذلك إلا أنه بناه لما أضافه إلى مبنى ^(١) .

ومنه : إفادة - حدثني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقرئ رحمه الله تعالى
 قال : سئل أبو العباس بن البناء رحمه الله تعالى ، وكان رجلاً صالحاً ، في قوله تعالى

(١) من قواعد النحاة أن المضاف قد يكتسب من المضاف إليه البناء ، فيبنى وإن
 كان أصله معرباً ، لكون المضاف إليه مبنيًا ، ونظير ذلك ما قالوه في قوله تعالى :
 (إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) وقوله سبحانه : (لقد تقطع بينكم) فيمن قرأ
 بفتح « مثل » مع أنه صفة لحق المرفوع ، ومن قرأ بفتح « بينكم » مع أنه فاعل
 تقطع ، قالوا : كل منهما مبنى على الفتح لكونه مضافاً إلى مبنى في محل رفع .

(قالوا إنَّ هذان لساحران) لم لم تعمل « إنَّ » في « هذا » فقال : لَمَّا لم يؤثر القول في القول لم يؤثر العامل في المعمول ، فقال له : يا سيدي هذا لا ينهض جواباً ، فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل إنَّ ، فقال له : إن هذا الجواب نواة لا تحتمل أن تحكَّ بين الأكف ، انتهى .

ومنه : إفادة - قال لنا الشيخ الأستاذ القاضي أبو عبد الله المقرئ رحمه الله تعالى : إن أهل المنطق وغيره يزعمون أن الأسماء المعدولة لا تكاد توجد في كلام العرب ، وهي موجودة في القرآن ، وذلك قوله (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) فإن زعم زاعم أن ذلك على حذف المبتدأ ، ودخلت « لا » على الجملة ، وتقديره لا هي فارض ولا هي بكر ، قيل له : إن كان يسوغ لك ذلك في هذا الموضع فلا يسوغ في قوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) فصح أن الاسم المعدول موجود فصيح في كلام العرب .

ومنه : إفادة - حدثنا الأستاذ أبو عبد الله المقرئ ، قال : سئل عن قوله تعالى (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) لم عاد ضمير مَنْ يعقل إلى مالا يعقل ؟ فقال بعضهم : لما اشترك مع من يعقل في السباحة وهي العوم عومل لذلك معاملته ، قال : وهذا لا ينهض جواباً ، فإن السباحة لما لا يعقل كالحوت ، وإنما لمن يعقل العوم ، لا السباحة ، وأيضاً فالخاقه بما العوم له لازم كالحوت أولى من إلحاقه بما هو غير لازم له ، قال : وأجاب الأستاذ أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي بأن الشيء المعظم عند العرب تعامله معاملةً العاقل ، وإن لم يكن عاقلاً ، لعظمه عندهم ، وأجبت أنا بأنه لما عوملت في غير هذا الموضع معاملةً مَنْ يعقل في نحو قوله تعالى (والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) لصدور أفعال العقلاء عنها أجرى عليها هنا ذلك الحكم للأنس به في موضعه .

ومنه : إفادة - لقمني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقرئ رحمه الله تعالى لقمة بيده المباركة ، وقال : لقمني الشيخ أبو عبد الله المسفر قال : لقمني أبو زكريا

الحياوى قال : لقمنى أبو محمد صالح قال : لقمنى الشيخ أبو مدين قال : لقمنى
 أبو الحسن بن حرزهم قال : لقمنى ابن العربي قال : لقمنى الغزالي قال : لقمنى
 أبو المعالي قال : لقمنى أبو طالب المسكي قال : لقمنى أبو محمد الحريري قال : لقمنى
 الجنيد قال : لقمنى السقطي قال : لقمنى معروف الكرخي قال : لقمنى داود الطائي
 قال : لقمنى حبيب العجمي قال : لقمنى الحسن البصري قال : لقمنى علي بن أبي طالب
 رضى الله تعالى عنه قال : لقمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وبهذا
 السند صالحته أيضا رضى الله تعالى عنه ، انتهى

وللمحدثين في هذا السند كلام مشهور ، وانتصر بعضهم للسادة الصوفية رضى
 الله تعالى عنهم ! .

ومنه : إنشادة - أنشدني الشريشي الفقيه أبو عبد الله قل : أنشدني القاضي
 المقرئ قال : أنشدني الرباطي قال : أنشدني ابن دقيق العيد لنفسه من صدر
 رسالة كتب بها لبعض إخوانه بالحجاز :

يهيم قلبي طرباً عندما أستلمح البرق الحجازياً^(١)
 ويستميل الوجد قلبي وقد أصبح لي ثوب الحجازياً^(٢)
 يا هـل أفضى من منى حاجتي فأنحر البدن المهارياً^(٣)
 وأرتوى من زمزم فهى لي الذم ريق المهارياً^(٤)

ومنه : إفادة - حدثنا الأستاذ القاضي أبو عبد الله المقرئ رحمه الله تعالى قل :

(١) الحجازيا ، هنا : المنسوب إلى الحجاز ، وهو صفة البرق .

(٢) الحجازيا ، هنا : كلمتان ، أولاهما «الحجا» بمعنى العقل ، والثانية «زيا»
 وهو خبر أصبح .

(٣) المهاريا ، هنا : صفة للبدن أى النوق ، ومعنى المهارى المنسوبة إلى مهرة .

(٤) المهاريا ، هنا : كلمتان ، أولاهما « المها » جمع مهاة ، وهى فى الأصل
 بقرة الوحش ، ويشبهون بها النساء ، والثانية « ريا » وهو ضد العطش مصدر
 « روى يروى ريا » .

رأيت لبعض مَنْ ألف على كتاب « الكشاف » للزنجشري فائدة لم أرها لغيره في قوله تعالى (والراسخون في العلم) إذ الناس يُختلفون في هذا الموضع اختلافا كثيرا ، فقال قوم : الراسخون في العلم يعلمون تأويله ، والوقوف عند قوله (والراسخون في العلم) وقال قوم : إن الراسخين لا يعلمون تأويله ، وإنما يوقف عند قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) فقال هذا القائل : إن الآية من باب الجمع والتفريق والتقسيم ، من أنواع البيان ، وذلك لأن قوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب) هو جمع ، وقوله (منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات) تفريق ، وقوله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ - إلى قوله تعالى : وابتغاء تأويله) أحد طرفي التقسيم ، وقوله تعالى (والراسخون في العلم) الطرف الثاني ، وتقديره : وأما الراسخون في العلم فيقولون آمَنَّا به ، وجاء قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) اعتراضا بين طرفي التقسيم ، قال : وهذا مثل قوله تعالى (وأنا منا المسلمون - الآية) فقوله (وأنا) جمع ، وقوله (منا المسلمون ومنا القاسطون) تفريق ، وقوله (فمن أسلم) (وأما القاسطون) تقسيم ، وهو من بدیع التفسير ، قلت : ومثله أيضا قوله تعالى (يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه - الآيات) انتهى .

ومنه : إنشادة - أنشدنا الشيخ الفقيه القاضي أبو عبد الله المقرئ في القول بالموجب لبعض العلماء في ودیعة :

إن قال قد ضاعت فصدق أنها	ضاعت، ولكن منه يعني لويحيى
أو قال قد وقعت فصدق أنها	وقعت، ولكن منه أحسن موقع

ومنه : إنشادة أيضا من القول بالموجب لبعض الحنابلة :

يجبون بالمال الذي يجمعونه	حرَّاماً إلى البيت العتيق المحرم
وزعم كل أن تحط ذنوبهم	تحط ولكن فوقهم في جهنم

ومنه : إفادة - كتب لي بخطه شيخنا الفقيه القاضي الجليل أبو عبد الله المقرئ رحمه الله تعالى على ظهر « التسهيل » لابن مالك الذي كتبت بخطي بعدما كتب لي بخطه روايته فيه عن أبي الحسن بن مزاحم عن بدر الدين بن جماعة عن المؤلف ، فكتب بعد ذلك ما نصه : قال محمد بن محمد المقرئ : بدر الدين ابن جماعة المذكور يدعى بقاضي القضاة ، على ما جرت به عوائد أهل المشرق في تسمية مثله ، وأنا أكره هذا الاسم محتجا بقول النبي صلى الله عليه وسلم « إن أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الملوك ، لا ملك إلا الله » انتهى ما انتقيته من كتاب الإنشادات والإفادات للشاطبي فيما يتعلق بـ عبدى رحمه الله تعالى (١) .

ومن فوائد مولاي الجد رحمه الله ، مما لم يذكر فيما سبق ، أنه حكى أن ابن أحموط المولود ، دخل في حلقة أبي عبد الله بن رشيد بجامع القرويين ، وبين رجله قصبة كأنها فرس ، ويده أخرى كأنها رمح ، فاتهره رجل ، فضربه برمحه على رأسه ، وقال له : اسكت ياميت ، فأبهت الناس لكلامه ، فقال له الشيخ : يا فقير أنت في حال ونحن في مقال ، وشأن أرباب الأحوال التسليم لأصحاب المقال فنظر إليه المولود وانصرف ، ثم لم ينشب المنتهر أن توفي بعد ذلك بأيام قلائل .

ومنها : قلت لابن شاطر يوما : كيف حالك ؟ فقال : محبوس في الروح ، وصدق لأن الدنيا سجن المؤمن ، ولا مخلص له من حبسه إلا بمفارقة نفسه

وقال : سألت ابن شاطر عن معنى قول ابن الفارض :

فلم أله باللاهوت عن حكم مظهرى ولم أنس بالناسوت موضع حكمتي

(١) كره كثير من علماء الشافعية أن يتسمى الرجل « أقضى القضاة » ومن علمائهم المبرزين الماوردى وكان يلقب « أقضى القضاة » وهذا يدل على أن المسألة مختلف فيها في المشرق أيضا .

فقال : يقول ما أنا بالحلاج ولا ببلعام ، ثم قال مولاي الجد بعد هذا الكلام ما صورته : قلت : وهذا هو الإنسان على الكمال والتمام ، ولقد سمعته يقول في الحلاج : نصف إنسان ، يشير إلى البيت .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى : سمع ابن شاطر إنساناً يقول : الجنة رخيصة ، فقال : كيف تكون رخيصة والله عز وجل يقول (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) انتهى . ثم قال مولاي الجد بأثر هذا الكلام : قلت : ما الأنفس والأموال في جنب ما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ لا سيما وفوق هذه الحسنى زيادة الإكرام بالنظر والرضا وقال أيضاً : قيل لابن شاطر : صف لنا الدنيا ، فقال : (كسر اب بَقِيعة)^(١) الآيتين ، فبلغ ذلك أبا زيد بن الإمام ، فأنكر عائباً لاستحسان سامعه ، تالياً (يحرفون الكلم عن مواضعه) ولقد أصيب المتعسف بأدهى منها وأمر ، فإنه أغم يوماً ببعض أهل النظر فتلاً عليه (فبهت الذي كفر) على أن له أن يقول : لم أخرج الآية عن مرادها ، فالبهت من انقطاع المعاند ، والكفر من جحد الجاحد ، ولنا أن نقول : التحريف المذموم هو التحويل للإبطال ، وليس هذا من قصد الممثل الأول بالمثال ، انتهى .

وهذا كله على مذهب جمهور المالكية في منع الاقتباس ، وللكلام على ذلك موضع غير هذا ، فليراجع في كتب البيان وغيرها .

وقال رحمه الله تعالى : حدث أن المتوكل على الله أبا عنان رحمه الله تعالى أعطى ابن شاطر ألف دينار ليحجج بها ، فمر بها إلى تلمسان ، فصار يدفع منها شيئاً فشيئاً للمتفرجين بغدير الوريط شرقى عباد تلمسان العلوى ، إلى أن نفدت ، فلما ورد

(١) القية - بكسر القاف - أحد جموع القاع ، وهو الأرض السهلة المبطنة التي افترجت عنها الجبال والآكام ، ويجمع أيضاً على أقوع وأقواع وقيع وقيعان

السلطان أبو عنان تلمسان لقيه بسوق العطارين من منشتر الجلد ، فقال له : يا سيدي أبا عبد الله حج منبرور ، فقال له : إذا جهلت أصل المال فانظر مصارفه ، ويأبى الله إلا أن ينفق الخبيث في مثله ، فضحك السلطان وانصرف ، انتهى .

وكان لابن شاطر هذا عجائب ، ولم يكن مخلا بشيء من الحقوق الشرعية ، وكان مُعْتَقِداً عند أهل وقته ، وكان السلطان أبو عنان على فقهه يعظمه ويصله ويسلم له ، وبات عنده ليلة بقصره ، وكان يدخل القصر ، ولا تحتجب منه الجوارى فاحتاج إلى البول ، فبال في قبة في القصر عظيمة ، فانهثرت إحدى الجوارى ، وقالت له : أتبول في قبة مولانا ؟ فقال لها : إن قبة مولانا الخضرأ أعظم من هذه ، وأنا أفعل تحتها ما هو أفضح من البول ، وما انتهرني قط ، فذكرت ذلك الجارية للسلطان ، فضحك وعلم أنه يريد السماء ، وكان يكتب القرآن والعمدة ولا يغلق حرفاً مجوفاً فإذا غلب على ذلك أصلحه ، حتى حكى أنه سافر لإصلاح حرف مجوف أغلقه سهواً من نسخة كان باعها ، ولم يتذكر ذلك حتى سافر مشتريها ، فارجع حتى جدده .

وحكى الشيخ أبو القاسم بن داود الفخار السلوى أن الشيخ أبا عبد الله الشريف التلمساني صاحب « المفتاح » في أصول الفقه وشارح « الجمل » الخونجية المتوفى عام اثنين وسبعين وسبعائة المدفون بالمدرسة اليعقوبية من تلمسان المحروسة افتتح شرح العمدة بما نصه : اللهم أحمّد نفسك عن أمرته أن يتخذك وكيلاً ، حمداً عائداً منك إليك ، متحداً بك ، دائماً بدوام ملكك ، لا منقطعاً ولا مفصولاً ، قال : فقال لي أبو عبد الله بن شاطر : ما هو انفصال عالم الملك ؟ فقلت له : بالضرورة الوقتية فقال لي : ما أجهلك ! وأجهل سيدك أبا عبد الله ! وأجهل ابن سودكين الذي أخذ من كتابه هذا الحمد ! إذ قال « لا منقطعاً ولا مفصولاً » بعد قوله

« بدوام ملكك » وهو بالضرورة الوقتية ، وهى منقطعة ، فهلا قال « دائما بدوام قيميتك » ، وعظيم قدرك ، ومجداك الأعلى ، وسُبُحات وجهك الأكرم ، لا منقطعا ولا مفصولا » فبلغ ذلك أبا عبد الله الشريف ، فبدله ، انتهى .

وأخبار ابن شاطر كثيرة ، وقد مر ذكره فى كلام مولاي الجدر رحمه الله تعالى وسيأتى ما ذكره لسان الدين به فى « الإحاطة » .

ومن فوائد مولاي الجدر رحمه الله تعالى ما قاله إثر قول الرازى فى التفسير « الحس أقوى من العقل » ونصه : هذا على ما حكاه فى الحاصل من أن العقولات فرع المحسوسات ، قال : ولذلك مَنْ فقد حسا فقد علم ما كالأكمه والعين ، ومذهب جمهور الفلاسفة أن اليقينيات هى العقولات لا المحسوسات ، انظر الحاصل ، انتهى .

ومن فوائده رحمه الله تعالى أنه قال : أنشدت يوما الأبلى قول ابن الرومى :

أفنى وأعمى ذا الطبيب بطيه وبكحله الأحياء والبصراء
فإذا مررتَ رأيت من عميانه أمما على أمواته قراء^(١)

فاستعادتني حتى عجبت منه ، مع ما أعرف من عدم ميله إلى الشعر ، وانفعاله ، وظننت أنه أعجب بما تضمنه البيت الأول من غريب اللف والنشر المكرر الذى لا أعرف له ثانيا فيه ، فقال : أظننت أنى استحسن الشعر ؟ فقلت : مثلك يستحسن مثل هذا الشعر ، فقال : إنما تعرفت منه كون العميان كانوا فى ذلك ازمان يقرؤن على المقابر ، فإنتى كنت أرى ذلك حديث العهد ، فاستفدت التارىخ وقال مولاي الجدر رحمه الله تعالى : حدثنى الأبلى أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحيم ابن أبى العيش الخزرجى الخطيب بته لسان كان يقول فى خطبته : من يطم الله

(١) يكثر هذا المعنى فى كلام ابن الرومى ، ومنه قوله :

والناس يلجون الطبيب ، وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار

ورسوله فقد رَشِدَ بالكسر ، وكان الطلبة ينكرون عليه ذلك ، فلما ورد عليهم الراوية الرحلة أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهرى سمعه يقول ذلك ، فأنكر عليه في جملتهم ، وبلغ الخطيب ذلك ، فلم يرجع ، فلما قفل ابن رشيد من وجهته تلك دخل على الأستاذ أبي الحسن بن أبي الربيع بسبته ، فهناه بالقدوم ، وقال له فيما قال : رَشِدْتُ - يا ابن رشيد - ورَشِدْتُ لغتان صحيحتان ، حكاهما يعقوب في الإصلاح ، ثم قال مولاي الجد : قلت : هذه كرامة للرجلين أو للثلاثة .

وقال رحمه الله تعالى : قال طالب لشيخنا الأبلى يوماً : مفهوم اللقب صحيح ؟ فقال له الشيخ : قل زيد موجود ، فقال : زيد موجود ، فقال له الشيخ : أما أنا فلا أقول شيئاً ، فعرف الطالب ما وقع فيه ، فحجل .

وهذا الأبلى تقدم في كلام مولاي الجد رحمه الله تعالى أنه عالم الدنيا ، وهو تلمساني كما تقدم ، قال تلميذه أبو القاسم السلوى الفخار : دخل على شيخنا الأبلى يوماً ، وأنا أعجن طين الفخارة ، فقال لي : ما علامة قبول هذه المادة أكمل صورة ترِدُ عليها ؟ فقلت : أن تدفع عن نفسها ماهو من غير جنسها من حجر أو زبل أو غيره ، فأدركه وجُدَّ عظيم ، حتى إنه صاح وقام وقعد ، وبقي هُنيّةً^(١) مطرقاً برأسه مفكراً ، ثم قال : هكذا هي النفوس البشرية .

قال : وقال لي يوماً ، وقد وجد الصبيان يصوتون بقُضْبٍ رفاق على الذباب فإذا خرج قتلوه : الغلط الداخل عليه من أى أنواع المغلطات هو ؟ فقلت له : من إيهام العكس ، لما كان كل ذباب مصوتاً ظن أن كل مصوت ذباب ، فاستحسن ذلك . قلت : وحدثني مولاي العم الإمام شيخ الإسلام سيدى سعيد بن أحمد المقرئ رحمه الله تعالى ، عن شيخه بن جلال مفتى حضرتى فاس وتلمسان ، أنه

(١) يقال « هنية » بضم الهاء وفتح النون بعدها ياء مشددة مفتوحة - وأصلها تصغير هنة التي أصلها هنوة - ويراد بها الشيء اليسير ، ثم يراد به الزمن اليسير ، ويقال أيضاً « هنية » بقلب الياء الثانية هاء

كان يحكى أن الغلط جاءه من عدم كلية الكبرى في الشكل الأول ،
لأنه ركه هكذا : هذا مصوت ، وكل مصوت ذباب ، وقد علمت أنها هنا إنما
تصدق جزئية لا كلية ، وإذا كانت جزئية بطل الإنتاج ، لأن ذلك من الضروب
العقيمة ، انتهى .

ومن فوائد مولاي الجد رحمه الله تعالى أنه قال : سمعت شيخنا الأبلّي يقول :
جا في الأمة المحمدية أشعر من ابن الفارض .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى : سمعت شيخنا الأبلّي يقول : إنما أفسد العلم كثرة
التوالمف ، و إنما أذهبه بُنيان المدارس ، وكان ينتصف له من المؤلفين والباينين ،
وإنه لكما قال ، غير أن في شرح ذلك طولا ، وذلك أن التأليف نسخ الرحلة (١)
التي هي أصل جمع العلم ، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير ، وقد لا يحصل
له من العلم إلا النزر اليسير ، لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه ، ثم صار يشتري
أكبر ديوان بأجنس ثمن ، فلا يقع منه أكبر من موقع ما عوّض عنه ، فلم يزل
الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر ، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر ،
وأما البناء فلأنه يجذب الطلبة إلى ما يرتب فيه من الجرايات ، فيقبل بها على من
يعينه أهل الرياسة للأجراء والإقراء منهم أو ممن يرضى لنفسه الدخول في حكمهم ،
ويصرفونها عن أهل العلم حقيقة الذين لا يُدْعَوْنَ إلى ذلك ، وإن دُعُوا لم يجيبوا
وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم ، ثم قال مولاي الجد رحمه الله تعالى :
ولقد استباح الناس النقل من المختصرات الغربية أربابها ، ونسبوا ظواهر ما فيها
إلى أمهاتها ، وقد نبه عبد الحق في تعقيب التهذيب على ما يمنع من ذلك لو كان
من يسمع ، وذيلت كتابه بمثل عدد مسائله أجمع ، ثم تركوا الرواية فكثرت

(١) كان الأصل أن طالب العلم يرحل من بلده إلى بلد أخرى أو بلاد كثيرة يأخذ
بالرواية عن علمائها ، ويسند ما أخذه عن كل واحد إليه ، فكانت المشقة في تحصيل
العلم تدعو إلى احترام العلماء ، لقلتهم ، فلما صار العلم على طرف النمام هان العلماء
على الناس

التصحيح ، وانقطعت سلسلة الاتصال ، فصارت الفتاوى تُنقل من كتب مَنْ لا يدرى ما زيد فيها مما نقص منها ، لعدم تصحيحها ، وقلة الكشف عنها ، ولقد كان أهل المائة السادسة وصدر السابعة لا يسوّغون الفتوى من تبصرة الشيخ أبى الحسن اللخمي لكونه لم يُصحّح على مؤلفه ولم يؤخذ عنه ، وأكبر ما يعتمد اليوم ما كان من هذا النمط ^(١) ، ثم انضاف إلى ذلك عدم الاعتبار بالناقلين ، فصار يؤخذ من كتب المسخوطين كما يؤخذ من كتب المرضيين ، بل لا تكاد تجد من يفرق بين الفريقين ، ولم يكن هذا فيمن قبلنا ، فلقد تركوا كتب البراذعى على نبلها ، ولم يستعمل منها على كره من كثير منهم غير التهذيب الذى هو المدونة اليوم لشهرة مسائله وموافقته فى أكثر ما خالف فيه المدونة لأبى محمد ، ثم كَلَّ أهل هذه المائة عن حال مَنْ قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والأصول الكبار ، فاقصروا على حفظ ما قل لفظه ، ونزّر حظّه ، وأفنوا أعمارهم فى فهم رموزه ، وحل لغوزه ، ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح ، فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح ، بل هو حلٌّ مُقفل ، وفهم أمر مجمل ، ومطالعة تقييدات زعموا أنها تستنهض النفوس ، فبينما نحن نستكبر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ أتاحت لنا تقييدات للجهالة ، بل مسودات المسوخ ، فإنا لله أو إنا إليه راجعون ، فهذه جملة تهديك إلى أصل العلم ، وتريك ما غفل الناس عنه ، انتهى .

ولنصلها بخاتمة تشير إلى حال العلماء أيضا - اعلم أن شر العلماء علماء السلاطين ، وللعلماء معهم أحوال ؛ فكان الصدر الأول يفرون منهم ، وهم يطلبونهم ، فإذا حضر واحد منهم أفرغوا عليه الدنيا إفرارا ليقتنصوا بذلك غيره ، ثم جاء أهل

(١) أصل النمط - بفتح النون والميم جميعا - ضرب من البسط ، أو وعاء كالسقط ثم قالوا « ليس هذا من هذا النمط » يريدون أنه ليس من صنفه ولا نوعه ، ولا هو على طريقته ومذهبه

العصر الثاني ، فطمحت أنفسهم إلى دنيا مَنْ حصل لهم ، ومنعهم قرب العهد بالخير عن إتيانهم ، فكانوا لا يأنونهم ، فإن دَعَوْهم أجابوهم إلا القليل ، فانتقصوا مما كان لغيرهم بقدر ما نقصوا من منابذتهم ، ثم كان فيمن بعدهم من يأتيتهم بلا دعوة ، وأكثرهم إن دُعِيَ أجاب ، فانتقصوا بقدر ذلك أيضاً ، ثم تطارح جمهور مَنْ بعدهم عليهم ، فاستغنوا بهم عن دعاء غيرهم ، لا على جهة الفضل أو محبة المدحة منهم ، فلم يبقوا عليهم من ذلك إلا النزر اليسير ، وصرفوهم في أنواع السخر والخدم إلا القليل ، وهم ينتظرون صرفهم ، والتصريح بالاستعناء عنهم ، وعدم الحاجة إليهم ، ولا تستعظم هذا ، فاعله سبب إعادة الحال جدّة ، عجب الله من قوم يُقَادون إلى الجنة بالسلاسل ، وهذا كله ليظهر لك سر قول النبي صلى الله عليه وسلم « لتبْعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ ، شبرا بشبرا ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جُحَرَ ضُب لدخلتموه خلفهم ^(١) » قيل : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » وقد قص علينا القرآن والأخبار من أمرهم ما شاهدنا أكثره أو أكثر منه فينا ، سمعت العلامة الأبلّى يقول : لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل فيهم ، لأننا أتينا أكثر مما أتوا ، يشير إلى افتراق هذه الأمة على أكثر مما افترت عليه بنو إسرائيل ، واشتهار بأسهم بينهم إلى يوم القيامة ، حتى ضَعُفُوا بذلك عن عدوهم ، وتعدد ملوكهم لانساع أقطارهم واختلاف أنسابهم وعوائدهم ، حتى غلبوا بذلك على الخلافة ، فزعت من أيديهم ، وساروا في الملك بسير من قبلهم ، مع غلبة الهوى واندراس معالم التقوى ، لسكنا آخر الأمم ، أطلعنا الله من غيرنا على أقل مما سترنا ، وهو المرجو أن يتم نعمته علينا ، ولا يرفع ستره الجليل عنا ، فمن أشد ذلك إتلافاً لغرضنا تحريف الكلم عن مواضعه الصحيح أن ذلك لم يكن

(١) قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم تحذيرا من أن نأخذ مأخذ الأمم السالفة ، فنبتلى بما ابتلوا به ، ولكن ما شاء الله كان ، والأمر له وحده .

بتبديل اللفظ ، إذ لا يمكن ذلك في المشهورات من كتب العلماء المستعملة ، فكيف في الكتب الإلهية ، وإنما كان ذلك بالتأويل كما قال ابن عباس وغيره ، وأنت تبصر ما اشتملت عليه كتب التفسير من الخلاف ، وما حُمِلَت الآي والأخبار من التأويلات الضعاف ، قيل لمالك : لماذا اختلف الناس في تفسير القرآن ؟ فقال : قالوا بأرائهم فاختلفوا ، أين هذه من قول الصديق « أئِ سماء تُظِلُّني ؟ وأى أرض تُقِلُّني ؟ إذا قلت في كتاب الله عز وجل برأى » (١) كيف وبعض ذلك قد انحرف عن سبيل العدل إلى بعض الميل ، وأقرب ما يحمل عليه جمهور اختلافهم أن يكون بعضهم قد علم بقصد إلى تحقيق نزول الآية من سبب أو حكم أو غيرها ، وآخرون لم يعلموا ذلك على التعيين ، فلما طال بحثهم وظنوا عجزهم أردوا تصوير الآية بما يسكن النفوس إلى فهمها في الجملة ، ليخرجوا عن حد الإيهام المطلق ، فذكروا ما ذكروه على جهة التمثيل ، لا على سبيل القطع بالتعيين ، بل منه ما لا يعلم أنه أريد لا عموما ولا خصوصا ، لكنه يجوز أن يكون المراد ، فإن لم يكن إياه فهو قريب من معناه ، ومنه ما يعلم أنه مراد لكن بحسب الشركة والخصوصية ، مع جواز أن يكون هو المراد بحسب الخصوصية ، ثم اختلط الأمران ، والحق أن تفسير القرآن من أصعب الأمور ، فالإقدام عليه جراءة ، وقد قال الحسن لابن سيرين : تعبر الرؤيا كأنك من آل يعقوب ! فقال له : تفسر القرآن كأنك شهدت التنزيل ! وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يفسر من القرآن إلا آيات معدودة ، وكذلك أصحابه والتابعون بعدهم ، وتكلم أهل النقل في صحة التفسير المنسوب لابن عباس إليه إلى غير ذلك ، ولا رخصة في تعيين الأسباب والناسخ والمنسوخ إلا بنقل صحيح أو برهان صريح ، وإنما الرخصة في تفهيم ما تفهمه

(١) سئل أبو بكر رضى الله تعالى عنه عن « السكالة » التي وردت في سورة النساء ، ولم يكن عنده خبر عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أئِ سماء تُظِلُّني - إلخ » يستعظم أن يتهجم على القول في معانى ألفاظ القرآن من عند نفسه

العرب بطباعتها من لغة وإعراب وبلاغة لبيان إعجاز ونحوها ، انتهى .

وترجمت قصار الملقى جد المؤلف
وانرجع إلى بقية أنباء مولاي الجد رحمه الله - فنقول : قال صاحب « نيل
الابتهاج ، بتطريز الديباج » ما صورته : محمد بن محمد بن أحمد القرشي التلمساني
الشهير بالمقرى - بفتح الميم ، وتشديد القاف المفتوحة - كذا ضبطه الشيخ عبد
الرحمن الثعالبي في كتابه « العلوم الفاخرة » وضبطه ابن الأحرر في فهرسته وسيدى
أحمد زروق بفتح الميم وسكون القاف ، الإمام ، العلامة ، النظار ، المحقق ، القدوة
الحجة ، الجليل ، الرحلة ، أحد خول أكابر علماء المذهب المتأخرين الأثبات ،
قاضى الجماعة بفاس ، ذكره ابن فرحون في الأصل ، يعنى الديباج ، وأنتى
عليه ، انتهى .

وقال الخطيب ابن مرزوق : كان صاحبنا المقرى معلوم القدر ، مشهور الذكر
بالخير ، تبعه بعد موته من حسن الثناء ، وصالح الدعاء ، ما يرُجى له النفع به يوم
اللقاء ، وعوارفه معلومة عند الفقهاء ، ومشهورة بين الرعا ، انتهى

وقال أبو العباس الوائشريسى فى بعض فوائده : ومقرّة - بفتح الميم ، بعدها
قاف مفتوحة مشددة - قرية من قرى بلاد الزاب من أعمال أفريقية ، سكنها
سلفه ، ثم تحولوا إلى تلمسان ، وبها وُلد الفقيه المذكور ، وبها نشأ ، وقرأ وأقرأ ،
إلى أن خرج منها صحبة الركاب المتوكلى العنانى أمير المؤمنين فارس عام تسعة
وأربعين وسبعائة إلى مدينة فاس الحروسية ، فولاه القضاء ، فنهض بأعبائه علما وعملا ،
وحمدت سيرته ، ولم تأخذه فى الله لومة لائم ، إلى أن توفى بها - إثر قدومه من
بلاد الأندلس فى غرض الرسالة لأبى عنان عام تسعة وخمسين وسبعائة ، ثم نقل
إلى مسقط رأسه تلمسان .

وقال فى موضع آخر : إنه توفى رحمه الله تعالى يوم الأربعاء التاسع والعشرين

من جمادى الأولى عام تسعة وخمسين وسبعائة ، بمدينة فاس المحروسة ، ثم نقل إلى تلمسان محل ولادته ومقر أسلافه ، ودفن بها في البستان الملاصق لقبلى داره الكائنة بباب الصرف من البلد المذكور ، وهو الآن على ملك بعض ورثة الشيخ أبى يحيى الشريف ، انتهى .

ومن أخبار مولاى الجد رحمه الله تعالى ، أنه قال : شهدت الوقفة سنة أربع وأربعين وسبعائة ، وكانت جمعة ، وقام الخطيب فى سابع ذى الحجة فى الناس بالمسجد الحرام ، وقال : إن جمعة وقتكم هذه خاتمة مائة جمعة وقف بها من الجمعة التى وقف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع آخر عشر من الهجرة ، وشاع ذلك فى الناس وذاع^(١) ، وكان علم ذلك مما تواتر عندهم ، والله أعلم ، وهم يزعمون أن الجمعة تدور على خمس سنين ، وهذا مناف لذلك ، ولكن كثير منهم ينكر اطراد هذا ويقول : إنها قد تكون على خلاف ذلك ، فلا أدرى .

ومنها أنه قال : شهدت شمس الدين بن قيم الجوزية مقيم الحنابلة بدمشق ، وقد سأله رجل عن قوله عليه الصلاة والسلام « من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجابا من النار » كيف إن أتى بعد ذلك بكبيرة ؟ فقال : موت الولد حجاب ، والكبيرة خرق لذلك الحجاب ، وإنما يكون الحجاب حجابا مالم يخرق ، فإذا خرق فقد زال عن أن يكون حجابا ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام « الصوم جُنَّة »^(٢) مالم يخرقها ، ثم قال : وهذا الرجل أكبر أصحاب تقي الدين ابن تيمية .

ومن أخبار مولاى الجد الدالة على صرامته ما حكاه ابن الأزرق عنه : أنه كان يحضر مجلس السلطان أبى عنان لبث العلم ، وكان نقيب الشرفاء بفاس إذا

(١) ذاع : انتشر خبره حتى علمه كل أحد

(٢) الجُنَّة - بضم الجيم وتشديد النون - الوقاية

دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من في المجلس إجلالا له ، إلا الشيخ المقرئ ، فإنه كان لا يقوم في جملتهم ، فأحس النقيب من ذلك ، وشكاه إلى السلطان ، فقال له السلطان : هذا رجل وارد علينا نتركه على حاله ، إلى أن ينصرف ، فدخل النقيب في بعض الأيام على عادته ، فقام له السلطان على العادة وأهل المجلس ، فنظر إلى المقرئ ، وقال له : أيها الفقيه ، مالك لا تقوم كما يفعل السلطان نصره الله وأهل مجلسه إكراما لجدي ولشرفي ؟ ومن أنت حتى لا تقوم لي ؟ فنظر إليه المقرئ وقال له : أما شرفي فمحقق بالعلم الذي أنا أبش ، ولا يرتاب فيه أحد ، وأما شرفك فظنون ، ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعائة سنة ، ولو علمنا شرفك قطعاً لأقمنا هذا من هنا ، وأشار إلى السلطان أبي عنان ، وأجلسناك مجلسه ، فسكت ، انتهى .

قال ابن الأزرقي : وعلى اعتذاره ذلك بأن الشرف الآن مظنون ، فمن معنى ذلك أيضاً ما يحكى عنه أنه كان يقرأ بين يدي السلطان أبي عنان المذكور صحيح مسلم بحضرة أكابر قضاة فاس وخاصتهم ، فلما وصل إلى أحاديث « الأئمة من قریش » قال الناس : إن قال الشيخ « الأئمة من قریش » وأفصح بذلك استوغر قلب السلطان ، وإن ورى وقع في محذور ، فجعلوا يتوقعون له ذلك ، فلما وصل إلى الأحاديث قل بحضرة السلطان : والجمهور أن الأئمة من قریش ، ثلاثا ، ويقول بعد كل كلمة : وغيرهم متغلب^(١) ، ثم نظر إلى السلطان وقال له : لا عليك ، فإن القرشي اليوم مظنون ، أنت أهل للخلافة ، إذ بعض الشروط قد توفرت فيك والحمد لله ، فلما انصرف إلى منزله بعث له السلطان بألف دينار ، انتهى .

قال أبو عبد الله بن الأزرقي : قلت : ويلزم أيضاً من اعتذاره أن قيام السلطان لدى الشرف المحقق بالعلم أولى بالحفاضة على تعظيم حرمة الله ، وقد روى عن

(١) ومع كونه متغلباً فالأمة مأمورة أن تسمع له وتطيع ، وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

بعض الأمراء أنه تكبر على ذلك ، واستخف بمنزلة من عظم به غيره ، فسلبه الله ملكه وملك بنييه من بعده ، انتهى .

ومن أجوبة مولاى الجد رحمه الله تعالى قوله : سألتى السلطان عن الزمته ميمناً على نفي العلم فحلف جهلاً على البت ، هل يعيد أم لا ؟ فأجبت به بإعادتها ، وقد كان من حضر من الفقهاء أفتوا بأن لا تعاد ، لأنه أنى بأثر مما أمر به على وجهه يتضمنه ، فقلت له : اليمين على وجه الشك غموس ، قال ابن يونس : والغموس : الخلف على تعمد الكذب ، أو على غير يقين ، ولا شك أن الغموس محرمة منهي عنها ، والنهي يدل على الفساد ، ومعناه في العقود عدم ترتب أثره ؛ فلا أثر لهذه اليمين ، ويجب أن تعاد ، وقد يكون من هذا اختلافهم فيمن أذنبها السكوت ، فتكلمت هل يجزئ بذلك ؟ والإجزاء هنا أقرب ، لأنه الأصل ، والصمت رخصة لغلبة الحياء ، فإن قلت : البت أصل ، ونفى العلم إنما يعتبر عند تعذره ، قلت : ليس رخصة كالصمات .

ومنها أنه قال : سألتى بعض الفقهاء عن السبب في سوء بخت المسلمين في ملوكهم ، إذ لم يل أمرهم من بسلك بهم الجادة^(١) ويحملهم على الواضحة^(٢) ، بل من يغتر في مصلحة دنياه ، غافلاً عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة ، ولا يراعى عهداً ولا حرمة ، فأجبت به بأن ذاك لأن الملك ليس في شريعتنا ، وذلك أنه كان فيمن قبلنا شرعاً ، قال الله تعالى ممتناً على بنى إسرائيل (وجعلكم ملوكاً) ولم يكن ذلك في هذه الأمة ، بل جعل لهم خلافة ، قال الله تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ - الْآيَةُ) وقال تعالى (وقال لهم نبينهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً) وقال سليمان (رب اغفر لي وهب لي

(١) الجادة - بتشديد الدال - أصلها الأرض الموطأة المعهدة ، ويراد بها الطريقه المعروفة التي كان يسير عليها سلف هذه الأمة .

(٢) الواضحة : البينة المعالم التي لا التباس فيها .

ملكاً) فجعلهم الله تعالى ملوكاً ، ولم يجعل في شرعنا إلا الخلفاء ، فكان أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يستخلفه نصّاً ، لكن فهم الناس ذلك فهماً ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ثم استخلف أبو بكر عمرَ ، فخرج بها عن سبيل الملك الذي يرثه الولد عن الوالد ، إلى سبيل الخلافة الذي هو النظر والاختيار ، ونصّ في ذلك على عهده ، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان ^(١) ، فأخرج عمر لها عن بنيه إلى الشورى دليل على أنها ليست ملكاً ، ثم تعين على بعد ذلك ، إذ لم يبق مثله ، فبايعه من آثر الحق على الهوى ، واصطفى الآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك ، ثم كان معارفة أول من حوّل الخلافة ملكاً ، والخشونة لنا ، ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم ، فجعلها ميراثاً ، فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها ، ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان خليفة لا ملكاً ، لأن سليمان رحمه الله تعالى رغب عن بنى أبيه إيثاراً لحق المسلمين ، ولئلا يتقلدها حياً وميتاً ، وكان يعلم اجتماع الناس عليه ، فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط إلا خليفة ، وأما الملوك فعلى ما ذكرت إلا من قل ، وغالب أفعاله غير مرضية ، انتهى .

وفوائد مولاي الجد وتحمّقه وطرفه ولطافته ودقائقه يستدعى استقصاؤها مجلدات ، فلنكتف بما قدّمناه .

* وفي الإشارة ما يغنى عن الكلام *

وأما تأليفه فكثيرة : منها كتاب « القواعد » اشتمل على ألف قاعدة ومائتي قاعدة ، قال العلامة الوائشريسي في حقه : إنه كتاب غزير العلم ، كثير الفوائد ، لم يسبق إلى مثله ، بيد أنه يفتقر إلى عالم فتاح ، انتهى .

(١) أهل الشورى : الستة الذين عينهم عمر رضى الله عنه ليختاروا منهم واحداً يكون خليفة المسلمين ، وهم : علي ، عثمان ، طلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن ابن عوف ، رضى الله عنهم !

مؤلفات
القرى الكبير

وقد أشار فيه إلى مأخذ الأربعة ، وهو قليل بهذه الديار المشرقية ، ولم أر منه بمصر إلا نسخة عند بعض الأصحاب ، وذكر أنها من أوقاف رواق المغاربة بالأزهر المعمور ، وأما قول لسان الدين في « الإحاطة » عند تعرضه لذكر تأليف مولاي الجدد ما صورته « ألف كتابا يشتمل على أزيد من مائة مسألة فقهية ، ضمنها كل أصل من الرأى والمباحثة » فهو غير القواعد بلا مريية .

ومنها كتاب « الطرف والتحف » غاية في الحسن والظرف ، قاله الوائشريسي ، وقد وقفت على بعضه فرأيت العجب العجيب .

ومنها « اختصار المحصل » ولم يكمله ، وشرحه لجل الخونجي ، كذلك ، ومنها كتاب « عمل من طب لمن حب » وهو بديع في بابه ، مشتمل على أنواع : الأول فيه أحاديث حكيمية كأحاديث الشهاب وسراج المهتدين لابن العربي ، والنوع الثاني منه السكليات النقية على جملة أبواب الفقه في غاية الإفادة ، والثالث في قواعد وأصول ، والرابع في اصطلاحات وألفاظ ، قال الوائشريسي : وقد أطلعني الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبد الخالق على نسخة من هذا الكتاب ، فتلطفت في استنساخها ، فلم يسمح به ، انتهى

قلت : وقد رأيت هذا الكتاب بحضرة فاس عند بعض أولاد ملوك تلمسان وهو فوق ما يوصف ، وفيه يقول مولاي الجدد رحمه الله تعالى :

هذا كتاب بديع في محاسنه ضمنته كل شيء خيلته حسنا

فكل ما فيه إن مرَّ اللبيب به ولم يشمَّ غيرا شامَّ منه سنا (١)

فخذ واشدد به كف الضنين وذد ، حتى تحصله ، عن جفئك الوسنا (٢)

وهذه الأبيات كافية في وصف هذا الكتاب ، إذ صاحب البيت أدري بالذي فيه

(١) العبير - بفتح العين - طيب الرائحة ، وشام : نظر ، وأصله في نظر البرق

ليعرف أين يقع مطره ، والسنا - بالقصر - الضوء .

(٢) ذد : الأمر من « ذاد الشيء يذوده » طرده . والوسن : النوم ، وهو مفعول ذد

ومنها كتاب « المحاضرات » وفيه من الفوائد والحكايات والإشارات كثير ، وقد ملكت منه بالمغرب نسختين ، فلنذكر منه بعض الفوائد ، فنقول : قال رحمه الله تعالى : قيل لصوفى : لم تقول الله الله ولا تقول لا إله إلا الله ؟ فقال نفى العيب حيث يستحيل العيب عيب ، وهذا إن لم يكن فى هذه الكلمة لأنها أفضل ما قالته الأنبياء فهو فى كثير من التنزيه الذى يطلقه المتكلمون وغيرهم ، حتى قال الشاشي عنهم : إنهم يتمفلون بأسماء الله عز وجل ، ما عرفه من كنهه ، ولا وَحَدَه من مثله ، ولا عَبدَه من شبهه ، المشبه أعشى ، والمعطّل أعشى ، المشبه متلوث بفِرث التجسيم ، والمعطّل نجس بدم الجحود ، ونصيب الحق ابن خالص وهو التنزيه ، انزل من علو التشبيه ، ولا تَمَلُّ قَالَّ أباطيل التعطيل ، فالوادی المقدس بين الجبلين .

أبو المعالى : من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مُشَبَّه ، ومن سكن إلى النفى المحض فهو مُعْطَل ، ومن قطع بموجود واعترف بالعجز عن إدراكه فهو موَحَّد ، جل رب الأعراض والأجسام ، عن صفات الأعراض والأجسام ، جل ربى عن كل ما اكتنفته لحظات الأفكار والأوهام ، برى الله من هشام ومن قال فى الله مثل قول هشام (١) .

الدقاق : المرید صاحب وَآله ، لأن المراد بلا شَبَّه ، وقيل : مثله الأعلى (ليس كمثله شيء) .

الجنيد : أشرف كلمة فى التوحيد قول الصديق : الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

القشيري : يعنى أن العارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه .

(١) هشام : أراد به هشام بن عمرو الفوطى ، وهو قدرى ، وله نخلة وفرقة تنسب إليه ، وكل مقالته جحد وإنكار لما أثبتته القرآن الكريم ، لا جرم كن حقيقا بما دعا به عليه ، برى الله منه ومن قال مثل مقالته !

غيره : ما عرف الله سوى الله ، لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك

كل ما ترتقى إليه بهم من جلال وقدرة وثناء

فالذى أبدع البرية أعلى منه ، سبحانه مبدع الأشياء !

مثل الميرسي الشافعي عن التوحيد بحضرة الرشيد ، فقال : أن لا تتوهمه ولا تهمة ، فأبهرت .

الشبلي : من توهم أنه واصل ، فليس له حاصل ، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد ، ومن تواجد فهو فاقد ، ومن أجاب عن التوحيد بالعبرة فهو غافل ، ومن مكنت عنه فهو جاهل ، ما أرادت همه سالك أن تقف عندما كشف لها إلا نادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، وما تبرجت ظواهر المكونات إلا نادتك حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

ما ينتهى نظرى منهم إلى رتب فى الحسن إلا ولاحت فوقها رتب^(١)

الجريرى : ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد .

الحسن : العجز عن درك الإدراك إدراك

تبارك الله وارت غيبه حجب^٢ فليس يعرف إلا الله ما الله^(٢)

دعاني إلى الله عز وجل بحقيقة التوحيد ، فلم يستجب له إلا الواحد بعد الواحد ، فعجب من ذلك ، فأوحى الله عز وجل إليه : تريد أن تستجيب لك العقول ؟ قال : نعم ، قال : احجبني عنها ، قال : كيف أحجبك وأنا أدعو إليك ؟ قال : تكلم فى الأسباب ، وفى أسباب الأسباب ، فدعا الخلق من هذا الطريق ، فاستجاب له الجمل الغفير .

(١) لاحت : ظهرت وبدت .

(٢) وارت غيبه : حجبته .

ومنه : سمع أعرابي اختلاف المتكلمين بمسجد البصرة في الإنسان وانتزاع كل واحد منهم الحجة على رأيه ، فخرج وهو يقول :

إن كنت أدري فعلى بدنه من كثرة التخليط في من أنه^(١)

ومن عجز عن أقرب الأشياء نسبة منه ، فكيف يقدر على أبعد الأمور حقيقة عنه ؟ من عرف نفسه عرف ربه .

ومنه : دع ما يسبق إلى القلوب إنكاره ، وإن كان عندك اعتذاره^(٢) .

لما اختُصِرَ الوليد بن أبان ، قال لبنيه : هل تعلمون أحدا هو أعلم بالسلام مني ؟ قالوا : لا ، قال : فإني أوصيكم بما عليه أهل الحديث ، فإني رأيت الحق معهم . وعن أبي المعالي نحوه .

ومنه : هجر أحمد الحاسبي لما صنف في علم الكلام ، فقال : إنما قصدت إلى نصر السنة ، فقال : أأست تذكر البدعة والشبهة ؟ قلت : من تحقق كلام فخر الدين الرازي وجده في تقرير الشبهة أشد منه في الانفصال عنها ، وفي هذا مالا يخفى .

ومنه : من آمن بالنظر إلى ظاهر الثعبان كفر بالاستماع إلى خوار العجل ، ومن شاهد مجاوزة القدرة الإلهية لمنتهى وسع القوة البشرية لم يكثرث بوعيد الدنيا ولم يؤثر الهوى على الهدى والتقوى .

ومنه : علي بن الحسين : من عرف الله بالأخبار ، دون شواهد الاستبصار والاعتبار ، اعتمد على ما تلحقه التهم .

ومنه : قيل لطبيب : بم عرفت ربك ؟ قال : بالإهلياج ، يخفف الحلق ، ويلين البطن ، وقيل لأديب : بم عرفت ربك ؟ قال : بنحلة في أحد طرفيها عسل ، وفي الآخر اسع ، والعسل مقلوب الاسع ، وسأل الدهرية الشافعي عن دليل الصانع ،

(١) هذا البيت من شواهد النجاة على لحاق هاء السكت للضمير في قوله « أنه »

(٢) نظير هذا قولهم : من وقف في مواقف التهم فلا يلومن إلا نفسه

فقال : وَرَقَّةُ الْفَرَصَادِ^(١) تَأْكُلُهَا دَوْدَةُ الْقَرْزِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا الْإِبْرِيْسِمَ ، وَالنَّحْلُ فَيَكُونُ مِنْهَا الْعَسَلُ ، وَالظُّبَّاءُ فَيَنْعَقِدُ فِي نَوَافِجِهَا الْمَسْكُ ، وَالشَّاءُ فَيَكُونُ مِنْهَا الْبَعْرُ ، فَأَمَّنُوا كُلَّهُمْ ، وَكَانُوا سَبْعَةَ عَشَرَ .

قِيلَ لِأَعْرَابِي : بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَالَ : الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ ، وَالرُّوْثُ يَدُلُّ عَلَى الْحَمِيرِ ، وَآثَارُ الْأَقْدَامِ تَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ ، فَسَمَاءُ ذَاتِ أَبْرَاجَ ، وَبِحَارُ ذَاتِ أَمْوَاجَ ، أَمَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ :

قَدْ يَسْتَدِلُّ بِظَاهِرٍ عَنْ بَاطِنٍ حَيْثُ الدِّخَانُ يَكُونُ مَوْقِدُ نَارٍ
قِيلَ لِأَعْرَابِي : بِمَ عَرَفْتَ اللَّهَ ؟ قَالَ : بِنَقْضِ عِزَائِمِ الصَّدُورِ ، وَسَوْقِ الْاِخْتِيَارِ
إِلَى حَبَائِلِ الْمَقْدُورِ .

وَمِنْهُ : الدَّقِيقُ : لَوْ كَانَ إِبْلِيسُ بِالْحَقِّ عَارِفًا ، مَا كَانَ لِنَفْسِهِ بِالْإِضْلَالِ وَالْإِغْوَاءِ وَاصِفًا .

وَمِنْهُ : التَّوْحِيدُ مَحْوُ آثَارِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَتَجْدِيدُ صِفَاتِ الْأُلُوهِيَّةِ ، الْحَقُّ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا يَنْقَسِمُ ، وَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا يُمَاتِلُ ، وَاحِدٌ فِي أَعْمَالِهِ لَا يَشَارِكُ ، لَوْ كَانَ مَوْجُودًا عَنْ عَدَمٍ ، مَا كَانَ مَوْصُوفًا بِالْقَدَمِ ، الْحَيَاةُ شَرْطُ الْقُدْرَةِ ، دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْفَطْرَةُ ، لَوْلَمْ يَكُنِ الصَّانِعُ حَيًّا ، لَاسْتَحَالَ أَنْ يَوْجِدَ شَيْئًا ، لَوْلَمْ يَكُنْ بَاقِيًّا ، لَسَكَانَ لِلْأُلُوهِيَّةِ مَنْفِيًّا ، لَوْ كَانَ الْبَارِي جَسَمًا ، مَا اسْتَحَقَّ الْإِلَهِيَّةُ أَسْمًا ، لَوْ كَانَ الْبَارِي جَوْهَرًا ، لَسَكَانَ لِلْحَيِزِ مَفْتَقَرًا ، الْعَرَضُ لَا يَبْقَى ، وَالْقَدِيمُ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَفْنَى ، لَوْلَمْ يَكُنْ بِصِفَةِ الْقُدْرَةِ مَوْصُوفًا ، لَسَكَانَ بِسَمَةِ الْعَجْزِ^(٢) مَعْرُوفًا ، لَوْلَمْ يَكُنْ عَالِمًا قَادِرًا ، لَاسْتَحَالَ كَوْنُهُ خَالِقًا فَاطِرًا ، دَلَّتْ الْفَطْرَةُ وَالْعِبَرَةُ ، أَنَّ الْحَوَادِثَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا مِنْ ذِي قُدْرَةٍ ، لَوْلَمْ يَكُنْ بِالْإِرَادَةِ قَاصِدًا ، مَا كَانَ الْعَقْلُ بِذَلِكَ شَاهِدًا ، مَنْ تَنَوَّعَ إِيجَادُهُ ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى

(١) الْفَرَصَادُ - بَزْنَةُ الْقَرْطَاسِ - التَّوْتُ

(٢) السَّعْمَةُ : الْعِلَامَةُ

أن الفعل مُرادُه ، لولم يكن بالسمع والبصر موصوفاً ، لكان لضديهما مألوفاً ،
لو جاز سامع لا سَمْعَ له ، لجاز صانع لا صنع له ، لو كان سمعه بأذن ، لافتقرت
ذاته إلى ركن ، مَنْ صدرت عنه الشرائع والأحكام ، كان موصوفاً بالكلام ،
ليس في الصفات السبع ما لا يتعاق إلا الحياة ، ولا ما يؤثر إلا القدرة والإرادة ،
كما جاز أن يأمر بما لا يريد جاز أن يريد ما لا يجب ، لا يُسأل عما يفعل ، الواحد
كاف ، وما زاد عليه متكاف ، ليس مع الله تعالى موجودات لأن الموجودات كلها
كالفضل ، من نور القدرة له نور التبعية ، لا رتبة المعية .

إن من أشرك بالله جَهْلٌ بالمعاني
أحول العقل ؛ لهذا ظن للواحد ثاني^(١)

قال جعفر بن محمد : لو كان على شيء لكان محمولا ، ولو كان في شيء لكان
محصوراً ، ولو كان من شيء لكان مُحدّثاً .

قيل لثمامة بن الأشرس : متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن ؟ ف قيل :
فلم كفر الكافر ؟ فقال : الجواب عليه .

قال خادم أبي عثمان : قال لي مولاى : يا محمد ، لو قيل لك أين معبودك
ما كنت تجيب ؟ قال : أقول بحيث لم يزل ، قال : فإن قيل لك فأين كان في الأزل ؟
فقال : أقول بحيث هو الآن ، فزرع قيضه وأعطانيه .

قيل لصوفى : أين هو ؟ فقال : محمّدك الله ! أطلب مع العين أين ؟ .

ومنه ، سمعت شيخنا يقول : نقصنا صفة لئال له فينا ، يعنى إذا وجب له كل
الكمال وجب لنا كل النقص ، وهذا على أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ،
وفيه كلام .

(١) أحول العين يرى الواحد اثنين ، فاستعار هذا الحول للعقل ، يريد أن
المشرك منتكس الطبيعة غير جار مع الفطرة المستقيمة

ومنه : بلغ أحمد أن أبا ثور قال في الحديث « خلق الله آدم على صورته »
 إن الضمير لآدم^(١) ، فهجره ، فاتاه أبو ثور ، فقال أحمد : أى صورة كانت لآدم
 يخلقه عليها ؟ كيف تصنع بقوله « خلق الله آدم على صورة الرحمن » فاعتذر إليه ،
 وتاب بين يديه .

ومنه : أتى يهودى المسجد فقال : أيكم وصى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأشاروا
 إلى الصديق ، فقال : إني سألته عن أشياء لا يعلمها إلا نبي أو وصى نبي ، قال :
 سل ، قال : فأخبرني عما ليس لله ، وعما ليس عند الله ، وعما لا يعلمه الله ، فقال :
 هذه مسائل الزنادقة ، وهم بقتله ، فقال ابن عباس : ما أنصفتموه ، إيمان تجيبوه وإما أن
 تصرفوه إلى من يجيبه ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعلي
 « اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه » فقال أبو بكر : قم معه إلى علي ، فقال له :
 أما ما لا يعلمه الله فقولكم في عزير إنه ابن الله ، والله عز وجل لا يعلم له ولداً ،
 قال في التنزيل (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله - الآية) وأما ما ليس عند الله
 فالظلم ، وأما ما ليس له فالشريك ، فأسلم اليهودى ، فقبل أبو بكر رأس علي ،
 وقال له : يا مفرج الكربات ، ووردت مثل هذه المسائل عن الصحابة ،
 فأن الله تعالى أعلم .

وقال العتابي لأبي قرة النصراني عند المأمون : ما تقول في المسيح ؟ قال :
 من الله ، قال : البعض من الكل على سبيل التجزئ ، والولد من الوالد على طريق
 التناسل ، والخل من الحجر على وجه الاستحالة ، والخلق من الخالق على جهة الصنعة ،
 فهل من معنى خامس ؟ قال : لا ، ولكن لو قلت بواحد منها ما كنت تقول ؟

(١) على هذا يكون المعنى أن الله تعالى خلق آدم على الصورة التي اقتضى علمه
 الأزلي أن يكون آدم عليها ، وهو معنى ليس فيه إلا الابتعاد عن التشبيه

قال : البارى لا يتجزأ ، ولو جاز عليه ولد لجاز له ثان وثالث وهلم جرا ، ولو استحال فسد ، والرابع مذهبنا ، وهو الحق

ومنه : أول ما تكلم به عيسى فى المهد أن قال : (إنى عبد الله) وهو حجة على الغالين فيه^(١) ، يقال لهم : إن صدق فقد كذبتم ، وإلا فمن عبدتم ؟ ولمن ادعيتم ؟ قال القاضى ابن الطيب للقيس لما وجهه عضد الدولة إلى ملك الروم : لم أتحذ اللاهوت بالناسوت ؟ فقال : أراد أن يُنَجِّىَ الناس من الهلاك ، قال : فهل دَرَى أنه يقتل ويصلب أولا ؟ فإن لم يدرك لم يحزن أن يكون إلها ولا أبنا ، وإن درى فالحكمة تمنع من التعرض لمثل ما قلتم إنه جرى .

سأل القاضى هذا البطرك عن أهله وولده ، فأنكر ذلك النصارى^(٢) ، فقال : تَبْرَثُون هذا مما تثبتونه لربكم ؟ سوأة لهذا رأى ، فانكسروا .

ابن العربى : سمعت الفقراء ببغداد يقولون : إن عيسى عليه السلام كان إذا خلق من الطين كهيئة الطير طار شيئا ثم سقط ميتا لأنه كان يخلق ولا يرزق ، ولو رزق لم يبق أحد إلا قال « هو الله » إلا من أوتى هداه .

سأل ابن شاهين الجنيد عن معنى «مع» فقال : مع الأنبياء بالنظر والكلاية (إنى معكما) ومع العامة بالعلم والإحاطة (إلا وهو معهم) فقال : مثلك يصلح دليلا على الله .

ومنه : سأل قَدْرَى عليا رضى الله عنه عن القدرة ، فأعرض عنه ، فألح عليه ، فقال : أَخْلَقْتُ كيف شئت ، أو كيف شاء ؟ فأمسك ، فقال : أترونه يقول كيف شئت ؟ إذن والله أفتله ، فقال : كيف شاء ، قال : أحييك كيف تشاء أو كيف يشاء ؟ قال :

(١) الغالين فيه : من الغلو ، وهم الذين قالوا بألوهيته أو بكونه ابن الله

(٢) ذلك لأن رجال الدين السكتا السكة من النصارى لا يتزوجون ولا يتناسلون وفى غير هذا المذهب يباح لرجال الدين أن يتزوجوا لكن لا يبلغ من تزوج منهم أن يكون مطرانا أو بطركا

كيف يشاء ، قال : فيدخلك حيث تشاء أو حيث يشاء ؟ قال : حيث يشاء ، قال :
أذهب فليس لك من الأمر شيء .

أبوسليمان : أدخلهم الجنة قبل أن يطيعوه ، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه ،
جل حكم الأزل ، أن يضاف إلى العلل ، سبق قضاؤه فعله (إني جاعل في الأرض
خليفة) وأوقفت مشيئته أمره (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) .
قول الشاذلي : أهبط آدم إلى الأرض قبل أن يخلقه ، لأنه قول (في الأرض)
ولم يقل في السماء ولا في الجنة .

الأوزاعي : قضى بما نهى ، وحال دون ما أمر ، واضطر إلى ما حرم .
ألقاه في أليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبطل بالماء ^(١)
قال الأوزاعي لغيره : مشيئتك مع مشيئة الله عز وجل أودونها ؟ فلم يجب ، فقال
هشام بن عبد الملك : فلواختار واحدة ، فقال : إن قال معها فقد زعم أنه شريك ،
وإن قال وحدها فقد تفرد بالربوبية ، قال : لله درك أبا عمرو .

من بيان عظمتهم (رفيع الدرجات) من آثار قدرته (رفيع السموات) توقيع
أمره (يأمر بالعدل والإحسان) واقع زجره (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى)
تنفيذ حكمه (فعال لما يريد) دستور ملكه (لا يسأل عما يفعل) .
إياس بن معاوية : ما خاصمت أحداً بعقلي كله إلا القدرية ، قلت لقدري :
ما الظلم ؟ فقال : أخذ ما ليس لك ، قلت : فإن الله له كل شيء .

الواسطي : ادعى فرعون الربوبية على الكشف ، وادعت المعتزلة الربوبية
على الستر ، تقول ما شئت فقلت .

ومنه : من أقصته السوابق لم تُدنه الوسائل ، إذا كان القدر حقاً فالحرص باطل

(١) هذا كلام المجبرة الذين يقولون : ليس للعبد شيء أصلاً لا إيجاداً لفعله ولا
كسب ، والمعتزلة يرون أن العبد خالق لأفعاله نفسه الاختيارية ، ومذهب أهل السنة
وسط بين المذهبين ، فلا يقولون : العبد خالق ، ولا يقولون : مجبر ، وإنما يقولون :
الخلق لله ، والعبد كاسب

إذا كان الله عز وجل عدلاً في قضائه فصيبات الخلق بما كسبت أيديهم .

ما عذر معتزليٍّ موسىرٍ منعت كفاه معتزلياً معسراً صَفَدًا^(١)

أيزعمُ القدرَ المحتومَ ثَبَطَهُ إن قال ذاك فقد حَلَّ الذي عَقَدَا

ومنه : دخل محمد بن واسع على بلال بن فروة فقال : ما تقول في القدر ؟

قال : تفكر في جيرانك أهل القبور فإن فيهم شغلا عن القدر .

وكل من أغرق في نَعْتِهِ أصبح منسوباً إلى العي^(٢)

للمقادير ، تبطل التقدير ، وتنقض التدبير .

قال معتزلي لسنى : لو أراد ثبوت أحد على الكفر لم يقل (ليخرجكم من

الظلمات إلى النور) فقال السنى : لو لم يكن الإيمان من فعله لم يقل (ليخرجكم

من الظلمات إلى النور) .

قال تقفور طاغية النصارى لأبى الحسن الشلبانى : أنت تقول إن الخير والشر

من الله ؟ وذلك لأن النصارى كلهم على مذهب القدريّة في الاستطاعة ، قال :

نعم ، قال : كيف يعذب عليه ؟ هل كان حقاً عليه أن يخلق ؟ فقال : لم يضطره

إلى ما خلق مضطراً .

قيل : نزلت (وما أضلّنا إلا المجرمون) في القدريّة ، لأنهم أضافوا الحول

والقوة في الشر إلى البشر فأشركوهم في الخلق ، أما ترى قوله تعالى : (إن المجرمين

في ضلال وسُعر) إلى قوله تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) .

كنت دهرأ أقول بالاستطاعة وأرى الجبر ضلّةً وشناعه^(٣)

ففقدت استطاعتي في هوى ظنّبي ، فسمعا لمن أحب وطاعه

غيره :

(١) الصفد - بفتح الصاد والفاء جميعاً - العطاء

(٢) أغرق : بالغ وغالى ، لأن ذات الله لا تدرك حقيقتها ، وصفاته لا تدرك

حقائقها ، وكل ما ندركه إنما هو آثارها (٣) في ب « وأرى الخير ضلّة »

مالا يكون فلا يكون بحيلة أبدا ، وما هو كائن سيكون
غيره :

تريد النفس أن تُعطَى منهاها ويأبى الله إلا ما يشاء
شفاء الصدور ، في التسليم للمقدور .

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب فلا رأى للمضطر إلا ارتكابها^(١)
غيره :

أى يَوْمَيَّ من الموت أفر يوم لا يُقدَّر^(٢) أم يوم قدر
إذا كان الداء من السماء ، بطل الدواء .

قال الحائط للوتد : لم تشقنى ؟ قال : نزل من يدقنى .

الناس يَلْحَوْنَ الطيب ، وإنما غَلَطَ الطيب إصابة المقدور^(٣)
قيل لحكيم : أخرج الهم من قلبك ، فقال : ليس بإذننى دخل .

نفسى تنازعنى فقلت لها قرى موت يريحك أو صعود المنبر
ما قد قضى سيكون فاصطبرى له ولك الأمان من الذى لم يُقدَّر
ولتَعْلَمِ أن المقدَّر كائن لا بد منه صبرت أو لم تصبرى

ومنه : الهارب من المقدور كالمثقل فى كف الطالب . من كان السلطان يطلبه ،
ضاق عليه مذهبه (وما أتم بمعجزين) . أسلى آية فى التنزيل (ما أصاب من
مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم ، إلى قوله تعالى : بما آتاكم) .

ومنه : أخلَّ رجل بخدمة صاحب الإسكندرية ، فتغيب ، ثم ظفر به عرفاؤه ،
فقادوه ، فانساب منهم ، ورمى بنفسه فى بئر ، وتحت الإسكندرية أسراب يسير
فيها القائم من أول البلد إلى آخره ، فلم يزل يمشى حتى وجد بئرا صاعدة ، فتعلق

(١) حفظى فى عجز هذا البيت * فلا يسع المضطر إلا ركوبها *

(٢) ينسب هذا البيت إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه !

(٣) البيت لابن الرومى ، وصواب عجزه « إصابة الأقدار »

بها ، فإذا هي في دار السلطان ، فأخذه فأدبه ، فانظر كيف فرّ من قوّة السلطان مكرها ، وأتاه برجله طائعا .

* ذهب القضاء بحيلة العقلاء *

ومنه : قال يزيد بن المهلب لموسى بن نصير : أنت أدهى الناس وأعلمهم ، فكيف طرحت نفسك في يد سليمان ؟ فقال : إن الهدد يهتدى للماء في الأرض القفّاء ، وينصب له الصبي الفخّ بالدودة أو الحبة فيقع فيه .

ولو جرّت الأمور على قياس لوقى شرّها الفطن اللبيب

الواسطي : اختيار ما جرى لك في الأزل ، خير من معارضة الوقت .

ابن معاذ : عجبت من ثلاثة : رجل يريد تناول رزقه بتدبيره ، ورجل شغله غده ، وعالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط .

ومنه : شكى لبعض الأنبياء امرأة كانت تؤذى أهل زمانها ، فأوحى الله إليه : أن فر من قدامها حتى تنقضي أيامها .

ومنه : ابن المعتز : كرّم الله عز وجل لا ينقض حكمته ، ولذلك لا تقع الإجابة في كل دعوة (ولو اتبع الحق أهواءهم) .

أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أريد وقصر علمي أن أنال المغيبا

ومنه : كان ابن مجاهد ينشد لبعضهم :

أيها المعتدى ليطلب علما كل علم عبد أعلم الكلام

تطلب الفقه كي تصحح حكما ثم أغفلت منزل الأحكام^(١)

ومنه : قال الأحدب البغدادي للقاضي الباقلاني : هل لله عز وجل أن يكلف

أنخلق ما لا يطيقونه ؟ فقال : إن أردتم بالتكليف القول المجرد فقد وجد ،

(١) ذلك لأن علم الكلام هو العلم الباحث عن ما يجب لله تعالى ، وما يستحيل

عليه ، وما يجوز ، وعما يجب أن يتصف به الأنبياء ، وما يستحيل أن يتصفوا به ،

وما يجوز في حقهم ، فمن لم يتعلق بسبب منه فإنه يكون قد أغفل من ينزل الأحكام

(قُلْ كُونُوا حِجَارَةً) (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ) (وَيُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)
 وإن أردتم به ما يصح فعله وتركه فالكلام متناقض ، وهذا هو الذي نعرفه ،
 لأن التكليف اقتضاء فعل مافيه مشقة ، ومالا يُطَاق لا يفعل البتة ^(١) ، فقال : سئلت
 عن كلام مفهوم فطرحته في الاحتمالات ، فقال : إني بينت الوجوه المحتملة ، فإن
 كان معك شيء فهاته ، فقال عضد الدولة : قد صدق ، وما جمعتم إلا للفائدة ،
 لا للمُهَيَّاتَةِ ، ثم قال لقاضيه بشر بن الحسن المعتزلي : تكلم ، فقال : مالا يطاق
 على ضربين : أحدهما مالا يطاق للاشتغال بضده ، وهذا سبيل الكافر ، لا يطبق
 الإيمان للاشتغال بالكفر ، وأما العاجز فما ورد في الشريعة تكليفه ، ولو ورد
 لكان جائزاً ، وقد أثبت الله عز وجل على مَنْ سألَه أن لا يكلفه مالا يطيقه فقال
 (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) لأن الله له أن يفعل في ملكه ما يريد .

ومنه : خرج عمر بن عبد العزيز في سفر لايلا ، فقال له رجل : أنظر إلى القمر
 ما أحسنه ، فنظر فقال : قد علمت أنك أردت نزوله بالدَّبَرَنِ ، ونحن لا نتطير
 بذلك ولا نعتقده .

إذا عقد القضاء عليك أمراً فليس يحله إلا القضاء

يدبر بالنجوم وليس يدري ورب النجم يفعل ما يشاء

وقال :

ليس للنجم إلى ضر ولا نفع سبيل

إنما النجم على الأو قات والسَمْتِ دليل

وقال :

من كان يخشى زُحْلاً أو كان يرجو المشتري

(١) المحال علي ضربين : محال لذاته ، ومحال لغيره ، والتكليف بالمحال جائز عقلا
 عند أهل السنة ؛ لأنه لا يلزم من التكليف به أن يكون الغرض أن يفعله المكلف
 ومع قولهم بتجويز ذلك عقلا فإنهم يقولون : إنه لم يقع في الشريعة التكليف بالمستحيل
 لذاته ، فأعرف ذلك

فإنني منه - وإن كان أخى الأدنى - برى^(١)

لما وجَّه عضد الدولة القاضى ابن الطيب إلى ملك الروم قال له الوزير : أخذت الطالع لخروجك ؟ فسأله القاضى عن ذلك ، ففسره له ، فقال : السعد والنحس بيد الله ، ليس للكواكب فيه تأثير ، وإنما وضعت كتب النجوم ليتمعش بها العامة ، ولا حقيقة لها ، فاستحضر الوزير ابن الصوفى ودعاه إلى مناظرة القاضى ، فقال : لا أقدم على المناظرة ، وإنما أقول : إذا كان من النجوم كذا كان كذا ، وأما التعليل فمن علم المنطق ، والذي يتولى المناظرة عليه أبو سليمان المنطقى ، فأحضر وأمر ، فقال هذا القاضى يقول : إذا ركب عشرة أنفس فى ذلك المركب الذى فى دجلة فالله تعالى قادر على أن يزيد فيهم آخرَ فى ذلك الوقت ، فإن قلت له لا يقدر قطعتم لسانى ، فأى معنى لمناظرتى ؟ فقال القاضى للوزير : ليس كلامنا فى القدرة ، لكن فى تأثير الكواكب ، فانتقل هذا إلى ماترى لعجزه ، وأنا إن قلت إن الله تعالى قادر على ذلك فلا أقول إنه يخرق العادة الآن ، ولا يجوز عندنا ذلك ، فهو فرار من الزحف ، فقال المنطقى : المناظرة دُرْبة ، وأنا لا أعرف مناظرة هؤلاء القوم ، وهم لا يعرفون مواضعنا ، فقال الوزير : قد قبلنا اعتذارك ، والحق أبلغ .

رأس الدين ، صحه اليقين . مَنْ سَابَقَ الْقَدْرَ ، عَثَرَ .

وإذا خشيت من الأمور مُقَدَّرًا وفرت منه فَنَحْوَهُ تتوجه

قيل : لما وقع الوباء بالكوفة فرأى أبى لىلى على حمار ، فسمع منشدا ينشده :

لَنْ يُسَبِّقَ اللَّهَ عَلَى حِمَارٍ ولا على ذى منسر طيار

أو يأتى الختف على مقدار قد يُصْبِحُ اللَّهُ أَمَامَ السَّارَى

فقال : إذا كان الله أمام السارى فلا مهرب ، ورجع .

(١) برى - بفتح الباء وكسر الراء - فعيل من البراءة ، وأصله « برىء »

فلما خفف الهمز بقلبها ياء حذفها

ومنه : شكاً بعض الصالحين إلى الخليفة ضرر الأتراك ، فقال : أنتم تعتقدون أن هذا من قضاء الله وقدره ، فكيف أردته ؟ فقال : إن صاحب القضاء قال : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) فردهم عنهم .

القدر والطلب كالعِدَّين على ظهر الدابة كُلُّ واحد منهما معين لصاحبه ، فالقدر بالطلب ، والطلب بالقدر .

قيل لعارف : إن كنت متوكلاً فألق بنفسك من هذا الحائط فلن يصيبك إلا ما كتب الله لك ، فقال : إنما خلق الله الخلق ليجر بهم ، لا ليجر به .

الجوهري : كف الله النار عن يد موسى لئلا تقول النار : طبعي ، واحترق لسانه لئلا يقول الحكيم : مكاني^(١) ، وقال غيره : لو لم يقل لنار إبراهيم «سلاماً» هلك من برد النار .

قيل للجنيد : أنطلب الرزق ؟ قال : إن علمت أين هو فاطلبوه ، قيل : فنسأل الله ؟ قال : إن خشيت أن ينساكم فذكروه ، قيل : فلنلزم البيوت ؟ قال : التجربة منك شك ، قيل : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة . يقول : ليكن تصرفك بإذنه ، لا بشهوته ، فقد قيل : ترك الطلب يضعف الهمة ، ويذل النفس ، ويورث سوء الظن .

الطرطوشي : القدر والطلب كأعمى ومُعَقَّد في قرية ، يحمل الأعمى المقعد ، ويدُلُّ المقعدُ الأعمى .

قال رجل لبشر : إني أريد السفر إلى الشام ، وليس عندي زاد ، فقال : أخرج لما قصدت إليه ، فإنه إن لم يهطك مائيس لك ، لم يمنعك مالك .

الناس في هذا الباب ثلاثة : فرقة عاملت الله عز وجل على مقتضى شمول قدرته للشر والخير ، وأعرضوا عن الأسباب ، فأدركوا التوكل ، وفاتهم الأدب ،

(١) يروى أن موسى صلى الله عليه وسلم كان أمسك النار بيده ووضعها في فمه ، فلم تحرق يده وأحترق لسانه ، وأنه أصيب من ذلك بثلثة بقيت معه ، فلم تؤثر النار في يده كما أثرت في لسانه لئلا يقال : إن ذلك من طبع النار ، ولم يمنعها الله عن لسانه كما منعها عن يده لئلا يدل بمكانته ، هذا تفسير كلامه .

وهم بعض الصوفية ، وقد قيل : اجعل أدبك دقيقا ، وعلمك ملحا ، وهذا إبليس لم تنفعه كثرة علمه لما دفعته قلة أدبه . وفرقة عاملته على ذلك مع الجُرَيَّان على عوائد مملكتيه ، والتصرف بإذنه على مقتضى حكمته ، وهم الأنبياء وخواص العلماء ، فأصابوا الأدب ، وما أخطوا التوكل . والفرقة الثالثة - وهم الجمهور - أقبلوا على الأسباب ، ونَسُوا المسبب ، ففاتهم الأمان ، فهلكوا .

ومنه : جل الواحد المعروف ، قبل الحدود والحروف .

لقد ظَهَرَتْ فما تخفى على أحد إلا على أكرمِهِ لا يعرف القَمَرَا (١)
كما بَطَلَتْ بما أبدَيْتَ من حُجُب وكيف يُبَصِّرُ من بالعِزَّة استترا

سئل النصيبي عن الرؤية بمجلس عضد الدولة ، فأنكرها محتجا بأن كل شيء يُرى بالعين فهو في مقابلتها ، فقال له القاضي ابن الطيب : لا يرى بالعين ، قال له الملك : فيما يرى ؟ قال : بالإدراك الذي يُحدِّثه الله في العين وهو البصر ، ولو أدرك المرئي بالعين لوجب أن يدرك بكل عين قائمة ، وهذا الأجهر عينه قائمة ولا يرى بها شيئا .

ومنه : ابن العربي : للصوفية في إطلاق لفظ العشق على الحق تجاوز عظيم ، واعتداء كبير ، ولولا إطلاقه للمحبة ما أطلقناها ، فكيف أن نتعدها ؟ .

الدقاق : العشق مجاوزة الحد في الحب ، ولما كان الحق لا يوصف بالحد لم يوصف بالحدود ، إذ لو جمع محاب الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ما يستحقه قَدْرُ الحق من الحب .

خمس أبهمت ، فلم تعين لعظم أمرها : الاسم الأعظم ، وساعة الجمعة ، وليلة القدر ، والصلاة الوسطى ، والكبائر ؛ لأن اجتنابها يكفر غيرها ، يعنى على أحد الأقوال في المسألة .

ومنه : قيل في التسعة والتسعين اسما : إنها تابعة لاسم الله ، وهو تمام المائة ، فهي عهد درج الجنة ، لما في الصحيح من أن درجها مائة ، بين كل درجتين مسيرة مائة عام ، ولذلك قيل : مَنْ أحصاها دخل الجنة ، وهذه الأسماء مفضلة على غيرها مما لا يحصى ، ألا ترى قوله عليه السلام في الصحيح بأسمائه الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم ؟ .

ذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعا منه ، فلم يشر في شيء منها إلى خاتمه ^(١) ، وذكر الإنسان في ثمانية عشر موضعا ثلث ذلك العدد فصرح في جميعها بخلقه ، قال ابن عطية : وهذا يدل على أنه غير مخلوق .

أبو علي بن أبي اللحم : بث ليلة جمعة بمصر في أيام أبي حريش ، وكان يقول بخلق القرآن ، وأبي خلف المعافري ، وكان يقول : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، أفكر عن أيهما آخذ ، فلما امت أثنائي آت فقال لي : قم ، فقمتم ، قال : قل ، فقلت : ما أقول ؟ فقال :

لا والذي رفَع السما	ء بلا عَمَادٍ للنظر
فتزينت بالساطعا	ت اللامعات وبالقمر
والماء السَّعير الطَّبا	ق بكل مختلف الصور
ما قل خلق في القرا	ن بخلقِهِ إلا كفر
لكن كلامٌ مُنزل	من عند خَلْقِ البشر

ثم قال : أكتبها ، فأخذت كتابا من كُتبي وكتبتها فيه ، فلما أصبحت وجدت

(١) القول بخلق القرآن هو قول المعتزلة ، بدأوا به أيام المأمون العباسي ، وكان المأمون ينتصر لهم ، وعذب فيها قوم من رجالات أهل السنة أشهرهم الإمام الورع ناصر السنة أحمد بن حنبل الشيباني رضى الله تعالى عنه وأرضاه وجزاء عن دين الله وسنة رسوله خير الجزاء (انظر كتابنا : النظم الفريد ، بتحقيق جوهرة التوحيد)

ذلك بخطى على كتاب من كتبى ، فجلست فى البيت إلى الزوال ، ثم خرجت ، فسألنى إنسان عما رأيت البارحة ، فقلت : ما أخبرت أحدا ، فقال : قد شاعت رؤياك فى الناس .

الخواص : انتهيت إلى رجع مصروع ، فجلعت أؤذن فى أذنه ، فنادانى الشيطان من جوفه : دعنى أقتله ، فإنه يقول بخلق القرآن .

عمرو بن دينار : أدركت سبعة من الصحابة يقولون : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ، قلت : قال مالك : يستتاب .

ومنه : كان عضد الدولة يحب العلم والعلماء ، فكان مجلسه يحتوى على عدد منهم أكثرهم الفقهاء والمتكلمون ، وكان يعقد لهم مجالس للمناظرة ، فقال لقاضيه بشر بن الحسن : إن مجلسنا خالٍ عن عاقل من أهل الإثبات ينصر مذهبهم ، فقال : إنما هم عامة يرون الخير وضده ، ويعتقدونهما جميعاً ، وإنما أراد ذم القوم ، ثم أقبل يمدح المعتزلة ، فقال عضد الدولة : مُحَالٌ أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصر فانظر ، قال : بلغنى أن بالبصرة شيخاً يعرف بأبى الحسن الباهلى ، وفى رواية بأبى بكر بن مجاهد ، وشاباً بابتى الباقلاوى ، فكتب إليهما ، فلما وصل الكتاب قال الشيخ : قوم كفرة ، لأن الديلم كانوا روافض ، لا يحل لنا أن نطأ بساطهم ، فقال الشاب : كذا قال ابن كلاب والحاسبى ومن فى عصرهم : إن المأمون فاسق لا يحضر مجلسه ، حتى ساق أحمد بن حنبل إلى طرسوس ، وجرى عليه ما عُرِف ، ولو ناظره لكفوه عن هذا الأمر ، وتبين له ما هم عليه بالحجة ، وأنت أيضاً أيها الشيخ تسلك سبيلهم حتى يجرى على الفقهاء ما جرى على أحمد ، ويقولون بخلق القرآن ونفى الرؤية ، وها أنا خارج إن لم تخرج ، قال الشيخ : إن شرح الله صدرك لهذا فاخرج ، فرد الله به الكرة .

حفظ من كلام النبي صلى الله عليه وسلم المنتقى والمرسل أمثال أمثال المنزل . ثم انتقى من ذلك صحة وفصاحة ما يبلغ حجم المصحف أو يُرَبِّي عليه ، فهل وجدت فيه ما يشبهه أو ينزع إليه ، أشهد أنه من عند الله ، تنزيل من لدنه .

أول إعجاز القرآن الجهلُ بنوعه من جنس الكلام^(١) ، فإنه لا يدخل في مضمار الشعر ، ولا ينخرط في سلك الخطب ، ولا المواظ والمقامات والكتب ، ولا في شيء مما يؤلف المتخاطب به ، وتعرف فيه طبقات أهل مذهبه ، فإن لم يتبين ما رسمت لك فاعرض كلامك في كل صنف من هذه الأصناف تجد لنفسك مع فحوله حالة القصور أو المائلة أو الزيادة ، ولا تجد لكلامك نسبة إلى القرآن ، بل لا تدري ما تقول إن طلب منك البيان ، إلا أن تسلب العقل ، كسيلة وأمثاله ممن ابتلى بالهذيان ، وقد تفتن للدلالة كافر غلبت عليه الجهالة ، أنظر السيرة .

الزنجشري : ما أعجب شأن الضلال ، لم يرضوا للنبوة ببشر ، وقد رضوا للإلهية بحجر .

سأل القاضي أبا بكر ملك الروم - حين وجَّهه عضد الدولة إليه - عن انشقاق القمر ، كيف لم يره جميع الناس ؟ فقال : لأنهم لم يكونوا على أهبة ووعد ، قال : فما النسبة التي بينكم وبين القمر حتى لم يره غيركم من الروم وغيرهم ؟ قال : النسبة التي بينكم وبين المائدة حتى رأيتموها دون اليهود والمجوس ، فدعا القسيس ، فأقر للقاضي ، فقال له القاضي : أتقول إن الكسوف يراه جميع أهل الأرض أم أهل الإقليم الذي في محاذاته ؟ قال : لا يراه إلا مَنْ في محاذاته ، قال : فما تنكر مَنْ لا يرى انشقاق القمر إلا في تلك

(١) يريد أن القرآن جنس متميز تمام التمايز عن أجناس الكلام ، فلا هو شعر ، ولا هو نثر ، ولا هو من جنس الخطب ، ولا من جنس الكتب ، ولا من غير هذه من الأجناس المتعارفة ، وقد عرف له ذلك أهل اللسان ، حتى الذين لم يؤمنوا ، وأدركوا أنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة ولا غيرهن ، ولكن من لم يؤمن بمن أنزل عليه القرآن كان جاحدا معاندا .

الناحية من تأهب لذلك^(١) ؟ قال : هذا صحيح ، إلا أن الشأن في مثله أن لا ينقل آحاداً ، لكن تواتراً ، بحيث يصل العلم الضروري به إلينا وإلى غيرنا ، وانتفاء ذلك يدل على افتعال الخبر ، فقال الملك للقاضي : الجواب ، فقال : يلزمه في نزول المائدة ما لزمنا في انشقاق القمر ، فبهت الذي كفر

قال ملك الروم للقاضي ابن الطيب في هذه الرسالة : ماتقول في المسيح ؟ قال : روح الله وكنهه وعبد ، قال : تقولون المسيح عبد ؟ قال : بذلك ندين ، قال : ولا تقولون إنه ابن الله ، قال : ما اتخذ الله من ولد ، قال : العبد يخلق ويحيى ويبرىء ؟ قال : ما فعل المسيح ذلك قط ، قال : هذا مشهور في الخلق ، قال : لا ، قال : ما قال أحد من أهل المعرفة إن الأنبياء يفعلون المعجزات ، لكن الله تعالى يفعلها على أيديهم تصديقاً لهم ، قال : إن ذلك في كتابكم ، قال : في كتابنا أن ذلك كله بإذن الله تعالى ، ولو جاز أن يكون ذلك فعل المسيح لجاز أن يقال إن موسى قلب العصا ، وأخرج يده بيضاء ، وخلق البحر ، قال : إن الأنبياء من لدن آدم كانوا يتضرعون للمسيح حتى يفعل ما يطلبون ، قال : أفى لسان اليهود عظم لا يقولون معه إن المسيح كان يتضرع لموسى ، وكذلك أمة كل نبي ، لا فرق بين الموضعين في الدعوى .

الجوزى في قوله عليه السلام « يوشك أن ينزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » إنما كان الإمام منا لثلاثين بغير الشبهة وجهه « لا نبي بعدى »^(٢) . كان بالبصرة يهودى يقرر المتكلمين على نبوة موسى ، فإذا أقرؤا جحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال : نحن على ما اتفقنا عليه ، إلى أن نتفق على غيره ، فسأل أبا الهذيل عن ذلك فقال : إن كان موسى هذا الذى أخبر بمحمد

(١) تأهب لذلك : استعد له

(٢) ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا نبي بعدى » وورد أنه قال لعلى بن أبى طالب « أمانرضى أن تكون منى بمثابة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدى » (١٥ — فتح ٧)

صلى الله عليه وسلم وأقر بشرفه وأمر باتباعه فأنا أقر بنبوته ، وإن كان غيره فأنا لا أعرفه ، فتحير اليهودي ، ثم سأله عن التوراة ، فقال : إن كانت التي نزلت على موسى المذكور فهي حق ، وإلا فهي عندى باطل .

ومنه : قيل للحسن : الملائكة أفضل أم الأنبياء ؟ فقال : أين أنت من هذه الآية (ولا أقول إني ملك) ؟ .

ومنه : وعن عُمر وعلى - رضي الله عنهما ! - أن الخضر لقيهما وعلمهما هذا الدعاء ، وذكر فيه خيراً كثيراً لمن قاله في أثر كل صلاة : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، يا من لا تغلظه المسائل ، ومن لا يتبرم^(١) على إلحاح المالحين ، أدقني برّد عفوك ، وحلاوة مغفرتك .

ومنه : سمع إياس يهودياً يقول : ما أحق المسلمين ! يزعمون أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ، فقال : أو كل ما تأكله تحدّثه ؟ قال : لا ؛ لأن الله تعالى يجعل أكرهه غداء ، قال : فما تفكر أن يجعل جميع ما يأكل أهل الجنة غداء ؟ .

الرزية كل الرزية ، تضييع أمر المرأة الرندية ، وذلك أنه وردت على تلمسان في العشرة الخامسة من المائة الثامنة امرأة من رُنْدَةٍ لا تأكل ولا تشرب ولا تبول ولا تتغوط وتحيض ، فلما اشتهر هذا من أمرها أنكره الفقيه أبو موسى بن الإمام ، وتلا (كانا يأكلان الطعام) فأخذ الناس يبشّون ثقات نسائهم ودهاتهن إليها ، فكشفوا عنها بكل وجه يمكن ، فلم يقفن على غير ما ذكر ، وسئلت : هل تشتهين الطعام ؟ فقالت : هل تشتهون التبن بين يدي الدواب ؟ وسئلت : هل يأتيها شيء ؟ فأخبرت أنها صامت ذات يوم فأدركها الجوع والعطش ، فنامت فأثاها

(١) يتبرم : يظهر السأم والملالة ، هذا أصله ، وهو هنا لا يقصد به هذا المعنى ، بل هو في جانب الله تعالى يراد به معنى يليق بحلاله و « ليس كمثل شيء » .

آتٍ في النوم بطعام وشراب ، فأكلت وشربت ، فلما أفاقت وجدت نفسها قد استنفت ، فهي على تلك الحال ، تَوَقَّتِي في المنام بالطعام والشراب إلى الآن ، ولقد جعلها السلطان في موضع بقصره وحفظها بالعدول ومن يكشف عما عسى تحيى أُمها به إذا أتت إليها أر بعين يوما ، فلم يرقف لها على أمر ، بيد أني أردت أن يزداد في عدد العدول ، ويجمع إليهم الأطباء ، ومن يخوض في المقولات من علماء الملل المسلمين وغيرهم ، ويوكل من نساء الفرق مَنْ يبالغ في كشف من يدخل إليها ، ولا يترك أحد يخلو بها ، وبالجملة يبالغ في ذلك ، ويستقدم رعيها عليه سنة ، لاحتمال أن يغلب عليها طبع فتستغنى في فصل دون فصل ، ثم يكتب هذا في العقود ، ويُشَاع أمره في العالم ، وذلك لأنه يهدم حكم الطبيعة الذي هو أضر الأحكام على الشريعة ، ويبين كيفية غذاء أهل الجنة ، وأن الحيض ليس من فضلات الغذاء ، ويبطل التأثير والتولد ، ويوجب أن الافتقانات بالعبادات ، لا بالزوم ، وعند الأسباب^(١) ، لا بها ، إلى غير ذلك ، إلا أني لما أشرت بهذا انقسم مَنْ أشرت عليه بتبليغه إلى مَنْ لم يفهم ما قلت ومن لم يرفع به رأسا لا يثار الدنيا على الدين ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد ذكر أن امرأة أخرى كانت معها على تلك الحالة ، وحدثني غير واحد من الثقات ممن أدرك عائشة الجزيرية أنها كانت كذلك ، وأن عائشة بنت أبي يحيى اختبرتها أر بعين يوما أيضاً ، وكَم من آية أضيعت ، وحجة نسيت ، هذا مما لم يعرف مثله قبل المائة الثامنة ، وكذلك الوباء العام القريب فروطه ، يوشك أن يطول أمره ، فينسى ذكره ، ويكذب المحدث به إذا انقضى عصره ، وكَم فيه أيضاً من أدلة ، على أصول الملة .

(١) مذهب أهل السنة أن الله تعالى يخلق المسبب عند وجود السبب ، ومذهب المعتزلة أن المسببات توجد بوجود أسبابها لكن يخلق الله تعالى ، وفرق بين المذهبين .

ومنه - قال شيخ من صالحى الفقهاء فى عصرنا بفاس : أبو زرهون عبد العزيز بن محمد القيروانى رحمه الله تعالى : مات فقير عندنا بالمئذنة ، فوجدوا عنده ربطة من دراهم ، فوضعوها عند المؤذن ، فلما نزل ليأخذه سقطت من جيبه فى القبر ، ولم يشعر حتى واره ، فكشف عنه ، فإذا الدراهم قد لصقت ببذنه درهما إلى درهم كالنجوم ، فحاول قَلَعَ واحد منها فقامت معه قطعة من لحمه ، وتبعها من ذلك الحل ريح منتنة ، قال الشيخ : فاطلعت على ذلك وشاهدته ثم ردوا التراب عليه وانصرفوا . قال عبد الله بن إدريس لغيلان الممرور : متى تقوم الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، غير أنه من مات فقد قامت قيامته ، قال : فالمصلوب يعذب عذاب القبر ؟ قال : إن حقت عليه الكلمة ، وماتت لعل جسده فى عذاب لا تدركه أبصارنا ولا أسماعنا ، فإن الله لطفاً لا يدرك ، وانظر الحديث « فلولاً أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم ما أسمع من عذاب القبر » .

ومنه - المازرى : مسألة التكفير بالمال مشكلة ، وقد اضطرب فيها قول مالك وهو إمام الفقهاء ، والقاضى أبى بكر ، وهو إمام المتكلمين .
الغزالى : لا يقطع بتكفير الفلاسفة إلا فى ثلاث مسائل : قدم العالم ، ونفى العلم بالجزئيات ، وإنكار المعاد البدنى وتوابعه القطعية .
أصل الفلاسفة اعتقاد الحسوسات معقولات ، والمعتزلة اعتقاد المشهورات قطيعات ، ومن ثم قيل لهم : مخنثة الفلاسفة .

لا يكفى التقليد ، فى عقائد التوحيد ، لافرق بين إنسان ينقاد ، وبهيمة تقاد .
ومنه - كان أبوهاشم من أفسق الناس ، فجلس ذات يوم يعيب الإرجاء ^(١) وكان فى المجلس مسرحى ، فأنشد :

يَعْيِبُ القول بالإرجاء حتى يرى بعض الرجاء من الجرائر

(١) الإرجاء فى اللغة : التأخير ، وهو مقالة جماعة من المتكلمين ، وحاصلها أنهم يقولون : لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة .

وأعظم من ذوى الإرجاء ذنباً وَعَيْسِدِي يُصِرُّ عَلَى الْكِبَائِرِ
كان مالك ينفذ كثيراً :

وخير أمور الدين ما كان سنة وَشَرُّ الْأُمُورِ الْمُحَدَّثَاتُ الْبِدَائِعُ^(١)
ابن عقيل : يشبه أن يكون واضح الإرجاء زنديقاً ، فإن صلاح العالم في
إثبات الوعيد واعتقاد الجزاء ، فلما لم يمكن هذا المأثن حَجَّدُ الصانع لمخالفة العقل ،
أسقط فائدة الإثبات ، وهى الخشية والمراقبة ، وهدم سياسة الشريعة ، فهم شر
طائفة على الإسلام .

سئل مالك عن أشر الطوائف ، فقال : الروافض .
بيننا ابنُ المعلم شيخُ الرافضة في بعض مجالس المناظرة مع أصحابه أقبل ابن الطيب
فقال : جاءكم الشيطان ، فسمعه على بعد ، فلما جلس إليهم تلا عليهم (ألم ترأنا أرسلنا
الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا)

مالك : أهل السنة مَنْ لَا لِقَبَ لَهُ : لَا خَارِجِي ، وَلَا قَدْرِي ، وَلَا رَافِضِي .
البديع :

يقولون لى : ما تحب الوصى	فقلت : التَّرى بغم الكاذب
أحب النبي وآل النبي	وأختص آل أبي طالب
وأعطى الصحابة حق الولاء	وأجرى على السَّنة الواجب
فإن كان نَصَباً ولأه الجميع	فإني كما زعموا ناصبي ^(٢)
وإن كان رَفَضاً ولأه الجميع	فلا برح الرفض من جانبي ^(٣)

(١) أخذ هذا البيت من قوله صلى الله عليه وسلم « شر الأمور محدثاتها » .
(٢) النصب : قول جماعة يسمون النواصب ، يزعمون موالاتهم للشيخين ليتذرعوا
بهذا لأن يسبوا علياً وآله ، ولا وربك لا يؤمنون حتى يكونوا مع سنة رسول الله
(٣) الرفض : مقالة قوم يدعون موالاته على رضى الله عنه ويسبون الشيخين
أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، وهم شرار الخلق .

أحب النبي وأصحابه فما المرء إلا مع صاحب
أيرجو الشفاعة مَنْ سَبَّهم بل المثل سوء للضارب
يُوقَى المسكاره قلب الجبان وفي الشبهات يد الحاطب
أخذ البيت الخامس من قول الشافعي :

إن كان رَفُضًا حُبُّ آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

ومنه - أبوحنيفة : لقيت عطاء فقال لي : ممن أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة
فقال : من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، قلت : نعم ، قال : فمن
أنت منهم ؟ فقلت : ممن يؤمن بالقدر ، ولا يسب السلف ، ولا يكفر بالذنب ،
قال : عرفت ، فالزم .

ومنه - الإرادة تطلق على المحبة ، وعلى قصد أحد الجائزين بالتخصيص ، وكل
واحد من المعنيين يوجد بدون الآخر ، أما الأول فكقوله :
* تريد النفس أن تُعْطَى مُنَاهَا *

وهو ظاهر ، وأما الثاني فكقصد المتوعد بالإهلاك إلى أمر عبده الذي أمره
بأمر لينظر امتثاله ، ولدقة الفرق بينهما ضل المعتزلة في أمرهما فقالوا : إن الله عز وجل
لا يريد المعاصي ، لأنه لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، قال عمار بن
ياسر يوم صفين :

صدق الله وهو للصدِّقِ أَهْلٌ وتعالى رَبِّي وكان جليلا

رَبٌّ عَجَّلَ شهادة لي بقتل في الذي قد أحب قتلا جميلا

ومنه - العبدري : قَتَلَ الحسين دعا إلى حرب ، وأخذ بثاره كذابٌ ثَقِيف ، ونوه
باسمه أعداء ملة جده بنو عُبَيْدٍ^(١) ليقْتَص من قضية بمثلها ، فيقرأ الفهم سورة تلك
الصورة ، ويتهجى اللبيب حروف تلك الحروب ، فيعلم أن الكل آلات مستعملات
حسما اقتضاه العلم القديم .

(١) أراد العبيديين (الفاطميين) الذين ملكوا المغرب ، ثم ملكوا مصر

ومنه - أبو العباس الأيباني : ثلاث لو كتبت على ظفر لوسعهن ، وفيهن خير الدنيا والآخرة : اتبع لا تبتدع ، اتضع لا ترتفع ، اترع لا تتسع .

ومنه - كانت سكينه بنى إسرائيل في التابوت ، فغلبوا عليها ، وسكينه هذه الأمة في القلوب ، فغلبوا بها ، استحفظوا كتابهم خرفوا من أحكامه ووصفه ، وحفظ كتابنا فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومنه - في الصحيح : كان أبو ذر يُقسم قسماً أن (هذان خصمان اختصموا في ربهم) نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة ، وعتبة وشيبة والوليد^(١) ، قلت : ففي الآية شهادة من الله تعالى لعلى بالجنة والشهادة ، أما الجنة فبنصها ، وأما الشهادة فلأنه وصاحبيه استشهدوا ، وخصمهم قتلوا ، فهي رادة على الخوارج قطعاً .
ومنه - جاز أبو بكر بن نافع بالكربخ أيام الديلم وقوة الرفض ، فقالت له امرأة : سيدى أبو بكر ، فقال : لبيك يا عائشة ، فقالت له : متى كان اسمى عائشة ؟ فقال : أيقتلوننى وتخلصين ؟

وفي آخر هذا الكتاب ما صورته : فهذه جملة تراجم ، وفيها مقنع لمن أراد المحاضرة ، أو تنميق مجالس المناظرة ، وكان الفراغ من جمعها في آخر يوم من شعبان المكرم من عام سبعة وخمسين وسبعائة ، انتهى ما تعلق به الغرض من بعض كلام مولاي الجد رحمه الله تعالى في كتابه المحاضرات .

ولنرجع إلى سرّ دبقية توافيه رحمه الله تعالى فنقول : ومنها شرح لغة قصائد المغربى الخطيب ، ومقالة في الطلعة المملكة ، وشرح التسهيل ، والنظائر ، وكتاب الحرك لدعاوى الشر من أبى عنان ، وإقامة المرید ، ورحلة المتبتل ، وحاشية بديعة جداً على مختصر ابن الحاجب الفقهى ، فيها أبحاث وتدقيقات لا توجد في غيرها ،

(١) كان حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث في جيش التوحيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة والوليد بن عتبة في جيش الكفر ، وقتلهم الله على الكفر بيد الثلاثة الأولين .

وقد وقفت عليها بالمغرب ، ومن أشهر كتبه في التصوف كتاب الحقائق والرقائق ، وهو من الحسن بمكان لا يُلْحَق ، وقد شرحه الشيخ الصالح شيخ شيوخ شيوخنا سيدي أحمد زروق رضي الله عنه ونفعنا به !

فوائد من
كتاب الحقائق
والرقائق
الدمري

وسنح لي أن أسرد هنا شيئاً من هذا الكتاب الفذ في بابہ فنقول :
قال فيه مولاي الجد رحمه الله تعالى : هذا كتاب شفعت ^(١) فيه الحقائق بالرقائق ، ومزجت المعنى القائق باللفظ الرائق ، فهو زبدة التذكير ، وخلاصة المعرفة ، وصفوة العلم ، ونقاوة العمل ، فاحفظ بما يوحيه إليك فهو الدليل ، وعلى الله قصد السبيل حقيقة - عمل قوم على السوابق ، وقوم على اللواحق ، والصوفي من لا ماضى له ولا مستقبل ، فإن كان زجاجياً ^(٢) فينج بخ .

رقية - من لم يجد ألم البعد ، لم يجد لذة القرب ، فإن اللذة هي التخلص من الألم حقيقة - لما انطبعت الصور في مرآة الخيال قال العقل : أنا الملك المسكوك ، فقالت الرياضة : الزمنى وتعرف قدرك ، فإذا العقل عقال .

رقية - من ضحك في نوم الغفلة بكى عند الانتباه ، فإن الأضغاث أضداد . حقيقة - أثر الزهد عقل دن سقراط على سراج غوطة أبي نصر ، فقيل : فأين اعتبار (أفلا ينظرون) ؟ فقال : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) .

رقية - طالب الدنيا يخاف الفوت ، وصاحبها يتقرب الزوال ولو بالموت ، فإذا حى الوطيس ، وحجج الرئيس ، أنشأ الزاهد بينهما ينشد :

عزيز النفس لا ولد يموت ولا أنس يحاذره يفوت

حقيقة - العابد طالب رياسة وحرمة ، والزاهد صاحب نفاسة وهمه ، والمعنى للعارف يعادى في الله تعالى ويوالى ، ويرضى الله ولا يبالى .

(١) شفعت : أراد ألحقت هذه بتلك ، وجعلت تلك ثانياً لهذه

(٢) زجاجياً : لعله يريد أن باطنه كظاهره ، فهو كالزجاج لا يحجب ما وراءه .

رقية - مَنْ سَابِقُ سَبَقٍ ، وَمَنْ رَافِقُ ارْتَفَقَ ، وَمَنْ لَاحِقُ التَّحَقُّقِ ، وَالْعَبْزُ وَالْكَسْلُ مَقْدَمَتَا الْخِيبةِ .

* وَعَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعِزْمِ تَأْتِي الْعِزَامُ * ^(١)

حقيقة - العمل دواء القلب ، وإذا كان الدواء لا يصلح إلا إذا كان على حمية البدن ، فكذلك العمل لا ينجح إلا بعد صوم النفس ، فارق نفسك وتعال رقيقة - مثل دواعي الخير والشر في الإنسان كمثل الخلط الفاعل والقوة الدافعة في العليل ، تغلب القوة فيسكن الخلط فيجد الراحة ، وعن قليل يتحرك فيجد الألم حقيقة - العمل على السلامة مسالمة ، وعلى الغنيمة تجارة ، وعلى الأمر قرض ، فيضاعف له أضعافاً كثيرة .

رقية - تطهر من أدناس هواك ، وتزين بلباس تقواك ، وقم لمسجد انقطاعك على قدم شكواك ، وأحرم بتوجيه قلبك إلى قبلة نَجْوَاك ، تجد الحق عندك وليس بسواك .

حقيقة - وجد العارف فجاد بنفسه ، فوجد الله عنده ، وتواجد المريد فخاكي ، ومن لم يَمَكَّ تَبَاكِي .

رقية - زكَّ نفسك لقلبك ، تزكَّ عند ربك ، بعها منه رخيصة ، فهي على ثمنها لديه حريصة ، إن الله اشترى .

حقيقة - الزوال وقت المناجاة ، فطهر قلبك قبله من الحاجات ، وإياك والحظ ، فذهاب تقطنته أسرع من اللحظ .

رقية - الزاد لك وهو مكتوب ، والزائد عليك وهو مسلوب ، فأجل في طلب المضمون ، ولا تلزم نفسك صَفَقَةَ المغبون .

(١) هذا صدر مطلع قصيدة لأبي الطيب المتنبى ، وعجزه قوله :

* وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ السَّكَامِ السَّكَامُ *

حقيقة - أمر بالتوكل لتقصر الطرف عليه ، وأذن في التسبب لتتصرف منه إليه ، فذاك مخبر بحقيقة التفرد ، وهذا مظهر لحكمة التعبد .

رقية - الملك أبو الدنيا ، وهو مع ذلك محبوب فيها ، تبهم عليه الأبواب ، ويستدعى الحراس والحجاب ، فإذا خرج حَدَقَتْ إليه الألحاظ ، وأحدثت بجهاته الحفاظ ، أى حَظَّ حَظُّ من فقد نعمة (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) .

حقيقة - قال صاحب الزهر الأنيق : علامات الحجة أربع : الإفلاس ، والاستثناس ، والأنفاس ، والوسواس . قلت : الإفلاس التجرد إلا عنه كالخليل ، والاستثناس التوحش إلا منه كالكليم ، والأنفاس والوسواس صلة الأسم وعائده .
رقية - ذكر مذكر بمالقة ، فقام الخطيب الشيخ الولي أبو عبد الله الساحلي بهذا البيت :

ليت شعري أنى زمام رضاكم كُتِبَ أسمى أم فى زمام الهوانِ

وكنت يوما مع السلطان والجند يعرضون عليه ، وكان يسقط ويثبت ، وأنا أتفكر فى البيت ، حتى خلت أن أفتضح ، فقلت : وإما من هذا الإيهام ، ثم كدت أخلدُ بقبح العمل إلى الأرض فينشلىنى حسن الظن بالله عز وجل فأنهض :

إن المقادير إذا ساعدت ألحقت العاجز بالقادر

حقيقة - إذا قابل إبرة القلب مغناطيس الحسن صبا فأنجذب ، فإذا اتصل عشق فانقطع ، فإذا انجذفت فبقى ، حاشا الصوفى أن يموت .

رقية - افتخر الغراب بإقامة قرآن الفجر^(١) ، فقيل : حتى تغسل بول الشيطان من أذنك ، فطرب الديك فرحا بالفوز ، وندب العصفور ترحا على القوت .

(١) تضرب العرب المثل بالغراب ، فيقولون « فلان أبكر فى حاجته من الغراب »

حقيقة - الخلوة بيت الاعتبار ، وفي بيته يُؤْتَى الحكم ^(١) ، وباب هذا البيت العلم (واثتوا البيوت من أبوابها) .

رقيقة - واقع فقير هَنَاءَ ، ثم دخل خلوته ، فبَدَت له نفسه بوجه مُوسَى ، فقال : ما أنت ؟ قالت : أم الحياة ، فقال : ما أَجمل أن تبدل هاؤك همزة ، فقالت : إذن لم تصنع ما شئت ، فانقبه لَقَرْعِ العتاب ، فتاب .

حقيقة - القلب إِيوانُ الملك وَيَسْعَى ، وعز الملك يَأْنف عن ذل المزاحمة ، أنا أغنى الشركاء عن الشرك ^(٢) .

رقيقة - لما وضع البسطامى أوزار حُوبه ، فَكَ طابَعَ الصحيفة عن قلبه ، فلم يجد بها غير الطفرى ، فصاح بنفسه لك البشرى ، أنزل طيفور عما تريد ، ليس فى الدار أبو يزيد ؟

حقيقة - قال شيخنا أبو هادى يوما لأصحابه : بماذا يرتقى العبد عن مقامه إلى مقام أعلى منه ؟ قالوا : بفضل الله ورحمته ، فقال : إنما سألتكم عن السبب الخاص بهذا الأمر ، قالوا : من عند الشيخ ؟ قال : يخلق الله له همة فيرتقى بها إلى رتبة أُتِمَّتْ من رتبته .

ومن هذا الكتاب :

حقيقة - التفت إلى مواهب الملوك تجدهم إنما يوسعون فيما قد يسترجعون ، فأما العلماء وكل من يعطى بحق فإنما يعطون بقصد (ولا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجنا منهم) واصبر نفسك دونهم فعن قريب تنصرف عنهم .
رقيقة - قلت لقلبي : كيف تجددك ؟ فقال : أَمَامِنِ أَمَّارَتِكَ ^(٣) ففى عناء الجهاد ،

(١) هذا مثل من أمثالهم

(٢) هذا حديث قدسى ، يحكيه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه

(٣) أخذوا تسمية النفس بالأماراة من قوله تعالى : (إن النفس لأماراة بالسوء)

وأما من أَوَّامتك^(١) فعلى جمر الصبر ، قلت : فمتى الراحة ؟ قال : إذا اطمأنت النفس ، فاضمحل الوهم وغاب الحس .

حقيقة - قطع السَّوَى طهارة المنيب^(٢) ، ولا يقبل الله صلاة بغير طهور ، وكتابه النحيب ، والمكاتب عبدٌ ما بقى عليه ، وبابه الدخول على الحبيب .

نظر رجل إلى امرأة غفيفة فقالت : يا هذا غض بصرك عما ليس لك ، تنفتح بصيرتك فترى ما هو لك .

رقيقة - لما حنكت الطينة بتمر الجنة ، وغذيت بلبانها ، فطرت على محبتها ، انظروا إلى حب الأنصار التمر ، فلم تطق الفطام عنها .

* وتأبى الطباع على الناقل *^(٣)

فذاك ما تجد من الحنين إلى التلاق ، والأنين على الفراق ، والشغف بمدح العابر ، وذم الغابر ، وفي ذلك :

كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشغلنا بدم هذا الزمان
وإن لم تعرف عصراً خاليا ، ولا خلا نائيا ، لم يمر عليك مما تشبهه ، أطيّب
مما أنت فيه :

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل
ومنه : حقيقة - قيل : عرض الكليم بطلب القوت في رحلة الهجرة (إني لما أنزلت إلى من خير فقير) فحمل على كاهل (إن أبي يدعوك) وصرح في سفر التأديب (لوشئت لاتخذت عليه أجرا) فحمل على كاهل (هذا فراق بيني وبينك) قلت : لما تمحض الطلب له اكتفى ، فلما تعلق حق الغير به وفي ، ولذلك قضى أبا المرأتين ، الأجلين .

(١) أخذوا تسمية النفس باللاوامة من قوله عز وجل : (لا أقسم يوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة)

(٢) المنيب : الراجع إلى الله ، أناب ينيب إنابة : أي رجع

(٣) عجز بيت المتنبي ، وصدره قوله * يراد من القلب نسيانكم *

رقية - كان خرق السفينة إراءة لكرامة (فاقذفيه في اليم) في مرآة (وكان وراءهم ملك) :

* وربما صحت الأجسام بالعلل *

وقتلُ الغلام إشارة إلى اشتغال قتله (ففضى عليه) على رحمة (فنجيناك من النعم) برمز (فخشينا أن يرهقهما) والحن الصم حبائل المنح ، وإقامة الجدار إثارة لغتوة (فسقى لها) ليخفف له جناح (إني لما أنزلت إلى من خير فقير) فيستظل من حر (لو شئت لاتخذت عليه) في نية (هذا فراق بيني وبينك) .

حقيقة - قيل لمحمد بن الحسن الزبيدي التونسي وأنا عنده بها : كيف لم يصبر السكيم وقد ناط الصبر بالمشيئة (ستجدني إن شاء الله صابراً) ، وقد جاء في الصحيح في قصة سليمان عليه السلام « لو قال إن شاء الله لكان كما قال » والمقام الموسوي أجل (واصطنعتك لنفسى) وطلابه أفضل ؟ ما جميع أعمال الصبر والجهاد في طالب العلم إلا كبصقة في بحر ، فقال : كان موسى على علم من علم الله ، وهو علم العامة ، لا يعلمه الخضر ، وكان الخضر على علم من علم الله لا يعلمه موسى ، فلم يظن أن أن مالم يحط به خبراً يأباه حكم الظاهر ، وإلا كيف يلتزم البر عليه ، وقد أمر بصرف الإنكار إليه ؟ (ما منعك إذ رأيتهم ضلوا) بل لم يعتد مثله من ملاقة المشاق ، فيما كان عليه الخضر من اختراق الآفاق ، وركوب الطباق ، فما علقه بقوله ، فقد صدقه بفعله ، ومالم يستطع عليه صبرا ، فلم يدخل في التزامه اعتقاداً ولا ذكراً .

رقية - قال لي عبد الرحمن بن يعقوب المكي : كان عندنا بالساحل سائح هجيرة^(١) : إلهي بسطت لي أملي ، وأحصيت علي عملي ، وغيت غني أجلي ، ولا أدري إلى أي الدارين يذهب بي ، لقد أوقفني موقف الحزوين ما أبقيتني .

(١) يقال « جعل فلان الأمر الفلاني هجيرة » بكسر الهاء وتشديد الجيم مكسورة

أي جعله ديدنه ولم يفارقه

حقيقة - تَنَازَعَ القلبُ والنفسُ الخُلُقَ ، فقسمهما بينهما قاضى العقل ، فمن باع
منهما حظه فلا شُفْعَةَ لصاحبه عليه .

ومنه : حقيقة - الحجب ثلاثة : فحجاب الغيرة منع ، وحجاب الحيرة دفع ،
وحجاب الغفلة قطع (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

رقية - اللحم أيام التشريق مكروه ، وكل لذة عند أرباب الدنيا كاللحم
عندك أيام الأضحى ، فلا تزينك الغفلة عن شرك زيادة النعمة عندك .

حقيقة - الفقر إلى الله الاستغناء به عما سواه ، وهوية^(١) الرضا بالله أن لا يخطر
بالبال إلاَّه .

ومنه : حقيقة - التلون مجون ، تارة طربا وطورا شجون ، والتمسك معرفة ،
وأين الحال من الصفة ؟

رقية - قال لى محمد بن عبد الواحد الرباطى : قال لى محمد بن عبد السيد
الطرابلسى : دخلت على أبى الحسن الحرانى فقلت له : كيف أصبحت ؟ فأنشد :

أصبحت أطف من مرّ النسيم سَرَى على الرياض يكاد الوهم يؤلمنى
من كل مَعْنَى لطيف أحتسى قَدْحًا وكل ناطقة فى السكون تطربنى

حقيقة - قال الطالب : الوقت سيف ، وقال الواصل : بل مقت ، فتلا
العارف (قل الله ، ثم ذَرَهُمْ فى خوضهم يلعبون) .

رقية - لصاحب الوقت يومان :

يوم بأرواح يُبَاع ويُسْتَرَى وأخوه ليس يُسَام فيه بدرهم
وفصل الفضل بينهما :

وما تفضل الأيام أخرى بذاتها ولكن أيام الملاح ملاح

(١) الهوية : من مصطلحات الفلاسفة ، وهى منسوبة إلى « هو » وهى عندهم
عبارة عن حقيقة الشيء وماهيته مع جميع مشخصاته .

ومنه : حقيقة - قال لى الشيخ أبو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسى بعباد
اللسان : قال لى أبو عبد الله بن حيون : إنه وجد على ظهر كتاب بخط عتيق :
قال أبو يزيد البسطامى : يظهر فى آخر الزمان رجل يسمى شعبيا ، لا تدرك له
نهاية ، قالوا : وهو أبو مدّين ، قلت : وقف بظاهره مع الشريعة ، وذهب بباطنه
مع الحقيقة ، فما انقطع لصحة البداية ، ولا رجع لعدم الغاية .

رقيقة - قت ببعض الأسحار ، على قدم الاستغفار ، وقد استشعرت الصبابة ،
واستدثرت الكآبة ، فألمى الجنان على اللسان ، بما نفث فى روعه روح الإحسان :

منكسر القلب بالجنّايَا يدعوك يا مانح العطايا^(١)

أفعدّه الذنب عن رفيق حثّوا لرضوانك المطايا

ومنه : أثر حقيقة فى شأن الحلاج ما نصه ، ثم قلت :

ولرب داع للجمال أطعمته وأبى الجلال على أن أتقدما

فأطعت بالعصيان أمرها معاً وجنحت للتسليم كما أسلمنا

ومنه : حقيقة - قلت للسّر : مالك تحس من خلف الموانع ؟ فقال : خرق

شعاعى سور العوائق ، ثم انعكس إلى بصور الحقائق ، فأصبحت كما قيل :

كأن مرآة عين الدهر فى يده يرى بها غائب الأشياء فلم يغيب

رقيقة - الليل رداء الرهبة ، تهاب الجبان أسد الأبطال ، وتتقى الحواس دونه

الخيال (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قبلا) .

حقيقة - النهار معاش النفس ، فهو استعداد (إن لك فى النهار سبعا طويلا)

والليل ريش الأنس ، فهو معاد (واذا كر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) فهذا جمع

وذلك فرق ، والحال أسرع ذهاباً من البرق .

(١) الجنايا : جمع جنية - بوزن عطية وعطايا ، ومطية ومطايا - والجنية :

الذهب ، ووقع فى قول زياد العيسى « جنية حرب جناها » بمعنى خصلة

ومنه : حقيقة - إن أكبرت النفس حالها ، فذكرها أصلها ومآلها^(١) ، فإنها تصغر عند ذلك ، وتستقيم بك على أرض المسالك «أحشوا التراب في وجوه المدّاحين» (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) .

رقية - إنما يتعاضد من يجد الحقارة من نفسه ، ويتوهم المهانة عند أبناء جنسه ، فلذلك تراه مغمرًا للعيون ، مهمزًا للظنون ، من أسر سريرة حسنة كساه الله رداءها . رقيقة - رأيت الملوك لا يشتمون ، ولا يدعى لهم إلا بما يتعلق بأغراض الدنيا ، وأكثر ذلك مما تحيل عقوده العوائد ، فعلمت أن الدنيا ضد الآخرة . حقيقة - من لم يفرخور وذلك الجبن ، من خاف أدلج ورجا ، من لم يكرتمن وتلك الزمانة (يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً) .

رقية - سمعت أبا محمد الجاصي يقول : رويت بالسند الصحيح أن عابداً رابطاً ببعض الغفور مدة فكان كلما طلع الفجر يسمع من ينشد دون أن يرى شيئاً :
لولا رجال لهم سرد يصومونا وآخرون لهم ورد يقومونا
لزالت أرضكم من تحتكم غضباً فإنكم قوم سوء لا تبالونا
حقيقة - ما حمد الله حق حمده ، إلا من عرفه حق معرفته ، وذلك مما لا ينبغي لغيره « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .
رقية - قلت :

أشيم البرق من بين الثنايا وأشتّم العبير من الثناء
فأبدو تارة وأغيب أخرى مشار الشوق مشنى الحشاء

حقيقة - تحقق الحامد بكمال الذات فغاب عن حسه في بحار العظمة ، وتعلق

(١) لعله أخذ هذا مما ينسب إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وكرم وجهه ! - وهو « ما بال الإنسان يتكبر وأوله نطفة منذرة ، وآخره جيفة قدرة ، وهو فيما بينهما يحمل العذرة ؟ » أو ما هو بمعنى ذلك .

الشاكِر بحِمالِ الفعل فوقف مع نفسه بسوق النعمة، فهذا تاجر (اثنِ شكرتم لأزيدنكم) وذلك ذاكر (وما بكم من) .

ومنه : حقيقة - الصبر مطية المريد ، والرضا سحبة المراد ، فهذا يقوم للأمر ، وذلك يسعى للأجر .

رقية - الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والصبر بغير حساب ، والرضا بالرضا ، وذلك سِدْرَةُ المنتهى .

حقيقة - النفس الأمارة أبدة^(١) لا تملك إلا بلطائف الحيل ، والمطمئنة ذلول لا تنفلت إلا من غفل (وأخاف أن يأكله الذئب)

رقية - الدنيا معشوق الطالب ، عاشق الهارب ، هذا يستخدمها ، وذلك يخدمها ، يبني الخادم المسجد ليقال ، ويعمره الخدم لينال ، فعل الخادم السعي من غير جدوى :

* وليس لرحل حطّه الله حامل *

والمخدوم الجدوى بغير سعى

* وليس لما تبني يدُ الله هادم *

إن السعادة أصلها التخصيص .

حقيقة - الجلال ريش ، والحسن صورة ، والملاحة روح ، فذلك ستره عليك ، وهذا سره فيك (فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي) .

رقية - أعطى يوسف شطر الحسن ، يعنى حسن آدم ، لأنه إن لم يكن في الإمكان أبدع مما كان فقد خلقه الحق بيده في أحسن تقويم ، ثم نفخ فيه من روحه لئتم علة الأمر بسجود التحية والتكريم ، فكان كما قال من أنزل عليه الفرقان

(١) أبدة : نافرة ، وأصله اسم الفاعل من قولهم « أبدت الدابة » - من بابي ضرب ونصر - أبودا ، وذلك إذا توحشت ، ويقال فيه أيضا : أبدت تأبد - من باب فرح - فهي أبدة أكفرحة

« خلق الله آدم على صورة الرحمن » فأدم إذا كمال الحسن ، وإلا فهو المراد ، لأن الشطر ، يقتضى الحصر ، والنصف ، ينزع عن الوصف ، وأعطى محمد صلى الله عليه وسلم كمال الجلال ، فما أبصره أحد إلا هابه ، وتما الملاحه فما عرفه شخص إلا أحبه ، مع أبناء نوره فى الآباء ، بأن أبوة المعنى لسيد نجباء الأبناء ، كما قال العارف عمر :

وإني وإن كنت ابن آدم صورةً فى فيه معنًى شاهدٌ بأبوقى
حقيقة - لا يثنيك الخوف عن قرع الباب فتىأس^(١) ، فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يدينك الرجاء من الفترة فتأمن ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، فإن لم تستطع بعد الحرص أن تعدل ، فلا تمل كل الميل مع النفس ، إن النفس لأماراة بالسوء .

رقيقة - ارفع قصتك فى رقعة الإقبال على كف الرجاء ، خافضا من طرف الحياء ، وصوت الإدلال ، عاكفا فى زاوية الانكماش من وراء ستر الخوف ، يخرج عليك حاجب القدر من باب السكرم بتوقيع (فاستجبنا له) .

ومنه : حقيقة - صدق مجاهدة الفاروق أيقظ الوسنان ، وطرد الشيطان ، وأرضى الرحمن ، فجاز بسلامة « ما سلكت فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غير فجك » وحقق مشاهدة الصديق أسمع من ناجى ، فجاز غنيمة « لو كشف الغطاء ما ازداد يقينا » .

رقيقة - ذهب أبو بكر فى السابقين ، ولحق عمر بأهل اليقين ، فما أدرك الصديق أداء التصلية ، حتى استدرك الفاروق قضاء التفتية :

ولو كنت فى أهل اليمين مُنعمًا بكيت على ما فات من زمن الصبا

(١) قرع فلان الباب - من باب قطع - إذا طرق عليه ليفتح له ، وقد قال الشاعر :
أخلق بنى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

حقيقة - النص سلاح ، والنظر مطية ، والاتباع جُنَّة ، والورع نجاة ،
والخلاف فتنة ، والبدع مهالك ، وخير الأمور أوساطها .

ومنه : حقيقة - تحير المساعد ، واختبر المصاعد ، وليكن همك في سفرك منك
معرفتك كيف ترجع إليك ، فلن يحقق صفة الربوبية ، مَنْ لم يحقق
نعت العبودية .

رقيقة - حدثت أن سيدى أبا الحسن الشاذلى لما أزمع على التحول من طَيِّبَةٍ
على مَنْ بها الصلاة والسلام ، أوقف فعله على إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
له ، فرآه في منامه فقال : توحشنا يا على ؟ فأخذ يعتل ، فأذن له ، وقال : إذا جئت
مصر فاقرأ عز الدين بن عبد السلام منى السلام ، قال : فلما التقينا بلغته المألكة (١)
سرا ، فلم تظهر نفسه لذلك ، فلما قام للمزمزم قال :

صَدَقَ المَحْدُثُ والحديث كما جرى وحديث أهل الحب ما لا يفترى
فاستغفر الشيخ ، ثم كذب نفسه ، ثم حط للتسليم رأسه .

حقيقة - الوهم شيطان القلب يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن
شماله وسائر الجهات لمراقبة (قل هو القادر) فمن ثم كان أشد تقلبا من المِرْجَل على
النار ، فاذا ذكر الله سكن (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

رقيقة - فرق القلب من ذكر الله خوف (وجِلَّتْ قلوبهم) ثم سكن لذكره
رجاء (وتطمئن قلوبهم) فعاد داء تقشعر منه دواء (ثم تلين) فنقع بلائمة :

* دع عنك لومى فإن اللوم إغراء *

ثم هتف بمناداة :

* وداوئى بالتي كانت هى الداء *

(١) المألكة ، ولألك - بفتح الميم وسكون الهمزة وضم اللام فهما - الرسالة ،
وقال عدى بن زيد العبادى :

أبلغ النعمان عنى مآلكا أنه قد طال حبسى وانتظارى

حقيقة - العبودية صفة نفسك ، لأنها حال أحد العبيد ، والعبودية صفة قلبك ، لأنها ملكة واحد العباد ، والعبادة قصد وجهك ، لأنها نعت الفردوس من العباد .

ومنه : حقيقة - إنما تزيد في الدنيا بقدر ما تنقص من الآخرة ، فإن نشيد الجدار على قدر انتقاص الجبل .

رقية - من جر لنفسه جار على قلبه ، فلا تجوز شهادته عند ربه ، لأن العدل ترك العدول والميل .

رقية - لا تقدم إلا بدليل وإذن ، واحذر مالا ينفع ما استطعت فقدم ، انظر فلا خرج إن جهلت ما لم تكلف علمه ، وأخاف عليك سوء عاقبة الهجوم . رقيقة - إذا اهتز العرش بالسحر لدعاء أهل (تتجافى جنوبهم) انبعث من نسيمه ما أغشاهم طيبه الراحة (أمانة منه) وأهب المستغفر من نومه لإدراك فضل (رضى الله عنهم ورضوا عنه) .

حقيقة - دع الغريب وما يريب ، واركب الجادة ، ولا تسلك بُنيات الطريق^(١) (فتفرق بكم عن سبيله) .

ومنه : حقيقة - سفر المريد تجارة ، وسفر العارف عمارة ، فهذا يرحل للإقامة عند الحقيقة ، وذاك يطلب الاستقامة على الطريقة .

رقية - إياك أيها المصلى لنا ، أن تلتفت إلى غيرنا ، وأقبل علينا بصدق نيتك وناجياً بخلوص سريرتك ، فقد قمنا بينك وبين قلبتك ، وناجينك باسان تلاوتك فإن غبت عنا ، فلست منا .

(١) بُنيات الطريق - بضم الباء وفتح النون وتشديد الياء - الطرق الصغار تنشعب وتتفرع من الجادة ، وقالوا في مثل « دع بنيات الطريق » يريدون عليك بمعظم الأمر واترك الروغات .

حقيقة - الشطح كناية ، والكرامة عناية ، والاعتراض جنائية ، فإياك ولم ؟
فإن عرفت فاتبع ، وإن جهلت فسلم .

رقية - الليل معاد الأنس (إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلا) والنهار
معاش النفس (إن لك في النهار سبعا طويلا) فهذا نشاط رغبة يتسع في مناكبه
الجمال ، وتعتور على مراكبه الأحوال ، وذلك حجاب رهبة تهوى إليه الأوجال ،
وتجتمع فيه هموم الرجال ، ألا ترى كيف تهاب الجباب دونه الأبطال ، وتنتفى
الحواس خلفه الخيال ؟ كما قال :

نهارى نهار الناس حتى إذا دجا لي الليل هزتنى إليك المضاجع^(١)

أقصى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهمل بالليل جامع

حقيقة - حجب الطالب أربعه : فحجاب الغيرة قاذع ، قيل لبعضهم : أنتحب
أن تراه ؟ فقال : لا ، قيل : ولم ؟ قال : أجل ذلك عن نظر مثلى ، وحجاب التيه قانع ،
نزل فقير على ابن عجوز ، فبينما هي تصلح له الطعام غشى على الفتى ، فسألها الفقير
فقلت له : إنه يهوى ابنة عم له بتلك الخيمة ، فخطرت ، فاشتم غبار ذيلها ، فذهب
الفقير ليخطبها عليه ، فقلت : إذا لم يطق غبار ذيلي فكيف يستطيع أن يشاهدنى ؟
وحجاب الخيرة دافع ، ومن ثم حلا لأرباب الغيبة ، قال بعضهم : يادليل الخائرين ،
زدنى تحيرا ، ومر على أصحاب الرغبة والرهبة كما قال :

قد تحيرت فيك خذ بيدي يا دليلا لمن تحير فيكا

وحجاب الغفلة قاطع ، كان بعضهم يقول : إن عذبتنى بشيء فلا تعذبني بذل
الحجاب ، ونظر آخر إلى امرأة فوقع عليه سهم فغوره^(٢) وعليه مكتوب : نظرت بعين
العورة فرميناك بسهم الأدب ، ولو نظرت بعين الشهوة لرميناك بسهم القطيعة .

(١) حفظي في صدر هذا البيت * نهارى نهار الناس حتى إذا بدا *

(٢) أصل هذا قولهم « سهم عائر » إذا كان لا يدرى راميهِ .

رقية - حدثت أن ابن الفارض دخل على الشيخ عز الدين وقد ذهب به
التفكير فيأله عند الله عز وجل ، فكاشفه بأن أنشده من قصيدة له :
لك البشارة فأخلع ما عليك فقد ذكرت ثم على ما فيك من عوج
فبدرته البشاشه ، وأظن أن قد خلع فمأشه .

حقيقة - وقفت ذات يوم بالجبانة ، واستفهمت اسمى هل عرف منها مكانه ،
فأملى بعد هنيأة من نظمه ، ما وقفت منه على حقيقة مبلغ علمه :

كل ميت رآته عيني فإني ذلك الميت إن نظرت بقلبي
وجميع القبور قبري لولا جهل نفسي بما لها عند ربى

رقية - أهم ما على السالك مراعاة قلبه ، أن يتلف في قلبه ، فذلك فساد
حاله ، وذهاب رأس ماله ، تزوج فقير فلبس ثياب العرس ، فطلب قلبه فلم يجده ،
فصاح : خُلقاني ، فأعطوه ، فأخذها وخرج .

حقيقة - حُجِبُ المطلوب ثلاثة : فحجاب التيه جمال ، كما قال العارف عمر :
ته دلالة فانت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد ولا كآ
وحجاب العزة جلال :

همت بإتياننا حتى إذا نظرت إلى المِراةِ نهاها وجهها الحسن^(١)
وحجاب الكبرياء كال ، أنشدت لرابعة :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فأن ترفع الحُجب حتى أراكا
وما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذاوذاكا

(١) المرأة : أصلها المرأة - بسكون الراء بعدها همزة مفتوحة فألف - فنقل
حركة الهمزة إلى الراء وقلب الهمزة ألفا ، فالتقى ألفان ، خذف إحداها ، وليس
ذلك مقبوسا فى هذه الصيغة .

وهذا معنى ما في الصحيح « وما بين أهل الجنة وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »

ومنه : حقيقة - الآثار منصة التجلي ، فمن لم يزر مهلب ، ويتفكرون زار عمير يمرون ، وبطل رصد الحجاج .

رقية - من تفكر تذكر ، ومن تذكر تبصر ، فإن أكل وقف ، وإن قصر انصرف (إنا هدينه السبيل) .

حقيقة - الوحدة فهم ، والتوحيد علم ، والاتحاد حكم ، والائينية وهم .

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *^(١)

ومنه : حقيقة - أهم ما على السالك مراعاة قلبه ، أن يتلف في قلبه ، فإن ذلك فساد حاله ، وذهاب رأس ماله ، رؤى فقير ينادى في السوق : ارحموا صوفيا ذهب رأس ماله ، فقيل له : وهل للصوفي رأس مال ؟ فقال : نعم ، كان لي قلب فقدته .

ومنه : حقيقة - تنازع القلب والنفس الخلق ، فترافعا إلى العقل ، فقسمه بينهما ، فانشردت النفس بالهوى ، والقلب بالتقوى ، فصُرِفَتْ طرقيهما إلى الجهتين ، وقطعت الشفعة فيهما بين العثين .

ومنه ، عند ختم الكتاب ما نصه : حقيقة - لا يودع السر إلا عند أهله ، ولا يذيعه إلا من ضاق ذُرْعًا بحمله ، فإن عَدَا مودعه الرمز فقد زل ، وإن تعدى مذيعة الغمز فقد ضل .

رقية - الحسن خلق ، والجمال خلق ، وحسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن ، وحيث هو الجمال هو الجميل .

(١) هذا صدر بيت للبيد بن ربيعة العامري ، وعجزه قوله :

* وكل نعم لا محالة زائل *

وهذا البيت هو الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «أصدق كلمة قالها شاعر»

حقيقة - تحقق العلماء بالتوحيد فاستشعروا (والله خلقكم وما تعملون) لكنهم اعتبروا خلق السبب والابتلاء به ، فتصرفوا بدلالة الإذن في مذهبه ، فاستقاموا على طريقة الأدب ، ولم يفهم فضل التوكل ، ولم تنسج معارف الزهاد لما عرفوا المسبب بكيفية الانصراف إلى السبب منه ، لدقة الفرق بينه وبين الانصراف عنه ، فوقفوا مع التوكل للعذر ، ولم يستعملوا أدب الجريان مع ابتلاء الأمر ، وعكف الغافلون على ظاهر السبب ، ففاتهم التوكل والأدب (أولئك كالأنعام بل هم أضل) .

رقية - ألفت لعبد الحق الإشبيلي بيتا هو عندي أفضل من قصيدة ، وهو :
 قد يساق المراد وهو بعيد ويريد المريد وهو قريب
 ومن أراد معرفة قدر هذا البيت فليقل (الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب) .

حقيقة - أشرف أسمائك ما أضافك إليه ، وأكرم صفاتك ما دل فيك عليه .

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي
 ولا تصفني بالهوى عندها فعندها تحقيق أنبائي

رقية :

أعزز بمن سؤداء قلبي مغرب خياله ، وسؤاد عيني مشرق
 إن غاب عن سِرِّي فعنه لم يغب أو عن عياني فهو فيه محقق
 والعين تعجز أن ترى إنسانها والقلب بالروح اللطيف مصدق

صُنْ عينك عن قلبك لربك ، وقلبك عن نفسك لحبك^(١) ، ونفسك عن طبعك لوليك ، وطبعك عن هواك لعدوك ، وهواك عن سواك ، وقد كنت من نسل الجنة ، وكان بينك وبين البلاء أوقى جنة^(٢) ، لطف الله تعالى بي وبكم في مجاري

(١) في ب « وقلبك عن نفسك لحبك »

(٢) الجنة - ضم الجيم - الوقاية

أحكامه ، وَيَسِّرْنَا أَجْمَعِينَ لِلْعَمَلِ بِمَوْجِبَاتِ إِكْرَامِهِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ لِقَائِهِ ، انْتَهَى مَا تَعَلَّقَ بِهِ الْغُرُضُ مِنْ كِتَابِ « الْحَقَائِقِ وَالرَّقَائِقِ » لِمَوْلَايَ الْجَدِّ الْإِمَامِ ، سَقَى اللَّهُ عَهْدَهُ صَوْبَ الْقِيَامِ ! وَمَا ذَكَرْتَهُ مِنْ كَلَامِهِ غَيْضُ مِنْ فَيْضٍ ، وَقُلٌّ مِنْ كُثْرٍ ، وَيَكْفِي مِنَ الْحُلِيِّ مَا قَلَّ وَسُتِرَ الْعَنْقُ .

ولنذكر بعض نظمهم رحمه الله تعالى ، وقد تقدم بعضه أثناء ما سبق من كلامه رضى الله عنه ، فراجعوه إن شئت .

ومن بديع نظمهم رحمه الله تعالى مافي الإحاطة ونصه : نقلت من ذلك قوله : من نظم القرى الكبير

« هذه لمحّة العارض ، لتسكّلة ألفتية ابن الفارض ، سلب الدهر من فرائدها مائة وسبعة وسبعين ، فاستعنت على ردها بحول الله المعين » .

من فصل الإقبال :

رَفَضْتُ السَّوَى وَهُوَ الظُّهْرُ	تَلَفَعْتُ فِي مِرْطِ الْهُوَى وَهُوَ زَيْنَتِي
وَجِئْتُ الْحَمَى وَهُوَ الْمَصْلَى مِيمًا	بِوَجْهَةِ قَلْبِي وَجْهَهَا وَهُوَ قَبْلَتِي
وَمَتَّ وَمَا اسْتَفْتَحْتُ إِلَّا بَذْكُرَهَا	وَأَحْرَمْتُ إِحْرَامًا لغير تحلة
فَدِينِي إِنْ لَاحَتْ رُكُوعٌ ، وَإِنْ دَنْتُ	سُجُودٌ ، وَإِنْ لَاحَتْ قِيَامٌ بِحَسْرَةٍ
عَلَى أَنَا فِي الْقَرَبِ وَالْبَعْدِ وَاحِدٌ	تَوَلَّفْنَا بِالْوَصْلِ عَيْنَ النُّشْدَةِ
وَكَمْ مِنْ هَجِيرٍ خَضَتْ ظَمَانٌ طَاوِيَا	إِلَيْهَا وَدِيحُورٍ طَوِيَتْ بِرَحْلَةٍ ^(١)
وَفِيهَا لَقِيتُ الْمَوْتَ أَحْمَرًا وَعَدَا	بِزُرْقَةِ أَسْنَانِ الرِّمَاحِ وَحِدَّةٍ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَذْلِ فِيهَا مَنَازِلُ	تَنْسِيكَ أَيَّامِ الْفَجْرِ — أَرَامُوتَةٍ
وَلَمَّا اقْتَسَمْنَا خَطَتَيْنِ — فَحَامِلُ	فَجَارٍ بِلَا أَجْرٍ وَحَامِلُ بَزَّةٍ

(١) الهجير — بفتح الهاء ، بزنة الأمير — شدة الحر ، وطاويا : من الطوى وهو الجوع ، والديحور : الظلام الشديد ، وطويت : قطعت واجترت ، وقالوا « خضت إليك ديجورا ، كأنني خضت بحرا مسجورا »

خلا مسمعى من ذكرها فاستعدته
 وكم لى على حكم الهوى من تجلد
 يقول سميرى والأسى سالم الأسى
 لو أن مجوساً بت موقد نارها
 ولو كنت بجرا لم يكن فيه نضحة
 فلا ردم من نقب المعاول آمن
 فم تقول الأسطقات منك أو
 فإن قام لم يثبت له منك قاعد
 فما أنت يا هذا الهوى ماء أو هوا
 وإنى على صبرى كما أنا واصف
 أقل الضنى أن عجب من جسمى الضنى
 وأيسر شوق أنى ما ذكرتها
 وأخفى الجوى قرع الصواعق منك فى
 وأسهل ما ألقى من العذل أنى
 وأوج حظوظى اليوم منها حضيضها
 وأوجز أمرى أن دهرى كله
 أروح وما يلقى التأسف راحتى
 وكالببيض بيض الدهر والسمر سوده
 وشأن الهوى ما قد عرفت ولا تسأل
 سقام بلا برة ، ضلال بلا هدى

فعاد ختام الأمر أصل القضية
 داليل على أن الهوى من سيجتى
 ولا توضع الأوزار إلا لحنة
 لما ظل إلا منها لا ذا شريعة
 لعين إذا نار الغرام استحررت
 ولا هدم إلا منك شيد بقوة
 علام مزاج ركبت أو طبيعة
 وإلا فانت الدهر صاحب قعدة
 أم النار أم دساس عرق الأمومة
 وحالى أقوى القامنين بحجة
 وما شاكه معشار بعض شكيتى
 ولم أنسها إلا احترقت بلوعة
 جواى وأخفى الوجد صبر المودة
 أحب أفلى ذكرها وفضيحتى
 بالأمس وسل حر الجفون الغزيرة
 كما شئت الحسناء يوم الهزيمة
 وأغدو وما يعدو التفجع خطى
 مساءتها فى طى طيب المسرة
 وحسبك أن لم يخبر الحب رؤيتى
 أوام بلارى ، دم لا بقيمة

(١) الأسطقات : لفظ يونانى بمعنى الأصل ، وتسمى العناصر الأربعة — التى
 هى الماء والتراب والهواء والنار — أسطقات ؛ لأنها أصل المركبات التى هى الحيوانات
 والنباتات والجمادات ، ووقع فى « الأسطقات » محرفا .

ولا عتب فالأيام ليس لها رِضًا
 ألا أيها اللوام غنى قَوْضُوا
 ولا تعذلوني في البكاء ولا البكى
 فما سلسلت بالدمع عيني إن جنيت
 تجلى وأرجاء الرجاء حوالك
 فلم يستتب حتى كأني كاسف
 ومن فصل الاتصال :

وكم موقفلى في الهوى خُضْتُ دونه
 فجاوزت في حدى مجاهدتى له
 وحل جمالى في الجلال ، فلا أرى
 وغبت عن الأغيار في تيه حالتي
 وكأنت ناسوتى بأثارة الهوى
 وعلم يقينى صار عيناً حقيقة
 وبدلت بالتلوين تمكين عزة
 وقد غبت بعد الفرق والجمع موقفى
 وكم جُلْتُ في سم الخياط وضاق بى
 وما اخترت إلا دن بقرط زاهداً
 وفقرى مع الصبرا صطفيت على الغنى
 وأكتم حبي ما كنى عنه أهله
 وإنى فى جنسى ومنه لواحد

عُباب الردى بين الظُّبَا والأُسنة^(١)
 مشاهدتى لما سَمَتُ بى همى
 سوى صورة التنزيه فى كل صورة
 فلم أنتبه حتى امتجى أسمى وكنيتى
 وعدت إلى اللاهوت بالمطمئنة
 ولم يبق دونى حاجب غير هيبتى
 ومن كل أحوالى مقامات رفعة
 مع المحو والإثبات عند تثبتي
 لبسطى وقبضى بسط وجه البسيطة
 وفى ملكوت النفس أكبر عبرة
 مع الشكر إذ لم يحظ فيه مَثُوبتى
 وأكنى إذا هم صرحوا بالخبيثة
 كنوع ففصل النوع غلة حصتى

(١) أصل العباب — بضم العين ، بزنة الغراب — الموج أو معظمه ، والظبا — بضم
 الظاء — جمع ظبة ، وهى حد السيف ، والأُسنة : جمع سنان

تسببت في دعوى التوكل ذاهباً
وآخر حرف صار منى أولاً
تعرفت يوم الوقف منزل قومها
فأصبحت أقضى النفس منها منى الهوى
فبايعتها بالنفس داراً سكنتها
فخلص الاستحقاق نفسى من الهوى
فيا نفس لا ترجع تقطع بيننا

ومن فصل الإدلال :

تبدت لعيني من جمالك لحظة
ومرت بسمعى من حديثك ملاحه
ملا منى ابن عذرى استبين وجدى استعن
فمن شاهدى سخط ، ومن قائل رضا
مراعى إشارات ، مراعى تفكر
وفى موقفى والدار أقوت رسومها
معانى إمارات ، معانى تذكر
وبث غرام والحبيب بحضرة
ومطلع بدر فى قضيب على نقاً
وممكن سحر بابلى له بما
ومنت مسك من شقيق ابن منذر
ورصف اللآلى فى اليواقيت كلما

أبادت فؤادى من سنّاها بلفحة^(١)
تبدت لها فيك القران وقرت
سماعى أعن حالى ابن قائل اصمت
وتلوين أحوالى وتمكين رتبى
مراقى نهايات ، مراسى ثبت
تقرب أشواقى تبعد حسرى
مبانى بدايات ، مشانى تلفت
ورد سلام والرقيب بغفلة
فويق محل عاطل دون دجبة
حوت أضلعى فعل القنا السّمهرية
على سوسن غض بجنة وجنة
تعل بصرف الراح فى كل سُحرة

(١) أبادت : أهلكت ، والسنا — بفتح السين مقصوراً — الضوء ، واللفحة — بفتح اللام وسكون الفاء — الهبة من هبات الريح بلسان النار

سل السلسبيل العذبَ عن طعم ريقه ونكهته يخبرك عن علم خِبرة^(١)
ورمان كافور عليه طوابع من الندِّ لم تحمل به بنت مُزنة
ولطف هواء بين خَفَق وبانة ورقة ماء في قواوير فضة
لقد عز عنك الصبر حتى كأنه سراقه لحظ منك العتلفت
وأنت وإن لم تُبق منى صباية متى النفس لم تقصد سواك بوجهة
وكل فصيح منك يَسرى لسمعى وكل مליح منك يبدو لمقلتي
تهون على النفسُ فيك ، وإنها اتكرم أن تغشى سواك بنظرة
فإن تنظريني بالرضا تُشَفِّعني وإن تظفريني باللقاطف غاتي
وإن تذكريني والحياة بقيدها عدلت لأمنى مُنيقي بمنيتي^(٢)
وإن تذكريني بعد ما أسكن الثرى تجلت دجاء عند ذاك وولت
صليبي وإلا جددي الوعد تدركي صباية نفس أيقنت بتغلت
فما أمَّ بوَّ هالك بتنوفة أُقيم لها خلف الحلاب فدرت^(٣)
فلما رآته لا يَنازع خلفها إذا هي لم ترسل عليه وضنت
بكت كلما راحت عليه وإنها إذا ذكرته آخر الليل حمت
بأكثر منى لوعة غير أنى رأيت وقار الصبر أحسن حامية
فرحت كما أغدو إذا ما ذكرتها أطمئن أحشائي على ما أجنت
أهون ما ألقاه إلا من القلى هوى ونوى نيل الرضا منك بغبتي
أخوض الصلى أطفئ العلا والعلولا أصل السلا أرفع الخلى بين عبرتي
ألا قاتل الله الحمامة غُدوة لقد أصلت الأحشاء نيران لوعة
وقتل مغناها وموقف شجوها على الغصن ماذا هيَّجت حين غفت

(١) النهكة - بفتح النون وسكون الكاف - ريح القم ، وعلم الخبرة : العلم الناشئ ، عن الاختبار والتجربة

(٢) المنية - بضم الميم وسكون النون - ما يتعمناه الإنسان ، والمنية - بفتح الميم وياؤه مشددة - الموت

(٣) أم بو : أراد ناقة مات ولدها

ففت غمء أعجميا فهبجت
فأرسلت الأجفان سُحْبًا وأوقدت
نظرت بصحراء البريقين نظرة
فيالهما قلبا شجيا ونظرة
وواجمبا للقلب كيف اعترافه
وللعين لما سوئلت كيف أخبرت
وكنا سلطنا في صعود من الهوى
إلى مستوى ما فوقه فيه مستوى
وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا
مؤكددة بالنذر أيام عهده
ومن فصل الاحتفال :

أزوراعمارا أرضها بتنسك
وفي نشأني الأخرى ظهرت بما علّت
ولولا خفاء الرمز من لا ولن ولم
ولولم يجدد عهدنا عقد خلة
بعثت إلى قلبي بشيرا بما رأيت
فلم يعد أن شام البشارة شام ما
فيالك من نور لو أن النفاتة
تحدث أنفاس الصبا أن طيها
وتنبى آصال الربيع عن الربا
وأقصد حجًا يتهها بتحلة
له نشأني الأولى على كل فطرة
تجدها لشمل مسلكا بتشتت
قضيت ولم يقض المنى صدق توبة
على قدم عيناي منه فكفت
جفا الشام من نور الصفات الكريمة
تعارض منه بالنفوس النفيسة
بما حملته من حرافة حرقه
وأشجاره أن قد تجلت فجلت

(١) أوقدت : أشعلت ، والجوى — بفتح الجيم مقصورا — حرقه الباطن من
عشق ونحوه ، وأكنت : سترت

وتخبر أصوات البلابل أنها
فهذا جمالى منك فى بعد حسرتى
تبدى وما زال الحجاب ولادنا
له كل غير فى تجلّيه مظهر
تجلّى دليل واحتجاب تنزه
فما شئت من شئ وآليت أنه
وفى كل خلق منه كل عجيبة
وفى كل خاف منه ممكن حكمة
أراه بقلب القلب والفرز كامفا
وفى طى أوافق الحساب وسر ما
وفى نفثات السحر فى العقد التى
يصور شكلا مثل شكل ويعتلى
وفى كل تصحيف وعضو بذاته
وفى خضرة السكون تزجى شرايه
وفى شجر قد خوّفت قطع أصلها
وفى النخل فى تلقّحه واعتبر بما
وفى الطابع السبتي فى الأحرف التى
وفى صنعة الطلسم والكيمياء والـ
وفى حرز أقسام المؤدب محرز
وفى سيمياء الحاتمي ومذهب ابن

تغنّت بترجيعى على كل أيبكة^(١)
فكيف به إن قر بقى بخلة
وغاب ولم يفقده شاهد حضرتى
ولا غير إلا ما تحت كف غيرة
وإثبات عرفان ومحو ثبت
هو الشئ لم تحمد فجار ألبقى
وفى كل خلق منه كل لطيفة
وفى كل باد منه مظهر جلاوة
وفى الزجر والقال الصحيح الأدلة
يسم من الأعداد فابدا بسنة
تطوع لها كل الطباع الأيية
عليه بأوهام النفوس الخبيثة
اختلاج وفى التقويم مجلى لرؤية
مواعيد عرقوب على إثر صفرة
فبان بها حمل لأقرب مدة
أتى فيه عن خير البرية واسكت
يبين منها الظلم كل خفية
كنوز وتغوير المياه المعينة
وحزب أصيل الشاذلى وبكرة
سبعين إذ يعزى إلى شر بدعة

(١) الترجيع أصله ترديد الصوت ، وأراد به الغناء ، والأيبكة — بالفتح —
الشجر الكثير الملتف ، وقيل : الغضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم
الشجر ، وقالوا « فلان فرع من أيبكة المجد » على التشبيه

وفي المثل الأولى وفي النحل الألى
 وفي كل ما في الكون من عجب وما
 فلا سر إلا وهو فيه سريرة
 سل الذكرك عن أنصاف أصناف ما بنتى
 وعن وضعها في بعضها وبلوغ ما
 فلا بد من رمز السكون لذي الحجا
 ولولا سلام ساق للأمن خيفتى
 ولو لم تداركنى ولكن بعطفها
 ولو لم تؤانسنى عنا قبل لم ولم
 ونعم أقامت أمر ملكى بشكرها
 ومن فصل الاعتقال :

سرت بفؤادى إذ سرت فيه نظرتى
 وذلك لما أطلع الشمس في الدجى
 يمانية لو أنجذت حين أنجذت
 لأصحمة في نصحبها قدم بنى
 أملت فحطت رحلها ثم لم يكن
 فلو سمحت لى بالتفات وحل من
 ولكنها همت بنا فتذكرت
 أجلت خيالا إتنى لا أجله
 على أننى كللى وبعضى حقيقة
 وسارت ولم تن العنان بعطفة^(١)
 محيّا ابنة الحيين فى خير ليلة
 لما أبصرت عيناك حيا كمت^(٢)
 لكل نجاشى بها حصن ذمة
 سوى وقفة التوديع حتى استقلت
 مهاوى الهوى والهوى جد تفتى
 قضاء قضاء الحسن قدما فصدت
 ولم أنتسب منه لغير تعلقة
 وباطل أوصافى وحق حقيقة

(١) نى يثنى - مثل رمى رمى - عطف ومال ، والعنان - بكسر العين بزنة
 بالكتاب - ما تقاد به الدابة ، والعطفة - بالفتح - المرة من العطف .
 (٢) أنجذت الأولى : من النجدة ، ومعناه أسعفت ، وأنجذت الثانية : دخلت نجدا

وجنسى وفصلى والعوارض كلها
وجسمى ونفسى والحشأ وغرامه
وفى كل لفظ عنه ميل لمسمى
ودهرى به عيد ليوم عروبة
ووقتي شهود فى فناء شهادته
أراه معى حسا ووهما وأنه
وأسمعه من غير نطق كأنه
ملأت بأنوار المحبة باطنى
وجلّيت بالإجلال أرجاء ظاهرى
فأنت الذى أخفيه عند تسّترى
فتهأتمل واقطع أصل وأعلّ أستفل
فقلبي إن عاتبته فيك لم أجد
ونفسي تنبو عن سواك نفاسة
تعلقت الآمال منك بفوق ما
وحامت حوايلها وما وافقت حى
فلو فاتنى منك الرضا ولحقتنى
ولو كنت فى أهل اليمين منعما
وكم من مقام قت عنك مسائل
أتيت بفاراب أبا نصرها فلم
ولم يدر ما قولى ابن سينا سائلا

ونوعى وشخصى والهواء وصورتى^(١)
وعقلى وروحانيتى القدسية
وفى كل معنى منه معنى للوعى
وأمرى أمرى والورى تحت قبضتى
ولا وقت لى إلا مشاهد غيبة
منأط الثريا من مدارك رؤيتى
يلقن سمعى ماتوسوس مهجتي
كأنك نور فى سرار سريرتى
كأنك فى أفقى كواكب زينة^(٢)
وأنت الذى أبدية فى حين شهرتى
ومرأمتل وأملل أمل وارم أثبت
لعتبي فيه الدهر موقع نكتة
فلا تنتمى إلا إليك بمنة
أرى دونه ما لا ينال بحيلة
سحائب يأس أمطرت ماء عبرتى
بعفو بكيته الدهر فوت فضيلة
بكيته على ما كان من سبقية
أرى كل حى كل حى وميت
أجد عنده علما يبرد غلتي
فقل كيف أرجو عنده برء علتى

(١) أصل ألفاظ هذا البيت كلها من مصطلح علم المنطق

(٢) الأرجاء : جمع رجا - بزة الفتى مقصورا - وهو الناحية

فهل في ابن رُشد بعد هذين سرَّنجي وفي ابن طفيل لاحتثات مطيقي
 لقد ضاع - لولا أن تداركني حمي من الله - سعى بينهم طول مدقي
 فقيض لي نهجاً إلى الحق سالكا وأيقظني من نوم جهلي وغفلتي
 فخصنت أنظار الجنيد جنيدها بترك فلي من رغبة ريح رهبة
 وكسرت عن رجل ابن أذهم أدها وأنقذته من أسر حب الأسرة
 وعدت على خلّاج سكري بصلبه وأقيمت بلعام التفاني بهوة
 فقولني مشكور ورأيي ناجح وفعلني محمود بكل محالة
 رضيت بعرفاني فأعليت للعلا وأجلستني بعد الرضا فيه جلتي
 فعشت ولا ضيراً أخاف ولا قلى وصرت حبيباً في ديار أحبتي
 فيها أناذا أمسى وأصبح بينهم مُبلِّغ نفسي منهم ما تَمَنَّتِ
 ومن نظمه أيضاً ما حكى عنه في « الإحاطة » إذ قال : وأنشدني قوله في حال
 قبض ، وقيدتها عنه :

إليك بسطت الكف أستنزل الفضلا ومنك قبضت الطرف أستشعر الدلا
 وها أنا ذا قد قتت يقدمني الرجا ويحجم بي الخوف الذي خامر العقلا^(١)
 أقدم رجلا إن يُضَيء برق مطمع وتظلم أرجائي فلا أنقل الرجال
 ولي عتّرات لست آمل إن هوت بنفسي أن لا أستقيل وأن أصلي
 فإن تدركني رحمة أنتعش بها وإن تكن الأخرى فأولي بي الأولى
 وقوله رحمه الله تعالى :

وجد تُسَعَّرُه الضلوع ع وما تبرده المدامع^(٢)
 هم تحركه الصّبا به والمهابة لا تطاوع

(١) يحجم بي : يؤخرني ، وخامر العقل : خالطه

(٢) تسعره : توقده وتلهيه

أمل إذا وصل الرجا أسبابه فالموت قاطع
 بالله يا هذا الهوى ما أنت بالعُشاقِ صانع
 وقال رحمه الله تعالى كما في « الإحاطة » : وما كتبت به لمن بلغني عنه بعضُ
 الشيء :

نحن ، إن تسألَ مِنَّا ، معشرُ
 عَرَبٍ مِنْ يَبِضُهُمْ أَرْزَاقُهُمْ
 عَرَّضْتُ أَحْسَابَهُمْ أَرْوَاحَهُمْ
 أَوْرَثُونَا الْمَجْدَ حَتَّى إِنَّا
 مَالْنَا فِي الْفَاسِ مِنْ ذَنْبِ سَوَى
 أَهْلِ مَاءِ فَجَرْتِهِ الْمَهْمُ
 وَمِنَ السَّمرِ الطَّوَالِ الْخِيمِ^(١)
 دُونَ نِيلِ الْعَرَضِ وَهُوَ الْكِرَمُ
 نَرْتَضِي الْمَوْتَ وَلَا نَزْدَحِمُ
 أَنْفَا نَلْوِي إِذَا مَا اقْتَحَمُوا
 وقال : مما قلته مذيلا به قول القاضي أبي بكر بن العربي :

أما والمسجد الأقصى وما يتلى به نصا
 لقد رقصت بذات الشوق بين جوانحي رقصا
 قولي :

فأفزعني إليه هوى جناحا عزمه قصا
 أقلَّ القلبَ واستعدى على الجمان فاستعصى
 فقامت أجول بينهما فلا أدنى ولا أقصى

قال رحمه الله تعالى : ومما قلته في التورية بشأن راوي المدونة :
 لا تعجبني لظبي قد دها أسداً فقد دها أسداً من قبل سجنون
 ومن نظم مولاي الجد مما لم يذكره في « الإحاطة » قوله حسبا أني بخطه على ظهر
 نسخة من تأليفه القواعد :

ناديت والقلب بالأشواق محترق والنفس من حيرة الأبعاد في دَهَشِ
 يامعطشي من وصال كنت آمله هل فيك لي فرج إن صحت واعطشني

(١) يبضهم : سيوفهم ، واحدها أبيض ، يريد أنهم لا يحصلون على رزقهم إلا
 بسيوفهم ، والسمر : الرماح

ومن نظمه ما أسنده الوائشر يسي إليه :

خَالَفَ هَوَاكَ وَكُنْ لِعَقْلِكَ طَائِعًا فَيَحْذِ الْحَقِيقَةُ عِنْدَ طَرَفِ النَّاضِرِ

ومنه مما نسب له المذكور ، ورأيت من ينسبهما لغيره :

لَمَّا رَأَيْتُكَ بَعْدَ الشَّيْبِ يَارَجُلُ لَا تَسْتَقِيمُ وَأَمْرَ النَّفْسِ تَمْتَثِلُ

زَدْنَا يَقِينًا بِمَا كُنَّا نَصَدِّقُهُ بَعْدَ الْمَشَيْبِ يَشِبُّ الْحَرْصُ وَالْأَمَلُ

وفي «الإحاطة» في ترجمة شعره ماصورته قال : ومما قلته من الشعر، وبه نَحْتَمِ الْكَلَامَ :

أَنْبَتَ عَوْدًا لِنَعْمَاءَ بَدَأَتْ بِهَا فَضْلًا وَأَلْبَسَتْهَا بَعْدَ اللَّحَى الْوَرَقَا

فَظَلَّ مُسْتَشْعِرًا مُسْتَدَثِّرًا أَرْجَا رِيَانًا ذَا بَهْجَةٍ يَسْتَوْقِفُ الْحَدَقَا (١)

فَلَا تَشْنُهُ بِمَكْرُوهِ الْجَبَّتَى فَلَكُمْ عَوْدَتُهُ مِنْ جَمِيلٍ مِنْ لَدُنْ خَلْقَا

وَأَنْفَ الْقَذَى عَنْهُ وَأَثَرَ الدَّهْرِ مِنْبَتُهُ وَغَذَّةَ بَرْجَاءٍ وَاسْتَمَّهِ غَدَقَا

وَاحْفَظْهُ مِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ أَجْمَعَا مَا جَاءَ مِنْهَا عَلَى ضَوْءٍ وَمَا طَرَقَا

انتهى ما قصدته من ترجمة مولاي الجد على ما اقتضاه الوقت ، ولو أرسلت عِنان

القلم في شأنه لضاق هذا الديوان عن ذلك ، ويرحم الله شيخ شيوخنا شيوخنا عالم

المغرب سيدى أبا العباس الوائشر يسي ثم التلمساني نزيل فاس صاحب «المعيار» وغيره

إذ قال في تأليفه الذى عَرَّفَ فيه بمولاي الجد لما سأله بعضهم في ذلك ، وذكر

ما حضره ، مانصه : ولقد استوفى شيخ شيوخنا المحقق النظار أبو عبد الله بن مرزوق

الحفيد ترجمة المقرئ في كتاب سماه «النور البدرى» ، في التعريف بالفقيه المقرئ

وقد تقدمت الإشارة إلى أن اسم هذا التأليف مبنى على أن المقرئ بفتح الميم وسكون

القاف ، وقد علمت ما في ذلك مما مضى .

قلت : وقد ملكت بفاس مجلداً ضخماً بخط مؤلفه ، وهو أحد علماء مدينة

(١) الشعار - بالكسر ، بزنة الكتاب - اللباس الذى يلامس البدن ، والدثار -

بالكسر أيضاً - اللباس الذى يتدثر به (يستدفأ) ومستشعر ومستدثر : أي لابس

الشعار والدثار ، هذا أصلهما ، واستعمالهما هنا مجاز

فاس ، ألفه برسم مولاي الجد ، وسماه « بالزهر الباسم » وأطال فيه في مدح مولاي الجد ، والثناء عليه ، والتنويه بقدره ، وذكر محاسنه ، ولم يحضرني الآن لسكوني تركته مع جملة كتبي بالمغرب ، وقد تعلق بحفظي ما قاله في أوله من جملة أبيات :

إذا ذُكِرَتْ مفاخر أهل فاس ذكرنا مَنْ أُنِي من تلمسان

وقلنا هل رأيت في قضاة شبيها للفقهاء العادل ثاني

إلى أن قال :

ونفس العلم إن شانت لشخص فما للمقرى في العلم شاني^(١)

وقد أخذ عنه رحمه الله تعالى جماعة أعلام مشهورون ، منهم لسان الدين بن الخطيب ذو الوزارتين ، والوزير أبو عبد الله بن زمرك ، والأستاذ العلامة أبو عبد الله القيحاوي الآلية في علم القراءات ، والشيخ الفقيه القاضي الرّحال الحاج أبو عبد الله محمد بن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجي الزموري الدار المعروف بنقشايو، والولي ابن خلدون صاحب التاريخ ، وفي بعض المواضع يعبر عنه بصاحبنا ، وفي بعضها بشيخنا ، والنظار أبو إسحاق الشاطبي ، والعلامة أبو محمد عبد الله بن جزى ، والحافظ ابن علان ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم ، ولا كالشيخ الولي الشهير الكبير العارف بالله سيدى محمد بن عباد الرندى شارح حكم ابن عطاء الله فإنه ممن يفتخر بمولاي الجد رحمه الله تعالى بكون مثله تلميذا له ، ولا بأس أن نورد ترجمته تبركا به في هذا الكتاب ، ولو لم تقتضه المناسبة التي راعيناها في هذا التأليف ، فكيف وقد اقتضته ؟ فنقول :

ترجمة ابن
عباد الرندى

قال في حقه صاحبه الشيخ أبو زكريا السراج ، ما صورته : هو شيخنا الفقيه الخطيب البليغ الخاشع الخاشي ، الإمام العالم المصنف السالك العارف المحقق الرباني

(١) شاني : أصله شانيء - بالهمز - اسم فاعل من قولهم « شئتته أشناه »

يوزن علم يعلم - إذا أبغضته وكرهته ، ثم سهلت الهمزة من « شانيء » بقلبها ياء

ذوالعلوم الباهرة ، والمحاسن المتظاهرة ، سليل الخطباء ، ونتيجة العلماء ، أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه الواعظ الخطيب البليغ العلم الحظي الوجيه الحسيب الأصيل أبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن عباد ، كان حسن السمّت ، طويل الصمت ، كثير الوقار والحياء ، جميل اللقاء ، حسن الخلق والخلق ، عالي الهمة ، متواضعا ، معظما عند الخاصة والعامة ، نشأ ببلده رُندة على أكمل طهارة ، وعفاف وصيانة ، وحفظ القرآن ابن سبع سنين ، ثم تشاغل بعد بطلب العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفروعية ، حتى رأس فيها ، وحصل معانيها ، ثم أخذ في طريق الصوفية ، والمباحثة على الأسرار الإلهية ، حتى أشير إليه ، وتكلم في علوم الأحوال والمقامات ، والعلل والآفات ، وألف فيه تواليف عجيبة ، وتصانيف بدیعة غريبة ، وله أجوبة كثيرة في مسائل العلوم نحو مجلدين ، ودرس كتبها وحفظها أوجّلها كشمس القضاة والرسالة ومختصر ابن الحاجب وتسهيل ابن مالك ومقامات الحريري وفصيح ثعلب وغيرها ، وقوت القلوب ^(١) ، أخذ ببلده رُندة عن أبيه القرآن وغيره ، وعن خاله الشيخ الفقيه القاضي عبد الله الفريسي العربية وغيرها ، وعن الشيخ الفقيه الخطيب أبي الحسن علي بن أبي الحسن الرُندی حرف نافع ^(٢) ، وعرض عليه الرسالة ، وبتلمسان وفاس عن السيد الشريف الإمام العالم العلامة المحقق أبي عبد الله التلمساني الحسني جُحَل الخونجي تفهما وغيره ، وعن الشيخ الفقيه القاضي العالم أبي عبد المقرئ كثيرا من المختصر الفرعي لابن الحاجب وفصيح ثعلب وبعض صحيح مسلم كلها تفقها ، وعن الشيخ الفقيه العالم أبي محمد عبد النور العمراني الموطأ والعربية ، وعن الإمام العالم أبي عبد الله الأبلی « الإرشاد » لأبي المعالي وجميع كتاب ابن الحاجب الأصلي وعقيدة ابن الحاجب تفقها ، وعن الشيخ

(١) قوت القلوب : كتاب لأبي طالب المكي ، يعتبر أصلا لكتاب « إحياء علوم

الدين » لحجة الإسلام الغزالي

(٢) حرف نافع : أي القراءة المنسوبة إليه

الفقيه الحافظ أبي الحسن الصرصري بعض « التهذيب » تفقها ، وعن الشيخ الأستاذ المقرئ الصالح أحمد بن عبد الرحمن الجاحي شهر بالسكناسي كثيرا من جمل الزجاج وتسهيل ابن مالك ، وعن الشيخ الفقيه الصالح أبي مهدي عيسى المصمودي جميع كتاب ابن الحاجب والحاوية له أيضا تفقها ، وتفقه على الفقيه العالم أبي محمد الوائلي في كتاب ابن الحاجب الفقه ، وأخذ عنه حرف نافع ، وعن الشيخ الفقيه الصالح المدرس بالخلفاويين أبي محمد عبد الله القشتالي كثيرا من « التهذيب » وعن قاضي الجماعة وخطيب الحضرة أبي عبد الله محمد بن أحمد القشتالي كثيرا من « التهذيب » تفقها ، وكذا عن غيرهم ، ولقى بسلا الشيخ الحاج الصالح السني الزاهد الورع أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر ، وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة ، قال : قصدتهم لوجدان السلامة معهم ، ثم رحل لطنجة فلقى بها الشيخ الصوفي أبا مروان عبد الملك ، لازمته كثيرا ، وقرأت عليه ، وسمعت منه ، وأنشدني من شعره وشعر غيره ، وترددت بيني وبينه مسائل في إقامته بسلا ، وانتفعت به عظيمًا في التصوف وغيره ، وأجازني إجازة عامة ، مولده برنودة عام ثلاثة وثلاثين وسبعائة ، وتوفي بعد العصر يوم الجمعة ثالث رجب عام اثنين وتسعين وسبعائة ، وحضر جنازته الأمير فن بعده ، وهمت العامة بكسر نعشه تبركا به ، ولم أرحل جنازة أحفل ولا أكثر خلقا منها ، ورثاه الناس بقصائد كثيرة ، انتهى كلام السراج . وقال غيره في حقه : محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد ابن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد ، النفزي ^(١) نسبا ، الرندي بلدا ، الشهير بابن عباد ، الفقيه الصوفي الزاهد الولي العارف بالله تعالى .

وقال في حقه الشيخ ابن الخطيب القسطنطيني في كتابه « أنس الفقير ، وعن

(١) وقع في ب « التعزى نسبا » وما أثبتناه موافق لما كتب بطرة شرح الحكم . ونقرة — بفتح النون ، وقيل بكسرها ، مع سكون الفاء — قبيلة معروفة من قبائل البربر ، وسمى بها بلدة من بلاد المغرب ، وصرح تاج العروس بنسبة ابن عباد إليها .

الحقير : هو الخطيب الشهير، الصالح الكبير، وكان والده من الخطباء، الفصحاء النجباء ، ولأبى عبد الله هذا عقل وسكون ، وزهد بالصلاح مقرون ، وكان يحضر معنا مجلس شيخنا الفقيه أبى عمران العبدوسى رحمه الله تعالى ، وهو من أكابر أصحاب ابن عاشر ، ومن خيار تلامذته ، وأخذ عنه ، وله كلام عجيب فى التصوف ، وصنف فيه ، كما هو الآن يقرأ على الناس مع كتب التذكير ، وله فى ذلك قلم انفرده ، وسلم له فيه بسببه ، ومن تصانيفه شرح كتاب الحكم لابن عطاء الله فى سفر ، رأيتُه وعلى ظهر نسخة منه مكتوب :

لا يبلغ المرء فى أوطانه شرفاً حتى يَكِيلَ تراب الأرض بالقدم^(١)

ومن كلامه فيه : الاستئناس بالناس ، من علامات الإفلاس ، وفتح باب الأنس بالله تعالى الاستيحاش من الناس . ومن كلامه فيه : من لازم الكون وبقي معه وقصر همته عليه ولم تفتح له طريق الغيوب للملكوتية ، ولا خلاص له بسرهِ إلى فضاء شهادة الوجدانية ، فهو مسجون بمحطاته ، ومحصور فى هيكَل ذاته . إلى غير ذلك من كلامه . وكان يحضر السماع ليلة المولد عند السلطان ، وهو لا يريد ذلك ، وما رأيتُه قط فى غير مجلس جالساً مع أحد ، وإنما حظ من يراه الوقوف معه خاصاً ، وكنت إذا طلبته فى الدعاء أحمر وجهه واستحيا كثيراً ، ثم يدعولى ، وأكثر تمتعه من الدنيا بالطيب والبخور الكثير ، ويتولى أمر خدمته بنفسه ، ولم يتزوج ، ولم يملك أمة ، ولباسه فى داره مُرَقَّعة ، فإذا خرج سترها بثوب أخضر أو أبيض ، وله تلامذة كلهم أخيار مباركون ، وبلغنى عن بعضهم أنه تصدق حين تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهباً ، وهو الآن إمام جامع القرويين بفاس وخطيبه ، وأكثر قراءته فى صلاة الجمعة « إذا جاء نصر الله » وأكثر

(١) يكيل تراب الأرض بالقدم : كناية عن جده ودأبه فى السير وكثرة رحلته

خطبته وعظ ، ومثله من يَعِظُ الناس ، لأنه اتعظ في نفسه ، وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : يا عيسى ، عِظْ نَفْسَكَ فَإِنْ اتْعَظْتَ فَعِظْ النَّاسَ ، وإِلَّا فَاسْتَحْيِ مَنِي ، ذكره الغزالي ، وعهدى به أنه على صفة البِدَلَاءِ ، الصادقين النبلاء ، كثر الله مثله في الإسلام ، انتهى .

قلت : وقد زرت قبره مراراً بفاس ، ودعوت الله تعالى عنده ، وهو عند أهل فاس بمثابة الشافعي عند أهل مصر ، ومن منن الله سبحانه على أنى سكنت محله لما توليت الخطابة والإمامة بجامع القرويين من فاس المحروسة مُضَافِينَ إلى الفتوى ، والدار المعلومة للخطيب بالجامع المذكور إلى الآن تعرف بدار الشيخ ابن عباد ، وأقيمت على ذلك خمس سنين وأشهرًا ، ثم قَوَّضْتُ الرِّحَالَ^(١) للمشرق ، وها أنا إلى الآن فيها ، والله يبسر الخير حيث كان .

وقال الشيخ سيدي أحمد زروق في شأن الشيخ ابن عباد : إنه ولد برُندة ، وبها نشأ في عَمَافٍ وَصَوْنٍ ، ثم رحل لفاس وتلمسان فقرأ بهما الفقه والأصول والعربية ، ثم عاد فصحب بمدينة سَلَا أَفْضَلَ أهل زمانه علما وعملا سيدي أحمد ابن عاشر ، فنعنا الله به ! فأظهر الله تعالى عليه من بركاته ما لا يخفى على متأمل ، ثم نقل بعد وفاة الشيخ فجعل خطيباً بجامع القرويين من مدينة فاس ، وبقي بها خمس عشرة سنة خطيباً ، فتوفاه الله تعالى بها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة رابع رجب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، ودفن بكدية البراطل من داخل باب الفتوح ، وكان رضى الله عنه ذا صمت وسمت ، وتحمل وزهد ، معظماً عند الكافة ، معوّلاً في حل المشكلات على فتح الفتاح العليم :

ومن علمه أن ليس يُدْعَى بعالم ومن فقره أن لا يُرَى يشتكى الفقرا

(١) أصل التقويض الهدم ، والرحال : جمع رحل ، وهو ما يوضع على الناقة للركوب عليه ، والجاري في الاستعمال أن يقال « شددت الرحال إلى المكان الفلاني » يراد به أنه أخذ أهبطه للسفر ، وهو في هذه العبارة يعكس هذا اللفظ ، والمراد مفهوم

ومن حاله أن غاب شاهد حاله فلا يدعى وصلاً ولا يشكى هجراً
 كذا رأيت بخط من أثق به في تعريفه مختصراً مع زيادة ما تحققت ، وكتبه
 شاهدة بكمالها علماً وعملاً ، فهي كافية في تعريفه ، وكان الذي طلبه في وضع الشرح
 على الحكم سيدي أبو زكريا السراج الذي أكره رسائله له وسيدي أبو الربيع
 سليمان بن عمر ، انتهى .

وقال في موضع آخر : سيدنا العارف المحقق الخطيب البليغ نسيجٌ وحده^(١) ،
 ومقدم من أتى من بعده ، أبو عبد الله ، قرأ بفاس وتلمسان العربية والأصول
 والفقه ككتاب الإرشاد ومختصر ابن الحاجب الفقهى والأصلى وتسجيل ابن مالك
 وتوفى بفاس ، وقبره بها مشهور ، ومزيته معروفة شرقاً وغرباً ، وقد كتب مسائل
 معروفة أكثرها لسيدي يحيى السراج ، وله كتب الشرح مع سيدي سليمان
 ابن عمر الذي قال في حقه : إنه ولي بلا شك ، بطلبهما لذلك ، ورأيت كتاباً
 في الإمامة وسماه « تحقيق العلامة » ، في أحكام الإمامة » فذكرته لشيخنا القوري
 رحمه الله تعالى ، وكان معتنياً بكتبه معولاً عليها في حاله ، فقال : أظنه لوالده
 سيدي إبراهيم ، وقد كان خطيباً بالقصبة إذ كانت عامرة ، وله خطب عظيمة
 الفصاحة ، حسنة الموقع ، انتهى .

وقال الشيخ أبو يحيى بن السكاك : أما شيخى وبركتى أبو عبد الله بن عبّاد
 رضى الله عنه فإنه شرح الحكم وعقد درر منشورها في نظم بدیع ، وجمعت من
 إنشائه مسائل مدارها على الإرشاد إلى البراءة من الحول والقوة ، فيها نبذ كأفاس
 الأكابر ، مع حسن التصرف في طريق الشاذلى ، وجودة تنزيل على الصور
 الجزئية ، وبسط التعبير ، مع إنهاء البيان إلى أقصى غاياته ، والتفنن في تقريب الغامض

(١) يقال « فلان نسيج وحده » يراد به أنه لا نظير له ، وأصله الثوب ينسج
 على منوال فلا ينسج على هذا المنوال غيره .

إلى الأذهان بالأمثلة الوضعية ، فقرب بها حقائق الشاذلية تقريبا لم يُسبق إليه ، كما قرب الإمام ابن رُشد مذهب مالك تقريبا لم يسبق إليه ، وكان مع ذلك آية في التحقق بالعبودية والبراءة من الحول والقوة وعدم المبالاة بالمدح والذم ، بل له مقاصد تقيسة في الإعراض عن الخلق ، وعدم المبالاة بهم ، وأعظم أخلاقه التي لا يصبر عنها ويضطرب لها غاية الاضطراب أن يحضر حيث ينسى الحق ، لا سيما إن كان نسيان الحق بالنسبة إليه ، فهو الذي يُقْلِقُه ، ويضيق صدره على اتساعه ووفور انشراحه عن ذلك ، ولقد ذكر بعض من كان من أخص الناس به ومنقطعاً إليه أحوال رجال الرسالة القُشَيْرِيَّة والحِلِّيَّة وما منحوا من المواهب ، قال : فلما مات الشيخ واستبصرت ما أشاهده منه من أفعال تدل على القطع بصديقيته لاح لي أن تلك الصفات التي يذكر مشخصة فيه ، نشاهدها عيانا ، ولو لم أر الشيخ لقلت : إنني لم أركالا ، وعلى الجملة فهو واحد عصره بالمغرب ، ذكر لي عن قطب المعقول بالمغرب والمشرق الأبلئ أنه كان يشير إليه في حال قراءته عليه ، أعنى الشيخ ابن عباد ، ويقول : إن هناك عالما جما لا يوجد عند مشاهير أهل ذلك الوقت ، إلا أنه كان لا يتكلم رضى الله عنه ، وشهد له المقطوع بولايتهم بالتقدم ، وأقروا له بالشيخوخة ، وتبركوا به ، كسيدي سليمان البازغى وسيدي محمد المصمودى وسيدي سليمان بن يوسف بن عمر الأنفاسى وأمثالهم ، وكان شيخه الحجة الورع أحمد بن عاشر يُشِيدُ بذكره ، ويقدمه على سائر أصحابه ، ويأمرهم بالأخذ عنه ، والانتفاع به ، والتسليم له ، ويقول : ابن عباد أمة وحده ^(١) ، ولا شك أنه كذلك ، كان أعنى غريبا فإن العارف غريب الهمة بعيد القصد ، لا يجد مساعداً على قصده ، وكان الغالب عليه الحياء من الله تعالى ، والتنزل بين يدي عظمته ، وتنزله نفسه منزلة

(١) فلان أمة وحده : كناية عن كونه جامعا للصفات السكالية التي توجد في أمة ، وفي القرآن الكريم : (إن إبراهيم كان أمة) .

أقل الحشرات ، لا يرى لنفسه مزية على مخلوق ، لما غلب عليه من هيبة الجلال وعظمة المالك وشهود المنة ، نظاراً إلى جميع عباد الله تعالى بعين الرحمة والشفقة والنصيحة العامة ، مع توفية المراتب حقها ، والوقوف مع الحدود الشرعية ، واعتبارهم من حيث مُرَاد الله تعالى بهم ، هذا دأبه مع الطائع والعاصي ما لم يظهر له من أحد تخايل^(١) حب التعظيم والمدح والتجبر على المساكين ورؤية الحق إذ هي دعوى لا تليق بالعبد ، ومن كانت هذه صفته فقد وصل حد الخذلان ، بل هي علامة تقارب القطع ، على أنه شقي مُسَلَّم إلى غضب الله تعالى ومقته ، أعاذنا الله تعالى منه ، وكان من حال هذا السيد تألف قلوب الأولاد الصغار ، فهم يحبونه محبة تفوق محبتهم لأبائهم وأمهاتهم ، فينتظرون خروجه للصلاة وهم عدد كثير ، يأتون من كل أوب ومن المكاتب البعيدة ، فإذا رأوه ازدحموا على تقبيل يده ، وكذا كان ملوك زمانه يزدهمون عليه ، ويتذللون بين يديه ، فلا يحفل بذلك ، وذكري بعض تلامذته أن أقواله تشبه أفعاله ، لما منحه الله تعالى من فنون الاستقامة ، مع مافي كلامه من النور والحلاوة التي استفترت ألباب المشاركة ، بحيث صار لهم بحث عريض على تواليغه ، انتهى كلام ابن السكاك .

وله من التواليف : الرسائل الكبرى ، والصغرى ، وشرح الحكم ، ونظمها في ثمانمائة بيت من الرجز .

وحدث الشيخ أبو مسعود الهراس قال : كنت أقرأ في صحن جامع القرويين والمؤذنون يؤذنون بالليل ، فإذا أبو عبد الله بن عباد قد خرج من باب داره ، وجاء يطير في الصحن كأنه جالس متربع حتى دخل في البلاط الذي حول الصوَّمة ، ثم مشيت فوجدته يصلي حول المحراب ، وسأله السراج عن أبي حامد الغزالي ،

(١) الخايل : جمع مخيلة ، وأصل معناها الحرفي : موضع الظن ، ويقال «ظهرت على فلان مخايل النجابة » أي أماراتها ، ولا شك أنها تبعث علي ظن حدوث النجابة فيه .

فقال : هو فوق الفقهاء ، وأقل من الصوفية ، وما نقل من خطه رحمه الله تعالى ولا يدرى هل هي له أم لا :

الحزم قبل العزم فاحزم واعزم وإذا استبان لك الصواب فصم
 واستعمل الرفق الذي هو مكسب ذكر القلوب وجُدْ وأجل واحلم
 واحرم وسر وأشجع وصل وأمن وصل وأعدل وأنصف وارع واحفظ وارحم^(١)
 وإذا وعدت فعد بما تقوى على إنجازهِ وإذا اصطنعت فتعم
 وذكر الشيخ الفقيه الخطيب القاضي الحاح أبو سعيد بن أبي سعيد السلوي أنه رأى
 في حائط جامع القرويين أبيتاً مكتوبة بفهم بخط الشيخ أبي عبد الله بن عباد وهي :
 أيتها النفس إليه اذهبي فحبه المشهور من مذهبي
 مفضض الثغر له نقطة من عنبري خذه المذهب
 أيا سئى التوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب

قال الشيخ أبو سعيد : فاستشكلت هذه الأبيات لما اشتملت عليه من التغزل ، وذكر
 الخلال والحد والثغر ، ومقام الشيخ ابن عباد يحل عن الاشتغال بمثل هذا ، فلقيت
 يوماً أبا القاسم الصيرفي ، فذاكرته بالقصة ووجه الإشكال فيها ، فقال لي : مقامك
 عندي أعلى من أن تستشكل مثل هذا ، هذه أوصاف ولي الله القائم بأمر الله المهدي ،
 فشكرته على ذلك ، انتهى

قلت : رأيت بخط الوائش ريسى إثر هذه الحكاية ما نصه : قلت في صحة
 هذه الحكاية عن الشيخ نظر ، لما احتوت عليه من تعبير الحسن ، وقدر الشيخ
 وورعه أعلى من هذا ، فهذان إشكالان ، والله أعلم .
 وحكى أن الشيخ ابن عباد رحمه الله تعالى لما احتضر جعل رأسه في حجر

(١) صل الأولى — بضم الصاد — أمر من قولهم « صل يصول صولاً ومصلاً
 وصولة » إذا أقدم ، وصل الثانية — بكسر الصاد — أمر من قوله « وصل فلان
 فلاناً يصله وصلاً » إذا أعطاه صلة وأسدى إليه يداً .

أبى القاسم هذا ، وأخذ في قراءة آية الكرسي إلى قوله « الحى القيوم » ثم يقول : يا الله يا حى يا قيوم ، فيلقنه من حضر « لا تأخذه سنة ولا نوم » فيمتنع الشيخ من قراءتها ويقول : يا الله يا حى يا قيوم ، فلما قربت وفاته سمع منه هذا البيت وكان آخر ما تكلم به :

ما عودونى أحبائى مقاطعة بل عودونى إذا قاطعتم وصلوا^(١)

ولما توفى الشيخ ابن عباد رضى الله عنه فى التاريخ المتقدم حضر جنازته السلطان أمير المسلمين أبو العباس أحمد ابن السلطان أبى سالم وأهل البلدتين - يعنى فاسا الجديد التى هى مسكن السلطان وخواص أتباعه ، وفاسا العتيق التى هى محل الأعلام والخاص والعام من الناس فى ذلك القطر ، إذ هى إذ ذاك حضرة الخلافة وقبة الإسلام فى المغرب - وتقدم بعده للإمامة والخطبة بجامع القرويين نائبه أيام مرضه الشيخ الصالح الورع أبو زيد عبد الرحمن الزرهونى حسبا قاله الجاديرى رحمه الله تعالى !.

وحكى الوائش رضى الله تعالى أن الشيخ ابن عباد كرم ابن دريدة الوالى فى مظالمة ، فلم يقبل ، فلما كان يوم الجمعة ونزل السلطان أبو العباس للصلاة بجامع القرويين وراء الشيخ ابن عباد ، قال الشيخ فى خطبته : من الأمور المستحسنة ، أن لا يبقى الوالى سنة ، انتهى .

وللشيخ ابن عباد خطب مدونة بالمغرب مشهورة بأيدى الناس ، ويقرؤن منها ما يتعلق بالمولد النبوى الشريف بين يدى السلطان تبركا بها ، وكذا يقرؤنها فى المجتمعات فى المواسم ، كأول رجب وشعبان ونصفهما والسابع والعشرين منهما ، كرمضان ، وقد حضرت بمراكش المحروسة سنة عشر وألف قراءة كرامة الشيخ

(١) « عودونى أحبائى » جار على لغة مهجورة فى لسان العرب يسميها النحاة لغة « أكلونى البراغيث » وخلاصتها إلحاق علامة النثية والجمع بالفعل المسند إلى مثنى أو مجموع .

في المولد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بين يدي مولانا السلطان المرحوم أحمد المنصور بالله الشريف الحسني رحمه الله تعالى ، وقد احتفل لذلك المولد بأمور يستغرب وقوعها ، جازاه الله تعالى عن نيته خيرا ، وقد أشرت إلى ذلك في كتابي المرسوم « بروضة الآس ، العاطرة الأنفاس » ، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراکش وفاس » وسردت جملة من القصائد والموشحات في وصف ذلك الصنيع ، ورحمة الله وراء الجميع .

ولنرجع إلى مشايخ لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى فنقول :

أبو محمد

ومنهم : الشيخ الفقيه القاضي بمكناسة الزيتون أبو محمد عبد الحق بن سعيد ابن محمد ، ذكره في « نفاضة الجراب » وقال : إنه لقيه بمكناسة الزيتون سنة ١٠٠٠ ، قائما على كتاب إحدى وستين وسبعمائة ، وكان من أهل المعرفة والخصافة^(١) ، فأثما على كتاب أبي عمرو بن الحاجب في مذهب مالك ، وكان ممتازا به فيما دون تلمسان ، قرأه على الشيخين علي الأفق المغربي أبي موسى وأبي زيد ابني الإمام علي تلمسان والمغرب جميعا ، قال لسان الدين في « النفاضة » : وتصدر المذكور لإفرائه الآن ، فاشتت من اضطلاع^(٢) ، ومعرفة وأطلاع ، وقيد جزأ نبيلاً على فتوى الإمام القاضي أبي بكر ابن العربي المسماة بالحاكمة ، وسماه « بالجازمة » ، على الرسالة الحاكمة « أجاده فيه وأحسن ، وقرأت عليه بعضه وأذن لي في تحمله ، انتهى .

ومن أشياخ لسان الدين الذين لقيهم بمكناسة الزيتون الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الوائشريسي ، له عناية بفروع الفقه ، وولى القضاء بقصر كتامة .
ومنهم الفقيه الفاضل الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف ، المتصدر لقراءة كتاب الشفاء النبوي ، لديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير

(١) الخصافة : مصدر « حصف فلان » — بضم الصاد — إذا استحكم عقله ورجح

(٢) تقول « اضطلع فلان بالأمر » إذا قام عليه فأحسن القيام .

من نظرائه قراءة منه إياها على أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل الصباغ ، وشاركه في قراءتها على الإمام أبي عبد الله الأبي .

عمر بن سليمان الوائشري : ومنهم الفقيه المدرك الأستاذ في فن العربية : أبو علي عمر بن عثمان الوائشري ، قال لسان الدين : حضرت مذاكرته في مسألة أعوزت عليه ، وطال عنها سؤاله ، وهي قول الشاعر :

الناس أكيّسُ من أن يمدحوا رجلاً ما لم يروْ عنه آثار إحسان^(١)
وصورة السؤال : كيف وقوع أفعال بين شيئين لا اشتراك بينهما في الوصف ؛ إذ أوقع الشاعر « أكيّس » بين الناس وبين أن يمدحوا ، وهو مؤول بالمصدر وهو المدح ، ولا يوصف بذلك ، انتهى .

قلت : الإشكال مشهور ، والجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر ، وقد أشار إليه أبو حيان في « الارتشاف » وجماعة آخرون في قول بعض المؤلفين كصاحب التلخيص « أكثر من أن تُحصى » ولولا السأمة لذكرت ما قيل في ذلك ، وخلاصة ما قالوه أن في الكلام تقديراً ، والله أعلم .

أبو جعفر الجنان : ومن لقيه لسان الدين بمكناسة الزيتون الفقيه العدل الأخباري الأديب المشارك أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسى الجنان^(٢) ، من أهل الظارف والانطباع والفضيلة ، وهو كاتب عاقد للشروط ، ناظم نائر مشارك في فنون من العلم ، مؤلف ، وقد ذكرنا في غير هذا الحل ما دار بينه وبين لسان الدين من المحاوراة والمراجعة ، فليراجع ، قال لسان الدين رحمه الله تعالى : ناولني المذكور تأليفه الحسن الذي سماه « المنهل المورود » ، في شرح المقصد الحمود » شرح فيه وثائق الجزرى

(١) أكيّس : أفعال تفضيل من الكيس — بالفتح — وهو العقل .

(٢) الجنان — بفتح الجيم وتشديد النون — بمعنى البستاني ، والروضة يقال لها « جنة » ومن هذا اشتقوا الجنان كما أخذوا التمار واللبان والنجار والغزال .

فأربنى بياناً^(١) وإفادة وإجادة ، وأذن لى فى حمله عنه ، وهو فى ثلاث مجلدات ، وأنشدنى كثيراً من شعره .

ومنهم القاضى بها أبو عبدالله بن أبى رمانة ، قال لسان الدين : لقيته بمكناسة ، وكان من أهل الحياء والحشمة ، وذوى السذاجة والعفة ، ثم ذكر ما دأب به حين تأخر عن لقائه ، وقد ذكرنا ذلك فى غير هذا الموضع .

ومن لقيه لسان الدين بمكناسة الفقيه العدل أبو على الحسن بن عثمان بن عطية الوائشريسى ، قال : وكان فقيهاً عدلاً من أهل الحساب ، والقيام على الفرائض ، والعناية بفروع الفقه ، ومن ذوى السذاجة والفضل ، ويقرض الشعر ، وله أرجوزة فى الفرائض مبسطة العبارة مستوفية المعنى ، انتهى .

وقال ابن الأحرار فى حقه : هو شيخنا الفقيه المفتى المدرس القاضى الفرضى^(٢) الأديب ، الحاج أبو على ابن الفقيه الصالح أبى سعيد عثمان التجانى المنعوت بالوائشريسى ، أجازنى عامة ، أخذ عن الفقيه المفتى الأديب الخطيب المعمر القاضى المحدث الراوية خاتمة المحدثين بالمغرب أبى البركات ابن الحاج البليقى ، انتهى . ومولده فى حدود أربع وعشرين وسبعائة .

وذكر صاحب « المعيار المغرب » والجامع المغرب ، عن فتاوى أفريقية والأندلس والمغرب جملة من فتاويه وقال فى وثائقه ، وقد أجرى ذكره ماصورته : إن بلدنا الشيخ القاضى العلامة أباعلى الحسن وقعت له قضية مع عدول مكناسة ، وذلك أن السلطان أباعنان فارسا كان أمر بالاقنصار على عشرة من الشهود بمدينة مكناسة وكتب اسم الشيخ أبى على هذا فى العشرة ، فشق ذلك على بعض شيوخ العدول

(١) أربى : زاد

(٢) الفرضى : العالم بأحكام الموارث ، لأن الموارث تسمى الفرائض ، والفرائض جمع فريضة ، والنسبة إلى المفرد ، وقد يقولون « فرائضى » نسبة إلى الجمع أو لأنه لما سمي به صار كالمفرد .

المؤخرين لحدّاته سن أبى على ، فلما علم تشغيبهم صنع رجزاً ورفعهُ إلى مقام المتوكل على الله أبى عنان نصّه :

نبدأ أولاً بحمد الله	ونستعينه على الدواهي
ثم نؤالى بالصلاة والسلام	على نبي دونه كل الأنام ^(١)
وبعد ذا نسأل رب العالمين	أن يهبّ النصر أمير المؤمنين
خليفة الله أبا عنان	لا زال في خير وفي أمان
ملكه الله من البلاد	من سوس الألقى إلى بغداد
ويسر الحجاز والجهادا	وجعل الكل له مهادا
يا أيها الخليفة المظفر	دونك أمرى إنه مفسر
عبدكم نجل عطية الحسن	قد قيل لا يشهد إلا إن أسن ^(٢)
وهو في أمركم الممهود	من جملة العشرة الشهود
نص عليه أمركم تعييننا	وسنه قارب أربعينا
مع الذى ينتسب العبد إليه	من طلب العلم وبحشه عليه
على الفرائض له أرجوزه	أبرز في نظامها إبريزه
ومجاس له على الرسالة	فكيف يرجو حاسد زواله
حاشا أمير المؤمنين ذاكا	وعده له قد بلغ السماكا
وعلمه قد طبق الآفاقا	وحلمه قد جاوز العرافا
وجوده مشتهر في كل حى	قصر عن إدراكه حاتم طى

وحكى بعض الحفاظ أنه لما بلغت الأبيات السلطان أمر بإقراره على ذلك ،

(١) توالى : تابع

(٢) أسن : كبر سنه

وقد وقفتُ على رَجَزِهِ المذكور ، وله شرح عليه لم أره ، والظاهر أنه ممن تدنَّج^(١) معه لسان الدين ، رحم الله الجميع ! وهو معدود في جملة من لقيه .

ومن مشايخ لسان الدين رحمه الله ذو الكرامات الكثيرة والمقامات الكبيرة ، سيدي الحاج أبو العباس أحمد بن عاشر الصالح المشهور ، كان لسان الدين - رحمه الله تعالى ! - حريصاً على لقائه بسلاً أيام كان بها ، وقد لقيه ، ولم يتملَّ منه^(٢) أشدة نفوره من الناس ، خصوصاً أصحاب الرياسة ، ولذا قال لسان الدين ، لما ذكر أنه لقيه في « نفاضة الجراب » ماضورته : يَسَّرَ الله لقاءه على تعسره ، انتهى .

وسنترجم الولى المذكور في نظم لسان الدين حيث وصفه بقوله :

* بولى الله فابداً وابتدر *

وقبره الآن بسلاً محطَّ رجاء الطالبين ، وكعبة قصد الراغبين ، تلوح عليه أنوار العناية ، وتستمد منه أنواء الهداية ، وهو على ساحل البحر المحيط بخارج مدينة سلاً المحروسة ، وقد زرتَه والله الحمد عند توجهي إلى حضرة مراکش سنة ألف وتسعة ، والناسُ يشدون الرحال إليه من أقطار المغرب ، نفعنا الله تعالى به ، وأعاد علينا من بركاته ! بحاج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

رجع إلى مشايخ لسان الدين الوزير ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

ومنهم الأستاذ المحقق العلامة الكبير النحوى الشهير أبو عبد الله محمد بن علي الفخار البيرى ، رحمه الله تعالى !

كان شيخ النحاة بالأندلس غير مدافع ، وأخذ عنه خلق كثيرون كالشاطبي أبي إسحاق صاحب شرح الألفية والوزير ابن زمرَك وغيرهما ، وقد حكى عنه مسائل غريبة تليذه الشاطبي ، وقال لسان الدين في « الإحاطة » في ترجمة مشيخته

(١) تدنَّج : كذا هي بالجيم في الأصول ، ويظهر لى أن الكلمة محرفة عن

« تدنَّج » بالحاء المعجمة - ومعناها أخش معه في السلام

(٢) لم يتمل منه : لم يتمتع بطول عثرته

أبو العباس
أحمد بن عاشر

أبو عبد الله محمد
ابن علي الفخار

ما صورته : ولازمتُ قراءةَ العربية والفقه والتفسير والمعتمد عليه العربية على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله بن الفخار البيرى ، الإمام المجمع على إمامته في فن العربية ، المفتوح عليه من الله تعالى فيها حفظاً وأطلاعا واضطلاعا ونقلًا وتوجيهاً بما لا مطمع فيه لسواه ، انتهى .

ولنورد بعض فوائد ابن الفخار فنقول :

ومن فوائد ابن الفخار المذكور التي حكها عنه الشاطبي قوله : حدثني أن بعض الشيوخ كان إذا أتى بإجازة يشهد فيها سأل الطالب المجاز عن لفظ إجازة ما وَزَنَهُ وما تَصَرَّفَ به ؟ ثم قال الشاطبي : ولما حدثنا بذلك سألناه عنها فأملئ علينا ما نصه : وزن إجازة في الأصل إفعالة ، وأصلها إجوازة فأعلتْ بنقل حركة الواو إلى الجيم حملا على الفعل الماضي استثقلا ، فتحركت الواو في الأصل وانفتح ما قبلها في اللفظ ، فانقلبت ألفاً ، فصارت إجازة - بألفين - فحذفت الألف الثانية عند سيبويه لأنها زائدة والزائد أولى بالحذف من الأصلي ^(١) ، وحذفت الأولى عند الأخفش لأنها لا تدل على معنى وهو المد ، وقول سيبويه أولى ، لأنه قد ثبت عوض التاء من المحذوف في نحو « زنادقة » والتاء زائدة ، وتعويض الزائد من الزائد أولى من تعويض الزائد من الأصلي ، للتناسب ، ووزنها في اللفظ عند سيبويه إفعلة وعند الأخفش إفالة لأن العين عنده محذوفة ، انتهى .

وقال الشاطبي رحمه الله تعالى : لما توفي شيخنا الأستاذ الكبير ، العلم الخطير ، أبو عبد الله بن الفخار سألت الله عز وجل أن يرزنيه في المنام فيوصيني بوصية أنتفع بها في الحالة التي أنا عليها من طلب العلم ، فلما نمت في تلك الليلة رأيت كأنني أدخل عليه في داره التي كان يسكن بها ، فقلت له : يا سيدي أوصني .

(١) قلت : لا ، ليس الزائد بأولى بالحذف من الأصلي ، لأن الزائد مأتى به لغرض في الكلمة ، وهى تصييرها على زنة خاصة للدلالة على معنى خاص ، فكأن الحرف الزائد في هذه الزنة هو الدال على المعنى المقصود بها ، فإذا حذفت فانت هذه الدلالة

فقال لي : لا تعترض على أحد ، ثم سألتني بعد ذلك في مسألة من مسائل العربية كالمؤنس لي ، فأجبتة عنها ، ولا أذكرها الآن ، انتهى .

وقال الشاطبي أيضاً ما صورته : حدثنا الأستاذ الكبير الشهير أبو عبد الله محمد بن الفخار شيخنا - رحمه الله تعالى - قال : حدثني بسببته بعض المذاكرين أن ابن خيمس لما ورد عليها بقصد الإقراء بها اجتمع إليه عُيُونُ طلبتها ، فأتقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال ، فحاد عن الجواب عنها بأن قال لهم : أنتم عندي كرجل واحد ، يعني أن ما ألقوا عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد ، وهو ابن أبي الربيع ، فكأنه إنما يخاطب رجلاً واحداً ازدراء بهم^(١) ، فاستقبله أصغر القوم سناً وعلماً بأن قال له : إن كنت بالمكان الذي تزعم فأجبنني عن هذه المسائل من باب معرفة علامات الإعراب التي أذكرها لك ، فإن أجبت فيها بالصواب لم تحط بذلك في نفوسنا^(٢) لصغرها بالنظر إلى تعاميك عن الإدراك والتحصيل ، وإن أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد ، وهي عشرة : الأولى : أنتم يازيدون تغزون ، والثانية أنتن ياهندات تغزون ، والثالثة أنتم يازيدون وياهندات تغزون ، والرابعة أنتن ياهندات تخشين ، والخامسة أنتن ياهند تخشين ، والسادسة أنتن ياهند ترمين ، والسابعة أنتن ياهندات ترمين ، والثامنة أنتن ياهندات تمحون أو تمحين ، كيف تقول ؟ والتاسعة أنتن ياهند تمحين أو تمحون ، كيف تقول ؟ والعاشرة أنتن تمحون أو تمحيان ، كيف تقول ؟ وهل هذه الأفعال كلها مبنية أو معربة أو بعضها مبنية وبعضها معرب ؟ وهل هي كلها على وزن واحد أو على أوزان مختلفة ؟ علينا السؤال عليك التمييز لنعلم الجواب ، فهبت الشيخ ، وشغل الحبل بأن قال : إنما يسأل عن هذا صغار الولدان ، قال له الفتى : فأنت دونهم

(١) ازدراء بهم : احتقاراً لهم واستهانة بشأنهم

(٢) لم تحط : لم تسكن ذا حظوة ومنزلة في نفوسنا

إن لم تجب ، فانزعج الشيخ ، وقال : هذا سوء أدب ، ونهض منصرفاً ، ولم يصبح إلا بمالقة متوجهاً إلى غرناطة حرسها الله تعالى ! ولم يزل بها مع الوزير ابن الحكيم إلى أن مات رحمه الله تعالى عليه ! انتهى .

ثم قال الشاطبي : والجواب عن هذه المسائل ما يذكر^(١) : أما الجواب عن « تغزون » الأولى فإنه معرب ، ووزنه أصلاً تَفْعُلُونَ ، ولفظاً تَفْعُونَ ، وعن الثانية فبنى للحاق نون الإثبات ووزنه تَفْعَلْنَ ، وعن الثالثة على التغليب فعلى ردّه للأول يلحق بالأول ، وللتاني كالتاني ، وأما « تَحْشِينَ » من الرابعة فبنى للنون ووزنه تَفْعَلْنَ ، وعن الخامسة فمعرب ، ووزنه أصلاً تَفْعَلِينَ ولفظاً تَفْعِينَ ، وأما « تَرْمِينَ » من السادسة فمعرب ، ووزنه أصلاً تَفْعَلِينَ ، ولفظاً تَفْعِينَ ، ومن السابعة مبنى للنون ، ووزنه تَفْعَلْنَ ، وأما « تَمْحُونَ وتمحِينَ » من الثامنة فهما لغتان ، وهما مبنيان للنون ، والتاسعة لا يقال إلا « تمحِينَ » بالياء خاصة لتتفق اللغتان ، ووزنها تَفْعِينَ كتمحشين ، وأما تمحيان من العاشرة فعلى لغة الياء لا إشكال وعلى الواو فيظهر من كلام النحويين أنه لا يجوز إلا بالواو ، انتهى

وقد أورد هذه الحكاية عالم الدنيا سيدي أبو عبد الله محمد بن مرزوق - رحمه الله تعالى ! - في شرحه الواسع العجيب المسمى « بتمهيد المسالك » ، إلى شرح ألفية ابن مالك ، ونص محل الحاجة منه : وقد حكى أن بعض طلبة سبئنة أورد على أبي عبد الله بن خميس عشر مسائل من هذا النوع ، وهى : أتم يازيدون تَغْزُونَ ، وأنتن ياهندات تَغْزُونَ ، وأنتن ياهندات تَفْزُونَ ، وأنتن ياهندات تَحْشِينَ ، وأنتن ياهند تَحْشِينَ ، وأنت ياهند تَرْمِينَ ، وأنتن ياهندات تَرْمِينَ ، وأنتن ياهندات تَمْحُونَ أو تَمْحِينَ ؟ كيف تقول ؟

(١) الحق أنه ليس في هذه الكلمات معاينة ، ولا هى مما يحمله الصغار الشادون ، فكيف بالعلماء الفحول ؟

وأنتا تمحوان أو تمحيان ، على لغة من قال مَحَوْتُ ، كيف تقول ؟ وهل هذه الأمثلة كلها مبنية أو معربة أو مختلفة ؟ وهل وزنها واحد أو مختلف ؟ قالوا : ولم يُحِبْ بشيء ، قلت : فعله استسهل أمرها ، فأما المثال الأول فمُعَرَّبٌ ، ووزنه تَفْعُلُونَ كَتَنْظُرُونَ ، إذا أصله تَفَزُّوْنَ ، فاستثقلت ضمة الواو التي هي لام مخذفت ، ثم حذفت الواو أيضا لالتقاءها ساكنة مع واو الضمير ، وكانت أولى بالحذف لأن واو الضمير فاعل ، ولغير ذلك مما تقدم بعضه ، وأما الثاني فمبنى ووزنه تَفْعَلْنَ كَتَخْرُجْنَ ، وأما الثالث فكالأول إعرابا ووزنا لأن فيه تغليب المذكر على المؤنث ، وأما الرابع فمبنى ووزنه تَفْعَلْنَ مثل تَفَرَّخْنَ لأنه لما احتيج إلى تسكين آخر الفعل لإسناده إلى نون جماعة النسوة رُدَّتِ الياء إلى أصلها لأنها إنما قلبت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، والآن ذهبت حركتها لاستحقاقها السكون ، وأما الخامس فمُعَرَّبٌ ووزنه تَفْعَلِينَ كَتَفَرَّحِينَ ، وأصله تَخْشِينَ ، فقبلت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لالتقاءها ساكنة مع ياء الضمير ، وترك فتحة الشين دالة على الألف ، وأما السادس فمُعَرَّبٌ ووزنه تَفْعَلِينَ كَتَضَرَّبِينَ ، وأصله تَرْمِينَ ، حذفت كسرة الياء لاستئصالها ، ثم حذفت الياء لاجتماعها ساكنة مع ياء الضمير ، وأما السابع فمبنى ووزنه تَفْعَلْنَ كَتَضَرَّبْنَ ، وأما الثامن والتاسع فمضارع نحى ورد بالأوزان الثلاثة ، فمن يَمَحُوْ قال في المضارع من جماعة النسوة تَمَحُونَّ مثله من غزائنا ووزنا ، ومن قال يَمْحِي قال فيه تَمْحِينَ كَتَرْمِينَ بناء ووزنا ، ومن قال يَمْحِي قال فيه تَمْحِينَ كَتَخْشِينَ بناء ووزنا ، ويقال في المضارع للواحدة على اللغة الأولى تَمْحِيْنَ كَتَدْعِيْنَ إعرابا ووزنا وتصريفا ، وقد تقدم في كلام المصنف ، وعلى الثانية كما يقال لها من رَمَى إعرابا ووزنا وتصريفا ، وعلى الثالثة كما يقال لها من

تَحْشَى أَيْضاً ، وقد تقدما ، وليس ما وقع في السؤال كما نقل من خط بعض الشارحين أنه يقال فيها تَمْحُونَ كَتَفَرُّحْنَ بَشَى ، وأمر الثانية ظاهر ، انتهى بحروفه .

وما قاله رحمه الله تعالى في الاعتذار عن ابن خميس هو اللائق بمقامه ، فإن مكان ابن خميس من العلوم غير منكر ، وقد مدحه ابن خطاب بقوله :

رَقَّتْ حَوَاشِي طَبْعِكَ ابْنَ خَمَيْسٍ فهِمَا قَرِيبُكَ لِي وَهَاجَ رَسِيمِي (١)
وَمَثَلُهُ يَصْبُو الْحَلِيمَ وَيَمْتَرِي ماء الشَّوْنِ بِهِ وَسِيرَ الْعَيْسِ
لَكَ فِي الْبَلَاغَةِ ، وَالْبَلَاغَةُ بَعْضُ مَا تحويه من أثر ، محل رئيس
نظم ونثر لا تَبَارَى فِيهِمَا عززت ذاك وذاب علم الطوسي
يعني أبا حامد الغزالي .

وقال لسان الدين بن الخطيب في « عائد الصلة » في حق أبي عبد الله محمد ابن خميس التلمساني المذكور ما صورته : كان رحمه الله تعالى نسيجاً وَحْدَهُ زهداً وانتباضاً وأدباً وهمة ، حَسَنَ الشَّيْبَةِ ، جميل الهيئة ، سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيداً عن الرياء ، عاملاً على السياحة والعزلة ، عارفاً بالمعارف القديمة ، مضطجاً بتفاريق النحل ، قائماً على العربية والأصْلَيْنِ ، طبقة الوقت في الشعر ، وفحل الأوان في المطول ، أفرد الناس على اجتلاب الغريب ، ثم ذكر من أحواله جملة ، إلى أن قال : وبلغ الوزير أبا عبد الله بن الحكيم أنه يروم السفر ، فشق ذلك عليه ، وكلفه تحريك الحديث بحضرته ، وجرى ذلك ، فقال الشيخ : أنا كالدِّمِ أَتَمُحُّرُكُ في كل ربيع ، انتهى .

وقال ابن خاتمة في « مزية المرية » ، على غيرها من البلاد الأندلسية : « إنه نظم في الوزير ابن الحكيم القصائد التي حليت بها لَبَّاتِ الْآفَاقِ ، وتنفست عنها

ترجمة
أبي عبد الله
ابن خميس
التلمساني

(١) رسيس الهوى ، مثلاً : أصله

(٢) تقول « مرى فلان ضرع الناقة » إذا مسحه بيده ليحلب

صدور الرفاق ، وكان من فحول الشعراء ، وأعلام الباغاء ، يرتكب مُسْتَضْعَبَات
القَوَافِي ، ويطير في القريض مَطَارِذِي القوادِم الباسقة والخَوَافِي ، حافظاً لأشعار
العرب وأخبارها ، وله مشاركة في العقلیات ، واستشراف على الطلاب ، وقعد لإفراء
العربية بحضرة غُرْ نَاطِطَة ، ومال بأخرّة إلى التصوّف والنحوال ، والتحلّى بحسن
السّمْت وعدم الاسترسال ، بعد طَيِّ بساط ما فرط له في بلده من الأحوال ، وكان
صَنَعَ اليدين ، حدثي بعضُ من لقيت من الشيوخ أنه صنع قدحا من الشمع
على أبداع ما يكون في شكله ولطافة جوهره وإتقان صناعته ، وكتب بدائثر شفقيه :

وما كنت إلا زهرة في حديقة تَبَسَّمُ عَنِّي ضاحكات الكجائم

فقبلت من طور لطور فها أنا أقبل أفواه الملوك الأعظم

وأهداه خدمةً للوزير أبي عبد بن الحكيم .

وأنشدنا شيخنا القاضي أبو البركات بن الحاج وحكى لنا قال : أنشدني
أبو عبد الله بن خميس ، وحكى لي ، قال : لما وقفت على الجزء الذي ألفه ابن سبعين
وسماه « بالفقرية » كتب على ظهره :

الفقر عندي لفظ دَقَّ معناه مَنْ رامه من ذوى الغايات عَنَّا^(١)

كم من غبي بعيد عن تصوّره أراد كشف مُعَاه فمعه

وأنشدنا شيخنا الأستاذ أبو عثمان بن لبون غير مرة قال : سمعت أبا عبد الله

ابن خميس ينشد ، وكان يُحَسِّبُ أنهما له ، ويقال : إنهما لابن الرومي :

رب قوم في منازلهم غُرَّرَ صاروا بهَا غُرَّرَا^(٢)

ستر الإحسان ما بهم سترى لو زال ما سترَا

(١) عناء - بتشديد النون - أوره العناء وهو الجهد والتعب والمشقة .

(٢) العرر - بضم العين وفتح الراء - جمع عرة ، وأصلها الجرب ، وأراد به
ذوى الفسالة ، على التشبيه ، والفرر - بالعين المعجمة - جمع غرة ، وأصلها البياض
في جبهة الفرس ، ويراد بها المشهور ، على التشبيه أيضا .

ثم قال ابن خاتمة : وقد جمع شعره ودونه صاحبنا القاضي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي في جزء سماه « الدر النفيس » ، في شعر ابن خميس » وعرف به صدره ، وقدم ابن خميس المرية سنة ست وسبعائة فنزل بها في كنف القائد أبي الحسن بن كاشة من خدام الوزير ابن الحكيم ، فوسّع له في الإيثار والمبرة ، وبسط له وجّة الكرامة طلق الأميرة ، وبها قال في مدح الوزير المذكور قصيدته التي أولها :

العنى تعيا والنوابع عن شكر أنعمك السوابع (١)
 ووجه بها إليه ، وهى طويلة ، ومنها :
 ورسائع ابن كاشة مع كل بازغة وبازغ
 تأتى بما تهوى النفا نغ من شهيات اللغاغ
 ومنها :

ما ذاق طعم بلاغة من ليس للحوشى ما ضغ
 ويقال : إن الوزير اقترح عليه أن ينظم قصيدة هائية ، فابتدأ منها مطالعها ، وهو قوله :

لمن المنازل لا يجيب صداها مُحِيتُ مَعَالِمُهَا وَصَمَّ صَدَاها (٢)
 وذلك آخر شهر رمضان من سنة ثمان وسبعائة ، ثم لم يزد على ذلك إلى أن توفي رحمه الله تعالى ، فكان آخر ما صدر عنه من الشعر وقد أشار معناه إلى معناه ، وأذن أولاه بحضور أخراه ، وكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلا ضحوة يوم الفطر مُسْتَهْلَ شَوَّال سنة ثمان وسبعائة ، وهو ابن نيف وستين سنة ، وذلك يوم مقتل مخدمه الوزير ابن الحكيم ، أصابه قاتله بحمده على مخدمه ، وكان آخر ما سمع

(١) في هامش ب ما نصه « العشى تعمى هكذا في الأصل بالشين المعجمة ، ولعله بالياء المثناة ، جمع أعشى بمعنى أحرق ، تأمل

(٢) في نسخة عند ب « صم صفاها »

منه (أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) واستفاض من حال القاتل أنه هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله من فالج شديد أصابه ، فكان يصيح ويستغيث : ابن خميس يطلبنى ، ابن خميس يضربنى ، ابن خميس يقتلنى ، وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال ، نعوذ بالله من الورطات ، ومواقعات العثرات ، انتهى ملخصاً .

وحكى غيره أن بعضهم كتب بعد قوله « لمن المنازل لا يجيب صداها » ما نصه : لابن الحكيم ، ومن بديع نظم ابن خميس قوله :

تراجع من دنياك ما أنت تارك	وتسألها العتبي وها هي فارك ^(١)
تؤمل بعد الترك رجّع ودادها	وشر وداد ما تود الترائك
حلالك منها ما حلالك في الصبا	فأنت على حالموائه متهاك
تظاهر بالسلوان عنها تجملا	فقلمك محزون وشعرك ضاحك
تنزهت عنها نحوه لازهادة	وشعر عذارى أسود اللون حالك
وهي طويلة طنانة ، وفي آخرها يقول :	
فلا تدعون غيرى لدفع ملامة	إذا مادهى من حادث الدهر داعمك
فما إن لذاك الصوت غيرى سامع	وما إن لبيت الجد بعدى ساءمك
يفص ويشجى نهشل ومجاشع	بما أورثنى حمير والسكاسك ^(٢)
تفارقنى الروح التى لست غيرها	وطيب ثنائى لاصق بى صائك
وماذا عسى ترجو لى وأرتجى	وقد شمطت منى اللحى والأفائك
يعود لنا شرخ الشباب الذى مضى	إذا عاد للدنيا عقيل ومالك

ومما اشتهر من نظمه قوله :

(١) الفارك : المرأة التى تبغض زوجها وتكرهه ، هذا أصله ، والعتبي : هى لاسترضاء ، يقول : أنت تريدها عن أن تسترضيك وهى تبغضك

(٢) نهشل ومجاشع وحمير والسكاسك : قبائل من العرب

أَرْقَ عَيْنِي بَارِقَ مِنْ أُنَالِ كَأَنَّهُ فِي جَنَحِ لَيْلِي ذَبَالِ
 أُنَارِ شَوْقًا فِي ضَمِيرِ الْحُشَا وَغَبْرَتِي فِي صَحْنِ خَدِي أُسَالِ
 حَكِي فَوَادِي قَلْقًا وَاشْتَعَالِ وَجَفَنَ عَيْنِي أَرْقًا وَانْهَمَالِ
 جَوَانِحِ تَلْفَحِ نِيرَانَهَا وَأُدْمَعِ تَهْلُ مِثْلَ الْعَزَالِ^(١)
 قُولُوا وَشَاةَ الْحَبِّ مَا شِئْتُمْ مَا لَذَّةَ الْحَبِّ سِوَى أَنْ يُقَالَ
 عَذْرًا لِلْوَامِي وَلَا عَذْرَ لِي فَزَلَّةَ الْعَالَمِ مَا إِنْ تُقَالَ
 قُمْ نَظْرُدِ الْهَمَّ بِمَشْمُولَةٍ تَقْصُرُ اللَّيْلُ إِذَا اللَّيْلُ طَالَ
 وَعَاطَهَا صَفْرَاءَ ذَمِيَةٍ تَمْنَعُهَا الذِّمَّةُ مِنْ أَنْ تُنْكَالَ
 كَالْمَسْكِ رِيحًا وَاللَّيِّ مَطْعَمًا وَالتَّبَرُّ لَوْنًا وَالْهَوَى فِي اعْتِدَالِ
 عَتَقَهَا فِي الدَّنِّ خَمَارَهَا وَالبُكْرُ لَا تَعْرِفُ غَيْرَ الْحُجَالِ
 لَا تُثْقِبِ الْمَصْبَاحَ لَا وَاسْتَقْنِي عَلَى سَنَا الْبَرْقِ وَضَوْءِ الْهَلَالِ
 فَالْعَيْشِ نَوْمَ وَالرَّدَى يَقْطَعُهُ وَالْمَرْءُ مَا بَيْنَهُمَا كَالْخِيَالِ
 خَذَهَا عَلَى تَنْغِيمِ مَسْطَارَهَا بَيْنَ خَوَائِبِهَا وَبَيْنَ الدَّوَالِ
 فِي رَوْضَةٍ بَاكِرٍ وَسَمِيمِهَا أَخْلَ دَارِينَ وَأَنْسَى أَوَالِ
 كَأَنَّ فَارَ الْمَسْكِ مَفْتُوتَةٌ فِيهَا إِذَا هَبْتَ صَبَاً أَوْ شَمَالَ
 مَنْ كَفَّ سَاجِي الطَّرْفِ الْحَاطِلُ مَفُوقَاتِ أَبْدَا لِلنُّضَالِ
 مِنْ عَازِرِي وَالسَّكَلِ لِي عَازِرِ مِنْ حَسَنِ الْوَجْهِ قَبِيحِ الْفَعَالِ
 مِنْ خُلْبِي الْوَعْدِ كَذَابِهِ لَيَّانٌ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ الْمِطَالِ
 كَأَنَّهُ الدَّهْرُ وَأَيُّ امْرِئٍ يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ إِذَا الدَّهْرُ حَالَ
 أَمَا تَرَانِي آخِذَا نَاقِضًا عَلَيْهِ مَا سَوْفَنِي مِنْ مَحَالِ

(١) العزال : أراد العزالي ، وهي جمع عزلاء ، بوزن صحراء وصحارى ، وهو مصب الماء من الراوية (القرية) ونحوها

ولم أكن قط له غائباً كمثل ما عابته قبلي رجال
يأبى ثراء المال علمي وهل يجتمع الضدان علم ومال
وتأنف الأرض مقامى بها حتى تهادانى ظهور الرجال
لولا بنوزيَّان ما لدلى العيش ولا هانت على الليالى
هم خوفوا الدهر وهم خففوا على بنى الدنيا خطاه النقال
لقيت من عامرهم سيداً غمر رداء الحمد جم النوال
وكعبة للجدود منصوبة يسعى إليها الناس من كل بال
خُذْها أبا زيان من شاعر مستملح النزعة عذب المقال
يلتفظ الألفاظ لفظ النوى وينظم الآلاء نظم اللآل
مجاريا مهيبار فى قوله (ما كنت لولا طمعى فى الخيال)

وقصيدة مهيبار مطلعها :

ما كنت لولا طمعى فى الخيال أنشد ليلى بين طول الليال

ومن نظم ابن خميس قوله :

نظرت إليك بمثل عيني جوذر وتبسمت عن مثل سمطى جوهر^(١)
عن ناصع كالدر أو كالبرق أو كالطلع أو كالأفحوان مؤشر
تجرى عليه من لَمَها نطفة بل خمرة لىكنها لم تُعَصَّر
لوم يكن خمر سُلَافاً ريقها تُزْرِى وتلعب بالنهى لم تُحْطَر
وكذاك ساجى جفنها لوم يكن فيه مُهَنَّد لحظها لم يُحْذَر
لو عُجَّت طرفك فى حديقة خدها وأمنت سطوة صُدْغها المتنمر
لرُتَعَتْ من ذاك الحمى فى جنة وكرعت عن ذاك اللَّمى فى كوثر

(١) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية ، تشبه به الحسان فى سعة العيون ، وجمعه جأذر ، والسمط - بالكسر - العقد ، شبه أسنانها بعقد الجواهر ، وعينها بعين جؤذر

طرقتك وَهَنًا والنجوم كأنها حصاء در في بساط أخضر
 والركب بين مصعد ومصوب والنوم بين مسكن ومنفر
 بيضا إذا اعتكرت ذواشب شعرها سفرت فأزرت بالصباح المسفر
 سرحت غلائلها فقلت سبيكة من فضة أو دُمَيَّة من مرمر (٢)
 منحتك مامنعتك يقظانا فلم تخلف مواعدها ولم تتغير
 وكأما خافت بغاة وشاتها فأنتك من أردافها في عسكر
 ويجزع ذاك المنحني أدامة تعطو فتسطو بالهزير القصور
 وتحيةُ جاءتك في طي الصبا أذكي وأعطر من شميم العنبر
 جرَّت على واديك فضل رداها فعرفت فيها عَرَفَ ذاك الإذخر
 هاجت بلابل نازح عن إلقه متشوق ذاكي الحشا متسعر
 وإذا نسيت ليالي العهد التي سلفت لنا فتذكرها تذكري
 رحنا تغنيننا ونشرف ثغرها والشمس تنظر مثل عين الأخرز
 والروض بين مفضض ومعسجد والجو بين ممسك ومعصفر
 وكان السلطان أمير المؤمنين أبو عنان المريني - رحمه الله تعالى ! - كثير العناية بنظم
 ابن خميس وروايته ، قال رحمه الله تعالى : أنشدنا القاضي خطيب حضرنا العلية
 أبو عبد الله محمد بن عبد الرزاق بقصر المصارة يمينه الله قال : أنشدنا بلفظه شيخُ
 الأدباء ، فحل الشعراء ، أبو عبد الله بن خميس نفسه :

أَنَبْتُ ولكن بعد طول عتاب وفرط الجاج ضاع فيه شبابي
 ومازلت والعلياء تعني غريمها أعلل نفسي دائما بمتاب
 وهيهات من بعد الشباب وشربه يلذ طعامي أو يسوغ شرابي

(١) وهنا - بفتح الواو وسكون الهاء - أي بعد هزيع من الليل

(٢) الدمية - بضم الدال وسكون الميم - الصورة من عاج ونحوه ، تشبه بها المرأة في البياض والرونق

خدعت بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصادى بلعم سراب
 تقول هو الشهد المشور جهالة وما هو إلا السم شيب بصاب
 وما صعب الدنيا كبكر وتغلب ولا ككليب رىء فحل ضراب
 إذا كفت الأبطال عنها تقدموا أعاريب غراً فى متون عراب^(١)
 وإن ناب خطب أو تفاقم مفضل تلقاه منهم كل أصيد ناب^(٢)
 تراءت لجساس مخيلة فرصة تأت له فى حياة وذهاب
 فجاء بها شوهاء تنذر قومها بتشديد أرجام وهدم قباب
 وكان رغاء الصقب فى قوم صالح حديثاً فأنساه رغاء سراب
 فما تسمع الآذان فى عرصاتهم سوى نوح شكلى أو نعيب غراب
 وسل غروة الرحال عن صدق بأسه وعن بيته فى جعفر بن كلاب
 وكانت على الأملاك منه وفادة إذا آب منها آب خير مآب
 يحير على الحيين قيس وخندف بفضل يسار أو بفصل خطاب
 زعامة مرجو النوال مؤمل وعزيمة مسموع الدعاء محاب
 فمر يزجها حواسر ظلمها بما حملوها من مئى ورياب
 إلى فذك والموت أغرب غاية وهذا المنى يأتى بكل عجاب
 تبرض صفو العيش حتى استشفه فدأف له البراض كشف حباب
 فأصبح فى تلك المعاطف نهزة لنهب ضباع أو لنهش ذئاب
 وما ستهمه عند النضال بأهزع ولا سيفه عند الصراع بناب
 ولكنها الدنيا تنكر على الفتى وإن كان منها فى أعز نصاب
 وعادتها أن لا توسط عندها فإما سماء أو تخوم تراب

(١) كع فلان : أحجم ونكص عن لقاء قرنه ، والأعاريب : جمع أعراب الذى هو جمع عرب ، وأراد رجالاً أعراباً ، والعرب : الحيل الأصيلة ، ومتونها : ظهورها وهى مقعد الفرسان . (٢) تفاقم : عظم وصعب ، والأصيد : الوصف من الصيد - بفتح الصاد والياء جميعاً - وهو ميل العنق زهوا وكبرا

فلا ترج من دنياك وداوإن يكن
وما الحزم كل الحزم إلا اجتنابها
أيت لها مادام شخصي أن ترى
فكم عطلت من أربع وملاعب
وكم عقرت من حاسر ومدجج
إليكم بنى الدنيا نصيحة مشفق
طويل مراس الدهر جذل مباحك
تأنت له الأهوال أدهم سابقا
ولا تحسبوا أنى على الدهر عاتب
وما أسفى إلا شباب خلعتـه
وعمر مضى لم أخل منه بطائل
ليالى شيطاني على الغنى قادر
عكسنا قضايانا على حكم عادنا
على المصطفى المختار أزكى تحية
فتلك عتادي أو ثناء أصوغه
ومن مشهور نظم ابن خيس قوله :

عجبالها أيدوق طعم وصالها
وأنا الفقير إلى تعلقة ساعة
كم ذاوعن عيني الكرى متأنف
يسمو لها بدر الدجى متضائلا
من ليس يأمل أن يمر ببالها
منها ، وتمننى زكاة بجمالها
يبدو ويخفى فى خفى مطالها
كتضاؤل الحسناء فى أسمالها

(١) شبهه بظل السحاب فى سرعة الزوال والانتقال

(٢) تقول « أنا لا أطور بفلان » تريد لا أحوم حوله ولا أدنو منه ، وجناب

الرجل : ناحيته وجانبه (٣) العصر : الفتاة إذا بلغت وقت شبابها والسكعاب : جمع السكعاب ، وهى الشابة التى كعب نهدها وتأت .

وإن السبيل يحى يقبس نارها ليلا فتمنحه عقيلة مالها
يعتادنى فى النوم طيفُ خيالها فتصينى ألاحظها بنبالها
كم ليلة جادت به فكأنما زُفَّتْ على ذُكَاةٍ وقت زوالها (١)
أسرى فعطلها وعطل شهبها بأبى شذا العطار من معطالها
وسواد طرته كجرح ظلامها ويياض غرته كضوء هلالها
دعنى أنيم بالوهم أدنى لمعة من ثغرها وأشم مسكة خالها
ما رآد طرفى فى حديقة خدها إلا لفتنته بحسن دلالها
أنسيبُ شعرى رق مثل نسيمها فشمول راحك مثل ريح شمالها
وانقل أحاديث الهوى واشرح غريب لغاتها واذا كرت ثقات رجالها
وإذا مررت برامة فتوق من أطلأها وتمشَّ فى أطلألها (٢)
وانصب لمغزها حباله قانص ودع الكرى شركا لصيد غزالها
وأسل جداولها بفيض دموعها وانضح جوانحها بفضل سجالها
أنا من بقية معشر عركتهم هذى النوى عرك الرعى بثقالها
أكرم بها فتنة أريق نجيعها بغيا فراق العين حسن مالها
حلت مدامة وصلها وحلت لهم فإن انتشوا فبحلوها وحلالها
بلغت بهرمس غاية ما نالها أحد وناء لها لبعـذ منالها
وعدت على سقراط سورة كأسها فهريق مافى الدن من جرئالها
وسرت إلى فاراب منها نفحة قدسية جاءت بتخبية آها
ليصوغ من ألحانه فى حانها ما سوغ القسيس من أرمالها
وتغلغل فى شهرزرد فأسهرت عينا يؤرقها طروق خيالها

(١) ذكاء : اسم من أسماء الشمس

(٢) الأطلال : جمع طلاء ، وهو ولد الظبية ، وتوق منها : احذرها ولا تتعرض

لها لئلا تسلب إليك

فخبيا شهاب الدين لما أشرقت وخوى فلم يثبت لنور جلالها^(١)
 ماجن مثل جنونه أحد ، ولا سمحت يد يبيضا بمثل نوالها
 وبدت على الشوذى منها نشوة ما لاح منها غير لمعة آلهـا^(٢)
 بطلت حقيقة وحالت حاله فيما يعبر عن حقيقة حالها
 هذى صبايتهم ترق صباية فيروق شاربها صفاء زلالها^(٣)
 وهى طويـلة .

قال السلطان أبو عنان رحمه الله تعالى : أخبرني شيخنا الإمام العالم العلامة
 وحيدُ زمانه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلـى رحمه الله تعالى ، قال : لما توجه
 الشيخ الصالح الشهير أبو إسحاق التنيسى من تلمسان إلى بلاد المشرق اجتمع
 هنالك بقاضى القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ، فكان من قوله له : كيف حال
 الشيخ العالم أبى عبد الله بن خميس ؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف ، ويطنب فى
 ذكر فضله ، فبقى الشيخ أبو إسحاق متعجباً ، وقال : من يكون هذا الذى
 حلّيتموه بهذا الحلى ولا أعرفه ببلده ؟ فقال له هو القائل :
 * عجباً لها أيدوق طعم وصالها *

قال : فقلت له : إن هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التى وصفتم ، إنما هو
 عندنا شاعر فقط ، فقال له : إنكم لم تنصفوه ، وإنه لحقيق بما وصفناه به .
 قال السلطان : وأخبرنا شيخنا الأبلـى المذكور أن قاضى القضاة ابن دقيق العيد
 كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت له تعلو موضع جلوسه للمطالعة ، وكان
 يخرجها من تلك الخزانة ، ويكثر تأملها والنظر فيها ، ولقد عرفت أنه لما وصلت
 هذه القصيدة إلى قاضى القضاة تقي الدين المذكور لم يقرأها حتى قام إجلالاً لها .

(١) خبا : خمدت جذوة ناره ، وخوى سقط وهوى

(٢) الآل : السراب .

(٣) الصباية - بالفم - البقية ، والصباية - بالفتح - الصبوة والميل إلى الهوى

وكان ابن خنيس رحمه الله تعالى - بعد مفارقة بلده تلمسان ، سقى الله أرجاءها
أنواء نيسان! - كثيراً ما يتشوق لمشاهدها ، ويتأوه عند تذكره لمعاهدها ، وينشد
القصائد الطنانة في ذلك ، سالكا من الحنين إليها المسالك ، فمن ذلك قوله :

تِلْمَسَانُ لو أن الزمان بها يَسْخُو	مُنَى النفس لدارُ السلام ولا الكَرْخُ ^(١)
ودارى بها الأولى التي حيل دونها	مثار الأسى لو أمكن الحقّ اللبّخُ ^(٢)
وعهدى بها والعمر في عنفوانه	وماء شبّابى لا أُجِينُ ولا مطخُ ^(٣)
قرارة تهيّام ومغنى صباية	ومعهّد أنس لا يلذ به لطخ
إذ الدهر مثنى العنان مُنْهَنَّهُ	ولا رَدْعَ يثنى من عنانى ولا ردخ
ليالى لا أصغى إلى عذل عاذل	كأن وقوع العذل فى أذنى صمخ
معاهد أنس عَطَلَتْ فكأنها	ظواهر ألقاها تعمدها النسخ
وأربُعُ آلافٍ عفا بعضُ آيها	كما كان يعرف بعض ألواحنا اللطخ
فمن يك سكرانا من الوجد مرة	فإنى منه طول دهرى للمتبخ
ومن يقتدح زندا لموقد جدوة	فزند اشتياقى لا عَفَار ولا مَرخ
أنسى وقوفى لاهيا فى عِراضها	ولا شاغل إلا التودع والسبخ
وإلا اختيالى ماشياً فى سماطها	رخياً كما يمشى بطرته الرخ
وإلا فعدوى مثل ما ينفر الطلّا	وليداً وحجلى مثل ما ينهض الفرخ
كأنى فيها أردشير بن بابك	ولا ملك لى إلا الشبيبة والشرح
وإخوان صدق من لِدائى كأنهم	جأذر رمل لا عجاف ولا بُزخ
وَعَاة لما يلقى إليهم من الهدى	وعن كل فحشاء ومفكرة صُلخ
هم القوم كل القوم سيان فى العلا	شبابهم الفرغان والشيخة السلخ

(١) دار السلام : هى بغداد ، والكَرْخ — بالفتح — محلة بها .

(٢) اللبّخ : الاحتيال

(٣) الأجين : المنغير طعمه ، والمطخ : الغرين يبقى فى الحوض ولا يقدر على شربه

مَضَوْا وَمَضَى ذَاكَ الزَّمَانُ وَأَنَسَهُ
 كَأَن لَّمْ يَكُن يَوْمًا لِأَقْلَامِهِمْ بَهَا
 وَلَمْ يَكْ فِي أَرْوَاحِهَا مِنْ ثَنَائِهِمْ
 وَلَافِي مَحْيَا الشَّمْسِ مِنْ هَدْيِهِمْ سَنًا
 سَعَيْتُمْ بَنَى عَمُورٍ فِي شَتِّ شَمْلِنَا
 دَعَيْتُمْ إِلَى مَا يَرْتَجَى مِنْ صِلَاحِكُمْ
 تَعَالَيْتُمْو عَجِبًا فِطْمٌ عَلَيْكُمْ
 وَأَوْغَلْتُمْو فِي الْعَجَبِ حَتَّى هَلَكْتُمْ
 كَفَاكُمْ بِهَا سَجَنًا طَوِيلًا وَإِنْ يَكُنْ
 فَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْهَا ظَفَرْتُمْ بِنِيلِهَا
 كَأَن كُومًا مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا
 فَلَا شَوْقَ مِنْهَا الْقَيْدَ إِنْ هِيَ أَغْرَبَتْ
 كَأَن تَحْتَهَا مِنْ شِدَّةِ الْقَلَقِ الْقَطَا
 وَأَقْرَبَ مَا تَهْدِي بِهِ الْهَلَكُ وَالْتَوَى
 فَمَاذَا عَسَى نَرْجُوهُ مِنْ لَمْ شَعْنِهَا
 وَمَا يَطْمَعُ الرَّاجُونَ مِنْ حِفْظِ آيِهَا
 زَعَانِفٌ أَنْكَادٌ لَثَامٌ عَنَّا كُلُّ
 وَلَمَّا اسْتَقَلُّوا مِنْ مَهَاوِي ضِلَالِهِمْ
 دَعَاهُمْ أَبُو يَعْقُوبَ لِلشَّرَفِ الَّذِي
 فَلَمْ يَسْتَجِيبُوهُ فَذَاقُوا وَبَالَهُمْ

وَمَرُّ الصَّبَا وَالْمَالُ وَالْأَهْلُ وَالْبَذَخُ
 صَرِيرٌ ، وَلَمْ يَسْمَعْ لَأَكْبَهُمْ جَبِيحٌ ^(١)
 شَمِيمٌ وَلَافِي الْقَضْبِ مِنْ لَيْنِهِمْ مَلْخٌ
 وَلَافِي جَبِينِ الْبَدْرِ مِنْ طَيِّبِهِمْ ضَمَخٌ
 فَمَا تَجَرُّكُمْ رِيحٌ وَلَا عَيْشُنَا رِيحٌ
 فَرَدَّكُمْ عَنْهُ التَّعَجُّفُ وَالْمَجْخُ
 عُجَابٌ لَهُ فِي رَأْسِ عَلِيَاءِكُمْ جَلْخٌ
 جَمَاحٌ غَوَاةٌ مَا يَنْهَنُهِمْ قَفْخٌ
 هَلَاكٌ لَكُمْ فِيهَا فَهِيَ لَكُمْ فَنَخٌ
 بِأَبْشَارِهَا مِنْ حُجْنِ أَظْفَارِكُمْ بَرِخٌ
 أَسْوَدُ غِيَاضٍ وَهِيَ مَا يَبِينُكُمْ أَرْخٌ
 وَلِلْهَامِ إِنْ لَمْ تَعْطِ مَا رَعَتْ النَّمِخُ
 وَمَنْ فَوْقَهَا مِنْ شِدَّةِ الْحَذَرِ الْفَتَخُ
 وَأَيْسَرُ مَا تَشْكُو بِهِ الذَّلُّ وَالْفَتَخُ
 وَقَدْ حَزَّ مِنْهَا الْفَرَعُ وَأَقْتَلَعَ الشَّلَخُ ^(٢)
 وَقَدْ عَصَفَتْ فِيهَا رِيَا حُهُمُ النَّبِخُ
 مَتَى قَبِضُوا كَفَا عَلَى إِثَرِهِ طَخُوا
 وَأَوَمُّوا إِلَى أَعْلَامِ رَشْدِهِمْ زَخُوا
 يَذُلُّ لَهُ رِضْوَى وَيَعْنُو لَهُ دَمَخٌ
 وَمَا لَأَمْرِي عَنْ أَمْرِ خَالِقِهِ نَخٌ

(١) الأَكْب: جمع كعب ، وهو قدح الليسر ، وجبجها : إجالها وتحرى بها

(٢) الشَّلَخ : بالفتح — الأصل والعرق

وما زلت أدعو للخروج عليهم
وأبذل في استنصاحهم جهد طاقتي
تركت لينا سبعة كل نجمة
وآيت أن لا أرتوى غير مائها
وأن لا أحط الدهر إلا بعقرها
فكم نعتت من غلة تلسم الإضي
وحسبي منها عدلها واعتدالها
وأملأها الصيّد المقالة الألى
كواكب هدى في سماء رياسة
ثواقب أنوار ترى كل غامض
وروضات آداب إذا ما تأرجت
محارم ند في حدائق نرجس
وأبخر علم لا حياض رواية
بنو الغريرين الألى من صدورهم
إذا ما فتى منهم تصدى لغاية
رياسة أخيار وملك أفاضل
إذا ما بدا منا جفاء تعطفوا
نزورهم حذا نحافا فنثنى
يربونا بالعلم والحلم والنهى
وما الزهد في أملاك نلم ولا التقى

وقد يسمع الصم الدعاء إذا أصخوا^(١)
وما لظنايب ابن سابعة قنفخ
كما تركت المعز أهضامها شمع
ولو حل لى في غيره المن والمذخ
ولو بوأتنى دار إمرتها بلخ
وكم أبرأت من علة تلسم اللبخ
وأبحرهما العظمى وأريافها النفخ
لعزهم تعنو الطراخمة البلخ
تضى فما يدجو ضلال ولا يطخو
إذا الناس في طخياء غيهم التخوا
تضائل في أفياء أفنانها الرمح
تم ولا لفتح يصيب ولا دخ
فيكبر منها النضح أو يعظم النضح
وأيديهم تملأ القراطيس والطرخ
تأخر من ينحو وأقصر من ينخو
كرام لهم في كل صالحة رضح
علينا، وإن حلت بنا شدة رخوا
وأجمالنا دُلح وأبدادنا دُلخ
فما خرجنا بز ولا حدنا برخ
بيدع، وللدنيا لزوق بمن يرخو

(١) أصل الماضي أصاخ ، فقلبه بتقديم اللام على العين فصار أصخى ، ومعناه
استمع ، بقى أنه كان يجب فتح ما قبل واو الجماعة ، وفي الشعر كثير من التكلف
والتعقير المزدول

وإلا ففي رب الخورنق غنية
 تطلع يوما والسريرُ أمامه
 وعنَّ له من شيعة الحق قائم
 فأصبح يجتاب المسوح زهادة
 وفي واحد الدنيا أبي حاتم لنا
 تخلى عن الدنيا تخلى عارف
 وأعرض عنها مستهيناً لقدرها
 فكان له من قلبها الحب والهوى
 وما معرض عنها وهى فى طلابه
 ولا مدرك ما شاء من شهواتها
 ولكننا نعمى مراراً عن الهدى
 وما لامرئ عما قضى الله مزحل
 أبا طالب لم تبق شيمة سودد
 تسوغت أبناء الزمان أياديا
 وأجريتها فيهم عوائد سودد
 غدتهم غواذيتها فى عروقهم
 وعمتهم حزنًا وسهلاً فأصبحوا
 بنى الغرفين أبلغوا ما أردتم
 ولا تقعدوا عن أراد سجالكم
 وخلوا وراء كل طالب غاية

فما يومه سر ولا صيته رضح^(١)
 وقد نال منه العجبُ ما شاء والجفخ^(٢)
 بحجة صدق لا عباى ولا وشخ^(٣)
 وقد كان يؤذى بطن أخضه النخ^(٤)
 دواء، ولكن ما لأدوائنا ننخ^(٥)
 يرى أنها فى ثوب نخوته لنخ
 فلم يثنه عنها اجتذاب ولا مَضخ
 وكان لها من كفه الطرح والطخ
 كمن فى يديه من معاناتها نبخ
 كمن حفظه منها التجمع والنبح
 ونصلج حتى ما لأدائنا صمخ
 ولا لقضاء الله نقض ولا فسخ
 يساد بها إلا وأنت لها سنخ
 لدرتها فى كل سامعة شخ
 فما لهم كسب سواها ولا نخ
 دماء، وفى أعماق أعظمهم مخ
 ومرعاهم ورخ ومرعيهم ولخ
 فما دون ما تبغون وحل ولا زخ
 فما غر بكم جف ولا غر فكم وضخ
 وتبهوا على من رام شاؤكم وانخوا

(١) الرضح : خبر تسمعه ولا تستقمته .

(٢) الجفخ : الفخر

(٣) العباى : الثقل الغبى الأحمق ، والوشخ : الضعيف والردى .

(٤) النخ : السير (٥) أصل النخ : حب الكون ، معرب ، وأراد به الدوا

ولا تَذَرُوا الجوزاء تعلو عليكم
لأنفواه أعدائي وأعين حسدى
دَعُوهَا تَهَادَى فى ملاءة حسنهما
يمانية زارت يمانين فأنثت
وقد بسط فى « الإحاطة » ترجمة ابن خيس المذكور ، ومما أنشد له قوله :

سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء
وفى خفقان البرق منها إشارة
تمر اللىلى الى ليلة بعد ليلة
وإنى لأصوب للصبأ كلما سرت
وأهدى إليها كل يوم تحية
وأستجلب النوم الغرار ومضجى
لعل خيالاً من لدنّها يمر بى
وكيف خلوص الطيف منها ودونها
وإنى لمشتاق إليها ومُنْبِئى
وكم قائل تَفَنّى غراماً بحبها
لعشرة أعوام عليها تجرّمت
يطنب فيها عاثوث وحزب
كأن رماح الناهبين للمكها
فلا تبغين فيها مناخاً لراكب
ومن عجب أن طال سقمى ونزعها

ففى رأسها من وطء أسلافكم شدخ
إذا جليت خائبتى الغض والفضخ
ففى نفسها من مدح أملا كها مدخ
وقد جدّ فيها الزهو واستحكم الزمخ

فعند صباها من تلسان أنباء
إليك بما تمنى إليها وإيماء
ولالأذن إصغاء وللعين إكلاء
وللنجم مهما كان للنجم إصبا
وفى رد إهداء التحية إهداء
قتاد كما شئت نواها وسلاء (١)

ففى مره بى من جوى الشوق إبراء
عيون لها فى كل طالعة راء
ببعض اشتياق لو تمكن إنباء
وقد أخلقت منها ملاء وأملاء (٢)

إذا ما مضى قيظ بها جاء إهراء
ويرحل عنها قاطنون وأحياء
قداح ، وأموال المنازل أبداء
فقد قلصت منها ظلال وأفياء
وقسم إضناء علينا وإطناء

(١) القتاد : الشوك ، والسلاء — بضم السين وتشديد اللام — نصل كشوك النخل ، أو هو شوك النخل خاصة .

(٢) أخلقت : بليت ورثت ، والملاء : جمع ملاءة ، والأملاء : جمع ملا — بزنة فقى — وهو الأرض الواسعة ، ولعله أراد الديار .

وكم أَرْجَفُوا غِيظًا بها ثم أَرْجُوا
يردها عِيَابُهَا الدهرَ مثل ما
فيا منزلا نال الردى منه ما شتهى
وهل لِلظَى الحرب التي فيك تلتظى
وهل لى زمان أرتجى فيه عودة
ومنها :

أحن لها ما أطَّتِ النيب حولها
فسا فاتها منى نزاع على النوى
كذلك جدى فى صحابى وأسرتى
ولولا جوار ابن الحكيم محمد
حمانى فلم تنبَحْ محلى نواب
وأكفاء بيتى فى كفالة جاهه
يؤمنون قصدى طاعة ومحبة
دعانى إلى المجد الذى كنت آملا
وبؤانى من هضبة العز تَلَعَةً
يشيعنى منها إذا سِرْتُ حافظ
ولامثل نوى فى كفالة غيره
بغِيضَةٍ ليث أو بمقرب خالب
إذا كان لى من نائب الملك كافل
واخوان صدق من صنائع جاهه

- (١) الإنسان : التأخير . (٢) أطت : صوت ، والنيب : الإبل ، واحدها ناب ، والأظماء : جمع ظم ، وهو المدة التى تنقطع فيها عن ورود الماء .
(٣) أصل الاستعمال أن يقال «جشأت نفس فلان» إذا نهضت وثار ، فاستعمله بالهمز الزائدة هنا .
(٤) فاءوا : رجعوا وعادوا .

سراع لما يرحى من الخير عندهم ومن كل ما يخشى من الشر أبراء^(١)
إليك أبا عبد الإله صنعتها لزومية فيها لوجدى إفشاء
مبرأة مما يعيب لزومها إذا عاب إكفاء سواها وإيطاء^(٢)
أدعتُ بها السر الذى كان قبلها عليه لأحناء الجوانح إضفاء
وإن لم يكن كل الذى كنت آملا وأعوز إكلاء فما عاز إكفاء
ومن يتكلفُ مفحما شكر منة فمالى إلى ذاك التكلف إجماء
إذا منشد لم يسكن عنك ومُنشئ فلا كان إنشاد ولا كان إنشاء
رجع إلى ترجمة ابن الفخار وفوائده .

قال الشاطبى : حدثنا الأستاذ الكبير أبو عبد الله بن الفخار قال : جلس بعض الطلبة إلى بعض الشيوخ المقرئين ، فأتى المقرئ بمسألة الزوائد الأربع فى أوّل الفعل المضارع ، وقال : يجمعها قولك « نأيت » فقال له ذلك الطالب : لوجعتها بقولك « أنيت » لكان أملح ، ليكون كل حرف تضعيف ما قبله ، فاهمزة لواحد وهو المتكلم ، والنون لاثنتين وهما : الواحد ومعه غيره ، والواحد المعظم نفسه ، والياء لأربعة : للواحد الغائب ، وللغائبين ، وللغائبات ، والياء لثمانية : للمخاطب ، وللمخاطبتين ، وللمخاطبين ، والمخاطبة ، والمخاطبتين ، والمخاطبات ، وللغائبة ، وللغائبتين ، فاستحسن الشيخ ذلك منه .

وحكى الشاطبى أيضا أن شيخه ابن الفخار أورد عليهم سؤالا ، وهو : كيف يجمع بين مسألة رجل أوقع الصلاة بثوب حرير اختيارا وبين قوله :

* جرى الدميان بالخبر اليقين *

فلم ينقدح لنا شئ ، فقال : الجواب أن الأوّل ممنوع عند الفقهاء شرعا ، ورد

(١) الأبراء : جمع برى ، بوزن شريف وأشرف ، وهو الخلى من الذنب .

(٢) الإكفاء والإيطاء : عيبان من عيوب القافية .

اللام في دم في التثنية ممنوع عند النحاة قياساً ، وكلاهما في حكم المعلوم حساً ، وإذا كان كذلك كان الأوّل بمنزلة مَنْ صلى بادی العورة اختياراً ، فتلزمه الإعادة ، وكان الثاني بمنزلة ما باشرَ فيه عين دم علم التثنية ، فتلزمه الفتحة ، وإن كان أصلها السكون ، قال : وهذه المسألة تشبه مسألة ابن جنى في الخصائص ، قال : أُلقيتُ يوماً على بعض من كان يعتادني مسألة فقلت له : كيف تجمع بين قوله :

لَدُنْ بِهِزَّ السَّكْفِ يَعْسِلُ مَتْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّلَبُ^(١)

وبين قوله « اختصم زيدو عمرو » فلم ينقدح له فيها شيء ، وعاد مستفهماً ، فقال له : اجتماعهما أن الواو اقتصر به على بعض ما وضع له من الصلاحية اللازمة مطلقاً ، والطريق اقتصر به على بعض ما كان يصلح له .

قال الشاطبي : وحدثني أيضاً قال : كان لقاضي القضاة علماً وجزالة أبي جعفر ولد يقرأ على بماتقة ، وكان ابنا نبيها فهما ونبلا ، فسأل مني يوماً مسألة يذكرها لأقرانه ، وكان معجبا بالغرائب ، فخرى على لساني أن قلت له : بَيْنَ عَلَى زَيْدٍ فعلُ أمر وفاعل ، والأصلُ أُبَيِّنُ عَلَى زَيْدٍ ، ثم سهل بالنقل والحذف ، على قياس التسهيل ، فصار بَيْنَ كما ترى ، فأعجب بالمسألة حتى ناظر فيها ليلة أباه ، وكان أنحى نحاة أهل عصره ، فأعجب مما يرى من ابنه من النبل والتحصيل ، فبلغت المسألة الشيخ الأستاذ أبا بكر بن الفخار رحمه الله تعالى ، فاعتنى بها ، وحاول في استخراج وجه من وجوه الاعتراض على عادة المصلحين من طلبة العلم ، فوجد في مختصر العين أن الكلمة من ذوات الواو ، ولم يذكر صاحب المختصر غير ذلك ، ولم يكن رحمه الله تعالى رأى قول أبي الحسن اللحاني في نوادره : إنه مما يتعاقب على لامه الواو والياء فيقال : بَأَى يَبْأَى بَأَوْا وَبَأَيَّا ، كما يقال شَأى يَشَأى شَأَوْا

(١) ينشد النحاة هذا البيت شاهداً لحذف حرف الجر ونصب ما كان مجروراً

به على التوسع ، والأصل كما عسل في الطريق ، فلما حذف « في » نصب الطريق ، ولدن : وصف من اللدونة ، ويعسل : يتحرك ويضطرب ، والشاعر يصف سيفاً بأنه يتحرك في كف صاحبه بسهولة كما يتحرك الثعلب في الطريق .

وشأياً^(١)، فلم يقدم شيئاً على أن اجتمع بالقاضي المذكور فقال له : ألم تسمع ما قال فلان بين علي زيد وإنما هو بون علي زيد ؛ لأنه من ذوات الواو ، ونص على ذلك صاحب المختصر ، وحمله على أن يرسل إلى ويردني عن ذلك الذي قلبه في المسألة ، واجتمعت أنا معه ، وحدثني بما جرى له مع الأستاذ ابن الفخار ، فذكرت له ما حكاه أبو الحسن اللحياني في نوادره ، وما قاله ابن جني في سر الصناعة ، فسُرَّ بذلك ، وأرسل بعد إلى الأستاذ ابن الفخار ، وذكر له نص اللحياني وقول ابن جني وجمع القاضي بيننا ، وعقد في قلوبنا مودة ، فكان الأستاذ ابن الفخار يومئذ يقصدي في منزلي ، وفي المواسم ، ويستشيرني في أموره على سبيل التأنيس ، رحمة الله عليه ، فأواه على فقد أمثاله !

وقال الشاطبي أيضاً : أنشدني الفقيه الأستاذ الكبير أبو عبد الله بن الفخار رحمه الله تعالى ، وقال : ألقى في سري بيت لم أسمعه قط في السادس عشر من شهر رجب عام ستة وخمسين وسبعائة :

لتكن راجيا كما أنت ترجو ولأرؤي من الذي أنت راجي

قال الشاطبي : وقرر لنا الأستاذ ابن الفخار المذكور يوما توجيه قول أبي الحسن الأخفش في كسرة الذال من نحو يومئذ إنها إعرابية لا بنائية ، إذ لم يذكر أحد وجه هذا المذهب قبل ، قال ابن جني : إن الفارسي اعتذرله بما يكاد يكون عذرا ، فلما تم التوجيه قلت له وأنا حينئذ صغير السن : هب أن الأمر على ما قاله الأخفش من أن الكسرة إعرابية ، فإيصنع ببناء الزمان المضاف إلى «إذ» في أحد الوجهين والإضافة إلى المفرد المعرب تقتضي الإعراب دون البناء ؟ فتمعجب من صدور هذا السؤال مني لصغر سني ، وأجاب عنه بأنه قد يذهب السبب ويبقى حكمه ، كما قاله

(١) بأى : أى افتخر ، وشآء : أى فاقه وزاد عليه

ابن جنى في اسم الإشارة في ترجمة سيوييه « هذا علم ما السكلم من العربية » على أن يكون سيوييه وضعه غير مشير به وتركه مبنيا ، وأزال سبب البناء ، ونظراً ذلك بياب التسوية على ما هو مقرر في موضعه ، قال : ونظير ذلك ما قرره من إضافة حيث إلى المفرد مع بقاء البناء فيما ذكره الزمخشري ، وذلك قوله :

* أما ترى حيث سهيل طالعا *

وقوله أنشدنا ابن الأعرابي لبعض المحدثين :

ونحن سعيئنا بالبلايا لمعقل وقد كان منكم حيث لى العامم (١)

وقد كان حقها أن تعرب لزوال سبب البناء ، وهو الإضافة إلى جملة ، وحصول سبب الإعراب وهو الإضافة إلى المفرد ، ولكنه لم يعتبر النادر ، وأبقى الحكم الشائع . وقال الشاطبي أيضاً : كان شيخنا ابن الفخار يأمرنا بالوقف على قوله تعالى في سورة البقرة (قالوا الآن) ونبتدئ (جئت بالحق) وكان يفسر لنا معنى ذلك قولهم الآن أى فهمنا وحصل البيان ، ثم قيل : جئت بالحق ، يعنى فى كل مرة ، وعلى كل حال ، وكان - رحمه الله تعالى ! - يرى هذا الوجه أولى من تفسير ابن عصفور له من أنه على حذف الصفة ، أى : بالحق البين ، وكان يحافظ عليه . وقال الشاطبي : أنشدنى صاحبنا الفقيه الأجل الأديب البارع أبو محمد ابن حذلم لنفسه أبياتا ، أنشدنيها يوم عيد على قبر سيدنا الإمام الأستاذ الكبير الشهير أبي عبد الله بن الفخار يرثيه بها :

أيا جَدًّا قد أحرز الشرف المحضا بأن صار مثوى السيد العالم الأرضى
عجبت لما أحرزته من معارف وشتى معال لم تزل تعمر الأرضا

(١) ينشد النحاة صدر هذا البيت * ونحن سقينا الموت بالسيف معقلا * والنحاة يختلفون فى « حيث » إذا أضيفت إلى المفرد ، فحكى ابن جنى أن من أضافها إليه أعربها ، ومعنى ذلك أنه ينصبها على الظرفية ، وذهب الكثيرون إلى أنه لا يلزم إعرابها حينئذ ، بل يجوز بقاؤها على البناء كما يجوز نصبها على الظرفية ، ولبنائها حينئذ نظائر كثيرة فى العربية

طويت عليه وهو عين زمانه فياجفن عين الدهر كم تؤثر الغمضا
خياك من صوب الحيا كل ديمة تديم له في الجنة الرفع والخفضا^(١)
فها نحن في عيد الأسى حول قبره وقوفا لنقضى من عيادته الفرضا
كمثل الذي كنا وقوفاً ببابه بعيد الأمانى زارين له أيضا
ومنا سلام لا يزال يخصه يذكره من بعض أشواقنا البعض

قلت : وابن حذلم المذكور له باع مديد في العلم والأدب ، وهو أبو محمد عبد الله ابن حذلم
ابن عبد الله بن حذلم ، ومن نظمه قوله :
وتموذج من شعره

أبت المعارف أن تنال براحة إلا براحة ساعد الجد
فإذا ظفرت بها فلست بمدرك أربا بغير مساعد الجد
وقوله رحمه الله :

كم من صديق خال في وده ولم أزل أرويه عن محضه^(٢)
حضوره عين على وده وغيبه عين على بغضه
ولم أكن أجهل هذا ولا عجزت أن أجرى على قرضه
لكن من قد سرني بعضه أحب أن أصفح عن بعضه
وقوله رحمه الله يوم عيد ، وهو مما ألهم به أنا كثيرا :

يقولون لى خلّ عنك الأسى ولد بالسرور فذا يوم عيد
فقلت لهم والأسى غالب ووجدى يحى وشوقى يزيد
توعدنى مالكى بالفراق فكيف أسر وعيدى وعيد
وقوله رحمه الله :

حبيب زارنى فى الليل سرا فأحيا نفس مشتاق إليه

(١) الحيا : المطر ، وصوبه : الذي يصب منه أى يتتابع ، والديمة : السحابة

التي يدوم مطرها

(٢) حال : تحول وتغير

وعلاني بنشر المسك منه وحياني بصفحة وجنتيه
وعانقني عناق الود صفحا وفارقني فيالهفي عليه

وفاته ابن الفخار رجع - وتوفي الأستاذ سيديويه زمانه أبو عبد الله محمد بن علي بن الفخار
أستاذ الجماعة بفرناطة ليلة الاثنين ثاني عشر رجب عام أربعة وخمسين وسبع مائة
رحمه الله تعالى ! .

أبو عبد الله رجع - إلى مشايخ لسان الدين رحمه الله تعالى .
ابن العواد

ومنها الأستاذ ابن العواد - قال في « الإحاطة » : قرأت كتاب الله
عز وجل على المكتب نسيج وخديه ، في تحمل المنزل حق حمله ، تقوى
وصلاحا وخصوصية وإتقانا ونعمة وعناية وحفظا وتبحرا في هذا الفن ،
واضطلاعا بفرائده ، واستيعابا لسقطات الأعلام ، الأستاذ الصالح أبي عبد الله
ابن عبد الولي العواد تكتيبا ثم حفظا ، ثم تجويدا ، على مقرأ أبي عمرو ،
ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة ، ومطية الفنون ، ومفيد الطلبة ، الشيخ الخطيب
المتفنين أبي الحسن على القيجاطي ، قرأت عليه القرآن والعربية ، وهو أول من
انتفعت به ، انتهى .

أبو عبد الله ومن أشياخه رحمه الله الشيخ العلامة أبو عبد الله بن بيش ، وله رحمه الله تعالى
ابن بيش نظم جيد ، فنه قوله ملغزا في مسطرة الكتابة :

ومقصورة خلف الحجاب وسرها مضاع ، فما يلقاك من دونها ستر
لها جثة بيضاء أسبل فوقها ذوائب زاتها ، وليس لها شعْرُ
إذا ألبست مثل الصباح وبرقعت رأيت سواد الليل لم يَمْحُهِ الفجر
عقيلة صَوْنٍ لا يفرق شملها سوى من أهمته الخطابة والشَّعْرُ

وقوله في ترتيب حروف الصحاح :

أهـ ————— اجمعة بالوادين تبوئى
ثمراً جنتها حاليات خواضب
دعى ذكر روض زاره سقى شربه
صباح ضحى طير ظلاء عواصب
غرام فؤادى قاذف كل ليلة
متى ما نأى وهنا هداة يراقب
وله جواب عن البيتين المشهورين :

يا ساكناً قلبى المعنى
وليس فيه سواك ثانى
لأى معنى كسرت قلبى
وما التقى فيه ساكنان ؟

فقال :

نَحْنُ طَائِعٌ فؤادا
فصار إذ حُرِّتْهُ مَكَانِي^(١)
لا غرو إذ كان لى مضافا
أنى على الكسر فيه بانى

وقد ذكرت ذلك فى غير هذا الموضع مع زيادة بلفظ لسان الدين ، فليراجع فى الباب الخامس من هذا الكتاب .

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى قاضى الجماعة الصدر المتقن أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أبي بكر ، قال فى « الإحاطة » وقرأت على قاضى الجماعة أبى عبد الله بن [أبى] بكر^(٢) رحمه الله تعالى انتهى .

وقاضى الجماعة عند المغاربة هو بمعنى قاضى القضاة عند المشارقة ، فيعلم ذلك . وابن [أبى] بكر المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن أبى بكر بن سعيد الأشعرى الملقب ، من ذرية أبى موسى الأشعرى ، كان من صدور العلماء ، وأعلام الفضلاء ، سذاجة ونزاهة ومعرفة وتفننا ، فسيح الدرس ، أصيل النظر ، واضح المذهب ، مؤثراً للإنصاف ، عارفاً بالأحكام والقراءة ، مبرزاً فى الحديث تاريخاً

(١) نَحْنُ : أعطيتنى ، وحزته : تملكته وصار فى حوزى

(٢) فى هذه المواضع سقطت كلمة « أبى » من ب ، وهى مذكورة

فى اسم جده الثالث فيها وفى غيرها من الأصول

وإسناداً وتعديلاً وجرحاً ، حافظاً للأنساب والأسماء والسكنى ، قائماً على العربية ، مشاركاً في الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب ، مخفوض الجناح^(١) ، حسن الخلق ، عطفوا على الطلبة ، محبباً في العلم والعلماء ، مطرحاً للتصنع ، عديم المبالاة بالملبس ، بادي الظاهر ، عزيز النفس ، نافذ الحكم ، تقدم ببلده مالقة ، ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة ، ثم ولي القضاء بها ، فأعز الخطة ، وترك الشوائب ، وأنفذ الحق ملازماً للقراءة والإقراء ، محافظاً للأوقات ، حريصاً على الإفادة ، ثم ولي القضاء بقرنطة المحروسة ، سنة ٧٣٧ ، فقام بالوظائف وصدع بالحق^(٢) ، وبهرج اليهود^(٣) ، فزيف منهم ما ينيف على سبعين ، واستهدف بذلك إلى معاداة ومناضلة خاض ثبجها ، وصادم تيارها ، غير مُبالٍ بالمغبة ، ولا حافل بالتبعة ، فنال لذلك من المشقة والكيد العظيم ما نال مثله ، حتى كان لا يمشي إلى الصلاة ليلاً ، ولا يطمئن على حالة ، وجرت له في ذلك حكايات ، إلى أن عزم عليه الأمير أن يرد للعدالة بعض من آخره ، فلم يجد في قناته معزراً ، ولا في عوده معجباً ، وتصدر لبث العلم بالحضرة ، يقرى فنوناً جمّة ، فنفع ، وخرج ، وأقرأ القرآن ، ودرس الفقه والأصول والعربية والفرائض والحساب ، وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على انشراح صدر ، وحفظ تحمل ، وخفض جناح ، قال القاضي ابن الحسن : إنه كان صاحب عزم ومضاء ، وحكم صانع ، وقضاء أحرق قلوب الحسدة ، وأعز الخطة بإزالة الشوائب ، وذَهَبَ وَفَضَّضَ الحق بمعارفه ، ونفذ في المشكلات ، وثبت في المعضلات ، واحتج وبكت ، وتفقه ونكت .

وحدثنا صاحبنا أبو جعفر الشقورى قال : كنت جالساً بمجلس حكمه ، فرفعت إليه امرأة رقعة مضمونها أنها محبة في مطلقها ، وتبتغي الشفاعة لها في ردها ، فتناول

(١) مخفوض الجناح : كناية عن لين الجانب وسهولة الخلق ، وفي القرآن

الكريم : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)

(٢) تقول « صدع فلان بالحق » أى جهر به ، وفي التنزيل (فاصدع بما تؤمر)

(٣) بهرج اليهود : زيفهم وأظهر سوء دختهم

الرقعة ، ووقع على ظهرها بلا مُهْلَة : الحمد لله ، من وقف على ما بالقلوب فليُصِخْ لسماعه
إصاخة مغِيث ، وليشفع المرأة عند زوجها تأسياً بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم
لبريرة في مُغِيث^(١) ، والله يسلم لنا العقل والدين ، ويسلك بنا سبيل المهتدين ،
والسلام من كاتبه .

قال الشقورى : قال لى بعض الأصحاب : هلا كان هو الشفيع لها ، فقلت :
الصحيح أن الحاكم لا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه على المنصوص .

قرأ ابن [أبى] بكر المذكور على الأستاذ ابن أبى السداد الباهلى القرآن جمعاً وإفراداً
والعربية والحديث ، ولازمه ، وتأدب به ، وعلى الشيخ الصالح أبى عبد الله بن عياش
كثيراً من كتب الحديث ، وسمع عليه جميع صحيح مسلم إلا دولة واحدة ، وأخذ
عن الأستاذ أبى جعفر بن الزبير والخطيب ابن رشيد والولى الصالح أبى الحسين بن
فضيلة والأستاذ أبى عبد الله بن السكّاد ، وأجازه العدل الراوية أبو فارس عبد العزيز
ابن الهواري وأبو إسحاق التلمساني .

ومن أهل إفريقية المعمر أبو محمد بن هرون ومحمد بن سيد الناس .

ومن أهل مصر الشرف الدمياطى ، وجماعة من أهل الشام والحجاز ، فُقدَ
رحمه الله تعالى فى المصاف يوم المناجزة بطريف ، زعموا أنه وقع عن بغلة ركبها ،
وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب ، فلم يقدر ، وقال له : انصرف ، هذا يوم الفرج ،
إشارة لقوله تعالى (فرحين بما آتاهم الله من فضله) وذلك ضحى يوم الإثنين
٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ رحمه الله تعالى ! .

(١) بريرة : كانت جارية لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وكانت زوجا لمغيث
وهو رقيق ، فأعتقت عائشة بريرة ، فلما صارت حرة وزوجها باق على الرق خيرها
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأختارت نفسها ، وعلم بذلك مغيث فجاء إلى الرسول
صلى الله عليه وسلم يبكى ، ويسأله فى أن يشفع له عند بريرة لتبقى على زواجه .
(٢٠ — نفع ٧)

أبو إسحاق
ابن أبي يحيى

ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ أبو إسحاق ابن أبي يحيى الشهير بالذكر في المغرب ، وقد عرف به في «الإحاطة» في اسم إبراهيم من ترجمة الغرباء بما نصه : إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولى ، من أهل تازى ، يكنى أبا سالم ، ويعرف بابن أبي يحيى .

حانه من الكتاب المؤتمن - كان هذا الرجل قيماً على التهذيب ورسالة ابن أبي زيد ، حسن الإفراء لهما ، وله عليهما تقييدان نبيلان قيدهما أيام قراءته إياهما على أبي الحسن الصغير ، حضرت مجالسه بمدرسة عُدْوَة الأندلس من فاس ، ولم أر في متصديري بلده أحسن تدريساً منه ، كان فصيح اللسان ، سهل الألفاظ ، موفياً حقوقها ، وذلك لمشاركته الحضر فيما بأيديهم من الأدوات ، وكان مجلسه وفقاً على التهذيب والرسالة ، وكان - مع ذلك - سَمَحاً فاضلاً ، حسن اللقاء ، على خلق بائنة على أخلاق أهل مصره ، امتحن بصحبة السلطان ، فصار يستعمله في الرسائل ، فر في ذلك حظ كبير من عمره ضائعاً لا في راحة دنيا ولا في نصيب آخرة ، ثم قال : وهذه سنة الله فيمن خدّم الملوك ، ملتفتاً إلى ما يعطونه ، لا إلى ما يأخذون من عمره ، وراحته أن يبوء^(١) بالصفقة الخاسرة ، لطف الله بمن ابتلى بذلك وخلصنا خلاصاً جميلاً !

ومن كتاب «عائد الصلة» : الشيخ الفقيه الحافظ القاضى ، من صدور العلم ، له مشاركة في العلم ، وتبحر في الفقه ، كان وَجِيهاً عند الملوك ، صحبهم وحضر مجالسهم واستعمل في السِّقارة ، فلقيناه بغير ناطة ، وأخذنا بها عنه ، تام السِّراوة^(٢) ، حسن العهد ، مليح المجالس ، أنيق المحاضرة ، كريم الطبع ، صحيح المذهب .

(١) يبوء : يرجع ويعود ، والصفقة : أصلها ضرب اليد على اليد عند البيع ، ثم أطلقت على البيعة أى المرة الواحدة من البيع ، والخاسرة : ضد الرابحة .
(٢) السراوة : السخاء في مروءة ، وفعله سرا يسرو كدعا يدعو وسرو يسرو ، وهو سرى .

تصانيفه - قيد على المدونة بمجلس شيخه أبي الحسن كتاباً مفيداً ، وضم أجوبته على المسائل في سفر ، وشرح كتاب « الرسالة » شرحاً عظيم الإفادة . مشيخته - لازم أبا الحسن الصغير ، وهو كان قارئ كتب الفقه عليه ، وجُلَّ انتفاعه في التفقه به ، وروى عن أبي زكريا بن يس ، قرأ عليه كتاب الموطأ إلا كتاب المكاتب وكتاب المدبر فإنه سمعه بقراءة الغير ، وعن أبي عبد الله ابن رشيد ، قرأ عليه الموطأ وشفاء عياض ، وعن أبي الحسن بن عبد الجليل السدواقي ، قرأ عليه الأحكام الصغرى لعبد الحق ، وأبي الحسن بن سليمان ، قرأ عليه رسالة ابن أبي زيد ، وعن غيرهم .

وفاته - فُلج بأخرة فالتزم منزله بفاس يزوره السلطان ومنّ دونه ، وتوفي بعد عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ، انتهى .

وقال ابن الخطيب القسطنطيني : إن ابن أبي يحيى المذكور توفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، انتهى .

ومن أشياخ لسان الدين الطنجالي الهاشمي ، وهو محمد بن أحمد . قال في « عائد الصلة » : كان على سنن سلفه كثرة حياء ، وسمة صلاح ، وشدة انقباض ، وإفراط وقار وحشمة ، بذاً السكّهولة على حدّاته سنة في باب الورع والدين والإغراق في الصلاح والخير ، وتقدم خطيباً ثم قاضياً ببلده ، فأظهر من النزاهة والعدالة ما يناسب منصبه ، ففزع الناس إليه في كائنة الوباء العظيم بأموالهم ، وقلدوه عهود صدقاتهم ، فاستقر في يده من المال الصامت والحلى والذخيرة والعدة ما تضيق بيوت أموال الملك عنه وصرف ذلك مصارفه ، ووضعهُ وفقَّ عهوده ، فلم يتلبس منه بتقيير ولا قِطْمير^(١) ، وكان مُدْرِكاً أصيل الرأي ، قائماً على القرائض والحساب ،

(١) القير - بفتح النون - أصله النكتة التي في ظهر النواة ، والقطمير - بكسر القاف ، بزنة قنديل - شق النواة ، وقيل : القشرة الرقيقة التي عليها ، وتضرب هذه العبارة مثلاً في الضآلة والقلة ، وفي القرآن الكريم : (ما يملكون من قطمير)

ثم تخرج وطلب الإغناء فأضعف به على حال ضئيلة ، وفي ذلك يقول قريبه صاحبنا
الفقيه القاضي أبو الحسن بن الحسن يخاطبه :

لك الله يا بذر السَّامَةِ والبَشْرِ رفعت بأعلى رتبة راية الفخر
ولا سيما لما وليت أمورها فرويتها من عذب نائلك العُور^(١)
ودارت قضاياها عليك بأسرها على حين لا برَّ يعين على برِّ
فقمتم بها خير القيام مصمما على الحق تصميم المهنَّدة البُتر^(٢)
فسرَّ بك الإسلام يا ابن حماسة وأمست بك الأيام باسمَّة الثغر
تعيد عليك الحمد ألسنُ حالها وتتلو لما يرضيك من سُورِ الشكر
لذلك أمير المسلمين بعدله أقامك تقضى في الزمان على جبر
فأحييت رسم العلم بعد مماته وغادرت وجه الحكم أسنى من البدر
ولكنك استعفيت عنه تورُّعًا وتلك سبيل الصالحين كما تدرى
فكم من ولي فر عنه لعلمه به كأبى الحجاج جدك من ذخر
فزاد اتصالا عزه باجتنابه له وسما قدرًا على قنَّة النسر
جريت على نهج السلامة في الذي تبعته له فابشر بأمنك في الحشر
وأرضاك مولاك الإمام بفضله وأعفاك إعفاء الكرامة والبر
فأنت على الحاليين أفضل من قضي وأشرف من يعنى إلى آخر الدهر
لما خُزَّت من شتى المعالي التي بها تحليت عن أسلافك السادة الغر
صدور مقامات المعارف كلها بحور النوال الجم في السر والعسر
هم النفر الأعلون من آل هاشم وناهيك من مجد أثيل ومن فخر
وهي طويلة ، انتهى .

(١) النائل : العطاء ، والغمر : الكثير .

(٢) المهنَّدة : السيوف ، كانوا يجلبونها من الهند ، فاشتقوا لها منها اسماء
والبتر : جمع بتر ، وهو القاطع .

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الإمام الخطيب الرئيس سيدي أبو عبد الله بن مرزوق ، ولناخص ترجمته من « الإحاطة » وغيرها ، فنقول : هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق ، العجيسي ، التلمساني ، يكنى أبا عبد الله ، ويلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين ، قال أبو الحسن علي بن لسان الدين بن الخطيب في حقه : سيدي ، وسند أبي ، فخر المغرب ، وبركة الدول ، وعلم الأعلام ، ومستخدم السيوف والأقلام ، ومولى أهل المغرب على الإطلاق ، أبقاه الله تعالى وأمتع بحياته وأعانني على ما يجب في حقه ! قاله تربيته وولده علي ابن المؤلف ، انتهى ، يعني ابن الخطيب .

وقال لسان الدين : هذا الرجل من طُرف دهره ظرفا وخصوصية ولطافة ، مليح التوسل ، حسن اللقاء ، مبذول البشر ، كثير التودد ، نظيف البزة ، لطيف الثأني ، خير البيت ، طلق الوجه ، خلوبُ اللسان ، طيب الحديث ، مقدر الألفاظ ، عارف بالأبواب ، درّب على صحبة الملوك والأشراف ، مُتَقاضٍ لا يثار السلاطين والأمراء ، يسجّروهم بخلافة لفظه ، ويفتّلهم في الذروة والغارب^(١) ، ويهتدي إلى أغراضهم السكينة بحذقه ، ويصطنع غاشيتهم بتلفه ، ممزوج الدّعاة بالوقار والفكاهة بالنسك والحشمة بالبط ، عظيم المشاركة لأهل وده ، والتعصب لإخوانه ، ألف مألوف ، كثير الأتباع والعُلق ، مسخر الرقاع في سبيل الوساطة ، مُجْدى الجاه ، غاص المنزل بالطلبة ، منقاد للدعوة ، بارع الخط أنيقه ، عذب التلاوة ، متسع الرواية ، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير ، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف ، فلا يَعدُّو السّداد في ذلك ، فارس منبر ، غير جزوع ولا هيب ، رحل إلى المشرق في كنف حشمة من جناب والده رحمه الله تعالى فحج وجاور ولقى

(١) يقول العرب « ما زال فلان يفتل من فلان في الذروة والغارب » يريدون

أنه يداوره ويحاول أن يخذله ، وهو مثل .

الجِلَّة ، ثم فارقوه وقد عرف بالمشرق حقّه ، وصرف وجهه إلى المغرب ، فاشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميرُه اشتِمَالاً خاطله بنفسه ، وجعله مفضي سره ، وإمام جمعته ، وخطيب منبره ، وأمين رسالته ، فقدم في غرضها على الأندلس أواخر عام ثمانى وأربعين وسبعائة ، ولما حالت بالأمر المذكور الحال استقر بالأندلس مفقّات من النكبة ، في وسط عام اثنين وخمسين وسبعائة ، وكان قد أقامه الإقراء بالمدرسة من حضرته ، وفي آخرَيَات عام أربعة وخمسين صرّف عنه وجه بره في أسلوب طاح ، ودالة وسبيل هَوَى وقحة ، فاغتم الفترة ، وانتَهز الفرصة ، وأنفذ في الرحيل العزيمة ، وانصرف عزيز الرحلة ، مغبوط المنقلب ، فاستقر بباب ملك المغرب أمير المؤمنين أبي عنان فارس في محل تجلّة وبساط قرب ، مشرك الجاه ، مجدى التوسط ، ناجع الشفاعة ، والله يتولاه ويزيده من فضله ! .

مشيخته - من كتابه المسمى « عجالة المستوفز المستجيز » ، في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز ، من أئمة المغرب والشام والحجاز : فمن لقيه بالمدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام الإمام العالم العلامة عز الدين محمد أبو الحسن ابن على بن إسماعيل الواسطى ، صاحب خُطَطِ الإمامة والخطابة بالمسجد الكريم النبوى ، وأفرد جزءاً في مناقبه .

ومنهم الشيخ الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجى السعدى العبادى ، تحمل عن عفيف الدين أبى محمد عبد السلام بن مزروع وأبى اليمن وغيره . والشيخ الإمام خادم الوقت بالمسجد الكريم ، ونائب الإمامة والخطابة به ، ومنشد الأمداح النبوية هنالك . والشيخ الصالح الثقة المعرّ محي الدين أبو زكريا يحيى بن محمد المغراوى التونسى سمع ابن حامل والتوزرى . والشيخ نور الدين أبو الحسن على بن محمد الحجار القراش بحرم رسول الله والوقاد به ، وكان مقصوداً من كل قُطْر . والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الصنعانى نائب القضاء بالمدينة . والشيخ الإمام قاضى القضاة بالمدينة شرف الدين

ابن محرز الإخيمى بن الأسيوطى والشيخ الصالح عز الدين خالد بن عبد الله الطواشى .
والشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله المعيشى ، سمع ابن مزروع البصرى
وغيره . والشيخ بهاء الدين موسى بن سلامة الشافعى المصرى ، الخطيب بالمسجد
الكريم بها . والشيخ الخطيب أبو طاححة الزبير بن أبى صعصعة الأسوانى .
والشيخ غيف الدين المطرى والشيخ الأديب أبو البركات أيمن بن محمد بن
محمد ، إلى أربعة عشر ، ابن أيمن ، التونسى ، الجاور . والشيخ أبو محمد عبد الله بن
محمد بن فرحون ، اليعمرى ، التونسى ، الجاور . والشيخ أبو فارس عبد العزيز بن
عبد الواحد بن أبى ركبون التونسى ، وقرأ بها على أبيه القرآن العظيم ، قال :
وكانت قراءتى عليه بالمدينة عند قبره عليه الصلاة والسلام .

وبمكة شرفها الله تعالى الشيخ المعمر الثقة شرف الدين أبو عبد الله عيسى
ابن عبد الله ، الحجبى ، المكي ، المتوفى وقد قارب المائة . والشيخ زين الدين أحمد
ابن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر ، الطبرى ، المكي . والشيخ الصالح
شرف الدين خضر بن عبد الرحمن ، العجمى . وشيخ شيوخ رباط الأعجام حيدر
ابن عبد الله ، المقرئ . والشيخ مقرئ الحرم برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن
إبراهيم الأيلى المصرى . والشيخ مصباح الدين الحسن بن عبد الله العجمى .
والإمام الصالح أبو الصفاء خليل بن عبد الله ، القسطلانى ، التوزرى .
والشيخ الإمام الصالح أبو محمد عبد الله بن أسعد ، الشافعى ، الحجة ، انتهت إليه
الرياسة العلمية والخطط الشرعية بالحرم . والشيخ فخر الدين عثمان بن أبى بكر ،
النويرى ، المالكي . والشيخ الإمام المدرس بالحرم شهاب الدين أحمد بن
الحرازى ، اليمنى . والشيخ قاضى القضاة نجم الدين محمد بن جمال الدين بن
عبد الله بن الحب الطبرى . والشيخ جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن
براجين ، القشبرى ، التلمسانى ، وقرأ بها على أبيه وألبسه بها الخرقة . والشيخ
الملك شرف الدين عيسى بن محمد بن أبى بكر بن أيوب . والشيخة فاطمة بنت محمد

ابن محمد بن أبي بكر بن أيوب . والشيخة فاطمة بنت محمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري ، المكية . والشيخ أبو الربيع سليمان بن يحيى بن سلمان ، المراكشي ، السفاح . والشيخ قاضي القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة ، الكفائي ، قاضي القضاة بالديار المصرية .

وبمصر الشيخ علاء الدين القونوي . والتقي السعدي . وقاضي القضاة القزويني ، وهو شهير الذكر ، رفيع القدر . وقاضي القضاة البرهان الحنفي . والشرف أفضى القضاة الإخميمي . والشيخ الحدث المسند البدر محمد بن محمد الفارقي . والقطب الحافظ أبو محمد بن منير . والشهاب أحمد الجوهرى الحلبي . والمعمر الشرف يحيى المقدسي بن المصري . والشيخ محسن القرشي . والشهاب الحنبلي . وفتح الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس ، اليعمرى . والشيخ المسند شمس الدين أبو بكر بن سيد الناس أخوه . والإمام أبو حيان . والمؤرخ النسابة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن علي ابن حاتم بن خليش ، الزيري ، المصري ، يبلغ شيوخه نحو من ألفي شيخ . والشيخ الشمس بن عدلان . والشهاب البوشي المالكي . والشيخ المتصوف تاج الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ثعلب ، المصري ، مدرس المالكية . والشمس ابن كئشفرى ، الخطابي ، الصيرفي . والعماد ابن المنجم الدمياطي : والتاج الأشعري . والتقي الثعلبي . والفتح بن عبد القوى . والشمس الورجمي . والتقي الأشموني . والعلامة التقي السبكي . والمعروف ابن بنت الشاذلي . وأبو الحسن التيمي . والبرهان الخميمي . والشمس الأسواني . والبرهان الحكري . والشمس ابن جابر الوادي آشي . وأبو محمد عبد الكريم الطوسي . وأبو فارس الزروالي التونسي . وصالح بن عبد العظيم ابن يونس . وأبو عبد الله بن القماح . والتاج التبريزي . والشيخ محمود الإصبهاني . والشرف المقيبلي . والبرهان السفاقي .

ومن النساء الشيخة المسندة ست الفقهاء فاطمة بنت محمد القيومي البكري .

و بيليس أسد الدين يوسف بن داود الأيوبي ، من أبناء الملوك .
ومن الشاميين بالقدس علاء الدين أبو الحسن علي بن أيوب ، وخطيب
القدس النور ابن الصائغ المقدسي ، ومحمد بن علي بن مثبت الأندلسي ، والبرهان
الجعبري إمام الخليل .

ومن أهل دمشق البرهان بن الفركاح ، والشمس بن مسلم قاضي الحنابلة .
وبالإسكندرية أحمد المرادي بن العشاب ، وأبو القاسم بن علي بن البراء ،
والناصر بن المنير .

وبطرابلس الخطيب أبو محمد جابر بن عبد الغفار .
وبتونس الزبيدي ، والقاضي ابن عبد الرفيغ ، والقاضي ابن عبد السلام ، وابن
راشد ، وأبو موسى ، والحديث أبو عبد الله التلمساني ، والحافظ أبو زكريا يحيى بن
عصفور التلمساني نزيل تونس ، وأبو محمد بن سعد الله بن أبي القاسم بن البراء .
وببلاد الجريد الشيخ الخطيب أبو عبد الملك بن حيون .
وبالزاب ابن أبي ، والشيخ أبو محمد بن راشد .

وببجاية الإمام النظار المجتهد أبو علي ناصر الدين المشدالي ، والحافظ فقيه
زمانه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بالخت الزواوي ، والشيخ الفقيه أبو عبد الله
الخطيب المسفر ، وغيرهم .

وبتلمسان الشيخان الإمامان ابنا الإمام ، وقاضي القضاة بها أبو عبد الله بن
هدية ، والخباب أبو محمد المجاصي ، والشريف أبو علي حسن بن يوسف بن يحيى
الحسني ، والشيخ أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي ، المعروف بابن إسحاق ، الخياط
وغيرهم .

محنته - اقتضى الخوض الواقع بين يدي تأميل الأمير أبي الحسن رحمه الله تعالى
عودة الأمر إليه وقد أقامه اليم إلى الساحل بمدينة الجزائر أن قبض عليه بتلمسان
أمرأؤها المتوثبون عليها في هذه الفترة من بني زيان ، إرضاء لقبيلهم المتهم بمداخلته ،

وقد رحل عنهم ديساً من أميرهم عثمان بن يحيى ، فصرف مأخوذاً عليه طريقه ،
منتهباً رحله ، منتهكة حرمة ، وأسكن قرارة مطبق عميق القعر ، مقفل المسلك ،
حريز القفل ، ثانی اثنين ، انتهى ملخصاً .

ورأيت بخط ابن مرزوق على قوله « وقد رحل عنهم ديساً - إلى آخره »
ما نصه : لم أرحل عنهم إلا بإذهم ، واقتراحهم على في الإصلاح بينهم ، لكنهم
غدروا تقية على أنفسهم ، قاله ابن مرزوق ، انتهى ، وكتب تحتة ولد ابن الخطيب
ما صورته : نعم ماتوا . * وعند الله تجتمع الخصوم * انتهى .

رجع إلى كلام لسان الدين في حقه - قال بعد الكلام السابق ما ملخصه :
ولأيام قتل ثانيه ذبحاً ، كان بمقربة من شفا تلك الركية ، وانقطع أثره ، وأيقن
الناس بفوات الأمر فيه ، ولزمان من محنته ظهرت عليه بركة سلفه في خبر ينظر
بطرفه إلى الكرامة فنجا ولا تسل كيف ، وخلصه الله خلاصاً جميلاً ، وقدم على
الأندلس ، والله ينفعه بنيته ، انتهى .

وكتب ابن مرزوق على هذا الحل ما نصه : لم يكن المقتول - حين قتل -
معي ، ولا قتل ذبحاً ، قاله ابن مرزوق ، انتهى . وكتب بعض علماء مصر تحتة
ما نصه : هذه دعوى ، والمؤرخ أعرف ، انتهى ، فكتب آخر بعد هذا ما نصه :
أتخبرني عنى ؟ انتهى .

رجع - ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره ما صورته : ركب مع السلطان
بخارج الحمراء أيام ضربت اللوز قباها البيض ، وزينت الفحص العريض ، والروض
الأريض ، فارتجل في ذلك :

انظر إلى النوار في أغصانه يحكي النجوم إذا تبدت في الحلك^(١)

(١) النوار - بضم النون ، بزنة الرمان - نور الزهر ، واحده نواره ، وتبدت :
ظهرت ، والحلك : شدة الظلام

حيا أمير المسلمين وقال : قد عميت بصيرة من بغيرك مَثَلَكُ^(١)
يا يوسف حزت الجلال بأسره فمحاسن الأيام تُوَمِّي هَيْتَ لَكَ^(٢)
أنت الذي صعدت به أوصافه فيقال فيه ذا ملِك أو مَلَكُ^(٣)
إلى أن قال : ومن الشعر المنسوب إلى محاسنه ما أنشد عنه وبين يديه ليلة الميلاد
المعظم عام ثلاثة وستين وسبعمائة :

قل للنسيم السحر لله بلغ خبري
إن أنت يوما بالحي جررت فضل المنزر
ثم حثت الخطوم من فوق الكتيب الأعفر
مستقر يا في عُشِيهِ مخفي وطء المطر
تروى عن الضحاك في الروض حديث الزهر
مُخَلَّقُ الأذْيَالِ بالعَبِيرِ أو بالعَنْبَرِ^(٤)
وصف لجيران الحمى وجدى بهم ومهري
وحقهم ما غيرت ودَّى صرُوف الغَيْرِ^(٥)
لله عهد فيه قضيت حميد الأثر
أيامه هي التي أحسبها من عمرى
ويا لليل فيه ما عيب بغير القصير

(١) مثلك : زعم أن لك مثيلا وشبيها

- (٢) توَمِّي : تشير ، و « هيت لك » اسم فعل معناه هلم وتعال ، وهو مأخوذ
عما حكاه القرآن الكريم عن امرأة العزيز إذ قالت ليوسف عليه السلام « هيت لك »
(٣) حكى القرآن أن النسوة التي دعتن امرأة العزيز لرؤية يوسف عليه السلام
لما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهم وقلن حاش لله ، ما هذا بشرا ، إن هذا إلاملك كريم
(٤) العبير - بفتح العين ، بزنة الكريم - طيب الرائحة ، والعنبر : من الطيب عندهم
(٥) الصرُوف : أحداث الدهر ونوازلها ، وحدها صرف ، بالفتح ، وغير الدهر
- بكسر الغين وفتح الياء - كوارثه

- (١) العمر فينان ووجه الدهر طلق الغرر
والشمل بالأحباب منـظوم كنظم الدرر
(٢) صفو من العيش بلا شائبة من كدر
ما بين أهل تقطف الأنس جنى الثمر
(٣) وبين آمال تبيح القرب صافي الغدر
يا شجرات الحى حياك الحيا من شجر
إذا أجال الشوق فى تلك المغانى فكبرى
خرّجت من خدى حديث الدمع فوق الطرر
(٤) وقلت ياخذ أرو من دمنى صحاح الجوهر
عهدى بحادى الركب كالورقاء عند السحر
(٥) والعيس تجتاب القلا واليعملات تنبرى
تخط بالأخفاف مظلوم البرى وهو برى

- (١) الفينان : أصله الحسن الشعر الطويله ، وأشاه فينانه ، وصف العمر به على التشبيه ، ويقال « وجه طلق » يراد أنه بادي السرور والبشر ، والجرة - بالضم - أصلها البياض فى جهة الفرس ، وأراد هنا الجهة كلها
(٢) شائبة : أراد بها أصغر ما يخالطه من كدر
(٣) الغدر : جمع غدير ، وأصله الفطعة من الماء يغادرها السيل فى مهبط من الأرض ، وأراد به هنا النهر ، والعبارة كلها كناية عن طيب العيش وخلوصه من المنغصات
(٤) الحيا : المطر ، وحياك : جادك ونزل عليك ليشير فيك الحياة
(٥) الطرر : جمع طرة ، وأصلها أن يقطع للجارية فى مقدم ناصيتها كالعلم تحت الناج
(٦) حادى الركب : الذى يحدو للابل لتنشط فى سيرها ، والورقاء : الحممة ، وهى مشهورة بالنوح والغناء
(٧) العيس : الإبل ، وحدها أعيس أو عيساء ، وتجتاب القلا : تقطع الصحارى ، واليعملات : النوق النشيطة ، وتنبرى : تعترض ، وأراد أنها تبارى الإبل فى سرعة سيرها
(٨) البرى - بفتح الباء مقصورا - التراب ، وبرى : أراد برى ، فسهل الهمزة

قد عطفت عن مَيدٍ والتفتت عن حور
 قسى سير ماسوى العزم لها من وتر^(١)
 حتى إذا الأعلام حلت لحفى البشر
 واستبشر النازح بالقرب ونَيْل الوطر
 وعين الميقات للسَّفر نجاح السفر
 فالناس بين محرم بالحج أو معتمر
 لبيك لبيك إله الخلق باري الصور
 ولاحت الكعبة بيت الله ذات الأثر
 مقام إبراهيم والسما من عند الذعر^(٢)
 واغتنم القوم طواف القادِم المبتدر^(٣)
 وأعقبوا ركعتي السعى استلام الحجر
 وعرفوا في عرفات كل عرفٍ أذفر^(٤)
 ثم أفاض الناس سعياً في غدٍ للمشر
 فوقفوا وكبروا قبل الصباح المسفر^(٥)

- (١) قسى سير : هو من أوصاف الإبل والنوق ، وهم يشبهونها بالقسى في أنها ناحلة هزيلة من شدة ما جهدتها السير ، ومنه قول الشاعر :
- كالقسي المعطفات ، بل الأسهم مبرية بل الأوتار
- (٢) المأمن : مكان الأمن ، والذعر : الخوف والفرع ، وأصله بسكون العين فضعفها إتباعاً لضم الفاء
- (٣) اغتنم : اتخذ غنيمة ، والمبتدر : المسرع إلى عمل الشيء ، وأراد طواف القدوم
- (٤) العرف : بالفتح - الرائحة مطلقاً ، وأكثر ما يطلق على الريح الطيبة ، والأذفر :
- الذي اشتدت ريحه ، وقالوا «مسك أذفر» و «ذفر» يريدون أنه جيد الريح للغاية
- (٥) المشعر : مناسك الحج
- (٦) أسفر النهار : بدا ضوءه وانتشر

وفي مَنَى نالوا المُنَى وأيقنوا بالظفر
 وبعد رمى الجمرات كان حَلَقُ الشعر
 أكرم بذاك السَّفرِ والله وذاك السَّفرِ (١)
 يافوزهُ من موقفٍ يا ربِّجِه من مَتَجَرٍ
 حتى إذا كان الوداع وطواف الصَّدْرِ (٢)
 فأى صبر لم يخن أو جَلَدٍ لم يغدر (٣)
 وأى وجد لم يصل وسلوة لم تهجر
 ما أجمع البين لقلب الواله المستعبر
 ثم ثنوا نحو رسول الله سير الضمير
 فعانوا في طيبة لألاء نور نير
 زاروا رسول الله واستشفوا بلثم الجدر
 نالوا به ما أملوا وعَرَجُوا في الأثر
 على الضحيعين أبى بكر الرضا وعمر
 زيارة الهادي الشفيع جُنَّةً في المحشر (٤)
 فأحسن الله عزاء قاصد لم يزر
 ربع ترى مستنزل الآى به والسور (٥)

(١) السفر - بسكون الفاء - جمع سافر كشراب في جمع شارب ، والسفر -

بفتح الفاء - مصدر سفر

(٢) الصدر - بفتح الصاد والدال جميعاً - الرجوع والعودة ، وطواف الصدر :

هو الطواف الذى يكون آخر أعمال الحج ، سمي بذلك لأنهم بعده يعودون لأوطانهم

(٣) كفى بهذا عن كونهم جزعوا واضطربوا لنية مفارقة البيت .

(٤) الجنة - بضم الجيم - الوقاية ، أراد أنها واقية من عذاب الله .

(٥) مستنزل - بفتح الزاى - اسم مكان ، أراد الموضع الذى نزل فيه القرآن

الكريم على سيد المرسلين

- وملتقى جبريل بالهادى الزكى العنصر^(١)
 وروضة الجنة بين روضة ومنبر^(٢)
 منتخب الله ومختار الورى من مُضَرِ
 والمنتقى والكون من ملابس الخلق عَرى
 إذ لم يكن فى أفق من زحل ومشتري
 ذوالمعجزات الغرائم سال النجوم الزهر^(٣)
 يشهد بالصدق له منها انشقاق القمر^(٤)
 والضب والطبي إلى نُطق الحصى والشجر
 من أطعم الألف بصا ع فى صحيح الخبر
 والجيش رَوَّاه بما الراحة المنهمر
 يانكتة الكون التى فانت منال الفكر^(٥)
 يا حجة الله على الرائح والمبتكر
 يا أكرم الرسل على الله وخير البشر
 يا من له التقدم الحق على التأخر^(٦)
 يا من لدى مولده المقدس المطهر

(١) العنصر: الأصل، أراد النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه عليه الصلاة والسلام خيار من خيار

(٢) يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»

(٣) الزهر: جمع زهراء أو أزهر، ويراد بالأزهر المضيء المشرق، وأصل

«الزهر» بسكون الهاء فضم الهاء إنباعاً لضممة الزاى

(٤) من الخوارق التى أيد الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر،

وفى القرآن الكريم «اقتربت الساعة وانشق القمر» وقد حكى المؤلف فى «ص ٢٢٤

من هذا الجزء» حديثاً عن إثبات هذه المعجزة جرى بين ملك الروم والقاضى

أبى بكر ابن الطيب، والأبيات التى بعد هذا البيت تذكر معجزات أخرى مشهورة

(٥) الفكر: جمع فسكرة، وأراد بها العقل، ومناها: المكان الذى تستطيع أن

تناله وتذكره، كناية عن كونها مما يعجز المفكرون عن إدراك حقيقته

(٦) «على» ههنا بمعنى مع: يريد أنه مع تأخره الزمنى متقدم القدر

إيوان كسرى ارتجأ إذ ضاءت قصور قيصر
 وموقد النار طفي وكأنه لم يسعر
 ياعمدي ياملجئ يامفرغى يا وزرى
 يامن له اللواء والحوض وورد الكوثر
 يامنقذ الغرقى وهم رهن العذاب الأكبر
 إن لم تحقق أملى بؤت بسعى الخسر
 صلى عليك الله يا ثمال كل معسر^(١)
 صلى عليك الله يا نور الدجى المعتكر^(٢)
 يا ويح نفسى كم أرى فى غفلة من عمرى
 واحسرتى من قلة الزاد وبعد السفر
 يحجنى والله بالبرهان وعظ المنبر
 يا حسنهما من خطب لو حركت من نظرى
 يا حسنهما من شجر لو أورقت من ثمر
 أو مل الأوبة والأمر بكف القدر^(٣)
 أسوف العزم به من شهر لشهر
 من صفر لرجب من رجب لصفر
 ضيعت فى الكبرة ما أعدته فى صغرى
 وليس ما مر من الأيام بالمنتظر
 وقلم أن حمدت سلامة فى غرر
 ولى غريم لا ينى فى طلب المنكسر
 يا نفس جدى قد بدا الصبح أفااعتبرى
 واتعظى بمن مضى وارتنع وازدجرى

- (١) الثمال - بكسر التاء المثناة ، بوزن الكتاب - الملجأ والموئل والمستند
 (٢) اعتكر الليل : أظلم ، وقال الراجز * وتركى النوم إذا الليل اعتكر •
 (٣) الأوبة : أراد العودة إلى وطنه

ما بعد شيب القود من مرّ ثقب فشمرى
 أنت وإن طال المدى في قلعة وسفر^(١)
 وليس من عذر يقسم حجة المعتذر
 ياليت شعري والمنى تسرق طيب العمر
 هل أرتجى من عودة أو رجعة أو صدر
 فأبرد الغلة من ذاك الزلال الخصر^(٢)
 مقتديا بمن مضى من سلف ومعر
 نالوا جوار الله وهو الفخر المفتخر
 أرجو يا إبراهيم لنا بلوغ الوطر
 فوعده لا يمتري في الصدق منه ممتري^(٣)
 وهو الإمام المرتضى والخير ابن الخير
 أكرم من نال العلا بالمرهفات البتر
 ممد الملك وسيف الحق والليث الجرى
 خائفة الله الذي فاق بحسن السير
 وكان منه الخير في العلواء وفق الخير
 فصدق التصديق من مرآة للتصور
 ومستعين الله في وزّده وصدر
 فاق الملوك الصيّد بالجد الرفيع الخطر
 فأصبحت ألقابهم منسية لم تذكر
 وحاز منه أوجد وصف العديد الأكثر
 برأيه المأمون أو عسكره المظفر

(١) قلعة - بالضم - انتقال ، وما لا دوام له ، وقالوا « الدنيا دار قلعة »

(٢) الغلة - بضم الغين - حرقه الجوف ، والخصر - بزنة فرح - العذب البارد

(٣) امتري فلان في الخبر : أى لم يصدقه ، فهو ممتز امتراء

بسيفه السفاح أو بعزمه المقتدر^(١)
 بالقلم المنصور أو بالذابل المنتصر
 يا ابن الإمام الطاهر البر الزكى السير
 مدحك قد علمَ نَظْمُ الشعر من لم يشعر
 جهْدُ المقل اليوم من مثلى كوسع المسكر
 فإن يقصّر ظاهرى فلم يقصر مضمرى

قلت : قول لسان الدين فى حق هذه القصيدة « إنها من الشعر المنسوب إلى محاسنه » تعريضٌ خفى بأن هذه القصيدة يحتمل أن تكون قيلت على لسانه حسبما جرت بذلك عادة الأكابر والرؤساء أن ينسب إليهم ما ليس من كلامهم فى نفس الأمر ، وليس الواقع عندى كذلك ، لأن باع ابن مرزوق فى النظم والنثر مديد ، فأنى يقصر عن هذا القصيد ؟ ومن يصدر منه على البدئية قوله :

* أنظر إلى النوار فى أغصانه *

الآيات السابقة فى اللوز - لا يستغرب منه مثل هذا ، ولذا كتب ابن لسان الدين على قول والده « من الشعر المنسوب إلى محاسنه » ماصورته : حضرت إنشاءها وإنشادها ليلة الميلاد الشريف فى التاريخ المذكور ، واستحسنها شعراء العدوتين ، وهى مما لا تنكر على مدارك سيدى أبى عبد الله ورسوخه فى علم النظم والنثر ، قاله على بن الخطيب اهـ .

وكتب بعضهم على قوله فى هذه القصيدة :

أيامه هى التى أعدّها من عُمرى

ما نصه : ولت والله ، انتهى ، فكتب ابن مرزوق بعده ما نصه : لكنها

(١) السفاح : أصله الذى يكثر سفع الدم ، أى إسالته ، وهذا وما بعده تورية
 بذكر جماعة من الخلفاء

بدلت بخير منها والحمد لله ، وحصلت الخاتمة ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً ، انتهى .

وكتب ابن لسان الدين على قوله :

وقلما أن سُحِدَتْ سَلَامَةً فِي غَرَرٍ

ما نصه : كذلك كان ، وليت والدي رحمه الله تعالى كذلك ، انتهى .

وكتب على قوله « برأيه المأمون - إلخ » مانصه : لو كان له رأى مأمون ما نزل على قلعة الملك لسكنى القصبية بدخيلة طَلَبَ الراحة ، فضربت عنقه ، وكانت الراحة منه ، انتهى .

وكتب بعض أثر هذا ما صورته : القدر لا يغالب ، الحذر ينفع ما لم يأتك القدر ، فإذا أتى قدر ، لم ينفع حذر . انتهى .

وكتب ابن لسان الدين على قوله « فلم يقصر مضمرى » ما صورته : صدق والله ، انتهى .

ثم قال لسان الدين : ووردتُ باب السلطان الكبير أبي عنان فَبَلَوْتُ من مشاركته وحيد سعيه ما يليق بمثله ، ولما نسكبه لم أقصر عن ممكن حيلة في أمره ، فلما هلك السلطان أبو عنان وصار الأمر لأخيه المتلاحق من الأندلس أبي سالم بعد الولد المسمى بالسعيد كان ممن دمث له ^(١) الطاعة ، وأناخ راحلة الملك ، وَحَلَبَ ضَرْعَ الدولة ، وخطب عروس الموهبة ، فَأَنْشَبَ ظَفَرَهُ فِي مَنْأَبٍ مَعْقُودٍ من لدن الأب ، مشدود من لدن التقرب ، فاستحكم عن قرب ، واستغلظ عن كُثْبٍ ، فاستولى على أمره ، وخلطه بنفسه ، ولم يستأثر عنه بيثنه ، ولا انفرد بما سوى بضع أهله ، بحيث لا يقطع في شيء إلا عن رأيه ، ولا يحجو ويثبت إلا واقعاً عند حدّه ،

(١) أصل هذه المسادة قولهم « دمث فلان مرقدّه » إذا لينه ومهدده ووطأه ، ومن أمثالهم « دمث لجنيك قبل النوم مضطجعا » ومنه قالوا « أرض دمثاء » أي سهلة لينة موطأة ممهدة

فغشيت بآبِه الوفود ، وصُرفت إليه الوجوه ، ووقفت عليه الآمال ، وخدمته الأشراف ، وجلبت إلى سُدَّتِه بضائع العقول والأموال ، وهادته الملوك فلا تحذرو^(١) الحُدَاة إلا إليه ، ولا تحط الرحال إلا لديه ، إن حضر أجرى الرسم ، وأنفذ الأمر والنهى ، لحظاً أو سراراً أو مكاتبة ، وإن غاب ترددت الرقاع ، واختلفت الرسل ، ثم انفراد أخيراً ببيت الخلوة ومنقبد المناجاة من دونه مصطفى الوزراء وغايات الحجاب ، فإذا انصرف تبعته الدنيا ، وسارت بين يديه الوزراء ، ووقفت ببابه الأمراء ، قد وسع الكلّ لحظهُ ، وشملهم بحسب الرتب والأحوال رعيه ، ووسم أفاضلهم تسويده ، وثققت بينان عليتهم بنانه ، لسكن رضا الناس الغاية التي لا تدرك ، والحسد بين بنى آدم قديم ، وقبيل الملك مبين مثله ، فطويت الجوائح على سل ، وحنيت الضلوع على بث ، وأنغمضت الجفون على قَدَى ، إلى أن كان من نكبته الثالثة ماهو معروف ، جعلها الله له طهوراً ، ولما جرت الحادثة على الدولة بالأندلس وكان لحاق جميعنا بالمغرب جنيت ثمرة ما أسافته من وده ، فوفى السكيل ، وأشرك في الجاه ، وأدرّ الرزق ، ورفع المجلس ، بعد التسبب في الخلاص والسعى في الجبر ، جبره الله تعالى ، وكان له أحوج ما يكون إلى ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم ! انتهى .

وكتب ابن الدين على هذا الحل ما صورته : هذا لسان أبى عليه في الغيبة والحضور ، انتهى .

ومما خاطبه به لسان الدين مهنثاً من طريق القدوم على الأبواب المرينية ، مغلثاً من البلية بشفاعته ، مانصه : سيدى الذى إليه اقطاعى وانحياشى ، ومُنَجِّى الذى يَسِّرُ خلاصى وسَتِّى انتياشى ، ومُنْعَمى الذى جبر جناحى وأنبث رياشى .

(١) حدا يحذو : أى غنى للابل لتصبر على مشقة السير ، واستعمل فى معنى ساق ، وهذه العبارة كناية عن أن الرحال لا تشد إلا إلى لزيارته ، فهو جار مجرى قوله فيما قبل « ووقفت عليه الآمال - إلخ »

ومولى هذا الصنف العلمى ولا أحاشى ، كتبه صنيعُ نعمتكم الخالصة الحرة ، ومسترق فضلكم الذى تألقت ^(١) منه فى ليل الخطوب الغرة ، ابن الخطيب لطف الله به من كذا ، وقد شدَّ إلى إبلاغ النفس غزرها فى مباشرة تقبيل اليد التى لها اليد العظمى ، والسجيه الرُّنحى ، فلكم طوقت من نعمى ، وجبال النعم قد أثقلت الظاهر ، واستغرقت السرَّ والجهر ، فبأى لسان أو بأى بنان ، ولا أثر بعد عيان ، تقابل نعم تداركت الرق وقد أشفى ، وأبقت الدماء ^(٢) والشروع فى استئصالها لا يخفى ، فيالك من فرد هزم ألفاً ، ووعد نصر لم يعرف خُلُفاً ، ونية خلصت بتبغى إلى الله زُلُفَى ، لقد صدع بها مولاي غريبة فى الزمن ، بالغاً حسن صنيعها صنعاء اليمين ، مترفعة عن الثمن ، وإن لم يقم بها مثله فَمَنْ ، فليهن سيدى ما ذاع لجدّه بها من فخر ، وما قدم يوم تزل الأقدام من دُخْر ، وما جلب للعقام المولى الإبراهيمى من طيب ذكر ، واستفاضة حمد وشكر ، لقد أرتهن دعاء الحافى والناعل ^(٣) ، والدال على الخير شريك الفاعل ، والذى أحيا النفس جدير برد جدّتها ، وإنجاز عِدّتها ، وأنا قد قويت بجاهكم وإن كنت ضعيفاً ، واستشعرت سعداً جديداً وقدراً منيفاً ، وأيقنت أن الله عز وجل كان بى لطيفاً ، إذ هيأ لى من رحمة ذلك المقام المولى على يديكم نصراً عزيزاً ، وبوأتى من جابه حرزاً حريزاً ، وقد استأسدت الأعداء ، وأعضل الداء ، وأعمل الاعتداء ، وعز الفداء ، فافرج الضيق ، وتيسر للخير الطريق ، وساغ الريق ، ونجا الغريق ، غريبة لا تمثل إلا فى الحلم ، ولطيفة فيها أعتبار لأولى العلم ، اللهم جاز سىدى فى نفسه وولده ، وحاله وبلده ، ومَعاده بعد طول عمره وانفساح أَمَدِهِ ، وكن له نصيراً أحوج ما يكون إلى نصر ، واجعل له سعة من كل حصر ، واقصُر عليه جاه كل قصر ، كما جعلت ذاته فوق كل ذات وعصره فوق

(١) تألقت : أراد أضاءت وامت

(٢) الدماء - بفتح الدال ، بزنة السحاب - بقية الروح فى البدن

(٣) أراد بالحافى والناعل الصغير والكبير ، أى جميع الناس

كل عصر ، وليلعلم سيدي أن من أراد بي منافسة وحسداً ، وزار عليّ أسداً ،
لما استقل على الكرسي جسداً ، من غير ذنب تبين ، ولا حد تعين ، أصابه من
خلاصى المقيم المقعد ، ووعد النفس بأمل أخلف منه الموعد ، لما استنقذني الله
برحمته من بين ظفره ونابه ، وغطاني بستر جنابه ، وكثرتني في العيون على قلة ، وأعزني
بعز نصره على حال ذلة ، لم يدع حيلة إلا نصبها أمامي ، ليحبط ذلك المقام الكريم
ذمامي^(١) ، ويكدر جمامي^(٢) ، ويستدرك حمامي ، وزعم أن بيده على البعد زمامي ،
ويأبى ذلك رأى يفرق بين الحق وضده ، وعدل لا يخرج الشيء عن حده ، فبهت
سيدي خوفاً أن تتجه حيله ، أو تقسد وسيله ، وأنا قادم بالأهل والولد ليعمل في
رب الصنعة على شاكلة الجد الذي هو له أهل ، فما بابتدائه جهل ، ولا يختلف في
عظم ما أسداه غر ولا كهل ، ولا يُنبّه مثله على تميم ، وإجزال فضل عميم ،
ومؤانسة غريب ، وصلة نصر عزيز وفتح قريب ، بحول الله تعالى .

وقال لسان الدين بعد ما سبق نقله عنه في حق ابن مرزوق : ولما انقضى
أمر سلطانه رحمه الله تعالى متجنّي عليه بسببه ، محمولا عليه من أجله ، تقبض عليه
وأجمع المأ على قتله ، وشد اعتقاله ، وطُلبَ بالمسال العريض وانتهبت أمواله
واعتقلت رباعه ، وجُنِبَتْ مَرَآكبه ، واصطفيت أمهات أولاده ، وتمادى به الاعتقال
والشدة ، إلى أن عادته عوائد الله في الخلاص من الشدة ، والانتياش عن الورطة
ظاهرةً عليه بركة سلفه ، قائمة له حجة الكرامة في أمره .

حكى أمير المسلمين سلطاننا أعزه الله قال : عرض لى والدى رحمه الله تعالى
في النوم فقال : يا ولدى ، اشفع في الفقيه ابن مرزوق ، فقبلت يده ، واقتضيت

(١) الذمام - بكسر الذا والمعجمة - العهد والذمة

(٢) الجمام - بكسر الجيم - ملء القدح ماء ، وقد تقرأ بفتح الجيم ومعناها الراحة .

تقول « وجد فلان حمامه » أى وجد راحته

حظه ، وحكى دأعيته ، وعينت للوجهة في ذلك قاضي الحضرة ، فكان ذلك ابتداء الفرج .

وحدثني الثقة من خدام السلطان أبي عنان عنه مخبراً عن نفسه لما نفس عنه من نكته ، وأجاره من سخطه ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرني بذلك ، وكفى بها جاهاً وحُرمةً ، قلت : فترك سبيله ، وأُتيح له ^(١) ركوب البحر إلى البلاد المشرقية بأهله وولده ، فسار في كنف الستر ، وتحت جناح الرقابة ، في وسط رجب من عام أربعة وستين وسبعائة من ساحل باديس ، صحب الله وجهته ، وختم عصمته ! انتهى ما نلخصته من كلام لسان الدين بلفظه .

ورأيت على هامش هذا الحل من « الإحاطة » بخط المذكور ماضورته : أقول وأنا ابن مرزوق المسمى فيه : إني قد وصلت إلى تونس المحروسة في شهر رمضان من سنة خمس وستين ، فلقيت بهما من المبرة والكرامة والوجاهة فوق ما يعهده أمثالي ، ووليتُ خطابة جامع ملكها ، وتدرّس أم المدارس فيها ، وهي المعروفة بمدرسة الشعاين ، كل ذلك تحت رعاية وعناية وملازمة لمجلس ملكها ، إلى أن توفي سنة إحدى وسبعين ، ثم مع ولده وابن أخيه ، إلى أن رحلت في البحر في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ، فخلت في الديار المصرية ، ولقيت من ملكها الذي لم أر في الملوك مثله حلماً وفضلاً وحياءً وجوداً وتلطفاً ورحماً ، السلطان الملك الأشرف ناصر الدين وأندنيا شعبان بن حسين ، فأحسن لي وأجرى علي وعلى أولادي ما قام به الحال ، وقلدني دروساً ومدارس ، وأهلى للمشول بين يديه ، والحال مستمر على ذلك حتى الآن ، وذلك من فضل الله ومعهود إحسانه ، والمرجو من الله حسن العاقبة ، وكتب في رمضان سنة خمس وسبعين ، انتهى .

(١) أُتيح له كذا : تهيأ وأمكن

وكتب بعده أبو الحسن علي بن لسان الدين رحمه الله تعالى ما صورته :
صدق ، وهو فوق ذلك كله ، فقدرة معروف ، ولطالما كان ملك المغرب يفتخر به ،
فصار يفتخر بتقليد الدروس :

* والدهر لا يبقى على حالة * انتهى

قال في « الإحاطة » : ولما شرح كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله تعالى
واستبحر فيه ، وأكثر النقل ، وبذل الجهد ، طلب أهل العدوتين نظم مقطوعات
تتضمن الثناء على الكتاب المذكور ، وإطراء مؤلفه ، فاشال عليه من ذلك الطم
والرم ، بما تعددت منه الأوراق ، واختلفت في الإجادة وغيرها الأرزاق ، إشاراً
لغرضه ، ومبادرة من كل الجهات لإسعاف أربه ، وطلب مني أن ألم في ذلك بشيء
فكتبت له في ذلك :

شفاء عياض للصدور شفاء	فليس بفضل قد حواه خفاء
هدية برّ لم يكن لمديلتها	سوى الأجر والذكر الجليل كفاء ^(١)
وفى لنبي الله حق وفائه	وأكرم أوصاف الكرام وفاء
وجاء به بحرا يقول بفضل	على البحر طعم طيب وصفاء
وحق رسول الله بعد وفاته	رعا ، وإغفال الحقوق جفاء
هو الذخر يغني في الحياة عتاده	ويترك منه للبنيّن رفاء
هو الأثر المحمود ليس يناله	دنور ، ولا يخشى عليه عفاء
حرصت على الإطناب في نشر فضله	وتمجيد له لو ساعدتني فاء

واستزاد من هذا الغرض الذي لم يقنع فيه بالقليل ، فبعثت إليه من محل انتقالى
من مدينة سلا حرسها الله تعالى :

(١) مديلتها : اسم الفاعل من قولهم « أدال فلان الشيء » إذا جعله متداولاً ،
والكفاء - بكسر الكاف - الجزء

أأزاهير رياض أم شفاء لعياض
جدل الباطل للحق بأسياف مواض
وجلا الأنواء برها نا بحق وافترض
وشفى من يشتكى الغلة في زرق الحياض
أى بنيان مقال آمن خوف انتقاض
أى عهد ليس يرمى بانتكاث وانتقاض (١)
ومعان فى سطور كأسود فى غياض
وشفاء لصدور من ضنى الجهل مراض
حرر القصد فما شين بنقصد واعتراض
يا أبا الفضل ادرأن الله عن سعيك راض
فاز عبد أقرض الله برجحان القراض (٢)
وجبت غر المزايا من طوال أو عراض
لك يا أصدق رأو لك يا أعدل قاض
لرسول الله وفيت بجهد وانتهاض
خير خلق الله فى حا ل وفى آت وماض
سدد الله ابن مروز ق إلى تلك المراضى
زبدة العرفان معنى كل نسك وارتياض
فتولى بسط ما أجملت من غير انقباض
ساهرالم يدر فى استخلاصه طعم اغتماض
إن يكن ديناً على الأيام قدحان التقاضى

(١) نكث العهد : نقضه ، وانتكث انتكاثا : انتقض ، فهو مطاوع نكث

(٢) يشير إلى قوله تعالى : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له)

دام في علو ومن عا داهيهوى في انخفاض^(١)

ماوشى الصبح الدياجى بسواد فى بياض

ثم نظمت له أيضا فى الغرض المذكور ، والإكثار من هذا النمط فى هذا الموضع ليس على سبيل التبجح بإجاده وغبائه ، ولكن على سبيل الإشادة بالشرح المشار إليه ، فهو بالغ غاية الاستبحار :

حييت يا مختط سبت ابن نوح	بكل مزنت يعتدى أو يروح
وحمل الريحان ريح الصبا	أمانة فيك إلى كل روح
دار أبى الفضل عياض الذى	أضحت برّياه رياضاً تقوح ^(٢)
ياناقل الآثار يعنى بها	وواصل فى العلم جرمى الجموح
طرفك فى الفضل بعيد المدى	طرفك للمجد شديد الطموح ^(٣)
كفاك إعجازاً كتاب الشفا	والصبح لا ينكر عند الوضوح
لله ما أجزأت فينا به	من منحة تقصر عنها المنوخ
روض من العلم همى فوقه	من صيب الفكر الغمام السفوح
فمن بيان الحق زهر بدا	ومن لسان الصدق طير صدوح
تأرج العرف وطاب الجنى	وكيف لا يشمر أولاً يفوح
وحلة من طيب خير الورى	فى الجيب والأعطاف منها نضوح
ومعلم للدين شـيـدته	فهذه الأعلام منها تلوح
فقل لها مان كذا أو فلا	يا من أضل الرشد تبنى الصروح
فى أحسن التقويم أنشأته	خلقاً جديداً بين جسم وروح
فعمره المكتوب لا ينقضى	إذا تقضى عمر سام ونوح

(١) هوى يهوى - بوزن رمى يرمى - سقط من أعلى إلى أسفل

(٢) الريا : الرائحة الطيبة ، وتقوح : تملأ الجو

(٣) انظر فى أول البيت بكسر الطاء ، وهو فى الأصل الفرس ، وفى النصف الثانى بفتح الطاء ومعناه العين الباصرة

كأنه في الحفل ربح الصبا وكل عطف فهو غصن مروخ^(١)
 ما عذر مشغوف بخير الوري إن هاج منه الذكر أن لا ييوح
 عجبت من أكباد أهل الهوى وقد سطا البعد وطال النزوح
 إن ذكر المحبوب سالت دما ما هن أكباد ولكن جروح
 يا سيد الأوضاع يا من له بسيد الأرسال فضل الرجوح
 يا من له الفضل على غيره والشمس تخفى عند إشراق بوح^(٢)
 يا خير مشروح وفي واكتفى من ابن مرزوق بخير الشروح
 فتح من الله حباه به ومن جناب الله تأنى الفتوح

ثم قال : وعلى الجملة والتفصيل ، فهذا الرجل نسيجٌ وحده شهرة وجلالة وخصالا وأبوة صالحة ، تولاه الله ! وكان له ! وانصرف بجملته إلى بلاد المشرق عام أربعة وستين وسبعائة ، تولاه الله تعالى ، وأسعد مُنْقَلِبُهُ ! ومولده بتلمسان عام أحد عشر وسبعائة ، انتهى كلام لسان الدين .

ترجمة

ولنزد في هذه الترجمة على ما ذكره فنقول : قال ابن خلدون : صاحبنا الخطيب أبو عبد الله ابن مرزوق ، من أهل تلمسان ، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعباد ، ومتوارثين تربته من لدن جددهم خادمه في حياته ، وكان جده الخامس أو السادس أبو بكر بن مرزوق معروفا بالولاية فيهم ، ونشأ محمد هذا بتلمسان ، ومولده فيما أخبرني عام عشرة وسبعائة ، انتهى .

وهو مخالف لما ذكره لسان الدين فيما مر عنه .

ثم قال ابن خلدون : وارتحل مع والده إلى المشرق سنة ثلاث عشرة ، وسمع ببجاية على الشيخ ناصر الدين ، ولما جاور أبوه بالحرمين رجع إلى القاهرة ، فأقام

(١) ربح الصبا : ربح الشمال ، وعطف الرجل — بالكسر — جانبه ، ومروخ : اسم المفعول من قولهم « راحت الريح الشجر » أصابته فاهتزت أغصانه ، ويقال « مريح » أيضا (٢) بوح : اسم من أسماء الشمس ، ولعل الكلام محرف وأصله

* والبدر يخفى عند إشراق بوح *

ابن مرزوق
عن ابن خلدون

وبرع في الطلب والرواية ، وكان يجيد الخطين ، ورجع سنة ثلاث وثلاثين إلى المغرب ، ولقي السلطان أبا الحسن محاصراً لتلمسان ، وقد شيد بالعباد مسجداً عظيماً وكان عمه محمد بن مرزوق خطيباً به على عادتهم في العباد ، وتوفي ، فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد مكان عمه ، وسمعه يخطب على المنبر ، ويشيد بذكره ، ويثني عليه ، فحلى بعينه ، فقربه ، وهو مع ذلك يلازم ابني الإمام ، ويأخذ نفسه بلقاء الأفاضل والأكابر والأخذ عنهم ، وحضر مع السلطان وقعة طريف ، ثم استعمله في الرسالة إلى الأندلس ، ثم إلى ملك قشتالة في تقرير الصلح ، واستنقاذ ولده المأسور يوم طريف ، ورجع بعد وقعة القيروان مع زعماء النصارى ، فرجع إلى المغرب ، ووفد على السلطان أبي عنان بفاس مع أمه حظية أبي الحسن ، ثم رجع إلى تلمسان ، وأقام بالعباد ، وعلى تلمسان يومئذ أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن وأخوه أبو ثابت ، والسلطان أبو الحسن بالجزائر ، وقد حشد هناك ، فأرسل أبو سعيد ابن مرزوق المذكور إليه سراً في الصلح ، فلما اطاع أخوه أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه ، فبعثوا من حبس ابن مرزوق ، ثم أجازوه البحر إلى الأندلس ، فنزل على أبي الحجاج سلطانها بقرنطة ، فقربه ، واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء ، فلم يزل خطيبه إلى أن استدعاه أبو عنان سنة أربع وخمسين بعد مهلك أبيه واستيلائه على تلمسان وأعمالها ، فقدم عليه ، ورعى له وسائله^(١) ، ونظّمه في أكابر أهل مجلسه ، ثم بعثه لتونس عام ملكها سنة ثمان وخمسين ليخطب له ابنة السلطان أبي يحيى ، فردت الخطبة ، واختفت بتونس ، ووشى إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها ، فسيخطه لذلك ، وأمر بسجنه ، فسجن مدة ، ثم أطلقه قبل موته .

(١) الوسائل : جمع وسيلة ، وهى كل ما توصلت به شىء ، أراد بوسائله التى رعاها علمه وفضله

ولما استولى أبو سالم على السلطنة آثره ، وجعل زمام الأمور بيده ، فوطىء الناس عتبه ، وغشى أشراف الدولة بابه ، وصرفوا إليه الوجوه ، فلما وثب عمر بن عبد الله بالسلطان آخر عام اثنين وستين حبس ابن مرزوق ، ثم أطلقه بعد أن رام كثير من أهل الدولة قتله ، فمنعه منهم ، ثم لحق بتونس سنة أربع وستين ، ونزل على السلطان أبي إسحاق وصاحب دولته أبي محمد بن تافراكين ، فأكرموه وولوه الخطابة بجامع الموحدين ، وأقام بها إلى أن هلك السلطان أبو يحيى سنة سبعين وولى ابنه خالد ، ثم لما قتل السلطان أبو العباس خالداً واستولى على السلطنة ، وكان بينه وبين ابن مرزوق شيء ليله مع ابن عمه محمد صاحب بجاية ، عزله عن الخطبة ، فوجم لها^(١) ، فأجمع الرحلة إلى المشرق ، وسرحه السلطان ، فركب السفينة ، ونزل بالإسكندرية ، ثم ارتحل إلى القاهرة ، ولقى أهل العلم وأمرء الدولة ، ونفقت بضائعه عندهم ، وأوصلوه إلى السلطان الأشرف ، فولاه الوظائف العلمية ، فلم يزل بها مؤقراً الرتبة ، معروف الفضيلة ، مرشحاً لقضاء المالكية ، ملازماً للتدريس ، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين ، انتهى ملخصاً .

وقل الحافظ بن حجر : إنه لما وصل تونس أكرم إكراماً عظيماً ، وفوضت ترجمة إليه الخطابة بجامع السلطان وتدریس أكبر المدارس ، ثم قدم القاهرة ، فأكرمه عن ابن مرزوق عن ابن حجر الأشرف شعبان ، ودرس بالشيخونية والصرغتمشية والنجمية ، وكان حسن الشكل ، جليل القدر ، مات في ربيع الأول سنة إحدى وثمانين ، انتهى .

وقال ابن الخطيب القسطنطيني : هو شيخنا الفقيه الجليل الخطيب ، توفي وعن الخطيب القسطنطيني بالقاهرة ، ودفن بها بين ابن القاسم وأشهب ، وله طريق واضح في الحديث ، ولقى

(١) وجم لها : سكت على غيظ ، أو سكت ولم يستطع الكلام من كثرة الحزن والغم

أعلاما ، وسمعنا منه البخارى وغيره فى مجالس ، ولجلسه لباقه وجمال ، وله شرح جليل على « العمدة » فى الحديث ، انتهى .

وكتب بخطه بلدينا أبو عبد الله بن العباس التلمسانى مانصه : نقلت من خط بعض السادات كتبه للإمام زعيم العلماء الحفيد ابن مرزوق أنه وجد بخطه جده الخطيب ابن مرزوق لما ثقفه عمر بن عبد الله على يد الشيخ أبى يعقوب كتب مانصه : الحمد لله على كل حال ، خرج الطبرى فى منسكه وأبو حفص الملاى فى سيرته عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهم ، قالوا : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على التَّيَّةِ^(١) التى بأعلى مكة ، وليس بها يومئذ مقبور ، فقال : يبعث الله من ههنا سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ، يشفع كل واحد منهم فى سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، فقال أبو بكر : مَنْ هم يا رسول الله ؟ قال : هم الغرباء من أمتى الذين يدفنون ههنا ، فى هذا الموضع دُفِنَ والذى رحمه الله تعالى ، وبعد سماعه لهذا الحديث بسبعة أيام دفن فيه ، أفتراه لا يشفع فيمن أقال عثرة ولده ؟ أما يشتري هذا بأموال الأرض ؟ أفلا يرعى لى ثمانية وأربعين مثبرا فى الإسلام شرقا وغربا وأندلسا ؟ أفلا يرعى لى أنه ليس اليوم يوجد من يُسند أحاديث الصحاح سمعا من باب إسكندرية إلى البر وإلى الأندلس غيرى ونحو من مائتين وخمسين شيخا ؟ والله تعالى أعلم ، لكن حرمنى الله تعالى نبذة الاشتغال به ، وآثرت اتباع الهوى والدنيا ، فهويت ، اللهم غفرانك ! أفلا يرعى لى مجاورة نحو اثنى عشر عاما وختم القرآن فى داخل الكعبة ، والإحياء فى محراب النبى صلى الله عليه وسلم ، والإفراء بمكة ، ولا أعلم مَنْ له هذه الوسيلة غيرى ؟ أفلا يرعى لى

(١) التَّيَّة — بفتح التاء المثناة — طريق العقبة ، والمرقى إلى الجبل ، ويجمع على ثنایا ، وقال الشاعر (سجع) :

أنا ابن جلا وطلاع الثنایا متى أضع العمامة تعرفونى

الصلاة بمكة سنين ، وغر بتي بينكم ، ومحنتي في بلدي على محبتكم وخدمتكم ، مَنْ ذا الذي خَدَمَكُمْ من الناس يخرج على هذا الوجه ؟ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذُنُوبِي ، وَذُنُوبِي أَعْظَمُ ، وَرَبِّي أَعْلَمُ ، رَبِّ ارْحَمْ ، وَالسَّلَامُ ، انتهى .
ففي هذا دليل على عظم قدره ومكانته في الدين والدنيا .

قلت : ولقد رأيت مصحفه بآماسان عند أحفاده ، وعليه خطه الرائق الذي أعرفه ، وهو يقول : قرأت في هذا المصحف تَجَاهَ الكعبة المشرفة اثني عشر ألف ختمة ، انتهى .

ومع هذا فقد نسي في المصحف المذكور لفظة إليك من قوله تعالى (ينقلب إليك البصر) حتى كتبه بخطه فوق السطر حفيدُه العلامة سيدي أبو عبد الله محمد ابن مرزوق ، رحمه الله على الجميع !

وقال الخطيب المذكور رحمه الله تعالى في بعض تعاليقه ما صورته : ومن أشياخ والدي سيدي محمد المرشدي ، لقيه في ارتحالنا إلى الشرق ، وحين حلني إليه وأنا ابن تسع عشرة سنة نزلنا عنده ، ووافقنا صلاة الجمعة ، ومن عادته أن لا يتخذ للمسجد إماما ، وحضر يومئذ من أعلام الفقهاء مَنْ لا يمكن اجتماع مثلهم في غير ذلك المشهد ، قال : فقرب وقت الصلاة ، فنشوف^(١) مَنْ حضر من الفقهاء والخطباء إلى التقديم ، فإذا الشيخ قد خرج فنظر يمينا وشمالا وأنا خلف والدي ، فوقع بصره على ، فقال لي : يا محمد ، تعال ، قال : فقممت معه حتى دخلت معه في موضع خلوة ، فباحثني في الفروض والشروط والسنن ، قال : فتوضأت وأخلصت النية ، فأعجبه وضوئي ، ودخل معي المسجد ، وقادني إلى المنبر ، وقال لي : يا محمد ، ارق المنبر^(٢) ، فقلت له : ياسيدي ، والله لا أدرى ما أقول ، فقال لي :

(١) تشوف من حضر : أي أن كل واحد منهم تطلعت عينه لأن يكون هو المقدم للخطابة

(٢) ارق المنبر : اصعده ، وكل سلم يقال له مرقاة ومصعد

أرق ، وناولني السيف الذى يتوكأ عليه الخطيبُ عندهم ، وأنا جالس مفكر فيما أقول إذا فرغ المؤذنون ، فلما فرغوا نادانى بصوته ، وقال لى يا محمد : قم ، وقل بسم الله ، قال : نعمت ، وانطلق لسانى بما لا أدرى ما هو ، إلا أنى كنت أنظر إلى الناس ينظرون إلى ويخشعون من موعظتى ، فأكملت الخطبة ، فلما نزلت قال لى : أحسنت يا محمد ، قرأك^(١) عندنا أن نوليك الخطابة ، وأن لا تخطب بخطبة غيرك ما وليت وحييت ، ثم سافرنافججنا ، وأراد والدى الجوار ، وأمرنى بالرجوع لأونس عمى وقرابقى بتلمسان ، وأمرنى بالوقوف على سيدى المرشدى هنالك ، فوقفت عليه ، وسألنى عن والدى ، فقلت له : يُقبَلُ أيديكم ، ويسلم عليكم ، فقال لى : تقدم يا محمد ، واستند إلى هذه النخلة ، فإن شعيبا - يعنى أبا مدين - عبد الله عندها ثلاث سنين ، ثم دخل خلوته زمانا ، ثم خرج فأمرنى بالجلوس بين يديه ، ثم قال لى : يا محمد ، أبوك من أحبائنا وإخواننا ، إلا أنك يا محمد ، إلا أنك يا محمد ، فكانت هذه إشارة إلى ما امتحنت به من مخالطتى أهل الدنيا والتخليط ، ثم قال لى : يا محمد أنت مشوش من جهة أيبك ، تتوهم أنه مريض ، ومن بلدك ، أما أبوك فبخير وعافية ، وهو الآن عن يمين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن يمينه خليل المالكي ، وعن يساره أحمد قاضى مكة ، وأما بلدك ، فسمى الله فخط دائرة فى الأرض ، ثم قام فقبض إحدى يديه على الأخرى وجعلهما خلف يطوف بتلك الدائرة ، ويقول : تلمسان ، تلمسان ، حتى طاف بتلك الدائرة مرات ، ثم قال لى : يا محمد ، قد قضى الله الحاجة فيها ، فقلت له : كيف يا سيدى ؟ فقال : ستر الله إن شاء الله على من فيها من الذرارى والحريم ، ويمسكها هذا الذى حصرها ، يعنى السلطان أبا الحسن ، وهو خير لهم ، ثم جلس وجلست بين يديه ، فقال لى :

(١) أصل القرى - بكسر القاف ، مقصورا - ما يقدم للضيف من أطاف

يا خطيب ، فقلت : يا سيدى عبدك ومملوكك ، فقال لى : كن خطيبا ، أنت الخطيب ، وأخبرنى بأمور ، وقال لى : لابد أن تخطب بالجامع الغربى ، وهو الجامع الأعظم بالإسكندرية ، ثم أعطانى شيئا من كعيكات صغار ، وزودنى بها ، وأمرنى بالرحيل .

وأما خبر تلمسان فدخلها المرىنى كما ذكر ، وستر الله من فيها من النزازى والحريم ، وكان هذا المرشدى يتصرف فى الولاية كتصرف سيدى أبى العباس السبتي ، نفعنا الله بهما ! .

وللخطيب ابن مرزوق المذكور تأليف : منها شرحه الجليل على العمدة فى خمسة أسفار ، جمع فيه بين ابن دقيق العيد والتاكاهاى مع زوائد ، وشرحه النفيس على الشفاء ، ولم يكمل ، وشرحه على الأحكام الصغرى لعبد الحق ، وشرحه على ابن الحاجب القرعى ، سماه « إزالة الحاجب » ، عن فروع ابن الحاجب ، وله غيرها . وديوان خطب بالغرب مشهور كقصيدته التى قالها فى نكبته بتلمسان ، وأولها : رفعت أمورى لبارى النسم ومُوجدنا بعد سبق العدم (١)

ومن نظمه عند وداعه أهل تونس :

أودعكم وأثنى نعم أثنى على ملك تطاول بالجيل
وأسال رغبة منكم لربى بتيسير المقاصد والسهيل
سلام الله يشملنا جميعا فقد عزم الغريب على الرحيل

ومن نظم أبى المسكارم ابن أجروم يُسئلى المذكور عندما سجن بعد قتل السلطان أبى سالم .

يا شمس علم أفلت بعدما أضاءت المشرق والغربا

(١) النسم - بفتح الزون والسين جميعا - جمع نسمة ، وهى كل دابة فيها روح (٢٢ - فتح ٧)

حُجِبَتْ قَسْرًا عَنْ عِيُونِ الْوَرَى وَالشَّمْسُ لَا يَنْكُرُ أَنْ تَحْجُبَا^(١)
وَبَيْتُهُمْ يَتَّعِلُّ عِلْمَ وَوَلَايَةِ وَصْلَاحِ كَعَمِهِ وَجَدَهُ وَأَبِيهِ وَجَدَ أَبِيهِ ، وَكَوْلَدِيهِ مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ
وَحَفِيدُهُ عَالِمُ الدُّنْيَا الْبَحْرُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مَرْزُوقٍ ، وَوَلَدَ حَفِيدَهُ الْمَعْرُوفَ
بِالْكَفِيفِ ، وَحَفِيدَ حَفِيدَهُ الْمَعْرُوفَ بِالْخَطِيبِ ، وَهُوَ آخِرُ الْمَذْكُورِينَ مِنْهُمْ
فِيمَا نَعْلَمُ .

قلت : كان مرادى أن أعرف بجميعهم ، ولكنني خشيت الطول ، فلنم
بذكر الحفيد عالم الدنيا ، وابنه العلامة المشهور بالكفيف ، لأنه - أعني الكفيف -
والد أم جدى أحمد ، لأبى أحمد بن محمد بن أحمد ، فوالدة الجد أحمد بنت الكفيف
المذكور ، وهو - أعني الكفيف - محمد بن محمد بن أحمد بن الخطيب الرئيس
أبى عبد الله بن مَرْزُوقِ الْمُتَقَدِّمِ الذَّكْرِ ، وَكَانَ الْكَفِيفُ إِمَامًا عَالِمًا عَلامَةً ، وَوَصَفَهُ
ابْنُ دَاوُدَ الْبُلُوْى بِأَنَّهُ الشَّيْخُ الْإِمَامُ ، عَلَّمَ الْأَعْلَامَ ، فَخَرَّ خُطَبَاءَ الْإِسْلَامِ ، سَلَالَةَ
الْأَوَّلِيَاءِ ، وَخَلْفَ الْأَنْبِيَاءِ الْأَرْضِيَاءِ ، الْمُسْنِدِ الرَّائِيَةِ الْحَدَّثِ الْعَلَامَةِ الْمُتَفَنِّ الْقُدُوءِ الْحَافِلِ
الْكَامِلِ ، وَأَخَذَ الْعِلْمَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ عَالِمُ الدُّنْيَا أَبُوهُ ، قَرَأَ عَلَيْهِ الصَّحِيحِينَ وَالْمَوْطَأَ
وغيرهما كتاب من تأليفه وغيرها ، وتفقه وأجازته عموما ، وعن عالى تلمسان أبوى
الفضل ابن الإمام والعقبانى ، وغيرها كالبجائى والثعالبى ، والنظار أبى عبد الله
محمد بن أبى القاسم المشدالى ، وقاضى الجماعة ابن عقاب وحافظ الإسلام ابن حجر
العسقلانى ، وكل هؤلاء أجازوه ، وقراء عليهم مشافهة ، إلا ابن حجر فكتابة ،
ومولده غرة ذى القعدة عام أربعة وعشرين وثمانمائة ، نصف ليلة الثلاثاء ، ومن
شيوخه العلامة ابن العباس التلمسانى وغيره .

ابن مَرْزُوقِ
الْكَفِيفِ

(١) حُجِبَتْ - بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ - مَنَعَتْ ، وَقَسْرًا : مُصْدَرُ قَسَرَهُ عَلَى الْأَمْرِ
يَقْسِرُهُ - مِنْ بَابِ ضَرْبٍ - أَكْرَهَهُ عَلَيْهِ وَأَجْأَهُ إِلَى فَعْلِهِ

وقال السخاوى : قدم الكفيف مكة سنة إحدى وستين وثمانمائة ، وسمعت منه إحدى وسبعين وثمانمائة أنه في الأحياء ، انتهى .

وأخذ عنه جماعة أئمة كالسنوسى صاحب العقائد الشهيرة وغيرها، والواشربسى صاحب المعيار ، والعلامة أبى عبد الله بن العباس ، وحلاه بشيخنا ومفيدنا علم الأعلام وحجة الإسلام آخر حفاظ المغرب ، وقال : قرأت عليه الصحيحين وبعض مختصرى ابن الحاجب القرعى والأصلى ، وحضرت عليه جملة من التهذيب وبعض الخونجى وغيرها ، وأخذ عنه بالإجازة عالم فاس ابن غازى حسبا ذكره فى كتابه المسمى « بالتعلل برسوم الإسناد ، بعد انتقال الساكن والناد » .

وقال بعض الحفاظ : إن وفاته عام أحد وتسعمائة بقلعسان ، وزرت قبره مرارا ، رحمه الله تعالى ! ونقل عنه المازونى فى نوازله بالمسماة « بالدرة المكنونه ، فى نوازل ما زونه » .

وأما والده عالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق الشهير بالخفيد فهو البحر ابن مرزوق الإمام المشهور الحجة الحافظ العلامة المحقق الكبير النظار المطلع المصنف المنصف التقى الصالح الناصح الزاهد العابد الورع البركة الخاشع الخاشى النبيه القدوة المجتهد الأبرع الفقيه الأصولى المفسر المحدث الحافظ المسند الراوية الأستاذ المقرئ المجود النحوى اللغوى البيانى العروضى الصوفى الأبواب^(١) الولى الصالح العارف بالله ، الآخذ من كل فن بأوفر نصيب ، الراعى فى كل علم مرعاه الخصيب ، حجة الله على خلقه ، المفتى الشهير ، الرحلة ، الحاج ، فارس الكراسى والمنابر ، سليل الأكابر ، سيد العلماء الأخيار ، وإمام الأئمة ، وآخر الشيوخ ، ذوى الرسوخ ، بدر التمام ، الجامع بين المعقول والمنقول ، والحقيقة والشرعية بأجل محصول ، آخر النظار

(١) الأبواب : صيغة مبالغة لآب ، وهو الراجع ، والأبواب : يراد به هنا الكثير الرجوع إلى الله تعالى فى أموره

الفحول ، شيخ المشايخ ، صاحب التحقيقات البديعة ، والاختراعات الأنيفة ، والأبحاث الغربية ، والقوائد الغزيرة ، المتفق على علمه وصلاحه وهديه ، الذكى الفهامة القدوة الذى لا يسمح الزمان بمثله أبدا ، أوجد الأفراد فى جميع الفنون الشرعية ، ذوالمناقب العديدة ، والأحوال السديدة ، شيخ الإسلام ، وإمام المسلمين ومفتى الأنام ، الذى له القدم الراسخ فى كل مقام ضيق ، ولرحب الواسع فى حل كل مشكل مقفل ، صاحب الكرامات والاستقامات ، السننى الشئى^(١) ، الحريص على تحصيل السنة ، ومجانبة البدعة ، السيف المسلول على أهل البدع والأهواء الزائفة ، الذى أفاض الله تعالى على خلقه به بركته ، ورفع بين البرية محله ودرجته ، ووسع على خليفته به نخلته ، معدن العلم ، وشعلة الفهم ، وكيمياء السعادة ، وكنز الإفادة ، ابن الشيخ الفقيه العالم أبى العباس أحمد ، ابن الإمام العلامة الرئيس الكبير الخطيب الحافظ الرحلة الفقيه الحدث الشهير شمس الدين محمد ، ابن الشيخ العالم الصالح الولى المجاور أبى العباس أحمد ، ابن الفقيه الولى الصالح الخاشع محمد ، ابن الولى الكبير ذى الكرامات والأحوال الصالحة محمد بن أبى بكر بن مرزوق ، العجيسى ، التلمسانى ، كان رحمه الله تعالى آية الله فى تحقيق العلوم ، والاطلاع المفرط على النقول ، والقيام التام على الفنون بأسرها ، أما الفقه فهو فيه مالک ، ولأزمة فروعه حائز ومالک ، فلوراه الإمام لقال له : تقدم ، فلك العهد والولاية فتكلم ، فمك يسمع فقهى وفروعى ، ومثلک من راعى ما ينبغى فروعى^(٢) ، وأبو القاسم لقربه عيناً ، وقال له : طالما دفعت عن المذهب عيباً وشيئاً ، أو المازرى ، لعل أنه بمنظرة حرى ، أو الحافظ ابن رشد ، لقال : هلم يا حافظ الرشد ،

(١) السننى - بفتح السين - الوصف من السناء أو من السنأ ، أى الرفيع القدر ،

أو الوضىء الوجه ، والسننى - بضم السين - المنسوب إلى السنة

(٢) فروعى الأول : جمع فرع ، و«فروعى» الثانى مؤلف من كلمتين : الفاء

العاطفة ، و«روعى» فعل ماض مبنى للمجهول من المراعاة

أو اللخمى لأبصر منه محاسن التبصرة ، أو القرطبي لنال منه التذكرة ، أو القرافي لاستفاد منه قواعده المقررة ، أو ابن الحاجب لاستند إلى بابه في كشف الإشكالات المحررة ، إلى ما انضم إلى ذلك من معرفة التفسير ودرره ، والاضطلاع بحقائق التأويل وغرره ، فلورآه مجاهد ، لعلم أنه في التحقيق خير جاهد ، أو مقاتل ، لقال : مثلك طبَّق من الفهوم السكلى وأصاب المقاتل ، أو الزمخشري لعلم أنه كشف الخفيات على الحقيقة ، وقال لكتابه : تنجَّ لهذا الخبر عن سلوك الطريقه ، أو ابن عطيه ، لركب في الرحلة إلى الاستفادة منه المطيه ، أو أبو حيان لفرق في نهره ، ولم تسِلْ له نقطة من بحره ، إلى الإحاطة بالحديث وفنونه ، والاطلاع على أسانيده وامتونه ، ومعرفة منكره ومعروفه ، ونظم أنواعه ورصف صنوفه ، إذله الرحلة انتهت في رواياته ودراياته ، وعليه المعول في حل مشكلاته وفتح مقفلاته . وأما الأصول فالعُصْد ينقطع عند مناظرته ساعده ، والسيف يكلُّ عند بحثه حده حتى يترك ما عنده ويساعده ، والبرهان لا يهتدى معه لحجة ، والمقترح لا يركب في بحره لحجة . وأما النحو فلورآه محمود^(١) لتلجج في قراءة المفصل ، واستقل ما عنده من القدر المحصل ، أو الرمانى لاشتاق إلى مفاكته وارتاح ، واستجدى من ثمار فوائده وامتاح^(٢) ، أو الزجاج لعلم أن زجاجة لا يقوم بجواهره ، وأنه لا يجري معه في هذا العلم إلا في ظواهره ، بل لورآه الخليل ، لقال : هذا هو المقصد الجليل ، وأثنى عليه بكل جميل ، وقال لقرسان النحو : مالكم إلى لحوق عريته من سبيل ، وأما البيان فالمصباح لا يظهر له نور عند هذا الصبح ، وصاحب المفتاح لا يهتدى معه إلى الفتح ، والقزوينى يلقى علومه لإيضاح المعانى ، والسعدى يرقى بفهمه في مطالع المثانى ، وكم له من مناقب ، تنحط عن منالها الثواقب ، ومواهب ، تجلو بأنوارها الغياهب^(٣) ، وأما زهده وصلاحه فقد سارت به الركبان ، وانفق عليه الثقلان ، فمن

(١) محمود : هو الزمخشري صاحب المفصل في النحو وغيره (٢) أصل الامتياع

أن تملأ الدلو من البئر ، واستعمله ههنا مجازا (٣) الغياهب : جمع غيب ، وهو الظلام

وصفه بالبحر ، قفل له : دون علمه البحر ، أو البدر ، فما يصل خلقه البدر ، أو الدر ، فأنى يشبه منطقته الدر ، وبالجملة فالوصف يتقاصر عن صفاته وفضلاء عصره لا يرتقون إلى صفاته ، فهو شيخ العلماء في أوانه ، وإمام الأئمة في عصره وزمانه ، شهد بنشر علومه العاكف والبادي ، وارتوى من بحار تحقيقاته الظمان والصادى .

حلف الزمان ليأتينَّ بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر^(١)

هكذا وصفه بعض العلماء ، وهو فوق ذلك كله .

وقال في حقه بلدينا الشيخ أبو الفرج ابن أبي يحيى الشريف التلمسانى رحمه الله تعالى : هو شيخنا الإمام العالم العلم ، جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية حفظا وفهما وتحقيقا راسخ القدم ، رافع لواء الإمامة بين الأمم ، ناصر الدين بيده ولسانه وبنائه وبالقلم ، يحيى السنة بالفعال والمقال والشيم ، قطب الوقت في الحال والمقام ، والنهج الواضح والسبيل الأم^(٢) ، مستمر على الإرشاد والهداية ، والتبليغ والإفادة ، ذو الرواية والدراية والعناية ، ملازم الكتاب والسنة على نهج الأئمة المحفوظين من البدع في زمن لا عاصم فيه من أمر الله إلا من رحم ، وهمة عليه ، ورتبة سنية ، وأخلاق مرضية ، وفضل وكرم ، إمام الأئمة ، وعالم الأمة ، الناطق بالحكم ، ومنير الظلم ، سليل الصالحين ، وخلاصة مجد التقى والدين ، نتيجة مقدمات المهتدين ، حجة الله على العلم والعالم ، جامع بين الشريعة والحقيقة ، على أصح طريقة ، متمسك بالكتاب لا يفارق فريقه ، الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد ، اتصلت به فأويت منه إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وقصرت توجهي عليه ، ومثلت بين يديه ، فأنزلني أعلى الله قدره ! منزلة ولده رعاية للذمم ، وحفظا على الود الموروث من القدم ، فأفادني من بحار علمه ما تقصّر عنه العبارة ويكلّ دونه القلم ، فقرأت

(١) حنثت يمينك : كناية عن أنه لا يقدر على الإتيان بمثله

(٢) السبيل الأم - بفتح الهمزة والميم جميعا - الطريق القريب البين الواضح

عليه جملة من تفسير القرآن ومن الحديث صحيح البخارى بقراءتى وقراءة غيرى
 مراراً وصحيح مسلم كذلك وسنن الترمذى وأبى داود بقراءتى ، والموطأ سماعاً وتفقهها
 والعمدة ، ومن علم الحديث أرجوزة الحديقة وبعض الكبرى وهى الروضة تفقهها ،
 ومن العربية نصف المغرب ^(١) تفقهها وجميع كتاب سيبويه كذلك ، وألفية
 ابن مالك ، وأوائل شرح الإيضاح لابن أبى الربيع ، وبعض المغنى لابن هشام ،
 ومن الفقه التهذيب كله تفقهها ، وابن الحاجب القرعى ، وبعض مختصر خليل ،
 والتلقين ، وثلى الجلاب ، وجملة من المتوسطة ، والبيان لابن رشد ، وبعض
 الرسالة ، وكل ذلك قراءة تفقهه ، وتفقهت عليه من كتب الشافعية فى تنبيه
 الشيرازى ووجيز الغزالى من أوله إلى كتاب الإقرار ، ومن كتب الحنفية مختصر
 القدورى تفقهها ، ومن كتب الحنابلة مختصر الخرق تفقهها ، ومن أصول الفقه
 الحصول ، ومختصر ابن الحاجب ، والتنقيح ، وكتاب المفتاح لجدى ، وقواعد
 عز الدين ، وكتاب المصالح والمفاسد له ، وقواعد القرافى ، وجملة من النظائر
 والأشياء للعلائى ، وإرشاد العميدى ، ومن أصول الدين المحصل والإرشاد
 تفقهها ، وفى القراءات قصيدة الشاطبى تفقهها ، وابن البرى ، ومن البيان التلخيص ،
 والإيضاح ، والمصابيح ، وكلها تفقهها ، ومن التصوف الإحياء للغزالى سوى
 الربع الأخير منه ، وألبسنى خرقة التصوف كما ألبسه أبوه وعمه ، وهما ألبسهما
 أبوهما جده ، انتهى ملخصاً .

وكتب المذكور تحت هذا مانصه : صدق السيد بن السيد بن السيد أبو الفرج
 المذكور فيما ذكر من القراءة والسماع والتفقه وبرّاً ، وقد أجزته فى ذلك كله ، فهو
 حقيق بها مع الإنصاف وصدق النظر ، جعلنى الله وإياه ممن علم وعمل لآخرته
 واعتبر ، قال محمد بن مرزوق ، انتهى .

(١) كذا فى ب ، ولعله « نصف المقرب » بالقاف ، والمقرب : كتاب فى النحو

وقال تلميذه الولي أبو زيد سيدى عبد الرحمن الثعالبي : قدم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله بن مرزوق فأقام بها ، فأخذت عنه كثيراً ، وسمعت عليه جميع الموطأ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر بن شريك شيخنا محمد القلشاني ، وسمعت عليه أربعينيات النووى ، قرأتها عليه في منزله قراءة تفهم ، فكان كلما قرأت عليه حديثاً يعلوه خشوع وخضوع ، ثم يأخذ في البكاء ، فلم أزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب ، وكان من أولياء الله الذين إذا رُؤوا ذُكر الله ، وأجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصرية ، واشتهر ذكره في البلاد ، فكان يذكره تبرز المجالس ، وجعل الله تعالى حبه في قلوب العامة والخاصة فلا يذكر في مجلس إلا والنفوس متشوقة إلى ما يحكى عنه ، وكان في التواضع والإنصاف والاعتراف بالحق في الغاية وفوق النهاية ، لا أعلم له نظيراً في ذلك في وقته ، ثم ذكر كثيراً جداً من الكتب مما سمعه عليه ، وأطال في ذلك .

وقال في موضع آخر : هو سيدى الشيخ الإمام ، والخبير الهمام ، حجة أهل الفضل في وقتنا وخاتمهم ، ورحلة النقاد وخلاصتهم ، ورئيس المحققين وقادتهم ، السيد الكبير ، والذهب الإبريز ، والعلم الذى نصبه التميز ، ابن البيت الكبير ، والعلك الأثير ، ومعدن الفضل الكثير ، سيدى أبو عبد الله محمد بن الإمام الجليل الأوحى الأصيل ، جمال الفضلاء ، سليل الأولياء ، أبى العباس أحمد ، ابن العالم الكبير ، العلم الشهير ، تاج المحدثين ، وقدوة المحققين ، أبى عبد الله محمد ابن مرزوق .

وقال أيضاً في موضع آخر : هو شيخى الإمام العلم الصدر الكبير ، المحدث الثقة المحقق بقية المحدثين ، وإمام الحفظة الأقدمين والمحدثين ، سيد وقته ، وإمام عصره وورع زمانه ، وفاضل أقرانه ، أعجوبة أوانه ، وفاروق زمانه ، ذو الأخلاق

المرضية ، والأحوال الصالحة السنية ، والأعمال الفاضلة الزكية ، أبو عبد الله .
وقال في حقه المازوني في أول نوازله : شيخنا الإمام الحافظ بقية النظر
والجتهدين ، ذواتوا العجبية ، والفوائد الغربية ، مستوفى المطالب والحقوق ،
أبو عبد الله بن مرزوق .

وقال تلميذه الحافظ العلامة أبو عبد الله التنيسي عند ذكره : إن إمامنا مالكا
سئل عن أر بعين مسألة فقال في ست وثلاثين « لا أدري ، وجئته العالم لا أدري ^(١) »
ما نصه : ولم ير فيمن أدركنا من شيوخنا من تمرّن على هذه الخصلة الشريفة
ويكثر استعمالها غير شيخنا العالم العلامة رئيس علماء المغرب على الإطلاق أبي عبد الله
محمد بن أحمد بن مرزوق .

وقال الشيخ أبو الحسن القلصادي في رحلته : أدركت بلمسان كثيراً من
العلماء والعباد والزهاد والصلحاء ، أولاهم في الذكر والتقديم الشيخ الفقيه الإمام
العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا أبو عبد الله بن مرزوق ، حلّ كنف العلم
والعلاء ، وجل قدره في الجلالة والفضلا ، قطع الليالي ساهراً ، وقطف من العلم أزهاراً ،
فأثمر وأورق ، وغرب وشرق ، حتى توغل في فنون العلم واستغرق ، إلى أن أطلع
للأبصار هلالاً لأن الغرب مطلع ، وسما في النفوس موضعه وموقعه ، فلا ترى
أحسن من لقائه ، ولا أسهل من إلقائه ، لقي الشيوخ الأكابر ، وبقى تحمده مغترفاً
من بطون الكتب وألسنة الأفلام وأفواه الحابر ، وكان رضى الله عنه من رجال
الدنيا والآخرة ، وكانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلاً ونهاراً من صلاة وقراءة
قرآن وتدريس علم وفتيا وتصنيف ، وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهودة ،
وكانت له بالعلم عناية ، تكشف بها العماية ^(٢) ، ودارية ، تعضدها الرواية ، ونباهة ،

(١) الجنة - بالضم - الوقاية ، وهو مأخوذ مما ينسب إلى ابن عباس « من ترك
لا أدري أصيبت مقاتله »

(٢) العاية - بفتح العين - أراد الضلالة التي تعمى فيها البصائر

تكسب النزاهة ، قرأت عليه - رضى الله عنه ! - بعض كتابه فى الفرائض وأواخر
إيضاح الفارسى وشيئاً من شرح التسهيل ، وعرضت عليه إعراب القرآن وصحيح
البخارى والشاطبيتين وأكثر ابن الحاجب القرعى والتلقين وتسهيل ابن مالك
والألفية والكافية وابن الصلاح فى علم الحديث ومنهاج الغزالى وبعض الرسالة
وغيرها ، ثم توفى يوم الخميس بمصر رابع عشر شعبان عام اثنين وأربعين وثمانمائة ،
وصلى عليه بالجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة ، وحضر جنازته السلطان من دونه ،
ولم أر مثلاً قبل ، وأسف الناس لفقده ، وآخر بيت سمع منه قبل موته :
إن كان سَفَك دَمِي أَفْصَى مَرَادِكُمْ فَمَا غَلَتْ نَظْرَةٌ مِنْكُمْ بِسَفَكِ دَمِي
انتهى ملخصاً .

وفى فهرست ابن غازى فى ترجمة شيخه أبى محمد الورياطى ما صورته : ومن
لقى من شيوخ تلمسان المحروسة الإمام العلم العلامة الصدر الأوحى المحقق النظار
الحجة العالم الربانى أبو عبد الله بن مرزوق ، وقد حدثنى بكثير من مناقبه وصفة
إقراءه ، وقوة اجتهاده ، وتواضعه لطلبة العلم ، وشدة على أهل البدع ، وما اتفق له
مع بعضهم ، إلى غيرها من شيمه الكريمة ، ومحاسنه العظيمة ، انتهى .

وقال بعضهم فى حقه : إنه كان يسير سيرة سلفه فى العلم والتخلق والحلم
والشفقة وحب المساكين ، آية الله فى الفهم والذكاء والصدق والعدالة والنزاهة
واتباع السنة فى الأقوال والأفعال ، ومحبة أهلها فى جميع الأحوال ، مبغضاً لأهل
البدع ومحباً سداً الذرائع ^(١) ، له كرامات ، انتهى .

وأما شيوخه ففهم العلامة السيد عبد الله الشريف التلمسانى ، وعالم المغرب
القاضى سيدى سعيد العقبانى التلمسانى ، والولى العابد الصالح أبو إسحاق سيدى

(١) الذرائع : جمع ذريعة ، وهو كل ما يتوصل به إلى الشئ ، واشتهرت هذه
الكلمة فى لسان أهل الشرع عما يكون وسيلة إلى الشر ، وسد الذرائع باب واسع
فى الفقه الإسلامى ، والمراد به ترك ما يظن أنه يفضى إلى المحرم

إبراهيم المصمودي ، وأفرد ترجمته بتأليف ، وعن أبيه وعمه ، ويروى عن جده بالإجازة وابن عرفة وأبي العباس القصار التونسي ، وبفاس عن النحوي أبي حيان وأبي زيد المكوذي ، وجماعة غيرها ، وبمصر عن السراج البلقيني ، والزين الحافظ العراقي ، والشمس الغماري ، والسراج ابن الملقن ، وصاحب القاموس ، والمحجب ابن هشام صاحب المغني ، والنور النويري ، والولي ابن خلدون ، والقاضي التنيسي ، وغيرهم .

وأخذ عنه جماعة كالثعالبي ، والقاضي عمر القلشاني ، وابن العباس نصر الزواوي ، والولي سيدي الحسن بن كان ، وابنه ، وأبي البركات الغماري ، وأبي الفضل المشدالي^(١) ، وقاضي غرناطة أبي العباس بن أبي يحيى الشريف ، وإبراهيم بن قائد ، وأبي العباس التدرومي ، وابنه الكفيف ، وسيدي علي بن ثابت ، والشهاب ابن كحيل التحاني ، والعلامة أحمد بن يونس القسطيني ، والعلامة يحيى بن بيدير وأبي الحسن القلصادي ، والشيخ عيسى بن سلامة البكري ، وغيرهم ، كالحافظ التنيسي التلهساني .

قلت : وسندى إليه عن عمي الإمام سيدي سعيد المقرئ ، عن الشيخ أبي عبد الله التنيسي ، عن والده الحافظ أبي عبد الله محمد التنيسي المذكور ، عن ابن مرزوق المذكور بكل مروياته وتأليفه .

وقال السخاوي في حقه : هو أبو عبد الله ، يعرف بحفيد ابن مرزوق ، وقد يختص بابن مرزوق ، وقد تلا لنافع على أبي عثمان الزروالي ، وانتفع في الفقه بأبي عبد الله بن عرفة ، وأجازه أبو القاسم محمد بن الخشاب ومحمد بن علي الحفار الأنصاري ومحمد القيحاوي ، وحجج قديماً سنة تسعين وسبعائة رقيقاً لابن عرفة ، وسمع من البهاء

(١) يقع هذا الاسم أحياناً بالذال المعجمة وأحياناً بالذال المهملة

الدماميني والنور العقيلي بمكة ، وفيها قرأ البخاري على ابن صديق ، ولازم الحب ابن هشام في العربية ، وكذا حج سنة تسع عشرة وثمانمائة ، واتي به الزيني رضوان بمكة ، وكذا لقيه ابن حجر ، انتهى .

وأما تواليفه فكثيرة منها شروحه الثلاثة على البردة ، وسمى الأكبر « إظهار صدق المودة ، في شرح البردة » واستوفى فيه غاية الاسقياء ، وضمنه سبعة فنون في كل بيت ، والأوسط ، والأصغر المسمى « بالاستيعاب » ، لما فيها من البيان والإعراب « ومنها « المفاتيح القراطيسية ، في شرح الشقراطيسية » و « المفاتيح المرزوقية ، في استخراج رجز الخزرجية » ورجز في علوم الحديث سماه « الروضة » ومختصره في رجز سماه « الحديقة » ورجز في الميقات سماه « المقنع الشافي » مشتمل على ألف وسبعائة بيت ، و « نهاية الأمل ، في شرح الجمل » أي جمل الخونجي ، و « اغتنام الفرصة ، في محادثة عالم قفصه » وهو أجوبة عن مسائل في فنون العلم وردت عليه من علامة قفصة أبي يحيى بن عقبة فأجابه عنها ، و « المعراج » ، إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج « في كراسه ونصف ، أجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية ، و « أنوار اليقين ، في شرح حديث أولياء الله المتقين » وهو حديث أول حلية أبي نعيم ^(١) في شأن البدلاء وغيرهم ، و « الدليل المومي ، في ترجيح طهارة السكاغد الرومي » و « النصيح الخالص ، في الرد على مدعى رتبة الكامل الناقص » في سبعة كرايس ، ردَّ به على عصره الإمام أبي الفضل قاسم العقباتي في فتواه في مسألة الفقراء الصوفية لما صوب العقباتي صنيعهم ، وخالفه هو ، و « مختصر الحاوي في الفتاوى » لابن عبد النور ، و « الروض البهيح ، في مسائل الخليج » و « أنوار الدراري ، في مكررات البخاري » ورجز تلخيص ابن البناء ،

(١) يريد « حلية الأولياء » الذي ألفه الحافظ أبو نعيم الأصفهاني

ورجز تلخيص المفتاح ، نظمه في حال صغره ، ورجز « حرز الأمانى » ورجز تجل الخونجى ، ورجز اختصار ألفية ابن مالك ، وتأليفه في مناقب شيخه المصمودى ، وتفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء ، وهذه كلها تامة .

وأما ما لم يكمل من تأليفه فالمتجر الريح والسعى الرجيع والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح ، وروضة الأريب في شرح التهذيب ، والمنزعة النبيل في شرح مختصر الخليل ، شرح منه كتاب الطهارة في مجلدين ، ومن الأفضية إلى آخره في سفرين ، وإيضاح السالك ، على ألفية ابن مالك ، إلى أسم الإشارة أو الموصول مجلد كبير في قدر شرح المرادى ، وشرح شواهد شراح الألفية إلى باب « كان » مجلد ، وله خطب عجيبة .

وأما أجوبته وفتاويه على المسائل المنوعة فقد سارت بها الركبان شرقا وغربا بدوا وحضرا ، وقد نقل المازونى والواشريسى منها جملة وافرة .

ومن تأليفه أيضا عقيدته المسماة « عقيدة أهل التوحيد » ، المخرجة من ظلمة التقليد ، و « الآيات الواضحات » ، في وجه دلالة المعجزات ، و « الدليل الواضح المعلوم » ، في طهارة كاعد الروم ، و « إسماع الصم » ، في إثبات الشرف من قبل الأم ، وذكر السخاوى أن من تواليفه شرح ابن الحاجب الفرعى ، وشرح التسميل ، انتهى .

ومولده كما ذكرنا في شرحه على البردة ليلة الاثنين رابع عشر ربيع الأول عام ستة وستين وسبعمائة قال : حدثتني أمى عائشة بنت الفقيه الصالح القاضى أحمد بن الحسن المديونى ، وكانت من الصالحات ألفت مجموعا على أدعية اختارتها ، وكانت لها قوة على تعبير الرؤيا اكتسبتها من كثرة مطالعتها لكتب الفن ، أنه أصابنى مرض شديد أشفيت منه على الموت ، ومن شأنها وأبيها أنهما لا يعيش لها ولد إلا نادرا ، وكانوا أسمونى أبا الفضل أول الأمر ، فدخل عليها أبوها أحمد المذكور ، فلما رأى مرضى وما بلغ بنى غضب وقال : ألم أقل لكم لا تسموه أبا الفضل ، ما الذى

رأيتهم له من الفضل حتى تسموه أبا الفضل ؟ سموه محمدا ، لا أسمع أحداً يناديه بغيره إلا فعلت به وفعلت ، يتوعد بالأدب ، قالت : فسميناك محمدا ، فمرج الله عنك ، انتهى .
ومن فوائده ما حكى في بعض فتاويه قال : حضرت مجلس شيخنا العلامة نخبة الزمان ابن عرفة رحمه الله تعالى أول مجلس حضرته فقراً (ومن يَعْشُ ^(١)) عن ذكر الرحمن) فخرى يفتننا مذاكرات رائقة ، وأبحاث حسنة فائقة ، منها أنه قال : قرىء (يعشو) بالرفع و (نُقِيضُ) بالجرم ، ووجهها أبوحيان بكلام ما فهمته ، وذكر أن في النسخة خلا ، وذكر بعض ذلك الكلام ، فاهتديت إلى تمامه فقلت : يا سيدى ، معنى ما ذكره أن جزم (نُقِيضُ) بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تضمنت من معنى الشرط ، وإذا كانوا يعاملون الموصول الذى لا يشبه لفظه لفظ الشرط بذلك فما يشبه لفظ الشرط أولى بتلك المعاملة ، فوافق رحمه الله تعالى وفرح ، لما أن الإنصاف كان طبعه ، وعند ذلك أنكر على جماعة من أهل المجلس وطالبونى بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط ، فقلت : نصهم على دخول الفاء في خبر الموصول في نحو « الذى يأتينى فله درهم » من ذلك ، فنازعونى في ذلك ، وكنت حديث عهدٍ بحفظ التسهيل ، فقلت : قال ابن مالك فيما يشبه المسألة : وقد يجزم متسبب عن صلة الذى تشبها بجواب الشرط ، وأنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر :

كذلك الذى يبنى على الناس ظالماً تُصِيبُهُ عَلَى رَغَمِ عَوَاقِبُ مَا صَنَعَ
فجاء الشاهد موافقاً للحال ، انتهى بنقل تلخيصه المازونى .

(١) يعش عن ذكر الرحمن : يصدف عنه وينصرف إلى غيره ، ونقيض : نهى ، و « من » في صدر الآية يجوز أن تكون شرطية فالفعلان مجزومان ، ويجوز أن تكون موصولة فالفعلان مرفوعان ، فإذا قرىء (يعشو) بالرفع و (نقيض) بالجرم ، كما حكى ، احتاجت هذه القراءة إلى التخريج ، وهو ما ذكره

وقد ذكر الشيخ ابن غازي الحكاية في فهرسته في ترجمة شيخه الأستاذ الصغير، وفيها بعض مخالفة لما تقدم، فلنسقه، قال : حدثني أنه بلغه عن ابن عرفة أنه كان يدرس من صلاة الغداة إلى الزوال، يقرأ فنونا، ويتبدىء بالتفسير، وأن الإمام ابن مرزوق أول ما دخل عليه وجده يفسر هذه الآية (ومن يعش عن ذكر الرحمن) فكان أول ما فاتحه أن قال له : هل يصح كون (من) هنا موصولة؟ فقال ابن عرفة : كيف وقد جزمت؟ فقال له : تشبيها لها بالشرط، فقال ابن عرفة : إنما يقدم على هذا بنص من إمام أو شاهد من كلام العرب، فقال : أما النص فقول التسهيل كذا، وأما الشاهد فقول الشاعر :

فلا تحفرن بئراً تريد أخابها فإنك فيها أنت من دونه تقع^(١)

كذلك الذي ينبغي على الناس ظالماً تصبّه على رغم عواقب ماصنع

فقال ابن عرفة : فأنت إذا ابن مرزوق، قال : نعم، فرحب به، انتهى . وهو خلاف ما تقدم، والأول أصوب لنقل غير واحد أن جزم الموصولات إنما يكون في الجواب، لافي الشرط، والله تعالى أعلم .

وفي بعض الجامع أن ابن عرفة اشتغل بضيافته لما انفصل المجلس .

ومن فوائده أنه كان يصرف لفظ « هريرة » من « أبي هريرة » بناء على أن جزء العلم غير علم، وخالفه أهل فاس في ذلك لما بلغهم، ومال الأستاذ الصغير والحافظ القورى إلى منع الصرف لوجوه ليس هذا موضعها، ومنها قول ابن مالك

* ولا ضطرار كَبَنَاتِ الأوبر *

فإنه مؤذن بأن جزء العلم علم، وقد ألف في المسألة أبو العباس تأليفا سماه « الاعتراف »، في ذكر ما في لفظ أبي هريرة من الانصراف « انتهى .

ومن نظمه :

(١) أخذ هذا البيت من قولهم « من حفر بئراً لأخيه وقع فيها »

بلد الجدار ما أمر نواها كلف الفؤاد بحبها وهوها

يا عاذلى كن عاذرى فى حبها يكفيك منها ماؤها وهوها

ويعنى ببلد الجدار تلمسان ، ولذلك قال فى رجز فى علم الحديث ما صورته :

وأهلها أهل ذكاء وفطن فى رابع من الأقاليم قُطْنُ (١)

يكفيك أن الداودى بهادفن مع ضجيعه ابن غزلون الفطن

قلت : وحدثنى عمى الإمام سيدى سعيد المقرئ - رحمه الله تعالى ! - أن العلامة

ابن مرزوق لما قدم تونس فى بعض الرسائل السلطانية طلب منه أهل تونس أن يقرأ

لهم فى التفسير بحضرة السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وعينوا له محل البدء ، فطالع

فيه ، فلما حضروا قرأ القارى غير ذلك ، وهو قوله تعالى (فثله كمثل الكلب - الآية)

وأرادوا بذلك إفحام الشيخ ، والتعريض به ، فوجم هنيهة ، ثم تفجر بينابيع العلم ،

إلى أن أجرى ذكر ما فى الكلب من الخصال الحمودة ، وساقها أحسن مساق ، وأنشد

عليها الشواهد ، وجلب الحكايات ، حتى عدَّ من ذلك جملة ، ثم قال فى آخرها :

فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله ، غير أن فيه خصلة ذميمة ، وهى

إنكاره للضيف ، ثم افترق المجلس ، وأخبرنى أنه أطل فى ذلك المجلس من الصبح

إلى قرب الظهر ، وقد طال عهدى بالحكاية ، وإنما نقلتها بمعناها من حفظى ،

وهى من الغرائب . ولولا الإطالة لذكرت ما وقع له مع بعض علماء برصة فى الحجاز

حسبما ذكره فى مناقب شيخه المصمودى ، رحم الله الجميع ! .

رجع إلى ذكر مشايخ لسان الدين ، فنقول :

ومن مشايخ لسان الدين الرئيس أبو الحسن على ابن الجياب ، وهو كافي

أبو الحسن

ابن الجياب

(١) فطن - بكسر الفاء وفتح الطاء - جمع فطنة ، وهى توقد الذهن والتنبه

إلى غوامض الأمور ، وقطن - بالبناء للمجهول - سكن

« الإحاطة » على بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن الحسن ، الأنصاري ،
الغرناطي ، أبو الحسن ، قال : وهو شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ . ومن مشايخه
أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي ، وخلق ، قال : وقد دونت شعره ،
فمن معشراته قوله في حرف الجيم :

جرباً على الزلّات غير مفكر	جباناً على الطاعات غير معرج
جمعت لما يفتي اغتراراً بجمعه	وضيعت ما يبق سجية أهوج
جنوناً بدار لا يدوم سرورها	فدعها سدى ليست بعشك فاذرجي ^(١)
جياذك في شاو الضلال سوابق	تفوت مدى سن الوجيه وأعوج ^(٢)
جهلت سبيل الرشـد فاقصد دليله	تجد دار سعد بابها غير مرتجـ
جناب رسول ساد أولاد آدم	وقرب في السبع الطباق بمعرجـ
جمال أنار الأرض شرقاً ومغرباً	فكل سنى من نوره المتبلجـ
جلا صدأ المرتاب أن سبـح الحصى	لديه بنطق ليس بالمتلجلجـ
جعلت امتداحي والصلاة عليه لى	ومائل تحطيني بما أنا مرتجـ

وقال من الأغراض الصوفية السلطانية :

هات اسقنى صِرْفاً بغير مزاج	راحي التي هي راحتي وعلاجي
إن صب منها في الزجاج قطرة	شفّ الزجاج عن السنى الوهاج
وإذا الخليع أصاب منها شربة	حاجاه بالسر المصون مُحاجي
وإذا المرید أصاب منها جرعة	ناجاه بالحق المبين مناجي
تاهت به في مهمه لا يهتدى	فيه لتأويب ولا إدلاج
يرتاح من طرب بها فكأنما	غنته بالأرمال والأهزاج

(١) وزد في مثل قولهم « ليس بعشك فاذرجي » يضرب لمن يقحم نفسه فيما ليس من شأنه

(٢) الوجيه وأعوج : فرسان من جباد خيل العرب

هبت عليه نفحة قدسية في فناء باب دائم الإرتاج^(١)
فإذا انتشى يوماً وفيه بقية سارت به قصداً على المنهاج
وإذا تمكن منه سكرٌ مُعَرِّدٌ فليصبرن لمصرع الخلاج
قصرت عبارة فيه عن وجدانه فعدا يفيض بمنطق جَلَّاج
أعشاه نور للحقيقة باهر فتراه يخبط في الظلام الداجي
رام الصعود بها لمركز أصله فرمت به في بحرها الموج
فلئن أمد برحمة وسعادة فليخلصن من بعد طول هياج
وليرجعن بغنيمة موفورة ما شيبَ عَذْبُ شرابها بأجاج^(٢)
ولئن تحطاه القبول لما جنى فليرجعن نكساً على الأدراج
ما أنت إلا درة مكنونة قد أودعت في نطفة أمشاج^(٣)
فاجهد على تخليصها من طبعها تعرج بها في أرفع المعراج
وأشدد يديك معاً على حبل التقى فإن اعتصمت به فأنت الناجي
ولدى العزيز أبسط بساط تذلل وإلى الغنى أمدد يد المحتاج
هذا الطريق له مقدمتان صا دقتان أنتجتا أصح نتاج
فاجمع إلى ترك الهوى حمل الأذى واقنع من الإسهاب بالإدماج
حرفان قد جمعا الذي قد سطروا من بسط أقوال وطول حجاج
والمشرب الأصفي الذي من ذاقه فقد اهتدى منه بنور سراج
أن لا ترى إلا الحقيقة وحدها والكل مضطر إليها لاجي
هذي بدائع حكمة أنشأتها بإشارة المولى أبي الحجاج
وسع الأنام بفضلها وبعدها وبحمله وبجوده الثجاج

(١) أرتج الباب : أوصده وأغلقه (٢) الماء الأجاج - بالضم - الملح

(٣) نطفة أمشاج : مختلطة ، وصفت بالجمع كما في قولهم : ثوب أخلاق ، وبرد

أعمال ، وبرمة أعشار ، وفي القرآن الكريم (من نطفة أمشاج) (٧)

من آل نصر نخبه الملك الرضا
من آل قيلة ناصري خير الوري
ماذا أقول وكل قول قاصر
منه لباغى العُرفِ در فاخر
دامت سعودك في مزيد ، والمنى
وقال من المطولات :

لمن المطايا في السراب سوابحا
عُوجٌ كأمثال القسيّ ضوامر
وقال يمدح ، ويصف مصنعاً سلطانياً :

زارت تبحر لنحوه أذيالها
فالشمس من حسد لها مصفرة
وافتك تمزج لينها بقساوة
كم رمت كتم مزارها لكنه
تركت على الأرجاء عند مسيرها
ما واصلتك محبة وتفضلا
لكن توقعت السلو فجددت
فوجها قسما يحق بروره
حسنت نظم الشعر في أوصافها
يا حسن ليلة وصلها ، ما ضرها
لما سكرت بريقها وجفونها

هيفاء تخلط بالنفار دلالها
إذ قصرت عن أن تكون مثالا
قد أدرجت طي العتاب نوالها
صحت دلائل لم تطق إعلاها
أرجاً كأن المسك فتّ خلاها
لو كان ذاك لواصلت أفضالها
لك لوعة لا تتقى ترحالها
لتجشمنك في الهوى أهوالها
إذ قبحت لك في الهوى أفعالها
لو أتبعته من بعدها أمثالها
أهملت كأسك لم ترد إعمالها

- (١) فاجى : أصله فاجي - بالهمز - فسهلت الهمزة يقلبها ياء ، وفاجىء : اسم فاعل من « فجأه يفجؤه » إذا باغته وجاءه فجأة .
- (٢) عوج : جمع أعوج ، وأراد انحناء ظهورهن من طول ما سارت ، وتشبيه المطايا بالقسي كثير في شعر العرب ، ومرمي : مكان الرمي ، ونازحا : بعيدا .

هذا الربيع أذاك ينشر حسنه فافسح لنفسك في مداه محالها
واخلع عذارك في البطالة جامحاً وأقرن بأسحار الهنا أضالها
في جنة تجلو محاسنها كما تجلو العروس لدى الزفاف جمالها
شكرت أيادي للحياشكر الوري شرف الملوك همامها مفضالها
وصميمها أصلاً وفرعاً خيرها ذاتا وخلقاً سمحها بذالها^(١)
الطاهر الأعلى الأمين المرتضى بحر المكارم غيثها سلسالها
حاز المعالي كابرًا عن كابر وجرى لغايات الكرام فنالها
إن تلقه في يوم بذل هبانه تلقى الغمام أرسلت هطالها^(٢)
أو تلقه في يوم حرب عداته تلقى الصراغم فارقت أشبالها
ملك إذا ماصال يوما صولة خلت البسيطة زلزلت زلزالها
فبسنينه وبسيفه نلت المنى واستعجلت أعداؤه آجالها
الواهب الآلاف قبل سؤالها فكفا العفاة سؤالها ومطالها
والقاتل الآلاف قبل قراعها فكفى العداة قراعها ونزالها
إن قلت بحر كفه قصرت إذ شبت بالملح الأجاج نوالها
ملا البسيطة عدله وأمانه فالوحش لا تعدو على من غالها^(٣)
وسقى البرية فيض كفيه فقد عم البلاد سهولها وجبالها
جمع العلوم عناية بعيونها آدابها وحسابها وجدالها
منقولها معقولها، وأصولها وفروعها، تفصيلها وإجمالها
فإذا عفاتك عاينوك تهللوا لما رأوا من كفك استبالها
وإذا عداتك أبصروك تيقنوا أن المنية سلطت ريبالها^(٤)

(١) بذال : صيغة مبالغة لبذل ، وتقول : بذل بينذل - من باب نصر - أى أعطى

(٢) هطال : صيغة مبالغة هاطل ، وتقول «هطل المطر» من باب جلس - إذ اتتابع

(٣) تعدو : تسطو ، وغالها : أراد قتلها (٤) الريال : الأسد

بددت شملهم ببيض صوارم
 وأبحت أرضهم فأصبح أهلها
 فتحت إمارتك السعيدة للورى
 وبنت مصانع رائقات ذكّرت
 وأجلها قدراً وأرفعها مدى
 هو جنة فيها الأمير مخلد
 ولأرض أندلس مفاخر أنتم
 فحيمتمو أرجاءها ، وكفيمتمو
 فبال نصرٍ فاخرت لا غيرهم
 بمحمد ومحمد ومحمد
 فهم الألى ركبو الكل عظيمة
 وهم الألى فتحوا لكل ملّة
 متقلدون من السيوف عضابها
 الراكون من الجياد غرابها
 أو عهد المسلمين ونخبّة الأملاك صفوة مخضها وزلاها
 إن العباد مع البلاد مُقرّة
 فتفكّ عانيها وتحى سربها
 وقال يرثى ولده أبا القاسم رحمه الله تعالى :

هو البين حتما ، لا لعل ولا عسى
 وما لِقُوا دى لم يذب منه حسرة
 فما بال نفسى لم تفيض عنده أسى
 فتبّا لهذا القلب سرّ عان ما قسا

- (١) العلق ، هنا : الدم ، والكلمة : جمع كى ، وهو الفارس المتكى (المتغطى) بسلاحه
 (٢) خورا : جينا ، وهو مصدر منصوب على أنه مفعول لأجله
 (٣) أضفيم سربها : جعلتم ثوبها ضافيا ، أى ساترا يغطي كل الجسم ، وهو محجاز
 (٤) الأقيال : جمع قيل ، وهو الذى يقول فلا يحسر أحد أن يرد قوله

وما جفوني لا تفيض مَوْرَدًا
وما للسانى مفصلاً بخطابه
أمن بعدما أودعت روحى فى الثرى
وبعد فراق ابنى أبى القاسم الذى
أؤمل فى الدنيا حياة وأرتضى
فأها والمفجوع فيها استراحة
على عُمرٍ أُنيت فيه بضاعتى
ظلمت به فى غفلة وجهالة
إلى الله أشكو بَرَحَ حزنى فإنه
وهدةً خطب نازلتنى عشية
فقد صدّعت شملى وأصمت مقاتلى
ثبت لها صبرا لشدة وقعها
وأطمع أن يلقى برحمته الرضا
أبا القاسم اسمع شكوى والدك الذى
وقفت فوادى مذرحت على الأسى
وقطعت آمالى من الناس كلهم
تواريت يا شمسى وبدرى وناظرى
وخلفت لى عبثاً من الشكل فادحا
أحقاوى ذاك الشباب فلا أرى
فيا غصناً نضراً ثوى عندما استوى

من الدمع يهيم تارة ومورساً^(١)
وما كان لوأوفى بهد لينبسا^(٢)
ووسدت منى فلذة القلب مرماً^(٣)
كسائى ثوب الشكل لا كان ملبسا
مقيلاً لدى أبنائها ومعرباً^(٤)
ولا بد المصدور أن يتنفسا
فأسلمنى للقبر حيران مفلسا
إلى أن رمى سهم القراق فقرطسا
تلبس منه القلب ما قد تلبسا
فما أغنت الشكوى ولا نفع الأسا
وقد هدمت ركنى الوثيق للمؤسسا
فما زلزلت صبرى الجليل وقدرسا
وأجزع أن يشقى بذنب فينكسا
حسا من كؤوس البين أفضع ماحسا
فأشهد لا ينفك وفقاً محبسا
فلست أبالى أحسن المرة أم أسا
فصار وجودى مذتواريت جندسا
فما أتعب الثكلان نفساً وأتعسا
له بعد هذا اليوم حولى مجلسا
فأوحشنى أضعاف ما كان آسا

- (١) مورد : أخذلون الورد وهو الجمرة ، ومورس : أخذلون الورس وهو الزعفران
(٢) نبس فلان : نطق ، و « لم ينبس فلان بينت شفة » لم ينطق بكلمة واحدة
(٣) مرماً : موضوعاً فى الرمس ، وهو القبر . (٤) المقيلاً : المسكان ثقيل
فيه وقت القيولة (نصف النهار عند اشتداد الحر) والمعرس : المسكان تنزل فيه ليلاً

ويا نعمة لما تبلعتها انقضت
فأنعمُ أحوالى بها صار أباسا
لوَدَّعْتُهُ والدمع نهى سحابه
كما أسلم السلك الفريد الخمسا
وقبلت في ذاك الجبين مودعا
لأكرم من نفسى على وأنفسا
وحققت من وجدى به قرب رحلتى
وما ذاعسى أن ينظر الدهر من عسا^(١)
فيارحمة للشيب يبكى شيبه
قياسُ لعمرى عكسه كان أقيسا
فلو أن هذا الموت يقبل فدية
حبونه أموالا كراما وأنفسا
ولكنه حكم من الله واجب
يُسَلِّمُ فيه من بخير الورى اثنتى^(٢)
تعمدك الرحمن بالعفو والرضا
وكرم مثواك الجديد وقديسا
وألف منا الشمل في جنة العلا
فنشرب تسنما ونلبس سندسا
وكتب إلى القاضي الشريف وهو بوادى آش :
أهزلا وقد جدَّت بك اللمة الشمطا
وأمنّا وقد ساورت يا حية رَقَطَا^(٣)
أغرّك طول العمر في غير طائل
وسرّك أن الموت في سيره أبطا^(٤)
رويداً فإن الموت أسرع وافدٍ
على عمرك القانى ركائبه خطا
فإذ ذاك لا تستطيع إدراك ماضى
بحال ، ولا قبضاً تطيق ولا بسطا
تأهّب فقد وانى مشيبك منذراً
وها هو فى فؤديك أحزفه خطا
فراققت منه كاتب السرواشيا
له القلم الأعلى يخط به وخطا
معنى كتاب فكّه «أحذر» فهذه
سفينة هذا العمر قاربت الشطا
وإن طالما خاضت به اللجج التى
خبطت بها فى كل مهلكة خطا
ومازلت فى أمواجه متقلبا
فأونة رفــــما وأونة خطا
فقد أوشكت تلقيك فى قعر حفرة
تشد عليك الجانبين بها ضغطا

(١) عسا الرجل يعسو : شاخ وكبر . (٢) اثنتى : اثنى .

(٣) اللمة الشمطا : التى وخطها الشيب ، والحية الرقطاء : المرقشة ، وهى من أخبث الحيات .

(٤) أبطا : أصله أبطأ ، أى تأخر .

ولست على علم بما أنت بعدها
وأعجب شيء منك دعواك في النهي
قسطت عن الحق المبين جهالة
وطاوعت شيطانا تجيب إذا دعا
تناءى عن الأخرى وقد قربت مدى
وتمنحها حباً وفرط صبراً
(٦) فما أنت تهوى وصلتها وهى فارك
صراط هدى نكبت عنه عماية
فمالك إلا السيد الشافع الذى
دليل إلى الرحمن ، فانهج سبيله
بحبته شرط القبول ، فمن خلت
(٧) وما قبلت منه لدى الله قرينة
به الحق وضاح ، به الإفك زاهق
هو الملجأ الأحى هو المونل الذى
لقد ما زجت روحى بحبته التى
إليك ابن خير الخلق بنت بديهية
وحيدة هذا العصر وافت وحيدة
وتتلو آيات التشيع — إنها
لك الشرف الماثور يا ابن محمد
إلى شرفى دين وعلم تظاهراً

ملاق، أرضوانا من الله أم سخطاً؟
وهذا الهوى المردى على العقل قد غطى
وقد خالفتك النفس فأدعت القسطاً (١)
وتقبل إن أغوى وتأخذ إن أعطى
تدانى من الدنيا وقد أزمعت شحطاً (٢)
وما منحت إلا القتادة والخرطاً (٣)
وتأمل قرباً من حماها وقد شطا
ودارردى أودعت فى سجنها سوطاً
له فضل جاه كل ما يرزحى يعطى
فمن حاد عن نهج الدليل فقد أخطأ
صحيفته منها فقد فقد الشرطاً
ولا زكت الأعمال ، بل جلبت خبطاً
به الفوز مرجو ، به الذنب قد حطاً
به فى غد يستشفع المذنب الخطأ
بقلى خطت قبل أن أعرف الخطأ
تقبل تبجيلاً أنا ملك السبطا
لتبسط من شتى بدائعها بسطاً
لموثقة عهداً ومحكمة ربطاً
وحسبك أن تنمى إلى سبطه سبطاً
تبارك من أعطى وبورك فى المعطى

(١) قسطت : جرت وانحرفت ، وفى التنزيل : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) . (٢) الشحط : البعد (٣) يشير إلى قولهم فى مثل « دون هذا خرط القتاد » والقتاد — بفتح القاف — الشوك ، وخرطه : أن تملطه بيدك .

ورعطك أهل البيت بيت محمد
بعثت به عقدا من الدر فاخرا
وأهديت منها للسيادة غادة
وحاشيتها من كل ماشائها ، فإن
وفي الطيبين الطاهرين نظمها
عليك سلام الله ما ذرَّ شارق
فأعظم به بيتا وأكرم به رهطا
وذكر رسول الله درته الوُسْطَى^(١)
نظمت من الدر الثمين بها سَمْطًا
تجعد حُوشِي تجد لفظها سبطا
فساعدَها من أجل ذلك حرف الطاء
وما رددت ورقاء في غصنها لفظا^(٢)

وقال :

لله عصر الشباب عصرا
حَفِظْتُ ماشتت فيه حفظا
حتى إذا ما المشيب وافي
لا تعتنوا بعدها بحفظ
فَتَحَّ للخير كل باب
كنت أراه بلا ذهاب
نَدَّ وليكن بلا إياب^(٣)
وقيدوا العلم بالكتاب

وقال :

يا أيها المسك البخيل
أنفق وثق بالإله ترَبِّحْ
وقدم الأقربين واذكر
إلهك المنفق الكفيل
فإن إحسانه جزيل
مارُويَ ابداً بمن تعول^(٤)

وقال :

وقائلة لم عراك المشيب
فقلت لها لم أشب كبرة
ولكنه الهم نصف الهم
وما إن بعهد الصبا من قدم

وقال :

أيعتادني سقم وأنت طيب
وتبعد آمالي وأنت قريب

(١) وسطى حبات القلادة : أكبرها ، وأفضلها جوهرها ، وأنفسها .
(٢) ذر : طلع ، والشارق : كل ما أضاء من نجم أو بدر . (٣) ند : شرد ونفر
(٤) يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام « ابدأ بنفسك ، ثم بمن تعول » .

يقينى أن الله جل جلاله يقينى فراحى الله ليس يخيب^(١)

وقال :

هى النفس إن أنت ساحتها رمت بك أقصى مهاوى الخديعة
وإن أنت جشمتها خطية تنافى رضاها تجدها مطيعه
فإن شئت فوزا فناقض هواها وإن واصلتك أجزها القطيعه
ولا تعبأن بميعادها فميعادها كسرآب بقيقه

وقال :

من أنت يا مولى الورى مقصوده طوبى له قد ساعدته سعوده
فليشهدنك له فؤاد صادق وشهوده قامت عليه شهوده
وليفنين عن نفسه ورسومه طراء وفى ذاك الفناء وجوده
وليحفظنه بارق يرقى به فى أشرف المعراج ثم يعيده
حتى يظل وليس يدرى دهشة تقريبه المقصود أم تبعيده
لكنه ألقى السلاح مسلما فراده ما أنت منه تريده
فلقد تساوى عنده إكرامه وهوانه ومفيده ومبيده

وقال ملغزا فى حجل :

حاجيت كل فطن لبيب ما اسم لأنثى من بنى يعقوب
ذات كرامات فزرها قرينة فزورها أحق بالتقريب
تشرکہا فى الأسم أنثى لم تزل حافظه لسرها المحجوب
وقد جرى فى خاتم الوحي الرضا لها حديث ليس بالمكذوب
وهو إذا ما الفاء منه صحفت صبغ الحياء لا الحيا المسكوب

(١) اليقين فى أول البيت : الإدراك الجازم ، ويقينى فى أول النصف الثانى مضارع « وقاه الله وقاية » أى حفظه ، وبين اللفظين جناس تام

فهاكها واضحة أسرارها فأمرها أقرب من قريب
وقال أيضا في آب :

حاجيتكم ما نسّم عَلمَ ذونسبة إلى العجم
يخبر بالرجعة وهو راجع كما زعم
وصف الحبيب هو بالتصنيف أو بدء قسم
دونكه أوضح من نار على رأس علم

وقال في كانون :

وما اسم لسميين ولم يجمعهما جنس^(١)
فهذا كلما يأتي فبالآخر لى أنس
وهذا ماله شخص وهذا ماله حس
وهذا ماله سَوَم وذا قيمته فلس
وهذا أصله الأرض وهذا أصله الشمس
وهذا واحد من سبعة تحيا بها النفس
فمن محموله الجن ومن موضوعه الإنس
فقد بان الذى ألغز ت ما فى أمره لبس

وقال فى سلم :

ما اسم مركب مفيد الوضع مستعمل فى الوصل لا فى القطع
ينصب لكن أكثر استعمال من يعنى به فى الخفض أو فى الرفع
هو إذا خففته مغيرا تراه شملا لم يزل ذا صدع
فالاسم إن طلبته تجده فى خامسة من الطوال السبع

(١) الكانون : موقد النار ، وكانون : شهر من الشهور الرومية يحىء فى الشتاء ، فهذان سمياء ، وإذا جاء شهر كانون كان له بكانون النار أنس ، فتفهم ذلك

وهو إذا صحفته يعرب عن مكسر في غير باب الجمع
له أخ أفضل منه لم تزل آثاره محمودة في الشرع^(١)
هما جميعاً من بنى النجار والأفضل أصل في حنين الجذع
فهاكه قد سطعت أنواره لاسيما لكل ذاكي الطبع
وقال في مائدة :

حاجيت كل فطن نظار ما اسم لأشئ من بنى النجار
وفي كتاب الله جاء ذكرها فقلما يفعل عنها القارى
في خبر المهدي فاطلبها تجد إن كنت من مطالعي الأخبار
ماهى إلا العيد عيد رحمة ونعمة ساطعة الأنوار
يشرکہا في الاسم وصف حسن من وصف قضب الروضة المعطار
فهاكه كالشمس في وقت الضحى قد شق عنها حجب الأستار
ثم قال لسان الدين : وأما نثره فمطولات عرفت بما تخللها من الأحوال
متونها ، وقلت لمكان البديهة والاستعجال عيونها ، وقد اقتنصت جزءاً منها سميتها
« تافه من جم ، ونقطة من يم » وولد بفرناطة في جمادى الأولى عام ثلاثة
وسبعين وثمانئة ، وتوفي ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من شوال عام تسعة وأربعين
وسبعائة ، وأنشدت من نظمي في رثائه خامس يوم دفنه على قبره هذه القصيدة :
ما للبراع خواضع الأعناق طرّق النعى فمن في إطراق
وكأنما صبغ الشحوب وجوهها والسقم من جزع ومن إشفاق
ما للصحائف صوّحت روضاتها أسفا وكن نضيرة الأوراق
ما للبيان كؤسه مهجورة غفل المدير لها ونام الساق

(١) الأخ الأفضل هو المنبر ، وآثاره وهى المواعظ محمودة في الشرع ، والسلم
والمنبر جميعاً من عمل النجار ، والمنبر أصل في حنين الجذع لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فإنه حينما صنع له المنبر ورقاه أول مرة سمع للجذع الذى كان يخطب عليه قبل
حنين ، فترل عليه الصلاة والسلام من المنبر والترم الجذع وضمه ، فسكن

مالي غدت تجلدى وتصبرى
خطب أصاب بنى البلاغة والحجا
أما وقد أودى أبو الحسن الرضا
كنز المعارف لا تبيد نقوده
منّ للبدائع أصبحت سمر السرى
منّ للبراع يحيل من خطيها
قُضِبَ ذوابل مشرات بالمنى
منّ للرقاع الحمر يجمع حسنها
تقتال أحشاء العدو كأنها
وتهزُّ أعطاف الولي كأنها
منّ للفنون يحيل في ميدانها
منّ للحقائق أبهمت أبوابها
منّ للمساعى الغر تقصد جاهه
كم شد من عقدي وثيق حكمه
رُخِبَ الذراع بكل خطب فادح
صعب للمقادة في الهوادة والهوى
ركب الطريق إلى الجنان وخورها
فأعجب لأنس في مظنة وحشة
أمطياً بمحامد العمل الرضا
ما كنت أحسب قبل نعشك أن أرى

والصبر فى الأزمت من أخلاقى^(١)
شب الزفير به عن الأطواق^(٢)
فالفضل قد أودى على الإطلاق
يوما ولا تنفى على الإنفاق
ما بين شام للورى وعراق
سم العدا ومفتاح الأرزاق
وأراقم ينفثن بالـترياق
خجل الخدود وصبغة الأحداق
صفحات دامية الغرار رقاق
راح مشعشة براحة ساق
خيل البيان كريمة الأعراق
للناس يفتحها على استغلاق
حرما فينصرها على الإخفاق
فى الله أو أفتى بحـل وثاق
أعيت رياضته على الحذاق
سهل على العافين والطراق
يلقينه بتصافح وعنـاق
ومقام وصل فى مقام فراق
ومكفنا بمكارم الأخلاق
رضوى نسير به على الأعناق

(١) التجلدى : تكلف الصبر ، والأزمت : جمع أزمة ، وهى كل ما نزل فشق

التخلص منه

(٢) أخذ هذه العبارة من قولهم فى مثل « شب عمرو عن الطوق » أى لم يعد

الطوق يصلح له

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى
 يا كوكب الهدى الذى من بعده
 يا واحداً مهما جرى في حلبة
 يا ثاويًا بطن الصريح وذكُرُهُ
 يا غوثاً من وصل الصريح فلم يجد
 ما كنت إلا ديمة منشورة
 ما كنت إلا روضة ممطورة
 يا مزماً عفا العشى ركابه
 رفقا أبانا جل ما حملتنا
 واسمح ولو بمزار لقي في الكرى
 وإذا اللقاء تصرمت أسبابه
 عجباً لنفس ودعتك وأيقنت
 ما عذرها إن لم تقاسمك الردى
 إن قصرت أجفاننا عن أن ترى
 واستوقفت دهشاً فإب قلوبنا
 ثق بالوفاء على المدى من فتية
 سَجَعَتْ بما طوقتها من منة
 تبكى فراقك خلوة عمرتها
 أما الثناء على غلاك فذائع
 والله قد قرن الثناء بأرضه

أن اللحد خزائن الأعلاق^(٢)
 ركد الظلام بهـ هذه الآفاق
 جلى بغرة سـ ابق السَّبَّاقِ
 أبداً رفيقُ ركائب ورفاق
 في الأرض من وزر ولا من واق
 من غير إرعاد ولا إراق^(٢)
 ما شئت من ثمر ومن أوراق
 هلا ثَوَيْتَ ولو بقدر فُواق^(٣)
 لا تنس فينا عادة الإشفاق
 تُبْقِي بها منا على الأرقام
 كان الخيال تَعَلَّةَ المشتاق
 أن ليس بعد نَوَاكٍ يوم تلاقى
 في فضل كأس قد شربت دِهَاقِ
 تبكى النجيع عليك باستحقاق
 نهضت بكل وظيفة الآماق
 بك تقتدى في العهد والميثاق
 حتى زَرَتْ بحائِمِ الأطواق
 بالذكر في طفّل وفي إشراق
 قد صح بالإجماع والإصفاق
 بثنائه من فوق سبع طباق

(١) اللحد : أراد القبور ، والأعلاق : الفئاس التي يطن بها

(٢) أصل الديمة السحابة يدوم مطرها ، شبه بها ، ثم فرق بينهما بما يجعله خيراً منها

(٣) نوى : أقام ، و « قدر فواق » بضم الفاء بزنة غراب — يضرب مثلاً

في قصر المدة

جادت ضريحك ديمة هطالة تبكى عليه بواكف رَقْرَاقِ
وتعتمدتك من الإله سعادة تسمو بروحك للمحل الراقِ
صبراً بِنِي الجِيان إن فقيدكم سيسر مقدمه بما هو لاقِ
وإذا الأسى لفتح القلوب أوارهُ فالصبر والتسليم أى رواقِ (١)
وأنشد في هذا الغرض النقيه أبو عبد الله بن جُزَى :

ألم تر أن المجد أقوت معالمة فأطنابه قد قُوِّضَتْ ودعائمه
هوى من سماء العلوات شهابها وخانت جواد المسكرات قوائمه
وثلت من الفخر المشيد عروشه وفلت من العز المنيع صَوَّارمه
وعُطِّلَ من حلى البلاغة قُسُها وعُرِّيَ من جود الأنامل حاتمِه (٢)
أجل إنه الخطب الذى جل وقعه وثلم غرب الدين والعلم دَاهِمُه
وإلا فـ..... للنوم طار مَطَّارُه وما للزَّيْمِ الحزن قصت قوادمه
وما لصباح الأنس أظلم نوره وما لمحيا الدهر قَطَبَ باسمه
وما لدموع العين فُضَّتْ كأثـها فواقع زهر والجفون كَأَثمِه (٣)
قضى الله في قطب الرياضة أن قضى فشنت ذاك الشمل مَنْ هو ناظمه
ومن قارع الأيام سبعين حجة ستنبو غراره وينسـدق قائمه
وفى مثلها أعيان الطاسي طبه وضل طريق الحزم فى الرأى حازمه
تساوى جواد فى رداه وباخل فلا الجود واقيه ولا البخل عاصمه
وما نفعت رب الجياد كرامه ولا منعت منه الغنى كرامته
وكل تلاقى فالفراق أمامه وكل طلوع فالغروب ملازمه
وكيف مجال العقل فى غير مَنَفَذ إذا كان بانى مَصْنَع هو هادمه

(١) الأسى : الحزن ، والأوار - يضم الهمزة - وهجه وحره
(٢) قس الإيادى : خطيب جاهلي مشهور ، وهو مضرب المثل فى الفصاحة ،
وحاتم الطائي مضرب المثل فى الجود (٣) السكَّام : غلاف الزهر ، واحدها كلمة

لَيْبِكَ عَلِيًّا مُسْتَجِيرٌ بَعْدَهُ
 لَيْبِكَ عَلِيًّا مَأْمُوحٌ بِحَرْعِهِ
 لَيْبِكَ عَلِيًّا مُظْهِرٌ فَضْلَ نَصَحِهِ
 لَيْبِكَ عَلِيًّا مُعْتَفٍ جُودَ كَفِهِ
 لَيْبِكَ عَلِيًّا لَيْلُهُ وَهُوَ قَائِمٌ
 لَيْبِكَ عَلِيًّا فَضْلُ كُلِّ بِلَاغَةٍ
 وَشَخْصٌ ضُئِلَ الْجِسْمُ يَرْهَبُ نَفْسَهُ
 تَكْفُلُ بِالرِّزْقِ الْمَقْدَرُ لِلْوَرَى
 يَسُدُّهُ سَهْمًا وَيَنْضُوهُ صَارِمًا
 إِذَا سَالَ مِنْ شَقِيهِ سَائِلُ حَبْرِهِ
 لَيْبِكَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بِأَكْيَا
 تَقْلُدُ مِنْهُ الْمَلِكُ عَظْبَ بِلَاغَةٍ
 وَقَلْدُهُ مِثْنَى الْوِزَارَةِ فَاكْتَفَى
 فِي يَدِهِ وَهُوَ الزَّعِيمُ بِحَقِّهَا
 سَخَى عَلَى الْعَافِينَ سَهْلٌ قِيَادُهُ
 إِذَا ضَلَّتْ الْأَرْاءُ فِي لَيْلِ حَادِثٍ
 وَقَامَ بِأَمْرِ الدِّينِ وَالْمَلِكِ حَامِيَا
 وَقَدْ كَانَ نَيْطُ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالتَّقَى
 وَدَوَّخَ أَعْنَاقَ اللَّيَالِي بِهَمَةٍ
 وَزَادَ عَلَى بَعْدِ الْمَنَالِ تَوَاضَعًا
 سَقَيْتِ الْغَوَادِي ! أَيْ عِلْمَ وَحِكْمَةٍ

يَصَاحُ لَشَكْوَاهُ وَيَمْنَعُ ظَالِمَهُ
 يُرَوَّى بِأَنْوَاعِ الْمَعَارِفِ هَائِمَهُ
 يَحْلَأُ عَنْ وَرْدِ الْمَأْتَمِ حَائِمَهُ (١)
 يُوَاسِيهِ فِي أَمْوَالِهِ وَيُقَاسِمُهُ (٢)
 يَكَابِدُهُ أَوْ يَوْمُهُ وَهُوَ صَائِمُهُ
 يَخْلُدُهُ فِي صَفْحَةِ الطَّرْسِ رَاقِمَهُ
 لِيُوثِ الشَّرَى فِي خَيْمِهَا وَضَرَاعِمَهُ (٣)
 إِذَا اللَّهُ أَعْطَى فَهُوَ فِي النَّاسِ قَاسِمُهُ
 وَيَشْرَعُهُ رَحِمًا فَكُلُّ يِلَاقِمُهُ
 بِمَا شَاءَ مِنْهُ سَائِلُ فَهُوَ عَالِمُهُ
 فَتَلُكُ مَغَانِيهِ خَلَّتْ وَمَعَالِمُهُ
 يَقْدُ السُّلُوقِ الْمُضَاعَفِ صَارِمُهُ
 بِهَا أَلْمَعَى حَازِمُ الرَّأْيِ عَازِمُهُ
 بِرَاعَتِهِ وَالْمُشْرِفُ وَخَائِمُهُ
 أَبِي عَلَى الْعَادِينَ صَعْبُ شَكَائِمُهُ
 رَأَاهَا بِرَأْيٍ يَصْدَعُ الْخَطْبُ نَاجِمُهُ
 فَذُلُ مَعَادِيهِ وَضُلُ مَرَاغِمِهِ
 بِهِ وَهُوَ مَا نَيْطُ عَلَيْهِ تَمَائِمُهُ
 يَبِيتُ وَنَجْمُ الْأَفْقِ فِيهَا يَزَاحِمُهُ
 أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ تَمَّ مَكَارِمُهُ
 وَدَيْنٌ مَتِينٌ ذَلِكَ الْقَبِيرُ كَاتِمُهُ؟

(١) يَحْلَأُ - بِالْبَاءِ لِلْجَهْلِ - يَمْنَعُ وَيَطْرُدُ وَيَذَادُ (٢) الْمُعْتَفَى : طَالِبُ الْمَعْرُوفِ

(٣) اللَّيْوْثُ : الْأَسُودُ ، وَالشَّرَى : مَكَانٌ بَعِيْنُهُ مَسْكَنٌ لِلْأَسَادِ ، وَالضَّرَاعِمُ : الْأَسُودُ أَيْضًا ، وَاحِدُهَا ضَرْعَامٌ ، وَالْخَيْسُ - بَكْرُ الْحَاءِ - مَاوَاهَا

وما زال يُسْتَسْقَى بدعوتك الحيا
بكت فَقَدْكَ الْكِتَابُ إِذْ كَانَ شَمْلَهُمْ
وطوقتهم بالبر ثم سقيتهم
وبيكيتك مني ذاهبُ الصبر موجعُ
فَقِي نال منه الدهر إلا وفاءه
عليلُ الذي زُرْتُ عليه جيو به
فقد كنت ألقى الخطب منه بجنة
سأصبر مضطراً وإن عظم الأسي
وأهديك إذ عز اللقاء تحيةً
وأنشد الفقيه القاضي أبو جعفر بن جزى قصيدة أولها :
أشكماً والصبر للعهد ناكث
حديثاً أملتُهُ على الحوادثُ
وأنشد القاضي أبو بكر بن علي القرشي قصيدة أولها :

هي الآمال غايتها نفاذُ وفي الغايات تمتاز الجهاد
وأنشد الفقيه الكاتب القاضي أبو القاسم بن الحكم قصيدة أولها :

لَيَنْعَ الْحِجَابُ وَالْحِلْمُ مَنْ كَانَ نَاعِيَا ويرع العلاء والعلم من كان راعيا
وهذه ثلاث قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض ، فكان هذا التابين
غريباً لم يتقدم به عهد بالحضرة لكونها دار ملك ، والتجلة في مثل هذا مقصورة
على أولى الأمر ، انتهى ما تلخصته من ترجمته في « الإحاطة » .

ولنزد فنقول : ومن أغازه في الدرهم :

ما بغيضُ إلى الكرام خصوصاً وحبيب إلى الأنام عموماً
فأعجبوا منه كيف يحمي ويحمي ويكفُ العدا ويعفى العديماً

(١) يستقي : تطلب السقيا ، وهي الدعاء إلى الله تعالى أن ينزل المطر ، والحيا :
المطر ، وساجمه : اسم الفاعل من « سجمت السحابة الماء » من بابي نصر وضرب
إذا أسالته . (٢) جاحمه : مستعمره وملتهبه ومتوقده .

إن تغير شطريه فالأول أسم
 ويكون الثانى كبير أناس
 فإذا ما قلبت أول شطر
 فإذا ما قلبت ثانى شطر
 قلبه بعد حذفك الفاء منه
 أو صغير مستحسن لم يؤدب
 فلبين ما قتلته ولتعين
 يألف الضرع والنعام السجوماً^(١)
 حطمته حيساته تحطياً
 رد منطوق لغزه مفهوماً
 كان كفاً وليس كفاً رقيماً
 هو شيء يحلل التحريماً
 إن تعلمه يقبل التعليم
 وبه فلنقم مقاماً كريماً

وقال فى المسك :

ما طاهر طيب ولكن
 من الأطباء الحسان لكن
 نص حديث الرسول فيه
 تصحيفه بعد حذف حرف
 ما أصله من ذوى الطهارة
 إذا تأملت فيه فقاره
 شهادة تقتضى بشاره
 منزل الآهل العماره

يعنى مبنى

وقال فى فلك :

ما اسم لشيء مرّ بقي
 إذا حذفت فاء
 فى مغرب ومشرق
 كان لك الذى بقى
 وقال أيضاً فى الفنار :

ما اسم إذا حذفت منه فاء المتنوعه
 فإنه ابنة الزنا مضافة لأربعة
 يعنى ابنة الزناد ، وهى النار .

وقال فى النوم :

(١) أول شطريه هو «در» فلو غيرته بفتح أوله صار اسماً لما ينزل من الضرع وهو اللبن ولما ينزل من السحاب وهو المطر ، وثانيهما هو «هم» فلو غيرته بكسر الهاء صار وصفاً للرجل الكبير السن الذى حطمته الأيام .

ما اسم مسماه به يسقط حكم التكليف
وإن دخلت البيت بالتصحيح حق التعنيف
وإن أردت شبهه فقلبه بالتصحيح
بينه فهو في كتا بالله بادی التعريف

وقال في غزال :

حاجيتكم ما اسم شيء يروق في الوصف حسنا
له محاسن شتى منها فرادی ومثنى
له بل الشعر أثنى^(١)

مهما تنله بحذف أتاك حرفاً لمعنى
إن زال أول حرف زال الذى منه يعنى
أوزال ثانيه منه فالقتل أدهى وأفى
أوزال ثالثه فهو لغَوْصَبٍ معنى
أوزال رابعه فالجهد فيه تَسَنَّى
فأوضح القصد يا مَنْ قد فاق عقلا وذهنا

وقال في النمل :

ما حيوان اسمه قد جاء في الذكر الحكيم
وهو إذا قلبته لمن به أنت عليم^(٢)
وإن تصحف اسمه فبعض أوصاف اللئيم

وقال في دواة :

وما أثنى بها رَعَى الرعايا وإمضاء المنايا والتقضايا
وتقصدها بنوها من رضاع إذا انبعثوا لإبرام القضايا

(١) سقط أول هذا البيت من جميع الأصول .

(٢) في ب عجز هذا البيت « ومر به أنت عليم » تحريف .

لها اسم إن أزلت النقط منه فعذ بالله من شر البلايا
وإن أبدلت آخره بهمز فقد أبرأت نازلة الشكاي
وإن بدلت أوله بنون أتيت ببعض أرزاق المطايا
فأوضح ما رمزناه بفكر سديد القصد مُبْدٍ للخفايا

وقال في سفينة :

ما ذات نفع وغناء عظيم لها حديث في الزمان القديم
أوحى بها الله إلى عبده فخبذاً فعل الرسول الكريم
دعا بها فيما مضى صالح حسبك مانص الكتاب الحكيم^(١)
وفي كتاب الله ترادها فافراً تجده في قضايا الكلم
إن أنت صحت أسمها تلقه محلّ أنس أو بلاء مقيم
أو هو فعل لك فيما مضى لكن إذا أبرأت داء السقيم
فهاكه قد لاح برهانه مبيناً لكل فكر سليم

وقال في المسك أيضاً :

كتبتم كثيراً ولم تكتبوا كهذا الذي سُبِّله واضحه
فما أنتم جري ذكره في الكتاب فإن شئته فافراً الفاتحه^(٢)
ففيها مُصَحَّفٌ مقولوه يعبر عن حالة صالحه
ولست بغادية فاعلموا ولكنها أبداً رائحه

ويعنى بقوله في الفاتحة قوله أول الأبيات كتبتم فافهم .

وقال في صقر :

حاجيتكم ما اسم لبعض السباع تصحيفه مالك فيه انتفاع

(١) في ب « وعابها فيما مضى صالح » .

(٢) يريد فاتحة هذه الأبيات أي أول كلمة منها وهي « كتبتم » كما سينص عليه المؤلف .

وعكسه إن شئت عكسالة يوجد لكن عند دور السماع
وإن تصحف بعد قلب له فذهب يعزى لأهل النزاع
فبين الألفاز وارفع لنا بنور فكر منك عنه القناع

وقال في الحوت :

ما حيوان في اسمه إن اعتبرته فنون
أحرفه ثلاثة والكل منها هونون
إن أنت صحفت اسمه فما جناه المذنبون^(١)
أو أبيض أو أسود أو صفة النفس الخون
قلبُ اسمه مصحفاً عليه دارت السنون^(٢)
كانت به فيما مضى عبرة قوم يعقلون
أودع فيه زمناً سرمن السر المصون
فهاكه كالنار في الزند له فيها كمون

وقال في لبن :

أفديك ما اسم إذا ما صحفته فهو سبع
وإن تصحف بعكس فقيه للقبط شرع
والأسم يعرب عما لديه رى وشبع
في النحل يلغى ولكن لا يتقى فيه لسع
فليس للنحل أصلاً ولا لها فيه فرع
فهاكه قد تبدى لحجبه عنه رفع

(١) يصير « حوب » بالباء ، وهو الذنب والإثم .

(٢) قلب اسمه مصحفاً يصير « نوح » وقد مرت عليه السنون الطوال .

وقال في القلم :

ومأموم به عرف الإمام كما باهت بصحبته الكرام
له إذ يرتوى طيشان صايد ويسكن حين يعروه الأوام
ويذرى حين يستسقى دموعا يرقن كما يروق الانقسام
وله - رحمه الله تعالى ! - كثير من هذا ، ولم أر أحدا أحكم الأماز مثل ما أحكمه
ابن الجياب المذكور ، ولولا الإطالة لذكرت منها ما يستدل به على صحة الدعوى ،
وفيا ذكرنا كفاية .

ومن نظم الرئيس ابن الجياب المذكور في رثاء عمر بن علي بن عتيق القرشي
الهاشمي القرطبي قوله :

قضى الأمر فيا نفس اصبري صبر تسليم لحكم القدر
وعزاء يا فؤادي إنه حكم ملك قاهر مقتدر
حكمة أحكمها تديره نحن منها في سبيل السفر
أجل مقدر ليس بمستقدم يوما ولا مستأخر (١)
أحسن الله عزاء كل ذي خشية لربه في عمر
في إمامنا التقى الخاشع الطاهر الذات الزكي النير
قرشي هاشمي منتقى من صميم الشرف المطهر
يشهد الليل عليه أنه دائم الذكركرطويل السهر
في صلاة بعثت وفودها زمرا للمصطفى من مضر
قائما وراكعا وساجدا لطلوع فجره المنفجر
جمع الرحمن شملنا غندا بحبيب الله خير البشر

(١) أخذ هذا البيت من قوله تعالى : (فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون) .

وتلقته وفود رحمة الله تأتي بالرضا والبشر
قلت : هذا النظم - وإن برد بما فيه من الزحاف - فله من الوعظ وذكر الله
ورسوله صلى الله عليه وسلم خير لحاف .
قال لسان الدين : ولما نظم القاضي أبو بكر بن شيرين بيت الكتابة ومألف
الجملة هذين البيتين :

ألا يا محب المصطفى زد صباية وضمح لسان الذكرك منك بطيبة
ولا تعبان بالمبطلين فأبما علامة حب الله حب حبيبه
وأخذ الأصحاب في تذييل ذلك ، قال الشيخ الرئيس أبو الحسن بن الجياب رحمه
الله تعالى ورضي عنه :

فمن يعمر الأوقات طرا بذكره فليس نصيب في الهدى كنصيبه
ومن كان عنه معرضا طول عمره فكيف يرجيه شفيع ذنوبه
وقال أبو القاسم بن أبي العافية :
أليس الذي جلى دجى الجهل هديه بنور أقمنا بعده نهته ———— دى به
ومن لم يكن من ذاته شكر منعم فمشهده في الناس مثل مغيبه (١)
وقال أبو بكر بن أرقم :

نبي هداانا من ضلال وحيرة إلى مرتقى سامى المحل خصيبه
فهل ينكر الملهوف فضل مجيره ويغبط شاكى الداء شكر طيبه
فانتهى القول إلى الخطيب أبي محمد بن أبي المجد فقال :

ومن قال مغرورا حجابك ذكره فذلك مغمور طريد عيوبه
وذكر رسول الله فرض مؤكد وكل محق قائل بوجوده

(١) مشهده : حضوره ، مصدر ميمي من « شهد فلان » من باب علم - إذا حضر

وقال يوما الشيخ أبو الحسن بن الجياب تجربة للخاطر على العادة :

جاهد النفس جاهدا فإذا ما فبيت منك فهو عين الوجود
وليكن حكمها المسدد فيها حكم سعد في قتله لليهود (١)
فأجابه أبو محمد بن أبي المجد بقوله :

أيها العارف المعبر ذوقا عن معان عزيزة في الوجود
إن حال الفناء عن كل غير ك مقام المراد غير المريد
كيف لي بالجهاد غير مُعَانٍ وعدوى مظاهرٍ بخنود
ولو أنى حكمت فيمن ذكرتم حكم سعد لكنت جد سعيد
فأراها حياته بي فتونا وأراني في جهـاكـيزيد
كيف أسلو بنصحكم عن هواها ولو أبدت فعل الحب الودود
ليس شيء سوى الهك يبقى واعتبر صدق ذا بقول لبـيد

ترجمة ابن أبي المجد وابن أبي المجد كور هو عبد الله بن عبد البر بن علي بن سليمان بن محمد بن محمد
ابن أشعب الرعيني ، من أرجدونة من كورة رية ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بابن
أبي المجد ، كان من أعلام الكورة سلفا وصلاحا ونية في الصالحين ، كثير الإيثار
بما تيسر ، مليح التخلق ، حسن السمّت ، طيب النفس ، حسن الظن ، له حظ
من الأدب والفقہ والقراآت والفرائض ، وخوض في التصوّف ، قطع عمره خطيبا
وقاضيا ببلده ووزيرا ، قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير وابن أبي فضيلة المعافري
وابن رشيد ، وأجازه طائفة كبيرة ، توفي ليلة النصف من شعبان عام تسعة وثلاثين
وسبعائة ، رحمه الله تعالى ! .

ومن نظم ابن الجياب ما كتب على باب المدرسة العلمية بقرنطاة :

(١) سعد : هو سعد بن معاذ سيد الأنصار ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قد حكمه في يهود بني قريظة — بعد أن سألهم عن مبلغ رضاهم عن حكمه فرضوه —
فحكم بأن يقتل كل من يحمل السلاح منهم .

من نظم
ابن الجياب

يا طالب العلم هذا بابه فُتِحَا
واشكر مجيرك من حل ومرتحل
وشرفت حضرة الإسلام مدرسة
أعمال يوسف مولانا ونيته
فادخل تشاهد سناء للاح شمس ضُحَى
إذ قرب الله من مرماك ما نزحا
بها سبيل الهدى والعلم قد وضحا
قد طرزت صحفا ميزانها رجَحَا

ومنه قوله :

أبى الله إلا أن تكون اليد العليا
وإن هى عضتها بنوب نواب
فما عدت أهل البلاغة والحجا
إذا خطبوا قاموا بكل بليغة
لأندلس من غير شرط ولا ثنيا^(١)
فصيرت الشهد المشور بها شريا^(٢)
يقيمون فيها الرسم للدين والدنيا
تجلى القلوب العلف والأعين العميا
وإن شعروا جاؤا بكل غريبة
فأسأل فى الدنيا من الله ستره
وقال أبو الحسن بن الجياب :

أرى الدهر فى أطواره متقلبا
فما هو إلا مثل ما قال قائل
فلا تأمنن الدهر يوما فتخدعا
وحكى أنه أهدى له الفقيه ابن قطبة رمانا ثم دخل عليه عائداً ، فلما رآه
قال له : يا فقيه ، نعم بالهدنة زمانك ، أراد نعمت الهدية رمانك ، وكان هذا قبل
موته من مرضه ييسير ، وهو مما يدل على ثبوت ذهنه حتى قرب الموت ، سماحه
الله تعالى !

ومن نثر ابن الجياب رحمه الله تعالى ما كتبه عن سلطانه إلى بعض سلاطين
وقته ، وهو السلطان أبو سعيد المريني صاحب فاس ، ونصه : المقام لدى الملك

(١) ثنيا — بضم الثاء وسكون النون — أى استثناء .

(٢) الشهد — بالضم ، وبالفتح — العسل ، والمشور : اسم المفعول من « شرت
العسل أشوره » مثل قلت أقول — إذا جنيته وأخذته من كوارته ، والشرى —
بالفتح — الحنظل .

المنصور الأعلام ، والفضل الثابت الأحكام ، والمجد الذى أشرقت به وجوه الأيام ، والفخر الذى تُتَدَارَسُ أخباره بين الركن والمقام ، والعز الذى تعلو به كلمة الإسلام ، مقام محل الأب الواجب الإكبار والإعظام ، السلطان الكذا أبقاه الله فى ملك منبع الزمار ، وسعد باهر الأنوار ، ومجد رفيع المقدار ، وسلطان عزيز الأنصار ، كريم المآثر والآثار ، كفيل بالإعلاء لدين الله والإظهار ! مُعَظَّم مقامه وموقره ، ومُجِلُّ سلطانه ومُكَبِّرُه ، المثنى على فضله الذى أربى على ظاهره مضمره ، الشاكر لمجده الذى كرم أثره ، المعتد بأبوته العلية فى كل ما يقدمه ويؤخره ، ويورده ويُصَدِّره ، الداعى إلى الله تعالى بطول بقائه فى سعد سامٍ مظهره ، حامٍ عسكره ، فلان .

سلام كريم ، طيب برعيم ، يخص مقامكم الأعلى ، ورحمه الله وبركاته .
أما بعد حمد الله الذى أولاكم ملكاً منصوراً ، وفخراً مشهوراً ، وأحيا بدولتكم العلية لمكارم الأخلاق ذكرًا منشوراً ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذى اختاره بشيراً ونذيراً ، وشرح بهديته صُدُوراً ، وجعل الملاً الأعلى له ظهيراً^(١) ، والرضا عن آله وصحبه الذين ظاهروه فى حياته ، وخلفوه فى أمته بعد وفاته ، فنالوا فى الحالين فضلاً مستوراً ، وأجرًا موفوراً ، والدعاء لمقامكم الأعلى أسماء الله تعالى بنصر لا يزال به الإسلام محبوباً محبوباً^(٢) ، وسعد يملأ أرجاء البسيطة نوراً ، فكتبته كتب الله لكم عوائد السعادة ، وحباكم من آلانته بالحسنى والزيادة ، من جمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، وليس - بفضل الله سبحانه - بركة مقامكم أيد الله تعالى سلطانه - إلا الخير الأكمل ، والبر الأشمل ، والحمد لله كثيراً كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله ، وأما الذى عند معظم أمركم من الإعظام

(١) ظهيراً : معيناً وناصرًا ، وفى القرآن الكريم : (والملائكة بعد ذلك ظهير)

(٢) محبوباً : اسم المفعول من «حبا» يحبوه ، إذا أعطاه ومنحه ، ومحبوراً : مسروراً

لِقَامِكُمُ وَالْإِكْبَارِ ، وَالثَّنَاءَ الْمُرَدَّدَ الْمَجْدُدَ عَلَى تَوَالِي الْأَعْصَارِ ، وَالشُّكْرَ الَّذِي تُتَنَلَّى
سُورَهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَالْعِلْمَ بِمَا لَكُمْ مِنَ الْمَكَارِمِ الَّتِي سَارَ ذِكْرُهَا فِي الْأَفْطَارِ
أَشْهَرُ مِنَ الْمَثَلِ السَّيَّارِ ، وَالْاعْتِدَادَ بِسُلْطَانِكُمُ الْعَلِيِّ فِي الْإِعْلَانِ وَالْإِسْرَارِ ، وَالِاسْتِنَادَ
إِلَى جَنَابِكُمُ الْكَرِيمِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَخْبَارِ ، فَذَلِكَ لَا يَزَالُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى
مَحْفُوظًا مَلْحُوظًا بِعَيْنِ الْاسْتِبْصَارِ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْعَوْنِ عَلَى ذَلِكَ بِفَضْلِهِ وَطَوْلِهِ ، وَإِلَى
هَذَا أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى سُلْطَانِكُمُ ، وَمَهْدِ أَوْطَانِكُمُ ، فَقَدْ تَقَدَّمَتْ مُطَالَعَةُ مَقَامِكُمْ أَسْمَاءَ اللَّهِ
أَنْ مَلِكٌ قَشْتَالَةَ دَسَّ مِنْ يَتَحَدَّثُ فِي عَقْدِ صَلَاحٍ يَعُودُ بِالْهَدَنَةِ عَلَى الْبِلَادِ ، وَيَرْتَفِعُ بِهِ
عَنْهَا مَكَابِدَتَهُ مِنْ جِهَةِ الْأَعَادِ ، وَقَدَّرْنَا أَوَّلًا أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ عَلَى ظَاهِرِ الْحَالِ فِيهِ ، وَأَنَّهُ
يَبْدَى بِهِ ^(١) غَيْرَ مَا يُحْتَقِيهِ ، وَلَكِنْ جَرَيْنَا مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْمَضْمَارِ ^(٢) قَصْدًا لِلتَّشَوُّفِ عَلَى
الْأَخْبَارِ ، فَلَمَّا دَارَ الْحَدِيثُ فِي هَذَا الْحَكْمِ ، ظَهَرَ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ جَنَحَ لِلسَّلَمِ ، وَكَانَ
خَدِيمُنَا نَقَرُوزُ بِحَكْمِ الْإِتْفَاقِ قَدْ وَرَدَ إِشْبِيلِيَّةً لِبَعْضِ أَشْغَالِهِ ، فَاسْتَحْضَرَهُ وَأَخَذَ مَعَهُ
فِي أَمْرِ الصَّلَاحِ وَشَرَحَ أَحْوَالَهُ ، وَأَعَادَهُ إِلَى مَعْظَمِكُمْ لِيَسْتَفْهَمَ مَا عِنْدَهُ ، وَيَعْلَمَ مَذْهَبَهُ
وَقَصْدَهُ ، فَأَعِيدَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ إِنْ أَرَادَ الْمَصَالِحَةَ عَلَى صَلَاحِ وَالِدِهِ مَعَ هَذِهِ الدَّارِ النَّصْرِيَّةِ
مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَى شُرُوطِ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ ، وَلَا يَعْضُرُ لَاسْتِرْجَاعِ مَعْقِلٍ ^(٣) مِنَ الْمَاعِاقِلِ
الَّتِي أَخْلَصْتَ مِنْ يَدِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَأَنْ يَكُونَ عَقْدُهُ عَلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ وَرُبْدَةٍ
وغيرهما مِنَ الْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ، فَلَا بَدَّ مِنْ مُطَالَعَةِ مَحَلِّ وَالِدِنَا السُّلْطَانِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ
أَبِي سَعِيدِ أَيْدِهِ اللَّهُ وَاسْتِطْلَاعِ مَا يَرَاهُ ، وَحِينَئِذٍ نَعْمَلُ بِحَسَبِ نَظَرِهِ الْجَمِيلِ وَمَقْتَضَاهُ ،
وَأَكْدَ عَلَى نَقَرُوزٍ فِي أَنَّهُ إِنْ أَنْقَادَ ^(٤) لِهَذَا الْأَمْرِ فَلْيَعْتَدِ مَعَهُ هَدَنَةً لِأَمْدٍ مِنَ الدَّهْرِ بِقَدَرِ
مَا يَتَسَعُّ لَتَعْرِيفِكُمْ بِهِذِهِ الْحَالِ وَإِعْلَامِكُمْ ، وَيَسْتَطْلَعُ فِيهَا نَظَرَ مَقَامِكُمْ ، فَمَا هُوَ إِلَّا
أَنْ عَادَ يَوْمَ تَارِيخِ هَذَا بِكِتَابِ مَلِكٍ قَشْتَالَةَ ، وَقَدْ أَجَابَ إِلَى الصَّلَاحِ وَأَنْقَادَ إِلَيْهِ ،

(١) يبدى : يظهر . (٢) أصل المضمار المسافة التي جعلت أمدا لسير خيل الحلبة
(٣) المعقل : الحصن . (٤) انقاد له : خضع .

على حسب ما شرط عليه ، وأعطى مُهادنة مدة شهر فبرير ليعرف فيها مقامكم ،
ويعلم ما لديه ، ووافق ذلك وصول الشيخ الفقيه الأجل أبي عبد الله بن حبشية
أعزه الله من بابكم الكريم أسماء الله ، فأخدمه في هذا القصد ، واستفهم عما لديه
من مقامكم في ذلك من الإمضاء أو الرد ، فذكر أنكم قد أذتم لمعظكم في عقد
السلم على ما يراه من الأحكام ، إذ ظهر فيها المصلحة لأهل الإسلام ، فلما عرف
مذهبكم الصالح ، وقصدكم الناجح ، رأى أن يوجه إلى ملك النصارى من يخلص
معه حال الصلح ، على ما يعود إن شاء الله تعالى على المسلمين بالتفجح ، وقدم
تعريفكم بما دار من الحديث بين يدي جوابكم الوافد من مقامكم محبة الفقيه أبي
عبد الله أعزه الله تعالى ، ولا يخفى على مقامكم حاجة هذه البلاد في الوقت إلى هُدنة
تُستدرك بها رَمَقها^(١) مما لقيته من جهد الحرب ، وما حل بها في هذه السنين من
التحط والجذب ، فالصلاحُ بحمد الله في هذه الحال بادی الظهور ، وإلى الله عاقبة
الأمر ، هذا ما تزيد لدى معظم مقامكم ، وما يزيد بعدُ فليس إلا المبادرة إلى
مطالعتكم وإعلامكم ، وما كان إمساك الفقيه أبي عبد الله بن حبشية في هذه الأيام
إلا لا انتظار خبر الصلح ، حتى يأتاكم به مستوفى الشرح ، وهاهو قد أخذ في
الرجوع إلى بابكم الأسمى ، والقدوم إلى حضرتكم العظمى ، والله يصل سعودكم ،
ويحرس وجودكم ، ويبلغكم أملكم ومقصودكم ، والسلام .

ومن إنشاء ابن الجياب رحمه الله تعالى في العزاء بالسلطان أبي الحسن المريني
ما صورته بعد الصدر :

أما بعد حمد الله الواحد القهار ، الحى القيوم حياة لا تتقيد بالأعصار ، القادر
الذى كل شئ في قبضة قدرته محصور بحكم الاضطرار ، الغنى في ملكوته

(١) الرمق — بفتح الراء ولهم — بقية الروح في الجسد .

فلا يلحقه لاحق الافتقار ، المرید الذي بإرادته تصريف الأقدار ، وتقدير الآجال والأعمار ، العالم الذي لا تعزب عن علمه خفایا الأسرار ، وخبايا الأفكار ، مالك الملك وأهله ، ومدير الأمور بحكمته وعدله ، تذكرة لأولى الألباب وعبرة لأولى الأبصار خالق الموت والحياة لينقذنا من دار الفناء إلى دار القرار ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار ، الذي نهتدى بهديه الكريم في الإبراد والإصدار ، والإحلاء والإمرار ، في الشدة والرخاء ، والسراء والضراء ، بسيره الكريمية الآثار ، وتعمزى بالمصيبة به عمادهم من المصائب الكبار ، ونقدم منه إلى ربنا شفيعا ماحيا للأوزار ^(١) ، وآخذا بالحجز عن النار ^(٢) ، ونعلم أننا اتباع سبيله نسعد سعادة الأبرار ، وبإقامة ملته وحماية شرعته ننال مرضاة الملك الغفار ، والرضا عن آلِه وصحبه ، وأوليائه وحزبه ، الذين ظاهروه في حياته على إقامة الحق الساطع الأنوار ، وخلفوه في أمته قائمين بالعدل حامين للذمار ، والدعاء محل أئینا والدكم المقدس قدس الله روحه ، وبرد ضريحه ، بالرحمة التي تتعهد روضته التي هي أذكي من الروض المغطار ^(٣) ، والرضوان الذي يتبوا به مَبُوا صدق في الملوك المجاهدين الأخيار ، ول مقامكم الأعلى بسعادة المقدار ، وتمهيد السلطان وبلوغ الأوطار ، فإننا كتبناه - كتب الله لكم عوائد النصر ، وربط على قلوبكم بالصبر ! - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى عندما تحقق لدينا النبأ الذي فتت في الأعضاء ، وشب نار الأكباد ، والحادث الذي هدأ أعظم الأطواد ، وزلزل الأرض الراسية الأوتاد ، والواقع الذي لولا وجودكم لمحارسم الأجواد ، وعطل رسوم الجهاد ، وكسا الآفاق ثوب الحداد ، والخطب الذي ضاقت له الأرض بمارحبت ، وأمرت الدنيا بماعذبت ، من وفاة محل أئینا أكبر ملوك المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، والدكم

(١) الأوزار : جمع وزر - بالكسر - وهو الذنب .

(٢) أخذ فلان بحجز فلان : كناية عن أنه حماه ومنعه .

(٣) الروض المغطار : الشديد العطر وطيب الرائحة لكثرة أزهاره .

آخفه الله تعالى برؤود رضاه، وجعل جنته نزهة ومثواه ! ونفعه بما أسلف من الأعمال
الكريمة ، وما خلده من الآثار العظيمة ! فإنا لله وإنا إليه راجعون تسليماً لما قضاه ،
ورضاه بما أنفذه وأمضاه ، وعند الله نحسب منه والداً شقيقاً ، حانياً رقيقاً ، لم يزل
يولى الجليل قوله وفعله ، ويصل لنا من أسباب عنايته ما اقتضاه فضله ، وما هو
أحق به وأهله ، وكنا طول حياته لم نجد أثراً لفقد الوالد ، لما أولانا من جميل
العوائد ، وكرم المقاصد ، جزاه الله أحسن جزائه ! وأعانا على توفية حقه وأدائه !
ومثل هذه المصيبة - ولا مثل لها - تُظلم الأرجاء^(١) ، ويضيق القضاء ، وتبكيه مسوومة
الحياد ، وعالم الجهاد ، والسيوف في الأغمد ، وشتى العباد والبلاد ، فلا تسألوا
كيف هو عندنا موقع هذا الخطب العظيم ، والحادث المقعد المقيم^(٢) ، والرزية التي
لا رزية مثلها ، والحادثة التي أصيبت بها الملة وأهلها ، فوجدنا لفقده يتضاعف
مع الآناء ، ويتجدد تذكار ما أسلف من أعمال الملوك الفضلاء ، ولكنه أمر حتم ،
وقضاء من الله جزم ، وسبيل يسلك عليها الأول والآخر ، والآتي والغابر ، وليس
إلا التسليم ، لما حكم به الحكيم العليم ، ولما انتهى إلينا هذا النبأ الذي ملأ القلب حسرة
والعين عبرة ، وتواترت شتى الأنباء ، وغلب اليأس فيها على الرجاء ، وجدنا له ما يوجد
لفقد الأب الذي ابتدأ بالإحسان والإجمال ، وأولى عوارف القبول والإقبال ،
ولكنه ما أطفأ نار ذلك الوجد ، وجبر كسر ذلك الفقد ، إلا ما من الله به علينا وعلى
المسلمين من تقلدكم ذلك الملك الذي بكم سمعت معاملة ، وقامت مراسمه ، وعليكم
انعقد الإجماع ، وبولايتكم استبشرت الأصقاع ، وكيف لا تستبشر بولاية الملك
الصالح الخاشع الأواب ، صاحب الحرب والحراب ، غداة الإسلام ، وعلم الأعلام ،
من ثبتت فضائله أوضح من نحيب النهار ، وسارت مكارمه في الآفاق أشهر من

(١) الأرجاء : النواحي ، واحدها رجا .

(٢) يقال « أخذه من هذا الأمر المقعد المقيم » يراد الأمر الشديد الذي
لا يستقر معه على حال فهو لا يزال منه يقوم ثم يقعد .

المثل السيار ، وقد كان محل أئبنا والدكم رضى الله عنه لما علم من فضائلكم الكريمة الآثار ، وما قتم به من حقه الذى وفيتموه توفية الصلحاء الأبرار ، ألقى إليكم مقاليد سلطانه ، وأثر إليكم أثر قبوله ورضوانه ، حتى انفصل عن الدنيا وقد ألبسكم من أثواب رضاه ما تتناولون به قرة العين ، وعز الدارين ، والظفر بكتلتا الحسينين ، فذلك المملكة بحمد الله تعالى قد قام بها حامى ذمارها ، وابن خيارها ، ومطلع أنوارها ، الملك الرضى العدل الطاهر ، قَوَّامُ الدياجى وصَوَّامُ الهَوَاجِر^(١) ، حسنة هذا الزمان ، ونخبة ذلك البيت المؤسس على التقوى والرضوان ، فالحمد لله على أن جبر بكم صدع الإيمان ، وانتضى منكم سيفاً مسلولا على عبدة الصليبان ، وأقر بكم ملك آبائكم الملوك الأعظم ، وتدارك بولايتكم أمر هذا الرزء المتفاقم ، فإن فقدنا أعظم مفقود ، فقد ظفرتنا بأكرم مقصود ، وما مات من أبقى منكم سلالة طاهرة تحيى سنن المعالى والمكارم ، وتعمل على شاكلة أسلافها الأكارم ، فلك المملكة قد أصبحت بحمد الله ونور سعدكم فى أرجائها طالع ، وسيف بأسكم فى أعدائها قاطع ، وعزمكم الأمضى لأمرها جامع مانع ، قد أوتى منكم إلى الملبأ الأحمى ، واستمسكت بإيالتكم العظمى ، وعرفت أنكم ستبدون فيها من آثار دينكم المتين ، وفضلكم المبين ، ومعاليكم القاطعة البراهين ، ما يملؤها عدلا وإحسانا ، وتبلغ به آمالها مثنى ووحدانا ، فهنيئاً لنا ولها أن صارت فى ملىكم ، وأن تشرفت بملىكم ، وألقت مقاليدها إلى من يحى حماها ، ويدفع عداها ، وليهن ذلك المقام الأعلى ما أولاه من العز المكين وما قلده من الملك الذى هو نظام الدنيا والدين ، وأن أعطاه راية الجهاد فتلقاها باليمين ، لينصر بها ملة الرسول الصادق الأمين ، فله الفخر بذلك على جميع السلاطين وأما هذه البلاد الأندلسية - حماها الله ! - فهى وإن فقدت من السلطان الأعلى

(١) الدياجى : أراد الليالى الشديدة الظلام ، وقوامها : الذى يقوم فيها لعبادة

الله ، والهواجر : جمع هاجرة ، وهى الوقت الذى يشتد فيه الحر ، يريد أنه كثير الاحتمال فى عبادة ربه .

أبى سعيد أكرم ظهير ، ووقع مصابه منها بمحل كبير ، فقد لجأت منكم إلى من يحميها ، ويكف بأس أعاديها ، ويتبنى مرضاة خالقها فيها ، فملككم بحمد الله تعالى مقتبل الشباب ، جديد الأثواب ، عريق الأنساب ، أصيل الأحساب ، ومجدكم جار على أعراقه جرّى الجياد العراب ^(١) ، وإنا لما ورد علينا هذا النبأ معقبا بهذه البشرية ، ووفد علينا ذلك الخبر مردفا بهذه المسرة الكبرى ، علمنا أن الله سبحانه قد رآب ذلك الصّدع ^(٢) بهذا الصنع الجميل ، وتلافى ذلك الخطب بذلك الخير الجزيل ، فأخذنا من مساهمتكم فى الأمور النصيب الوافر ، ورأينا أن آمالنا منكم قد جلت عن تحيّاها السافر ، وعيّنّا للوفادة على بابكم لينوب عنا فى العزاء والهناء عين الأعيان الفضلاء ، ووجه القواد والكرماء .

ولنقتصر على هذا المقدار من كلام الرئيس ابن الجياب رحمه الله تعالى ! ويظهر لى أن نظمه أعلى طبقة من نثره ، وعلى كل حال فهو لا يتكلف نظماً ولا نثراً رحمه الله تعالى ، ورضى عنه ، وعامله بمحض فضله ! .

ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الفقيه الكاتب البارع العلامة النحوى اللغوى صاحب العلامة بالمغرب الشهير الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمى ، قال فى « الإحاطة » فيه ما ملخصه : عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد ابن على بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمى ، أبو محمد ، شيخنا الرئيس ، صاحب القلم الأعلى بالمغرب من الإكليل ، تاج المفرق ، وفخر المغرب على المشرق ، أطلع منه نورا أضاءت له الآفاق ، وأثر منه بذخيرة حملت أحاديثها الرفاق ، ما شئت من مجد سامى المصاعد والمراقب ، عزيز عن لحاق النجم الثاقب ، وسلف زينت سماؤه بنجوم المناقب ، نشأ بسبته بلده بين علم يفيد ، وفخر يشيده ، وطهارة

أبو محمد
عبد المهيمن
الحضرمى

(١) الجياد العراب : الخيل العربية الأصيلة .

(٢) رأب : أصلح ، والصدع : كسر الزجاج ونحوه ، ويقال « رأب فلان الصدع » يراد أنه أصلح الفاسد .

يلتحف مَطَارَها ، ورياسة يتفياً وارِفَها ، وأبوه رحمه الله تعالى قطبُ مَدَارِها ، ومقام
حجبها واعتمارها ، فسلك الوُعُورَ من المعارف والشُّهُول ، وبَدَّ على حدائنه سنة
الكهول ، فلما تحلى من الفوائد العلمية بما تحلَّى ، واشتهر اشتهار الصباح إذا تجلَّى ،
تنافست فيه همم الملوك الأخير ، واستأثرت به الدول على عاداتها في الاستئثار
بالذخائر ، فاستقلت بالسياسة ذراعها ، وأخذم الذوايل والسيوف يرَاعه ، وكان
عين الملك التي بها يبصر ، ولسانه الذي يسهب به أو يختصر ، وقد تقدمت له إلى
هذه البلاد الوفاة ، وجلت به عليها الإفادة ، وكتب عن بعض ملوكها ، وانتظم
في عقودها الرفيعة وسلوكها ، وله في الآداب الراية الخافقة ، والعقود المتناسقة ،
ومشيخته حافلة تزيد عن الإحصاء ، وشعره منحط عن محله من العلم والشهرة ،
وإن كان داخلا تحت طُور الإجابة ، فمن ذلك قوله :

ترأى سحيرا والنسيم عليل	وللنجم طرف بالصباح كليل ^(١)
وللفجر نهر خاضه الليل فاعتلت	شوى أدم الظلاء منه حُجُول ^(٢)
بريق بأعلى الرقتين كأنه	طلائع شهب في السماء تجول
فزق ساجي الليل منه شرارة	وخرق ستر الغيم منه نصول
تبسم ثغر الروض عند ابتسامه	وفاضت عيون الغمام همول
ومالت غصون البان نشوى كأنها	يدار عليها من صباه شَمُول ^(٣)
وغنت على تلك الغصون حمام	لهن حفيف فوقها وهديل ^(٤)
إذا سبجت في لحنها ثم قرقرت	يطيح خفيف دونها وثقل
سقى الله ربعا لا يزال يشوقني	إليه رسوم دونها وطلول
وجاد رباه كلما ذر شارق	من الودق هتان أجش هطول

(١) كليل : ضعيف (٢) الشوى — بفتح الشين — الأطراف ، وأراد
قوائم الفرس الذي شبه الليل به ، والأدم : الأسود ، والحجول : بياض في قوائم الفرس
(٣) الشمول — بفتح الشين — الحُر (٤) الهديل : غناء الطير .
(٢٥ — فح ٧)

ومالىَ أستسقى الغمام ومدمعى
وعاذلة باتت تلوم على السرى
تقول إلى كم ذا فراق وغربة
ذرىنى أسعى للتى تكسب العلا
فإما ترىنى من ممارسة الهوى
وفوق أنايب البراعة صعوة
ولولا السرى لم يحتل البدر كاملا
ولولا اغتراب المرء فى طلب العلا
ولولا نوال ابن الحكيم محمد
وزير سما فوق السماك جلالة
من القوم أما فى الندى فإنهم
حوّوا شرف العلياء إرثا ومكسبا
وما جونة هطالة ذات هيدب
لها زجل من رعدھا ولوامع
كأهدرت وسط القلاص وأرسلت
بأجود من كف الوزير محمد
ولا روضة بالحسن طيبة الشذا
وقد أذكى للزهر فيها بحاسر
وفى مقلّ النوار للطل عبرة

سَفُوح على تلك العراض همُول
وتكثر من تعذالها وتطيل
ونأى على ما خيلت ورحيل
سناء وتبقى الذكر وهو جميل
نحيلا فندُ المشرفي نحيل^(١)
ترين ، وفى قدّ القناة ذبول
ولا بات منه للسعود نزيل
لما كان نحو المجد منه وصول
لأصبح ريع المجد وهو مُحيل^(٢)
وليس له إلا النجوم قبيلُ
هضاب وأما فى الندى فسُيول^(٣)
وطابت فروع منهم وأصول
مرّتها شمال مرجف وقبول^(٤)
من البرق عنها للعيون كلول
شقاشقها عند الهياج فُحولُ
إذا ما تواتل للسنين مُحول
ينمُ عليها إذخر وجيل
تعطر منها للنسيم ذبول
تردها أجفانها وتحيل

(١) المشرفى : السيف

(٢) محيل : قد حال عما عهدناه وتغير

(٣) الندى - بتشديد الياء - مجتمع القوم للسمر والتشاور ، والندى - بفتح

النون مقصوراً بزنة الفتى - الجود والكرم

(٤) أراد بالجونة السحابة ، ومرتها : أراد أسالت ماءها وهو المطر ، والشمال :

ريح الصبا ، والقبول : ريح الجنوب .

بأطيب من أخلاقه الغر كلما
 حويت أبا عبد الإله منافيا
 فغرناطة مصر وأنت خصيها
 فذاك رجال حاولوا دَرَكَ العلا
 تخيرك المولى وزيرا وناصحا
 وألقى مقاليد الأمور مَفَوَّضا
 وقام بحفظ الملك منك مؤيد
 وساس الرعايا منك أشوس باسل
 وأبلغ وقاد الجبين كأنما
 تهيم به العليا حتى كأنها
 له عزومات لو أعير مضاءها
 سرى ذكره في الخافقين فأصبحت
 وأعدى قريضى جوده وثناؤه
 إليك أيا فخر الوزارة أرقلت
 فليت إلى لقياك ناصية الفلا
 تسدنى سهما لكل ثنية
 وقد لفظتني الأرض حتى رمت إلى
 فتميدت أفراسي به وركائبي
 وقد كنت ذا نفس عزوف وهمة
 وتهوى العلا حظى وتغرى بضده
 وتأنى لى الأيام إلا إدالة

تقام خطب للزمان يهول
 تفوت يدا من رامها وتطول
 ونائل يملك الكريمة نيل^(١)
 ييخل ، وهل نال العلاء بخيل ؟
 فكان له مما أراد حصول
 إليك فلم يعدم يمينك سؤل
 نهوض بما أعيا سواك كفيل
 مبيد العدا للعتفين منيل
 على وجنتيه للنضار مسيل
 بثينته في الحب وهو جميل
 حسام لما نالت ظباه فلول
 إليه قلوب العالمين تميل
 فأصبح في أقصى البلاد يحول
 برحلى هوجاء النجاء ذلول
 بأيدي ركاب سيرهن ذميل
 ضوامر أشباه القيسى نحول
 ذراك برحلى هوجل وهجول
 ولذ مقام لى به وحلول
 عليها لأحداث الزمان ذحول
 لذلك اعترته رقة ونحول
 فصونك لى أن الزمان مُدِيل

(١) يشير إلى قول أبي نواس في مدح الحصب :

أنت الحصب وهذه مصر فتدققا فكلكما بحر

فكل خضوع في جنابك عزة وكل اعتزاز قد عدّاك حُمُولُ (١)
وقال :

أبت همتي أن يراني امرؤ على الدهر يوما له ذا خضوع
وما ذاك إلا لأنني اتقيت بعز القناعة ذُلَّ الخشوع

مولده بسبنة عام ستة وسبعين وستمائة ، وتوفي بتونس ثلثي عشر شوال عام تسعة وأربعين وسبعمائة في الطاعون ، وكانت جنازته مشهورة رحمه الله تعالى ، انتهى .
وحكى أن السلطان أبا الحسن المريني سبَّ الشيخ عبد المهيم الحضرمي بمجلس كتابه ، فأخذ عبد المهيم القلم وكسره ، وقال : هذا هو الجامع بيني وبينك ، ثم إن السلطان أبا الحسن ندم ، وأفضل عليه ، وخجل مما صدر منه

وكان عبد المهيم ينطق بالكلام مُعَرَّبًا ، ويرتفع نسبه إلى العلاء بن الحضرمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصل سلفه من اليمن ، وكان جدهم الأعلى عبدون لحقه الضيم ببلده ، فارتحل إلى المغرب ، فنزل سبنة

ولعبد المهيم الحضرمي شيوخ أجلاء كابن أبي الربيع النحوي وابن الشاط وابن مسعود وغيرهم ، وكان ذا سعد وسؤدد ، حسن الخط ، رأيت خطه بإجازته لأبي عبد الله ابن مرزوق وغيره ، وكان على الهمة سرّياً ، أعطى المنصب حقه ، وكان لا يحمل الضيم واحتقار العلم ، وكان سريع الجواب ، حكى أن القاضي المليبي وأبا محمد عبد المهيم الحضرمي المذكور صاحب العلامة للسلطان أبي الحسن حضرا مجلس السلطان ، فخرى ذكر الفقيه ابن عبد الرزاق ، فقال المليبي : جمع من الفنون كذا ، حتى وضع يده على أبي محمد عبد المهيم ، وقال مخاطباً للسلطان : ويكتب لك أحسن من ذا ، فوضع عبد المهيم يده على المليبي وقال : نعم يا مولاي ، ويقضى لك أحسن من ذا .

وقال ابن الخطيب القسطليني الشهير بابن قنفذ في وفياته ما نصه : وفي سنة تسع وأربعين وسبعائة توفي الشيخ الراوية المحدث الكاتب أبو محمد عبد المهيمن ابن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد ، الحضرمي ، السبتي ، ومن أشياخه الأستاذ ابن أبي الربيع وابن الغاز وابن صالح السكناني وغيرهم من الأعلام ، انتهى . وقال غيره : إن والد عبد المهيمن توفي غرة صفر سنة اثنتي عشرة وسبعائة ، رحمه الله تعالى !.

وحكى أن الشيخ أبا محمد عبد المهيمن ذكر يوما بني العزفي ، فأثنى عليهم ، فقال له أحد الحسينيين ، وكان بينهم شيء : إنهم كانوا يحبون أهل البيت ، فكيف حبك أنت لهم ؟ يعني لأهل البيت ، فقال : أحبهم حب التشريع ، لا حب التشيع ، انتهى .

قيل : يعني بالعزفيين أهل الدولة الثانية ، وأما أهل الأولى فكانوا من المختصين بمحبة الآل ، وهم أحدثوا بالمغرب تعظيم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام .

ومن أغرب ما وقع للرئيس عبد المهيمن الحضرمي من التشبيه قوله :
لقد رافني مرأى سَجِلْمَاسَةَ الذي يقر له في حسنه كل منصف
كأن رؤس النخل في عَرَصَاتِهَا فوائح سورَات . بآخر مصحف (١)
وهذا من التشبيه العقيم الذي لم يسبق إليه فيما أظن ، وكان سبب قوله ذلك أن السلطان أمير المسلمين أبا الحسن المريني لما تحرك لقتال أخيه السلطان أبي على عمر بسجلماسة وظفر به استمطر أنواء أفكار الكتاب وغيرهم في تشبيه النخل ، فقال عبد المهيمن ما مر ، فلم يترك مقالا لقائل .

(١) عرصاتُها : ساحاتها ، واحدها عرصة ، وقال امرؤ القيس :
ترى بحر الآرام في عرصاتِها وقيعانها كأنه حب فلفل

وقد أنشد الحافظ ابن مرزوق الحفيد قال : أنشدني شيخنا ولي الدين الرئيس أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي لشيخه الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي رحمه الله تعالى قوله :

يُجْنَى الْفَقِيرُ وَيَفْشَى النَّاسُ قَاطِبَةً بَابَ الْغَنَى ، كَذَا حَكَمُ الْمَقَادِيرِ
وَإِنَّمَا النَّاسُ أَمْثَالُ الْفَرَاشِ ، فَهَمُ يُلْقَوْنَ حَيْثُ مَصَابِيحُ الدَّنَانِيرِ^(١)

قلت : ورأيت هذين البيتين في كتاب « دوح الشجر ، وروح الشعر » للعالم الكاتب ابن الجياب منسوبين لأبي المتوكل الهيثم بن أحمد السكوني الإشبيلي ، قال : أنشدني أبو الحجاج الحافظ قال : أنشدني الهيثم ، فذكر البيتين ، وكان تاريخ وفاته قبل أن يخلق عبد المهيمن ، فتعين أن البيتين ليسا من نظمه ، وإنما تمثل بهما ونسبتهما له وهم لا محالة ، والله أعلم .

وأما ما اشتهر على الألسنة بالمغرب من أن أبا حيان مدح عبد المهيمن بقوله :

ليس في الغرب عالم مثل عبد المهيمن
نحن في العلم أسوة أنا منه وَهُوَ مِنِّي^(٢)

فقد نسبته ابن غازي إلى أبي حيان كما اشتهر ، لكن تاريخ مرور أبي حيان بالمغرب كان قبل ظهور عبد المهيمن بلا خفاء ، وهو عندي محمول على أحد أمرين : أن المراد عبد المهيمن جد عبد المهيمن المذكور ، أو أن أبا حيان كتب بالبيتين من مصر بعد ما ظهر عبد المهيمن وصارت له الرياسة بالمغرب إذ أبو حيان عاش إلى ذلك الزمان بلا ريب ، ولذا لما ذكر لسان الدين بن الخطيب في كتابه « السكتية السكامنة » في أنباء أهل المائة الثامنة « الشيخ أبا حيان قال : وهذا الرجل طالت حياته حتى أجاز ولدي .

ولعبد المهيمن المذكور أخبار غير ما قدمناه منع منها الاختصار ، وقد ألف

(١) يضرب المثل بالفراش في الطيش وقلة المعرفة لأنه يلقي بنفسه على النار فيحترق

(٢) « مني » في هذا البيت مخفف النون ، كما وقع في قول الشاعر :

أيها السائل عنهم وعني لست من قيس ولا قيس مني

الخطيب ابن مرزوق باسم ولد ولده فهرسته المشهورة ، وحلاه في صدرها أحسن حلية ، وهو أهل لذلك ، وقد ذكره مولاي الجد في شيوخه كما تقدم ، وقال فيه : إنه إمام الحديث والعربية ، وكاتب الدولة العثمانية والعلوية ، فليراجع ذلك فيما سبق في ترجمة الجد .

وأبو سعيد ابن عبد المهيمن كان على المهمة كآبائه ، ولما بويع السلطان أبو عنان طلب منه أن يكون مرثما في جملة كتاب بابه ، فامتنع ، وقال : لا أكون تحت حكم غيري ، وعنى بذلك أن أباه كان رئيس الكتاب ، فكيف يكون هو مؤسسا بغيره ؟ فلم ترض همته رحمه الله تعالى إلا برتبة أبيه أو الترك ، وارتحل أبو سعيد محمد المذكور ، وكان فقيها عالما ، من فاس لسبعة إلى أن توفي بها سنة ٨٨٧ ، وكان قليل الكلام ، جميل الرؤاء (١) ، حسن الهيئة والبزة والشكل ، روى عن والده وعن الحجار وكتب له سنة ٧٢٤ ، وروى عن الفقيه أبي الحسن بن سليمان والرحالة ابن جابر الوادي آشي وابن رشيد وغيرهم .

وابن أبي سعيد هذا اسمه عبد المهيمن كجده ، وكان صاحب القلم الأعلى ، روى عن أبيه وجده وغيرهما ، رحم الله الجميع .

ومن أسيان لسان الدين رحمه الله تعالى الإمام العلامة قاضي الجماعة أبو البركات ابن الحاج البليقي ، نادرة الزمان ، وشاعر ذلك الأوان ، وهو محمد بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن الشيخ الولي أبي إسحاق بن الحاج البليقي ، وكان أبو البركات أحد رجال السكال علما ومجدا وسوددا موروثا ومكتسبا ، وقد عرف به في « الإحاطة » بترجمة مد فيها النفس ، وكتب ابنه على أول الترجمة ما صورته :

(١) الرؤاء - بضم الراء - المنظر .

رحمك الله تعالى يا فقيه الأندلس ، وحسيبها ، وصدرها ، وشيخها ، وبرد ضريحك
فله ما أفدت من نادرة ، وأكسبت من فائدة ، انتهى .

وحكى في « الإحاطة » أنه لما استسقى وحصلت الإجابة أنشده لسان الدين :
ظَمِئْتُ إِلَى السَّقْيَا الْأَبَاطُحُ وَالرِّبَا حَتَّى دَعَوْنَا الْعَامَ عَامًا مُجْدِبًا
وَالغَيْثَ مَسْدُولَ الْحِجَابِ ، وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْثِ قَدُومُكُمْ فَتَأْدِبَا
ثم ذكر في « الإحاطة » تأليف أبي البركات وشعره ، إلى أن قال حاكيا عن
أبي البركات ما صورته : وما نظمته وقد أكثروا من التعجب لملازمتي البناء
وحفر الآبار :

فِي احْتِفَارِ الْأَسَاسِ وَالْآبَارِ وَانْتِقَالِ التُّرَابِ وَالْجَيِّـَـارِ
وَقُعُودِي مَا بَيْنَ رَمْلٍ وَآجِرٍ وَجِصٍّ وَطُوبِ الْأَحْجَارِ
وَامْتِهَانِي رُؤْدَى بِالطِّينِ وَالْمَا وَأُرَاسِي وَلِحْيَتِي بِالْعَبَارِ
نَشْوَةَ لَمْ تَمَرَّ قَطْ عَلَى قَلْبِ خَلِيعٍ وَمَا لَهَا مِنْ خَمَارِ (١)
مَنْ غَرِيبَ الْبِنَاءِ أَنْ بَنِيهِ مَتَعِبُونَ يَهُوُونَ طُولَ النَّهَارِ
يَبْتَغُونَ الْوَصَالَ مِنْ صَانِعِيهِ وَالدَّارَ إِلَيْهِ كُلِّ الْبُـدَارِ
فَإِذَا حُلِّفَ فِي ذَرَاهِمِ تَرَاهِمِ يَشْتَهُونَ مِنْهُ بَعِيدَ الْمَزَارِ (٢)
مَنْ عَذِيرِي مِنْ لَأْتُمْ فِي بِنَائِي وَهُوَ لِي التَّرْجَمَانُ عَنْ أَخْبَارِي
لَيْسَ يَدْرِي مَعْنَاهُ مَنْ لَيْسَ يَدْرِي أَنْ مَا عِنْدَهُ عَلَى مَقْدَارِ
أَقْتَدَى بِالذِّى يَقُولُ بَنَاهَا ذَلِكَ الْخَالِقُ الْحَكِيمُ الْبَارِى (٣)
وَبِمَنْ يَرْفَعُ الْقَوَاعِدَ مِنْ يَدَيْتِ عَتِيقٍ لِلْحِجِّ وَالزُّوَارِ (٤)
وَبِمَنْ كَانَ ذَا جَدَارٍ وَقَدْ كَانِ نِ ابْنُ مِنْ صَالِحِي الْأَبْرَارِ

(١) الخمار - بضم الخاء - صداع الرأس من شرب الخمر

(٢) حل : نزل ، وذراهم - بفتح الدال - جانهم وناحيهم

(٣) يشير إلى قوله تعالى (السماء بناها رفع سمكها فسواها)

(٤) يشير إلى قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) .

وبما قد أقامه الخضر الخصوص علماً بباطن الأسرار
كان تحت الجدار كنز، وما أدراك ما كان تحت كنز الجدار؟
وبمن قد مضى من آبائي الغر الألى شيدوا رفيع المنار
فالذى قد بنوه بنى له مثلاً ونجوى له على مضمار
قد بنينا من المساجد دهرًا ثم بنى لجارها خير جار
مثل ما قد بنيت للمجد أمثال مبانيهم بكل اعتبار
فالمباني لسان حالى ولى فيها لعمري ذكر من الأذكار
روح أعمالنا المقاصد، لكن حيث تخفى تخفى مع الأعذار
فمضى من قضى بيننا هذى الدار يقضى لنا بعقبى الدار
ثم قال فى « الإحاطة » بعد كلام : ومن نظمه فى الإنحاء على نفسه ، واستبعاد
وجود المطالب فى جنسه ، قال مما نظمته يوم عرفة عام خمسين وسبعائة وأنا منزوى فى
غار ببعض جبال المريّة :

زعموا أن فى الجبال رجالاً صالحين قالوا من الأبدال
وَادْعَوْا أن كل من ساح فيها فسيلقاهم على كل حال
فاخترقنا تلك الجبال مراراً بنعال طوراً ودون نعال
ما رأينا بها خلاف الأفاعى وشباً عقرب كمثّل النبال^(١)
وسباع يجرون بالليل عدواً لا تسلى عنهم بتلك الليالى^(٢)
ولو أنا كنا لدى العدو الأخرى رأينا نواجهد الريبال^(٣)
وإذا أظلم الدجا جاء إبليس إلينا يزور طيف خيال
هو كان الآيس فيها ولولا هُ أصيبت عقولنا بالجبال^(٤)

(١) شب العقرب : إرتها التى تلدغ بها (٢) العدو — بالفتح — السير السريع
(٣) الريبال : الأسد ، ونواجهده : أنيابه (٤) الجبال — بفتح الحاء — الجنون

خل عنك الحلال يا من تَعَفَّى ليس يلقي الرجال غير الرجال
وجمع شعره وسماه « العذب والأجاج ، من كلام أبي البركات بن الحاج » وسمى
أبو القاسم الشريف ما استخرجه منه « باللؤلؤ والمرجان ، من بحر أبي البركات
ابن الحاج يستخرجان » .

ومن نظم الشيخ أبي البركات بن الحاج قوله رحمه الله تعالى :
ألا ليت شعري هل لما أنا أرتجي من الله في يوم الجزاء بلاغ
وكيف لمثلي أن ينال وسيلة لها في سبيل الصالحين سراغ
وكم رمت دهرى فتح باب عبادة يكون بها في الفائزين مساع
فكدت ولم أفعل وكيف وليس لي المعينان فيها صحة وفراغ
لأصبحت من قوم دعاهم إلى الرضا منادى الهدى فاستنكروه فراغوا
أباغ ترى أخراه من يزدهيه من زخارف دنياه الدنية باغ
ويضرب صفحا عن حقيقة ما طوت فيلهيه زور قد أنته مصاع
إذا ما بدا للرشد نهج يبيانه يراع به من وحشة فراغ
فيارب برّ د العفو هب لي إذا غلت من الحرفي يوم الحساب دماغ
فمن حرق للنفس فيه لواعج ومن خجل للوجد فيه صباغ
وعظمتك نفسي لو أنبت ، وفي الذي وعظت به لو ترعوين بلاغ (١)
وأنشد القاضي أبو البركات في هذا الروي قول شيخه الأستاذ أبي علي
ابن سليمان القرطبي :

ألا هل إلى ما أرتضيه بلاغ وكيف يرى يوما إليه فراغ
وقد قطعت دوني قواطع جهة أراع لها مهما جرت وأراع
ومالي إلا عفو رب وفضله فقيه إلى ما أرتجي به بلاغ

(١) أنبت : رجعت ، وترعوين : تكفين عما أنت عليه ، وبلاغ : وصول إلى ما ترجين

وكان القاضي أبو البركات من بيت كبير علما وصلاحا وزهدا ، وجده الإمام الولي العارف سيدي أبو إسحاق بن الحاج أشهر من نار على علم ، وقبره مشهور بمراكش وقد زرته بها ، وله كرامات مشهورة .

وحكى في «مزية المرية» من كراماته جملة قال حفيده الشيخ أبو البركات : دخلت على الشيخ الصالح العابد المجتهد الحاج أبي عبد الله محمد بن علي البكري ، المعروف بابن الحاج ، في منزله بالمرية عائدا قال : أظنه في مرضه الذي مات فيه فقال له حين سأله عن حاله : ادعُ لي ، فقلت له : ياسيدي ، بل أنت تدعو لي ، فقال لي : شرح الله صدرك ! ونور قلبك بنور معرفته ! فمن عرف الله لم يذكّر غيره ، فقد حكى سيدي أبو جعفر بن مكنون عن جدك قال : كنت مع سيدي أبي إسحاق بن الحاج بمراكش فقال لي : هل ترى في المنام شيئا؟ فقلت : نعم ، أرى كأنني في المرية أمشي من الدار إلى المسجد ، ومن كذا إلى كذا ، فأعرض عني وقال : ألا ترى إلا الله؟ قال : ثم مر به في أثناء كلامه ابنه محمد ، فقال لي : رأيت هذا ؟ والله ما أدرى أن لي أبنا حتى يربي ، ولا أذكره إذا غاب عني ، ولا أرى إلا الله ، انتهى .

ومن تأليف أبي البركات رحمه الله تعالى كتاب ذكر فيه أخبار سلفه رضي الله عنهم ، وذكر جملة من كرامات جده سيدي أبي إسحاق المذكور ، نفعنا الله به . ومن شعر جده المذكور قوله :

ألا كرم الله البلاد بخطبة هم حسنات الدهر لا نأبهم خطب^(١)
رعايتهم فرض على كل مسلم وجبهم حقاً قد أوجبه الرب
إذا ما سألت الله شيئا فسل بهم فتعظيمهم قرب وغيتهم حرب^(٢)

(١) نأبهم : نزل بهم ، والخطب - بالفتح - الحادث المؤلم من حوادث الدهر

(٢) غيتهم - بكسر الغين - أراد ذكرهم بالمكروه .

وقوله :

شكا فشكا قلبي خبالا مبرحا على غير علم كان منى بشكواه
وما التقت الأسرارُ إلا بجامع من النعت سلطانُ الحقيقة سَوَّاه
فيا فرحة المجهود إن بات سره وسر الذي يهواه مأواه مأواه
ومن أجله قد كان بالبعد راضياً فكيف ترى مغناه والقلب مثواه^(١)
بدا فبدت أعلام ضدين في الهوى ها عجب لولا الدليل وخواه
برؤيته فارقت موتى لبعده ومت بها من أجل علمى بيلواه
فها أنا حى ميت بلقائه ولم ينبج مَنْ لم يسعد الفهم نجواه
إذا لم تكن أنت الحبيب بعينه رضا وعتاباً ضلَّ من قال يهواه
وأكذب ما يُلقَى الفتى وهو صادق إذا لم يحقق بالأفاعيل دعواه
وقوله رضى الله تعالى عنه :

الحب في الله نور يستضاء به والهجر في ذاته نور على نور
جنب أخا حدث في الدين ذا غير إن المغيِّر في نكس وتغير
حاشى الديانة أن تبني على خَبَلٍ سبحانه خالقنا من قول مشبور^(٢)
إن الحقائق لا تبدو لمبتدع كذا المعارف لا تهدي لمغرور
تالله لو أبصرت عيناه أو ظفرت يمناه ما ظل في ظنٍّ وتقدير
حقق ترى عجباً إن كنت ذا أدب ولا يغرنك الجهال بالزور
إن الطريقة في التنزيل واضحة وما تواتر من وحى ومشهور
فافهم هديت هدى الرحمن وأهدبه هدى يفيدك يوم النفع في الصور
وقوله صدرَ رسالة وجه بها إلى ابنه محمد أيام قراءته بإشبيلية :

(١) مغناه : مكان إقامته ، تقول « غنى فلان بالمسكان يغنى » مثل رضى رضى -
إذا أقام (٢) مشبور : هالك ، وفي التنزيل : (وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً)

إذا شئت أن تحظى بوصلى وقرى
فجنب قرين سوء واضرم حباله^(١)
وسابق إلى الخيرات واسلك سبيلها
وحصل علوم الدين واعرف رجاله
وكان رحمه الله تعالى كثيراً ما يتمثل بيقيب مهيار الديلمي ، وهما :

ومن عجب أنى أحن إليهم
وأسأل شوقاً عنهم ومهموهم
وتبكيهم عيني وهم في سوادها
ويشكو النوى قلبى وهم بين أضلعي
وحدث القاضي أبو البركات حفيده عن ابن خيس التلمساني المتقدم المذكور قال :
سمعت بعض الأشياخ يقول : كان الشيخ أبو إسحاق البليقي الكبير يقول :
اجتمع لنا في الله أربعون ألف صاحب .

وحكى الشيخ أبو البركات المذكور عن الشيخ الصالح الحاج الصوفي أبي
الأصبع ابن عزرة قال : هذه صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أخذتها عن رابع
الشيخ الصالح الحاج أبي عبد الله محمد بن علي بن الحاج مشافهة ، وقال لي : إنها
صلاة أبي إسحاق بن الحاج جدك ، وهي : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة
دائمة مستمرة تدوم بدوامك ، وتبقى ببقائك ، وتخلد بخلودك ، ولا غاية لها دون
مرضاتك ، ولا جزاء لقائلها ومصلحها غير جنتك والنظر إلى وجهك الكريم .

ونقل أبو البركات المذكور عن جده أنه كان يستفتح مجلسه بالرية بهذا
الدعاء : اللهم اجعلنا في عياد منك منيع^(٢) ، وحصن حصين ، وولاية جميلة ، حتى
تبلغنا آجالنا مستورين محفوظين ، مبشرين برضوانك يوم لقائك ، قال : وفي
وسط الدعاء وآخره : وأكفنا عدونا إبليس ، وأعداءنا من الجن والإنس بعافيتنا
وسلامتنا .

وكان الشيخ رضى الله عنه يواصل أربعين يوماً .

(١) اصرم : اقطع ، يقول : لا تخالط قريناً يدعوك إلى الشر واقطع علاقتك به

(٢) عياد منك : التجاء إليك وتحصن بك ، ومنيع : لا يصل إليه أحد .

ومن مآثره أنه بنى ثمانية عشر جبا في مواضع متفرقة ونحو عشرين مسجداً
وبنى أكثر سور حصن بلفيق ، كل ذلك من ماله .

وقال رضى الله عنه في بعض رسائله : الصوفى عبارة عن رجل عدل تقى
صالح زاهد ، غير منتسب لسبب من الأسباب ، ولا يُحِلُّ بأدب من الآداب ،
قد عرف شأنه وزمانه ، وملكت مكارم الأخلاق عِناهُ (١) ، لا ينتصر لنفسه ،
ولا يتفكر في غده وأمه ، العلم خليله ، والقرآن دليله ، والحق حفيظه ووكيله ،
نظره إلى الخلق بالرحمة ، ونظره إلى نفسه بالحذر والتهمة ، انتهى .

وأحوال هذا الشيخ عجيبة ، وكراماته شهيرة ، وإعنا ذكرنا هذا النزر (٢) اليسير
تبركا بذكره رضى الله عنه في هذا الكتاب ، وتطفلا على رب الأرباب أن ينفعنا
بأمثاله ويحقق لنا النجاة والمتاب ، إنه على ذلك قدير .

رجع إلى أخبار أبي البركات — ولما وقع بينه وبين ابن صفوان ما يقع بين
المتعاصرين رد عليه ابن صفوان ، فانتصر لأبي البركات بعض طلبته بتأليف سماه
« شواظ من نار ونحاس ، يُرسل على مَنْ لم يعرف قدره وقدر غيره من الناس »
وهو قدر رسالة الشيخ أو أطول ، وألنى على ظهره بخط الشيخ أبي البركات ماصورته :

قد شبع الكلب كما ينبغي من حَجَرٍ صَلَدَ ومن مقرع

فإن يُعَدُّ من بعد ذا للذى قد كان منه فهو ممن نعي

ومن بديع نظم الشيخ أبي البركات رحمه الله تعالى قوله :

يلومونى بعد العذارِ على الهوى ومثلَى فى وحدى له لا يفند (٣)

يقولون أمسك عنه قد ذهب الصبى وكيف أرى الإمساك والخيط أسود

(١) أصل العنان — بكسر العين — ما تقاد به الدابة

(٢) النزر — بالفتح — القليل (٣) لا يفند : لا يتهم بالكذب

(٤) فى البيتين تورية ، فالإمساك يطلق على الصوم ، والخيط الأسود يطلق على الليل ، وهو من قوله تعالى : (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر) وأراد بالإمساك الكف عن حب حبيبه ، والخيط الأسود العذار

وقوله في المحببات :

ومصفرة الخدين مطوية الحشى على الجبن والمصفر يؤذن بالخوف
لها بهجة كالشمس عند طلوعها ولكنها في الحين تغرب في الجوف (١)
وفي هذين البيتين تورية متعددة .

وحدث القاضي أبو البركات أنه لما أراد الانصراف عن سبته قال له السيد
الشريف أبو العباس رحمه الله : متى عزمتم على الرحيل ؟ فأنشد أبو البركات :
أما الرحيل فدونَ بعد غدٍ فمتى تقولُ الدار تجمعنا
فأنشد الشريف رحمه الله تعالى :

لا مرحباً بـغد ولا أهلاً به إن كان تفريقُ الأحبة في غد
وحكى أن السيد أبا العباس الشريف المذكور سائر القاضي أبا البركات في
بعض أسفاره زمن الشباب ببر الأندلس - أعاده الله تعالى !- فلما انتهى إلى قرية
تريانة ، وأدركهما النصب ، واشتد عليهما حرُّ الهجير ، نزلاً وأكلاً من باكراتين
الذى هناك ، وشربا من ذلك الماء العذب ، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت
شجرة مستظلاً بظلها ، ثم التفت إلى السيد أبي العباس وقال :

ماذا تقول فدتك النفس في حالى يَفْنَى زمانى في حل وترحال
وأرتج عليه ، فقال لأبي العباس : أجز ، فقال بديها :

كذا النفوسُ اللواتي العزُّ يصحبها لا ترضى بمقام دونَ آمال
دعها تسرفى الفياق والقفار إلى أن تبلغ السؤل أو موتا بتجوال
الموت أهون من عيش لدى زمن يُعْلِي اللثيمَ ويدنى الأشرفَ العالى
ولما أوقع الشيخ أبو البركات على زوجه الحرة العربية أم العباس عائشة بنت الوزير
المرحوم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الكنانى ثم المغبلى طليقة كتب نسختها

(١) أشار إلى قوله تعالى في قصة ذى القرنين (حتى إذا بلغ مغرب الشمس
وجدها تغرب في عين حمئة) .

بما نصه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وعلى آل محمد ، يقول عبد الله الراجي رحمته محمد المدعو بأبي البركات بن الحاج خار الله له واطف به : إن الله جلت قدرته لما أنشأ خاقه على طبائع مختلفة وغرائز شتى (١) ، ففهم السخى والبخيل ، والشجاع والجبان ، والعبي والقطن ، والكيس والعاجز (٢) ، والمسامح والمناقش ، والمتكبر والمتواضع ، إلى غير ذلك من الصفات المعروفة من الخلق ، كانت العشرة لا تستمر بينهم إلا بأحد أمرين : إما بالاشتراك فى الصفات أو فى بعضها ، وإما بصبر أحدهما على صاحبه إذا عدم الاشتراك ، ولما علم الشارع أن بنى آدم على هذا الوضع شرع لهم الطلاق ليسترخ إليه من عيل صبره على صاحبه ، توسعة عليهم ، وإحسانا منه إليهم ، فلأجل العمل على هذا طلق كاتب هذا عبد الله محمد المذكور زوجة الحرة العربية المصونة عائشة ابنة الشيخ الوزير الحسيب النزيه الأصيل الصالح الفاضل الطاهر المقدس المرحوم أبى عبد الله محمد المغبلى ، طلقه واحدة ، ملكت بها أمر نفسها دونه ، عارفا قدره ، قصد بذلك إراحتهما من عشرته ، طالبا من الله أن يغنى كلاً من سعته ، مشهدا بذلك على نفسه فى صحته وجواز أمره يوم الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الثانى عام أحد وخمسين وسبعمائة ، انتهى .

ومن نوادره رحمه الله تعالى أنه لما استناب بعض قضاة المرية الفقيه أبى جعفر المعروف بالقرعة فى القضاء من عمله بخارج المرية ، فاتفق أن جاء بعض الجنانين بفحص المرية يشتكى من جائحة أو أذية أصابت جنانه ، ففسدت غلته لذلك ، فأخذ ذلك الجنان قرعة وأشار إليها متشكيا ، وقال : هذه القرعة تشهد بما أصاب

(١) الغرائز : جمع غريزة ، وأراد بها السجايا والطباع

(٢) الكيس - بفتح الكاف ، بزنة جيد وطيب - حسن الفعل ، وجمعه أكياس ، ونظيره جيد وأجباد .

جنانى ، فقال الشيخ أبو البركات عند ذلك غريبتان فى عام واحد : القرعة تقضى ،
والقرعة تشهد .

وكان له رحمه الله تعالى من هذا النمط كثير .

وقال رحمه الله تعالى : نظمت صبيحة يوم السبت السابع والعشرين لرجب
عام خمسة وأربعين وسبعائة ، وقد رأيت فى النوم كأتى أريد إتيان امرأة لا تحل
لى ، فيأتى رقيب فيحول بينى وبين ذلك المرة بعد المرة ، قولى :

ألا كرم الله الرقيب فإنه كفاى أموراً لا يحل ارتكابها
وبالغ فى سد الذريعة فاغتدى يلاحظنى نوما ليغلق بابها

وقال رحمه الله : أنشدنى شيخى أبو عبد الله بن رشيد عند قراءتى عليه شرحه لقوافى
أبى الحسن حازم ، وقد باحثته يوماً ، مناقشة فى بعض ألفاظه من الشرح المذكور :

تسامح ولا تستوف حقاك كله وأغض فلم يستوف قط كريم
ومن نظم الشيخ أبى البركات قوله :

ألا خلّ دمع العين يهيمى بمقلتى لفرقة عين الدمع وقف على الدم
فللماء فيه رنة شجنية كرنة مسلوب القواد متم
وللطير فيه نعمة موصلية تذكرنى عهد الصبا المتقدم (١)
وللحسن أقمار به يوسفية تردّ إلى دين الهوى كل مسلم (٢)

وله رحمه الله تعالى :

ما كلّ من شد على رأسه عمامة يحظى بسمت الوقار
ما قيمة المرء بأثوابه السر فى السكان لا فى الديار

(١) نعمة موصلية : أراد أنها تشبه نعمات إسحاق الموصلى النديم ، وهو من أشهر
حذاق المغنين فى الدولة العباسية .

(٢) يوسفية : منسوبة إلى يوسف الصديق ابن يعقوب عليهما السلام ، وهو
مضرب المثل فى الحسن .

وله سبحانه الله تعالى :

إذا ما كتمت السر عن أوده توهم أن الود غير حقيقي
ولم أخف عنه السر من ضِنَّة به ولكنني أخشى صديق صديقي
وله وقد جلس في حلقة بعض المشايخ واستدبر بعض الفضلاء ولم يره بسبته :
إن كنت أبصرتك لا أبصرت بصيرتي في الحق برهانها
لا غرو أني لم أشاهدكم فالعين لا تبصر إنسانها
ومما يعجبه رحمه الله من قوله قال في « الإحاطة » ويحق أن يعجبه :

تطالبني نفسي بما ليس لي به يدان فأعطيها الأمان فتقبل^(١)
عجبت لخصم لج في طلباته يصلح عنها بالحال فيفصل
ومما أورد له في « الإحاطة » وذكر أنه لورحل راحل إلى خراسان لما أتى إلا بهما :
رعى الله إخوان الخيانة إنهم كفوونا مؤنات البقاء على العهد
فلوقد وفوا كانوا أسارى حقوقهم نزاح ما بين النسيئة والنقد
وقد تمثل القاضي أبو بركات في مخاطبة له للسان الدين بقول القائل :

أيتها النفس إليه أذهبي فبه المشهور من مذهبي
أيأسني التوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب
وحكى غير واحد منهم ابن داود البلوى أن القاضي أبا البركات لما عزم على
الرحلة إلى المشرق كتب إليه ابن خاتمة بما صورته :

أشمس الغرب حقاً ما سمعنا بأنك قد سئمت من الإقامة
وأنت قد عزمت على طلوع إلى شرق سموت به علامة
لقد زلزلت منا كل قلب بحق الله لا تُقيم القيامة^(٢)

(١) ليس لي به يدان : يكنى به عن عدم القدرة على فعله

(٢) يشير إلى قوله تعالى : (إذا زلزلت الأرض زلزالها - الآيات) .

قال الحاكى : خلف أبو البركات أن لا يرحل من إقليم فيه من يقول مثل هذا ، انتهى ، يشير بقوله « لقد زلزلت - إلخ » إلى طلوع الشمس من مغربها . قلت : ولما عازمت على هذه الرحلة كتب إلى بعض أصحابنا المغاربة بالأبيات المذكورة متمثلاً ، ولم أرجع عن العزم ، والله غالب على أمره .

قال الوزير لسان الدين رحمه الله تعالى : وما أحسن قول شيخنا أبي البركات معذراً عن زرقة عينيه :

حَزَنْتَ عَلَيْكَ الْعَيْنَ يَامَغْنَى الْهَوَى فَالِدَمْعِ مِنْهَا بَعْدَ بَعْدِكَ مَارَقًا (١)

ولذلك ما ظهرت بلون أزرق أو ما ترى ثوب المآتم أزرقاً

قال رحمه الله تعالى : وهو من الغريب .

وقال بعض الشيوخ : كنت أقرأ على الشيخ أبي البركات التفسير ، فنسيت ذات ليلة السفر الذى كنت أقرأ فيه بمنزلى ، فاتفق أن حضر الجامع الصحيح للبخارى ، فقال الشيخ بعد أن أردت القراءة عليه من أوله : افتح فى أثناء الأوراق ولاتعين ، وما خرج لك من ترجمة لجهة اليمين فأقرأها ، ففعلت ، فإذا غزوة أحد ، فقرأت الحديث الأول من الباب ، وهو عن عقبة بن عامر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طالع المنبر فقل : إني بين أيديكم فرط ، وأنا شهيد عليكم ، وإن موعدكم الخوض ، وإني لأنظر إليه من مقامى هذا ، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها ، قال : فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الشيخ قوله « صلى على قتلى أحد » لفظ الصلاة يطلق لغة على الدعاء ، وشرعاً على الأفعال الخصوصة المعلومة ، وإذا دار اللفظ بين الشرعى

(١) رقا : أصله رقا - بالهمز - فسهل الهمزة بقلبها ألفاً ، وتقول « رقا السمع رقا » من باب فتح - إذا سكن ولم يسل .

واللغوى فحمله على الشرعى أولى حتى يدلّ الدليل على خلافه ، فقوله « صلى على قتلى أحد » يحتمل الصلاة الشرعية ، ويكون ذلك منسوخا إذ قد تقرر أنه لا يُصلى على شهيد المعتزك ولا على من قد صُلى عليه ، ولمن يعارضه أن يقول : إن قتلى أحد متفرقون فى أماكن ، فلا تتأتى الصلاة الشرعية عليهم ، إذ الصلاة الشرعية إنما تتأتى لو كانوا مجتمعين ، والجواب أنهم وإن كانوا متفرقين تجمعهم جهة واحدة ، وليس بعد ما بينهم بحيث لا تتأتى معه الصلاة عليهم ، هذا ، وإن احتمل حمله على الصلاة اللغوية ، وقوله « كالمدع للأحياء والأموات » أما وداعه للأحياء فلا إشكال فيه ، وأما الأموات فعنى وداعه لهم وداع الدعاء لهم ، لأنه إذا مات « قد حيل بينه وبين الدعاء لهم ، فلا جرم يودعهم بالدعاء لهم قبل أن يحال بينه وبين ذلك ، وقوله صلى الله عليه وسلم « إني بين أيديكم » أى أقدم قبلكم ، وقوله صلى الله عليه وسلم « بين أيديكم فرط » أى متقدم ، وبين إذا أضيفت إلى الأيدي تستعمل فيما قبل زمانك وفيما بعده ، والمعنى هنا فى قوله « بين أيديكم » أى أقدم قبلكم ، وقوله صلى الله عليه وسلم « وأنا شهيد عليكم » فيه وجهان ^(١) : أحدهما : أن يخلق الله فى قلبه علما ضروريا يميز به بين البر والفاجر ، فيشهد بما خلق الله فى قلبه من ذلك ، إذ لا تكون الشهادة إلا على أمر مشاهد ، ومعلوم أنه لم يشاهد ما فعل بعده من أمته فيخلق الله له علما بذلك ، الوجه الثانى : أن يخبره الله تعالى بذلك كما فى حديث الخوض « لَيُذَادَنَّ عَنْهُ أَقْوَامٌ ، كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ » فأقول : ألا هلم ، ألا هلم ، فيقال : إنهم قد غيروا بعدك ، فأقول : فسحقا فسحقا فسحقا ، فيشهد بما أخبره الله تعالى به ، وهو نظير ما روى فى تفسير قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) من (١) قد بين النبي صلى الله عليه وسلم المراد بذلك فى حديث آخر ، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « حياتى خير لكم ، ومماتى خير لكم ، تعرض على أعمالكم ، فما وجدت من خير حمدت الله ، وما وجدت من شر استغفرت لكم » أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، فأى داع إلى هذا الترييد والاحتمالات ؟ .

أن قوم نوح يقولون : كيف تشهدون علينا وزمانكم متأخر عن زماننا؟ فيقولون : لأن الله تعالى قص علينا أخباركم في كتابه ، فقال (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه - إلى آخره) وقوله صلى الله عليه وسلم « وإن موعدكم الخوض ، وإني لأنظر إليه من مقامى هذا » نظره صلى الله عليه وسلم إلى الخوض فيه وجهان ^(١) : أحدهما : أن يكون نظره إليه بقلبه ، إذ كان قد أطلع الله عليه ليلة الإسراء ، فصار مرتسما في قلبه ، فيكون نظره إليه بعين قلبه ، كما يرسم في قلب أحدنا شكل بيته وما فيه من المتاع والثياب وغير ذلك ، الثانى : أن يكون الله تعالى قد كشف له عنه ، فيكون نظره إليه بعينه مشاهدة ، وقوله صلى الله عليه وسلم « وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا » إن قيل : كيف قال ذلك وقد ارتد عن الإسلام من ارتد من العرب بعده ؟ فالجواب أنه إنما خاطب بذلك من لم يشرك من أصحابه ومن بعدهم من التابعين وغيرهم من أمته ، ولم يراع رعاى العرب وجهالهم ، إذ لا اعتبار بهم لاحترامهم ، وقوله عليه الصلاة والسلام « ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » قد وقع ما خشى منه عليه الصلاة والسلام من المنافسة في الدنيا ، فكان كما ذكر صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وحدث الشيخ أبو البركات قال : كنت ببجاية بمجلس الإمام ناصر الدين المشدلى أيام قراءتى عليه ، وقد أفاض طلبة مجلسه بين يديه : هل الملائكة أفضل أم الأنبياء ؟ فقلت : الدليل لأن الملائكة أفضل أن الله أمرهم بالسجود لآدم ، قال : فجعل الطلبة ينظر بعضهم إلى بعض ، حتى قال لى بعضهم : استند ياسيدنا ، كأنه يقول : استند إلى حائط ليزول هوس رأسك ، وكانت عبارتهم فى ذلك ، وكل منهم يقول لى نحو ذلك إزاء ^(٢) ، وقال لى الإمام ناصر الدين : أبصر فإنهم

(١) وهذا أيضاً قد بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر بيت المقدس بأن الله تعالى عرض عليه - وكفار مكة يسألونه - بيت المقدس أدنى من الحائط الذى أمامه ، فكان ينظر إليه ويصفه وصف معاينة ومشاهدة ، وقدرة الله تعالى فوق الشك والتهم (٢) إزاء : انتقاصاً له

يقولون لك الحق ، وكانت لغته أن يقول : أبصر ، قال : فقلت : أتقولون إن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم أمر ابتلاء واختبار ؟ قالوا : نعم ، قلت : أفيتخير العبد بتقبيّل يد سيده ليرى تواضعه ؟ قالوا : لا ، فإن ذلك من شأن العبد دون أن يؤمر ، بل السيد يختبر تواضعه بأن يؤمر بالسجود للعبد ، قلت : فكذا للملائكة ، لو أمرت بالسجود لأفضل منها لكان بمنزلة أمر العبد بالسجود لسيده ، قال : فكأنما ألقمتم حجرا (١) .

قال الشيخ أبو البركات : وهذه حكاية أبي بكر بن الطيب مع بعض رؤساء المعتزلة ، وذلك أنه اجتمع معه في مجلس الخليفة ، فنظره في مسألة رؤية الباري ، فقال له رئيسهم : ما الدليل أيها القاضي على جواز رؤية الله تعالى ؟ قال قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فنظر بعض المعتزلة إلى بعض وقالوا : جَنَّ القاضي ، وذلك أن هذه الآية هي معظم ما احتجوا به على مذهبهم ، وهو ساكت ، ثم قال لهم : أتقولون إن من لسان العرب قولك « الحائط لا يبصر » قالوا : لا ، قال : أتقولون إن من لسان العرب « الحجر لا يأكل » قالوا : لا ، قال : فلا يصح إذا نفى الصفة إلا عمّا من شأنه صحة إثباتها له ، قالوا : نعم ، قال : فكذلك قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) لولا جواز إدراك الأبصار له لم يصح نفيه عنه ، فأذعنوا لما قال ، واستحسنوه .

وقال الشيخ أبو البركات : كنت ببجاية ، وقدم علينا رجل من فاس برسم الحج يعرف بابن الخداد ، فركب الناس في الأخذ عنه والرواية لما يحمله كلّ صعب وذلول ، مع أنه لم تكن منزلته هناك في العلم ، فعجبت لذلك ، حتى قلت لبعض الطلبة : لقد أخذتموه بكنائس الديدن ، ولم أركم مع مَنْ هو أعلى قدرا منه كذلك ،

(١) ألقمتم حجرا : كناية عن إسكاتهم ، وذلك أن من وضع في فمه حجرا لا يقدر على الكلام ، وقد قل الشاعر :

لو كل كلب عوى ألقمته حجرا لأصبح الصخر مثقالا بدينار

فقالوا لى : لأنه قدم علينا ونحن لا نعرفه ، وهو فى زى حسن بخادم يخدمه ، يظن من يراه أن أباه من أعيان أهل بلده ، فسألناه أحدى أبوه أم لا ؟ قال : بل حى ، قلنا : أهو من أهل العلم ؟ قال : لا ، هو دلال فى سوق الخدم ، فلذلك آثرناه على من هو فوقه فى العلم ، قل : فقلت لهم : حق له أن ترتفع منزلته ويعلو صيته ليتخلقه وفضله .

وفوائد أبى البركات كثيرة .

ومن تأليفه «المؤمن» ، على أنباء أنباء الزمن» كتاب مفيد جداً ، وهو رضى الله عنه من ذرية العباس بن مرداس السلمى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقال الشيخ أبو البركات : ذكر لى أن الشيخ الفقيه الكاتب أبا الحسن ابن الجياب يحدث عنى ، ولا أذكر الآن أنى قلت ذلك ، ولكننى لما سمعته علمت أنه مما من شأنى أن أقوله وهو أنى قلت مثلُ العالم مثل رجل يصب ماء فى قفة ، إن واظب على صب الماء بقيت القفة ملاءى ، وإن ترك صب الماء بقيت القفة لا شىء فيها من الماء ؛ فكذلك العالم : إن واظب على طلب العلم بقى العلم لم ينقص منه شىء ، وإن ترك الطلب ذهب علمه ، انتهى .

ونقلت ممن رأى كلام ابن الصباغ فى ترجمة أبى البركات ما نصه : لما ورد مدينة فاس فى غرض الهناء والعزاء على أمير المسلمين أبى بكر السعيد بن أمير المؤمنين أبى عنان ، وأبصر الدار غاصة بأرباب الدولة الفاسية ولم يعدم منها عدا شخصه ، والولد على أريكة أبيه أشد :

لما تبدلت المجالس أوجهاً غير الذين عهدت من جلسائها

ورأيتها محفوفة بسوى الألى كانوا حجة صدورها وبنائها

أنشدت بيتاً سائراً متقدماً والعين قد شَرِقتْ بجارى مائها
(أما القباب فإنها كقبابهم وأرى نساء الحى غير نساها)
وأظن أنه تمثل بالأبيات فى سره ، وإلا فيبعد أن يقولها فى ذلك الخفل لما فى ذلك
من التعرض للهلك ، والله سبحانه أعلم .

وحكى بعضهم أنه كان جالساً فى دهليز بيته مع بعض الأصحاب ، فدخلت
زوجته من الحمام وهى بغير سراويل لقرب الحمام من البيت ، فانكشف ساقها ،
فدخل خلفها مسرعاً ، وغاب ساعة ثم خرج وأنشد :

كشفت على ساق لها فرأيتـه متلألئاً كالجـوهر البراق
لا تعجبوا إن قام منه قيامتى إن القيامة يوم كشف الساق^(١)
وله فى خديم اسمه يحيى أحتمم بحجمة واحدة :

أرأنى يحيى صنعة فى قفائه مُهذبة لما تبادر للباب
أرى الخمس فيها لانفارق ساعة فصور بالموسى بهاشكل محراب
وتوفى الشيخ القاضى أبو البركات المذكور بشوال سنة ٧٧١ رحمه الله تعالى !

قد تم - بعمونة الله تعالى - الجزء السابع من كتاب « نفح الطيب ،
من غصن الأندلس الرطيب » للمقرئ ، ويليهِ - إن شاء الله تعالى -
الجزء الثامن مفتتحاً بقول المؤلف « ومن أشياخ لسان الدين
الشيخ الحكيم العلامة التعاليمى » نسأل الله أن يعين على إكماله ، بمنه

(١) يشير إلى قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون)

فهرس الموضوعات الواردة في الجزء السابع من كتاب

« نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »
والتعريف بوزيرها لسان الدين بن الخطيب ،
للشيخ أحمد بن محمد ، المقرئ ، التلمساني

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٤	الباب الثاني من القسم الثاني من الكتاب ، في نشأة لسان الدين ابن الخطيب	٢٣	عن سلطانه إلى سلطان مصر المنصور ابن أحمد بن الناصر بن قلاوون رواية ابن خلدون في خلع ابن الأحمر سلطان لسان الدين
—	مولد لسان الدين ، نقلا عن « الإحاطة » ونشأته نقلا عن ابن الأحمر	٢٦	رواية أخرى لابن خلدون في خلع ابن الأحمر تتضمن نشأة لسان الدين ونهايته
٥	من ترجمة لسان الدين بقلمه في كتابه « الإحاطة ، في أخبار غرناطة »	٣٨	ابن خلدون يتحدث عن مقتل لسان الدين
٩	تعريف لسان الدين بالسلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل ابن فرج ، أحد ملوك بني نصر	٣٩	آيات لسان الدين قالها وهو سجين
١٠	قصيدة لسان الدين في رثاء السلطان أبي الحجاج	٤٠	حديث للحافظ ابن حجر عن مقتل لسان الدين
١٢	ذكر خلع سلطان لسان الدين وقيام أخيه مقامه ، عن لسان الدين في « اللوحة البدرية »	٤١	تخميس بعض بنى الصباغ لآيات لسان الدين التي قالها وهو في السجن
١٤	لسان الدين ينشد بين يدي سلطان فاس وقد التجأ هو وسلطانه إليه	٤٢	آيات لبعض الشاميين في معنى بعض آيات لسان الدين
١٨	من خطاب من إنشاء لسان الدين	٤٣	كلام لأبي الخطاب بن دحية في التسلي عن كوارث الزمان
		٤٤	آيات في هذا المعنى

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٤٦	تهم ألصقها أعداء لسان الدين به	٧٠	من هجوه في قاض من قضاة دولة السلطان إسماعيل بن الأحمر
—	من أعداء لسان الدين القاضي أبي الحسن النباهي ، وما يتصل بذلك	—	من هجوه في وزير المغرب محمد ابن علي بن مسعود
٤٨	حكاية لسان الدين مع رسول ملك النصارى تدل على علو همته	٧١	كتاب عتاب من لسان الدين بعث به إلى قاضي مكناسة الزيتون وقد تأخر عن لقائه يوم قدومه عليهم
٤٩	مدح لسان الدين للقاضي النباهي	٧٢	رسالة لسان الدين في أحوال خدمة الدولة ، ومصايرهم ، وما يجب عليهم ، وكتب بها إلى ابن مرزوق
—	ذم لسان الدين للقاضي النباهي بعد أن أظهر له العداوة	٨٠	تعليق لابن مرزوق على بعض ماجاء في رسالة لسان الدين
—	خطاب تقرير من القاضي النباهي إلى لسان الدين	—	تعليق لابن لسان الدين على تعليق ابن مرزوق
٥٩	صورة مرسوم من إنشاء لسان الدين بتولى القاضي أبي الحسن النباهي القضاء ، وفيه من الثناء على القاضي ما يدل على أنه لم يشكر النعمة	—	تعليق للمؤلف على كلام ابن مرزوق مرثية من شعر ابن صابر المنجنيقي
٦٢	مرسوم من إنشاء لسان الدين أيضا بتولى ابن زمرك كتابة السر	٨٢	إشارة ونماذج من مرثيات أخرى
٦٤	موازنة من المؤلف بين خلق لسان الدين وخلق القاضي النباهي والكاتب ابن زمرك	٨٣	زيارة المؤلف لقبر لسان الدين
—	مرسوم من إنشاء لسان الدين أيضا بتولى القاضي النباهي الخطابة مع القضاء	٨٤	لبعض أهل المغرب في العزاء والتسلي بمن قد مضى
٦٦	من هجو لسان الدين في الوزير إبراهيم بن أبي الفتح الأصلع الغوي وفي ابن عمه محمد بن إبراهيم العقرب الردي	٨٨	من شعر ابن الجوزي في المعنى كلمة عن أبي الفرج بن الجوزي ومجالس وعظه ، عن الذهبي وغيره
٩٢	رجع إلى أخبار لسان الدين	٩٣	من شعر لسان الدين
٩٤	تحقيق في شأن يبتين يقال إنهما قتيلا في لسان الدين	٩٤	تحقيق في شأن يبتين يقال إنهما قتيلا في لسان الدين

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٩٥	عود إلى أخبار لسان الدين	١١٣	من رسالة لأبي جعفر بن عطية
٩٦	من قصيدة لابن زمرك يعرض فيها		كانت السبب في ظهور تفوقه
	بلسان الدين	١١٦	الباب الثالث من القسم الثاني من
٩٩	قصيدة أخرى لابن زمرك يهنيء فيها		الكتاب ، في ذكر شيوخ لسان الدين
	سلطانة الغنى بالله بفتح بلاد المغرب		ابن الخطيب
	وظفروه بابن كاس بحير لسان الدين	—	محمد بن أحمد ، الحسنى ، السبتي ،
١٠٤	قصيدة ثالثة لابن زمرك يهنيء بها		قاضي الجماعة
	سلطانة ، قالها بعد مقتل لسان الدين	١٢٠	مرثية الوزير ابن زمرك لشيخه قاضي
١٠٧	رجع إلى أخبار لسان الدين		الجماعة الحسنى ، المذكور
—	تصنيفه كتابا يحتاج فيه لجواز المبالغة	١٢٤	أبناء القاضي الحسنى المذكور
	بالمملك لن لم يبلغ الحلم وقد سماه	١٢٥	من شيوخ لسان الدين أبو عبد الله
	« إعلام الأعلام » بمن يبيع من		محمد بن جابر الوادى آثى
	ملوك الإسلام ، قبل الاحتلام »	١٢٨	بعض ما أنشده لسان الدين من شعر
١٠٨	تصنيفه كتابا يذكر فيه نباهة سلفه		شيوخه ، ولم يسمهم
	وقد سماه « المباخر الطيبية » في المفاخر	١٢٩	من شيوخ لسان الدين قاضي قضاء
	الخطيبية » وقدمه للسلطان عبدالعزيز		فاس أبو عبد الله المقرئ جد المؤلف
	حين انخيازه إليه		(ترجمة مستفيضة)
—	استعطاف الوزير أبي بكر بن عمار	١٤٨	ترجمة أبي موسى عمران بن موسى
	إلى المعتمد بن عباد حين قبض عليه		ابن يوسف المشدالي (من شيوخ
١١٠	نكبة عبد المؤمن بن علي للوزير		المقرئ الكبير)
	أبي جعفر بن عطية	١٤٩	ترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن
١١١	من اعتذارات ابن عطية لعبد المؤمن		حكم الساموي
	ابن علي	١٥٤	ترجمة أبي محمد عبد الله بن عبد الواحد
١١٣	ذكر بعض الأدباء من آل عطية		بن إبراهيم بن الناصر ، الحماصي
—	إجازة بين عبد المؤمن بن علي	١٥٦	ترجمة الشريف القاضي أبي علي حسن
	ووزيره أبي جعفر بن عطية		بن يوسف بن يحيى ، الحسنى ، السبتي

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٥٨	ترجمة قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية، القرشي	١٦٥	ابنا أبي عبد الله محمد بن مرزوق العجيسي، وها أبو عبد الله محمد، وأبو العباس أحمد
١٥٩	ترجمة لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي التميمي	١٦٦	أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الصنهاجي
—	ترجمة لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور	—	أبو عبد الله محمد بن محمد الغزواني
١٦٠	ترجمة لأبي عبد الله محمد بن الحسين البروني	١٦٧	أبو عبد الله محمد بن إبراهيم العبدري
—	ترجمة لأبي عمران موسى المصمودي الشهير بالبخاري	١٧١	أبو عبد الله بن أحمد بن شاطر الجحفي
—	ترجمة لأبي عبد الله محمد بن يحيى بن علي بن النجار	١٧٣	ذكر جماعة من شيوخ المقرئ الكبير بتلمسان
١٦٢	ترجمة لأبي الحسن علي بن أبي بكر بن سبع بن مزاحم، المكناسي	—	ذكر شيوخه في تونس
١٦٣	ترجمة لأبي عبد الله محمد بن حسين، القرشي، الزبيدي، التونسي	١٧٥	شيوخه في فاس، وفي أغات
—	ترجمة لإمام أهل الحديث في عصره أبي محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي	١٧٦	شيوخه في مكة، وفي المدينة، وفي الشام
١٦٤	ترجمة أبي عبد الله محمد بن سليمان السطلي	١٧٧	رواية ابن خلدون عن شيخه أبي عبد الله المقرئ الكبير
—	سرد جماعة من شيوخ المقرئ الكبير	١٧٨	من فوائد المقرئ الكبير في مواضع مختلفة
١٦٥	ترجمة أبي عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الحياط	١٨٧	من فوائده التي ذكرها تلميذه النظار أبو إسحاق الشاطبي في كتابه «الإنباءات والإفادات»
—	ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن الجمال	٢٠١	ترجمات قصار للمقرئ الكبير عن صاحب كتاب «نيل الابتهاج» وعن المرزوقي، وعن الوائشريسي
		٢٠٥	مؤلفات المقرئ الكبير

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢٠٧	بعض فوائد المقرئ التي أودعها كتابه « المحاضرات »	٢٨٠	أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني
٢٣١	رجع إلى سرد مؤلفات المقرئ الكبير	٢٩٧	عود إلى ترجمة ابن الفخار ، وذكر فوائده
٢٣٢	من فوائد المقرئ الكبير التي أودعها في كتابه « الحقائق والرقائق »	٣٠١	أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن حنبل ، وذكر نموذج من شعره
٢٤٩	من نظم المقرئ الكبير	٣٠٢	وفاة ابن الفخار
—	لمحة العارض لتكملة تائية ابن الفارض	—	من مشايخ لسان الدين أبو عبد الله ابن عبد الولي العواد
٢٥٨	من شعره الذي رواه لسان الدين في الإحاطة	—	ومنهم أبو عبد الله بن بيش
٢٥٩	ومن شعره الذي لم يذكره في الإحاطة	٣٠٣	ومنهم قاضي الجماعة أبو عبد الله بن أبي بكر ، الأشعري ، الملقى
٢٦١	تلامذة المقرئ الكبير	٣٠٦	ومنهم ابن أبي يحيى ، واسمه إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، التسولي
—	ترجمة ابن عباد الرندي شارح حكم ابن عطاء الله الإسكندري	٣٠٧	ومنهم محمد بن أحمد الطنجالي الهاشمي
٢٧١	عود إلى شيوخ لسان الدين	٣٠٩	ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق (ترجمته باستفاضة عن لسان الدين)
—	ترجمة أبي محمد عبد الحق بن سعيد ابن محمد	٣١٤	نماذج من شعر ابن مرزوق
—	ترجمة الفقيه يونس بن عطية (ابن أبي عفيف) الوائشريسي	٣٢٤	خطاب من لسان الدين إلى ابن مرزوق حين قدم على بني مريـن
٢٧٢	أبو علي عمر بن عثمان الوائشريسي	—	مقلتا من الأندلس
—	أبو جعفر أحمد بن محمد ، الجنان ، الأوسى	٣٢٦	نسبة ابن مرزوق وخلاصه منها
٢٧٣	أبو عبد الله بن أبي رمانة	٣٢٨	تقريران من شعر لسان الدين لشرح شفاء القاضي عياض لابن مرزوق
—	أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية الوائشريسي	٣٣١	ترجمة أبي عبد الله بن مرزوق عن المؤرخ ابن خلدون
٢٧٥	أبو العباس أحمد بن عاشر		
—	أبو عبد الله محمد بن علي الفخار البيري		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣٣٣	ترجمة ابن مرزوق عن الحافظ ابن حجر	٣٧٦	بين ابن الجياب وأبي محمد بن أبي المجد
—	ترجمته عن الخطيب القسطنطيني	—	ترجمة عبد الله بن عبد البر بن علي بن سليمان الرعي (المعروف بابن أبي المجد)
٣٣٨	ترجمة محمد بن محمد بن أحمد بن أبي عبد الله بن مرزوق (ويعرف بابن مرزوق الكفيف ، وهو والد أم جد المؤلف)	٣٧٧	عود إلى ذكر نماذج من نظم ابن الجياب
٣٣٩	ترجمة عالم الدنيا أبي عبد الله محمد بن مرزوق (المعروف بابن مرزوق الحفيد)	—	ذكر نماذج من ثرا ابن الجياب
٣٦٢	ومن شيوخ لسان الدين أبو الحسن علي بن الجياب ، الأنصاري ، الغرناطي	٣٨٤	من أشياخ لسان الدين أبو محمد عبد المهيم بن محمد بن عبد المهيم الحضرمي
٣٦٤	رثاء لسان الدين لشيخه ابن الجياب	٣٩١	أبو سعيد بن عبد المهيم الحضرمي
٣٦٨	رثاء الفقيه أبي عبد الله بن جزى لأبي الحسن بن الجياب	٣٩١	عبد المهيم بن أبي سعيد بن عبد المهيم الحضرمي
٣٦٩	مطالع ثلاث مرات في ابن الجياب	٣٩١	ومن أشياخ لسان الدين قاضي الجماعة أبو البركات محمد بن محمد بن الحاج البليقي
—	من شعر ابن الجياب في الألفاظ		
٣٧٤	من نظم ابن الجياب في رثاء عمر بن علي بن عتيق القرشي الغرناطي		

تمت فهرست الجزء السابع من كتاب «نفع الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب»
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .



COLUMBIA UNIVERSITY



0026814366

893.7M32

03

v.7

AUG 4 1959

